النَّهَرُ المَادُّ
مِنَ البَحْرِ المُحِيطِ

تصنيف
الإمام أبي حيَّان الأندلسي
٦٥٤ - ٧٤٥هـ

تحقيق
الدكتور عُمَر الأسعد

المجلَّد الثالِث
الأنفال - الكهف

دار الجيل
بيروت

سورة الأنفال

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

سورة الانفال[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ .

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية، هذه السورة مدنية كلها إلا سبع آيات أولها «وإذ يمكر بك الذين كفروا»[2] إلى آخر الآيات، قاله ابن عباس. ولا خلاف أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه. وقال ابن زيد: لا نسخ فيها إنما أخبر أن الغنائم لله تعالى من حيث هي ملكه ورزقه، وللرسول ﷺ من حيث هو مبيّن لحكم الله تعالى والصادع فيها ليقع التسليم فيها من الناس، وحكم القسمة نازل في خلال ذلك.

و«الأنفال» جمع نفل، قال ابن عباس وجماعة: هي الغنائم. ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أمر بإصلاح ذات البين وهذا يدل على أنه كانت بينهم مباينة ومباعدة، وربما خيف أن تفضي بهم إلى إفساد ما بينهم من المودّة

---

(١) مدنية وآياتها خمس وسبعون.

(٢) الآيات ٣٠ - ٣٦.

والمصافاة. وتقدم الكلام على «ذات» في قوله «بذات الصدور»[1]. والبين هنا الفراق والتباعد و«ذات» هنا نعت لمفعول محذوف أي: وأصلحوا أحوالاً[2] ذاتَ افتراقكم، لما كانت الاحوال ملابسة للبَيْن أضيفت صفتها إليها كما تقول: اسقني ذا إنائك، أي: ماءً صاحبَ إنائك، لما لابس الماء الإناء وصف بذا وأضيف [إلى] الإناء، والمعنى: اسقني ما في الإناء من الماء.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: كاملي الإيمان. قال ابن عطية: وجواب الشرط في قوله المتقدم «وأطيعوا» هذا مذهب سيبويه. ومذهب أبي العباس أن الجواب محذوف متأخر يدلّ عليه المتقدم تقديره: إن كنتم مؤمنين أطيعوا. ومذهبه في هذا أن لا يتقدم الجواب على الشرط انتهى. والذي قاله مخالف لكلام النحاة فإنهم يقولون [إن] مذهب سيبويه أن الجواب محذوف وأن مذهب أبي العباس وأبي زيد الأنصاري والكوفيين جواز تقديم جواب الشرط عليه وهذا النقل هو الصحيح.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ [٢٣٥/أ] قرىء: [وجلت] بفتح الجيم وهي لغة. ولما كان معنى «إن كنتم مؤمنين» أي: كاملي الإيمان قال: «إنما المؤمنون» أي: الكاملو الإيمان. ثم أخبر عنهم بموصول وُصل بثلاث مقامات عظيمة وهي مقام الخوف ومقام الزيادة للإيمان ومقام التوكل. ويحتمل قوله ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ أن يذكر اسمه فقط ويلفظ به تفزع قلوبهم لذكره استعظاماً له وتهيّباً وإجلالاً. ويحتمل أن يكون ذكر الله على حذف مضاف أي: ذكر عظمة الله وقدرته وما خوّف به من عصاه.

(١) لم يتقدم في آل عمران ١١٩، ١٥٤ والمائدة: ٧.

(٢) ق: أحوال.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآية، حسن أن يكون [الذين] صفة لـ«الذين» السابقة حتى تدخل في حيّز الخبرية، فيكون ذلك إخباراً عن المؤمنين بثلاث: الصفة[1] القلبية، وعنهم بالصفة البدنية والصفة المالية. وجمع أفعال القلوب لأنها أشرف، وجمع في أفعال الجوارح [بين الصلاة والصدقة لأنها عمود أفعال الجوارح]. والظاهر أن قوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ عامّ في الزكاة ونوافل الصدقات وصلات الرحم وغير ذلك من المبارّ المالية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ «حقًّا» نعت لمصدر محذوف تقديره: إيماناً حقًّا، ويجوز أن يكون توكيداً لمضمون الجملة السابقة، فيكون العامل فيه محذوفاً تقديره: أحقّه حقًّا. و«هم» في قوله «هم المؤمنون» [يجوز أن يكون فصلاً بين المبتدأ والخبر، وأن يكون مبتدأً خبره «المؤمنون»] والجملة خبر «أولئك» ويجوز أن يكون بدلاً من «أولئك». ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لما تقدمت ثلاث صفات قلبية وبدنية ومالية ترتّب عليها ثلاثة أشياء، فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات، والبدنية بالغفران، وقوبلت المالية بالرزق الكريم. وهذا النوع من المقابلة من بديع علم البديع.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ذكر في البحر[2] في تأويل هذه الآية خمسة عشر قولاً لم يتّضح شيء منها. ومن دُفع إلى حوك الكلام وتقلّب في إنشاء أفانينه، وزاول الفصاحة والبلاغة لم يستحسن شيئاً من تلك الأقوال

(١) ق: الصلات.

(٢) انظر البحر ٤: ٤٥٩ وما بعدها.

وإن كان بعض قائليها له إمامة في علم النحو ورسوخ قدم، لكنه لم يتحنّك بلَوْك الكلام ولم يكن في طبعه صوغه أحسن صوغ ولا التصرف في النظر فيه من حيث الفصاحة وما به يظهر الإعجاز.

وقبل تسطير هذه الأقوال في البحر وقفتُ على جملة منها فلم يَلِقْ بخاطري منها شيء، فرأيت في النوم أني أمشي في رصيف ومعي رجل أباحثه في قوله تعالى «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق» فقلت له: ما مرّ بي شيء مشكل في القرآن مثل هذا، ولعلّ ثَمَّ محذوفاً يصحّ به المعنى وما وقفت فيه لأحدٍ من المفسرين على شيء طائل. ثم قلت له: ظهر لي الساعة تخريجه وأن ذلك المحذوف هو: نصرك. واستحسنتُ أنا وذلك الرجل هذا التخريج، ثم انتبهت من النوم وأنا أذكره. والتقدير: فكأنه قيل «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق» أي: بسبب إظهار دين الله تعالى وإعزاز شريعته، وقد كرهوا خروجك تهيباً للقتال وخوفاً من الموت؛ إذ كان أمر عليه السلام بخروجهم بغتةً ولم يكونوا مستعدّين للقتال وجادلوك في الحق بعد وضوحه - نصرك الله وأمدّك بملائكته. ودلّ على هذا المحذوف الكلام الذي بعده وهو قوله «إذ تستغيثون ربكم»(١).

ويظهر أنّ الكاف في هذا التخريج المناميّ ليست لمحض التشبيه بل فيها معنى التعليل. [وقد نصّ النحويون أنها قد يحدث فيها معنى التعليل] وخرّجوا عليه قوله تعالى ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة] وأنشدوا(٢):

[وشخصت أبصارهم وأجذموا] لا تَشْتِمِ الناس كما لا تُشْتَمُ

(١) الآية ٩ الآتية وما بعدها.

(٢) الرجز لرؤبة في ديوانه ص١٨٣.

أي: لاتقاء أن يشتمك الناس لا تشتمهم. ومن الكلام الشائع على هذا المعنى: كما تطيع الله تعالى يدخلك الجنة، أي: لإطاعتك الله يدخلك [٢٣٥/ب] الجنة، فكان المعنى: لأجل أن خرجت لإعزاز دين الله وقتل أعدائه نصرك الله وأمدّك بالملائكة. والظاهر أن «من بيتك» هو مقام سكناه بالمدينة لأنها مُهاجَرُه ومختصّة به. والواو في «وإن فريقاً» واو الحال. ومفعوله «لكارهون» هو الخروج، أي: لكارهون الخروج [معك، وكراهتهم ذلك إما لنفرة الطبع وإما لأنهم لم يستعدّوا للخروج].

والظاهر أن ضمير الرفع في «يجادلونك» عائد على فريق من المؤمنين الكارهين. وجدالهم قولهم: ما كان خروجنا إلا للعير ولو عرفنا لاستعددنا للقتال. و«الحق» هنا نصرة دين الإسلام. ويحتمل أن يكون «يجادلونك» [في موضع الحال من الضمير في «لكارهون»، ويحتمل أن يكون] استئناف إخبار. و«ما» في قوله «ما تبيّن» مصدرية، أي: بعد تبيُّنه. وهذا أبلغ في الإنكار لجدالهم بعد وضوح الحق. ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ شبّه حالهم في فرط فزعهم - وهم يُسار بهم إلى الظّفر والغنيمة - بحال من يساق على الصّغار إلى الموت، وهو شاهد لأسبابه ناظر إليها لا يشكّ فيها. وقيل: كان خوفهم لقلّة العدد، وأنهم كانوا رجّالة. وروي أنهم ما كان فيهم إلا فارسان وكانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر، وكان المشركون في نحو ألف رجل. وقصة بدر مستوعبة في كتب السير.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ

ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم
بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ
يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾
ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ هي غير معيّنة، والطائفتان هما طائفة عير قريش، وكانت فيها تجارة عظيمة لهم ومعها أربعون راكباً [فيها] أبو سفيان وعمرو بن العاص وعمرو بن هشام، وطائفة الذين استنفرهم أبو جهل، وكانوا في العدد الذي ذكرناه.

و﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ هي العير لأنها ليست ذات قتال، إنما هي غنيمة باردة. ومعنى إحقاق الحق: تثبيته وإعلاؤه.

و﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنّصرة، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر، وبما أظهر من خبره صلى الله عليه وسلم. وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال، والمعنى أنكم ترغبون في الفائدة العاجلة وسلامة الأحوال، والله تعالى يريد معالي الأمور وإعلاء الحق والفوز في الدارين، وشتّان ما بين المرادين، ولذلك اختار لكم ذات الشوكة وأراكم عياناً خَذْلهم ونصَرَكم وأذلّهم وأعزّكم، وحصل لكم ما أربى على فائدة العير وما أدناه وأقلّه خيرٌ منها.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ «إذ» بدل من «إذ يعدكم». واستغاث: طلب الغوث، لمّا علموا أنه لا بدّ من القتال شرعوا في طلب الغوث من الله تعالى

والدعاء بالنصرة. والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله «وإذ يعدكم الله» و«تودّون»، وأن الخطاب في قوله «كما أخرجك» و«يجادلونك» هو خطاب لرسول الله ﷺ ولذلك أفرد، فالخطابان مختلفان. واستغاث يتعدى بنفسه كما هو في الآية، وكما هو في قوله ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [القصص ١٥] [ويتعدّى] بحرف الجر كما جاء في باب الاستغاثة وكقول الشاعر[1]:

حتى استغاثت بماءٍ لا رشاءَ له   من الأباطح في حافاته البُرَكُ

والظاهر أن قراءة من قرأ: مرْدَفين، بسكون الراء وفتح الدال أنه صفة لقوله «بألف» أي: أردف بعضهم ببعض.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ الضمير في «وما جعله» عائد على الإمداد المنسبك من «أنّي ممدّكم»، وتقدّم تفسير هذه الآية[2]. والمعنى إلا بشرى لكم، [فحذف «لكم»] وأثبت في آل عمران لأن القصة فيها مُسْهبة وهنا موجزة فناسب هنا الحذف. وهنا قدّم «به» وأخّر هناك على سبيل التفنّن والاتّساع في الكلام. وهنا جاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مراعاة لأواخر الآي، وهناك [٢٣٦/أ] ليست آخر آية لِتَعَلُّقِ «ليقطع» بما قبله فناسب أن يأتي «العزيز الحكيم» على سبيل الصفة، وكلاهما مشعر بالعلّية كما تقول: أكرِمْ زيداً العالم، وأكرم زيداً إنه عالم.

---

(١) البيت لزهير في ديوانه ص١٧٥. وهو من البسيط

(٢) انظر تفسير الآيتين ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١٢٦ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ۝١٢٧﴾ [آل عمران] وأثبتّهما لتسهيل المقارنة.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ[1] النُّعَاسَ﴾ «إذ» بدل من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ⑦﴾ [الأنفال]. عدّد تعالى نعمه على المؤمنين في يوم بدر؛ قال الزمخشري[2]: «إذ» منصوب بالنصر، أو بما في «من عند الله» من معنى الفعل، أو بـ«ما جعله الله»، أو بإضمار: اذكر. انتهى.

أمّا كونه منصوباً بالنصر ففيه ضعف من وجوه: أحدها أنه مصدر فيه أل وفي إعماله خلاف، ذهب الكوفيون إلى أنه لا يجوز إعماله. الثاني: أنه موصول وقد فُصل بينه وبين معموله بالخبر الذي هو «إلا من عند الله» وذلك لا يجوز، لا يقال: ضرب زيد شديد عمراً. الثالث: أنه يلزم منه إعمال ما قبل إلاّ فيما بعدها من غير أن يكون ذلك المعمول مستثنى أو مستثنى منه أو صفة له، و«إذ» ليس واحداً من هذه الثلاثة فلا يجوز: ما قام إلا زيد يوم الجمعة، وقد أجاز ذلك الكسائي والأخفش.

وأمّا كونه منصوباً بما في «عند الله» من معنى الفعل فيضعفه المعنى لأنه يصيّر استقرار النصر مقيّداً بالظرف، والنصر من عند الله مطلقاً في وقت غشي النعاس وغيره. وأما كونه منصوباً بـ«ما جعله الله» فقد سبقه إليه الحوفي، وهو ضعيف أيضاً لطول الفصل ولكونه معمول ما قبل إلا، وليس أحد تلك الثلاثة. وانتصب «أمنةً» على أنه مفعول من أجله لاتّحاد الفاعل في قراءة من قرأ: يُغْشِيْكم، والمغشي هو الله تعالى.

ومعنى ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي: من الجنابات، وكان المؤمنون لحق أكثرهم في سفرهم الجنابات وعدموا الماء وكانت بينهم وبين ماء بدر مسافة طويلة

---

(١) ق: يغشاكم.

(٢) الكشاف ٢: ١٤٦.

من رمل دَهْس[١] ليّن تسوخ فيه الأرجل، وكان المشركون قد سبقوهم إلى ماء بدر، وكان نزول المطر قبل ذلك.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ﴾ أي: عذابه لكم بوسواسه، والرجز: العذاب. والظاهر أن تثبيت الأقدام هو حقيقة لأن المكان الذي وقع فيه اللقاء كان[٢] رملاً تغوص فيه الأقدام فلبّده المطر حتى ثبتت عليه الأقدام. والضمير في «به» عائد على المطر. وانظر إلى فصاحة مجيء هذه التعليلات: بدأ أولاً منها بالتعليل الظاهر وهو تطهيرهم من الجنابة وهو فعل جسماني أعني اغتسالهم من الجنابة، وعطف عليه بغير لام العلّة ما هو من لازم التطهير وهو إذهاب رجز الشيطان حيث وسوس إليهم بكونهم يصلّون ولم يغتسلوا من الجنابة، ثم عطف بلام العلّة ما ليس بفعل جسماني وهو فعل محلّه القلب وهو التشجيع والاطمئنان والصبر على اللقاء، وعطف عليه بغير لام العلّة ما هو من لازمه وهو كونهم لا يفرّون وقت الحرب. فحين ذكر التعليل الظاهر الجسماني والتعليل الباطن القلبي ظهر حرف التعليل، وحين ذكر لازِمَهما، لم يؤكّد بلام التعليل. وبدأ أولاً بالتطهير لأنه الآكد والأسبق في الفعل والذي تؤدّى به أفضل العبادات وتحيا به القلوب.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ هذا أيضاً من تعديد النعم، إذ الإيحاء إلى الملائكة بأنه تعالى معهم أي: ينصرهم ويعينهم. تقدّم أن الخطاب السابق للمؤمنين، وهنا الخطاب في قوله «إذ يوحي ربك» لرسول الله ﷺ وحده من ربه أي: مالكه والناظر في إصلاحه. و«الملائكة» هم الذين أمدّ الله المؤمنين بهم.

---

(١) الدَّهْس: اللّين السّهل.

(٢) ق: وكان.

و﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالنصر والتأييد. ثم أمر الملائكة بتثبيت المؤمنين وأخبر أنّه سيلقي الرعب في قلوب الكفار، ثم أمره بضرب ما فوق الأعناق وهي الرؤوس وضرب [٢٣٦/ب] كل بنان وهي الأصابع، [وهي] اسم جنس الواحد منها بنانة.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الإشارة إلى ما حلّ بهم من إلقاء الرعب في قلوبهم وما أصابهم من الضرب والقتل. والكاف لخطاب السّامع و«ذلك» مبتدأ و«بأنهم» خبره، والضمير عائد على الكفار. وتقدم الكلام في المشاقّة في قوله تعالى ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة]. والمشاقّة هنا مفاعلة، فكأنه تعالى لما شرع شرعاً وأمر بأوامر وكذبوا هم وصدّوا تباعد ما بينهم وانفصل وانشقّ. وعبّر المفسرون عن قوله «شاقّوا الله» أي: صاروا في شق غير شقّه. والضمير في جملة الجواب العائد على اسم الشرط الذي هو «من» محذوف تقديره: شديد العقاب له.

﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ الآية، جمع بين العذابين: عذاب الدنيا وهو المعجّل، وعذاب الآخرة وهو المؤجّل. والإشارة بـ«ذلكم» إلى ما حلّ بهم من عذاب الدنيا، والخطاب للمشاقّين. ولمّا كان عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة يسيراً(١)، سمّى ما أصابهم منه ذوقاً، لأن الذّوق يُعرف به الطَّعم وهو يسيرٌ ليُعرف به حال الطعم. «ذلكم» مبتدأ خبره محذوف تقديره: ذلكم العقاب، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: العقاب ذلكم. وقال الزمخشري(٢): ويجوز أن يكون نصباً على: عليكم ذلكم فذوقوه كقولك: زيداً فاضربه انتهى. ولا يجوز هذا التقدير لأن «عليكم» من أسماء الأفعال

---

(١) ق: يسير.
(٢) الكشاف ٢: ١٤٨.

وأسماء الأفعال لا تضمر، وتشبيهه له بزيد فاضربه، ليس بجيد، لأنهم لم يقدّروه بعليك زيداً فاضربه، وإنما هو منصوب على الاشتغال.

﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ قال ابن عطية: إما على تقدير: وحَتْمٌ أنّ، فيقدر ابتداء محذوف يكون «أنّ» خبره، وإما على تقدير: واعلموا أنّ، فهي على هذا في موضع نصب انتهى. وقرأ الحسن وزيد بن علي وسليمان التيمي: وإنّ، بكسر الهمزة على استئناف إخبار، ونبّه على العلّة في كون عذاب النار لهم وهي الكفر.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ﴾ الآية، وانتصب «زحفاً» على الحال من المفعول أي: زاحفين إليكم، أو من الفاعل أي: زاحفين إليهم، أو منهما أي: متزاحفين. قال الفراء: الزحف: الدنوّ قليلاً قليلاً، يقال: زحف إليه يزحف زحفاً إذا مشى [انتهى]. وعدل[1] عن [لفظ الظهور إلى] لفظ الأدبار تقبيحاً لفعل الفارّ وتبشيعاً لانهزامه. وتضمّن هذا النهي الأمر بالثّبات والمصابرة على القتال.

---

(١) ق: ومن يولّهم وعدل.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ لمّا نهى تعالى عن تولّي الأدبار، توعّد من ولّى[١] دبره وقت لقاء العدوّ. وناسب قوله «ومن يولّهم» قوله «فقد باء بغضب من الله» كأن المعنى: فقد ولّى مصحوباً بغضب الله، قال الشاعر[٢]: [من الطويل]

ولَسْنا على الأعقاب تَجْري كُلُومُنَا ولٰكِنْ على أقدامِنا تَقْدُمُ الدِّما

والظاهر أن الجملة المحذوفة بعد إذ وعوّض منها التنوين هي قوله: إذ لقيتم الكفار وانتصب «متحرفاً» و«متحيزاً» على الحال من الضمير المستكنّ في «يولّهم» العائد على «من».

﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ التحرف للقتال هو الكرّ بعد الفرّ، يخيّل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه. وهذا من باب خدع الحرب ومكائدها. و«متحيزاً»[٣] اسم فاعل من تحيّز، أصله: تَحَيْوَزَ تَفَيْعَلَ، من الحوز؛ اجتمعت ياء وواو، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء[٤]، وأدغمت الياء في الياء فصار: تحيّز. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المخصوص بالذمّ محذوف تقديره: بئس المصير هي، أي: جنهم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الآية، لما رجع الصحابة من بدر ذكروا مفاخرهم فيقول القائل: قتلتُ وأسرتُ فنزلت[٥]. قال الزمخشري[٦]: والفاء جواب شرط

---

(١) ق: تولّى.

(٢) البيت للحصين بن الحمام في الشعر والشعراء ٢: ٦٤٨، والخزانة ٣: ٣٥٢ مع اختلاف في الرواية.

(٣) ق: إلا متحيّزاً.

(٤) ق: وقلبت ياءً.

(٥) انظر أسباب النزول ص١٥٦.

(٦) الكشاف ٢: ١٤٩.

محذوف تقديره: إن افتخرتم بقتلهم فأنتم [٢٣٧/أ] لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم انتهى. وليست الفاء جواب شرط محذوف كما زعم، وإنما هي للربط بين الجمل، لأنه لما قال ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ۝١٢﴾ كان امتثال ما أُمروا به سبباً للقتل فقيل «فلم تقتلوهم» أي: لستم مستبدين بالقتل لأن الإقدار عليه والخلق له إنما هو لله تعالى ليس للقاتل فيها شيء لكنه أُجري على يده، فنفى عنهم إيجاد القتل[1] وأثبته لله تعالى. وعطف الجملة [المنفيّة] بما على الجملة المنفية بلَمْ، لأن لم نفيٌ للماضي وإن كان بصورة المضارع.

﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ قال ابن عباس: قبض رسول الله ﷺ يوم بدر قبضة من تراب فرماهم بها وقال: شاهت الوجوه[2]، أي: قبحت. فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه وفي منخريه[3] وفيه منها شيء. ومجيء «لكنّ» هنا في الموضعين أحسن مجيء لكونها بين نفي وإثبات، فالمثبت لله تعالى هو المنفي عنهم وهو حقيقة القتل.

﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال السّدي: ينصرهم وينعم عليهم، يقال: أبلاه إذا أنعم عليه، وبلاه إذا امتحنه. والبلاء يستعمل للخير والشر، والبلاء الحسن: قيل بالنصر والغنيمة، وقيل بالشهادة. واللام في «ليبلي» تتعلّق بمحذوف بعد الواو تقديره: وفعلنا ذلك - أي قَتْلَهم ورَمْيَهم، أو مقدّر آخر الجملة تقديره: بلاءً حسناً فعلنا ذلك. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ أي: سميع لكلامكم وما تفخرون به، عليم بما انطوت عليه الضمائر.

---

(١) ق: العقل.

(٢) أخرجه مسلم ٣: ١٤٠٢ من حديث إياس بن سلمة عن أبيه، في غزوة حنين.

(٣) ق: وهي متحرّبة!.

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الزمخشري[١]: «ذلكم» إشارة إلى البلاء الحسن، ومحلّه الرفع «وأن الله موهن» معطوف على «وليبلي»[٢] يعني أن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين انتهى. وهذا فيه بُعْدٌ لفصل المعطوف الذي هو «وأن الله» عن «ليبلي» بجملتين إحداهما «إن[٣] الله سميع عليم» والاخرى ما قدّره في قوله «ذلكم». وقال ابن عطية: «ذلكم» إشارة إلى ما تقدّم من قتل الله ورميه إياهم، وموضع «ذلكم» من الإعراب رفع. قال سيبويه: التقدير: الأمر ذلكم. وقرىء: مُوَهِّن من وهّن، والتعدية بالتضعيف فيما عينه حرف حلق غير الهمزة قليل نحو: ضعّفت ووهّنت، وبابه أن يُعدّى بالهمزة نحو: أذهلته وأوهنته. وقرىء بالتنوين ونصب «كيد»، وبحذفه وجرّ «كيد» على الإضافة.

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ قال الجمهور: هي خطاب لأهل مكة على سبيل التهكّم، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلّقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكّنا للعاني، إن كان محمد على حق فانصره وإن كنّا على حق فانصرنا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾
وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ
ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ
أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ

---

(١) الكشاف ٢: ١٥٠.

(٢) في الكشاف: معطوف على «ذلكم»، وهو يُضْعف ردّ المصنّف على الزمخشري.

(٣) ق: على ليبلو بجملتين أحدهما وأنّ.

تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ
تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ الظاهر أنه خطاب للمؤمنين الخُلّص، حثّهم بالأمر على الطاعة لله تعالى ورسوله، وأفردهم بالأمر رفعاً لأقدارهم. ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ الضمير في «عنه» عائد على رسول الله ﷺ. ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: الأمر بالطاعة والنهي عن التولي.

﴿۞إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ الآية، تقدّم الكلام على الصم البكم في البقرة[1]. وقيل: نزلت في طائفة من بني عبد الدار كانوا يقولون: نحن صمّ بكمٌ عميٌ عمّا جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه، فقتلوا جميعاً بأحد وكانوا أصحاب اللواء.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ قال ابن عطية: أخبر تعالى بأن عدم سمعهم وهداهم إنما هو بما علم الله تعالى منهم وسبق من قضائه عليهم، فخرّج ذلك في عبارة بليغة في ذمّهم بقوله «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم» والمراد: لأسمعهم[2] إسماع تفهّم وهدى. ثم ابتدأ عزّ وجلّ الخبر عنهم بما هم عليه من حتمه عليهم بالكفر فقال ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: ولو فهّمهم، ﴿لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [٢٣٧/ب] بحكم القضاء السابق فيهم، ولأعرضوا عمّا تبيّن لهم من الهدى.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٨ من البقرة.

(٢) ق: لأفهم سمعهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ تقدّم الكلام على استجاب في قوله ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي ١٨٦﴾ [البقرة]. وأفرد الضمير في «دعاكم» كما أفرده في ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ [عَنۡهُ ٢٠﴾] [الأنفال]. والظاهر تعلُّق «لما» بقوله «دعاكم» ودعا يتعدى باللام، قال الشاعر[1]: [من المتقارب]

دعوتُ[2] لِمَا نابَنِي مِسْوَراً   [فلبَّى فلبَّيْ يدَيْ مِسْوَرِ]

وقال آخر[3]: [من الطويل]

وإن أُدْعَ للجُلّى أَكُنْ مِن حُماتِها   [وإن يَأْتِكَ الأعداءُ بالجَهد أَجْهَدِ]

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ المعنى أنه تعالى هو المتصرف في جميع الأشياء والقادر على الحيلولة بين الإنسان وبين ما يشتهيه قلبه، فهو الذي ينبغي أن يستجاب [له] إذا دعا، إذ بيده ملكوت كل شيء وزمامه.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً﴾ الآية، هذا الخطاب ظاهره العموم باتّقاء الفتنة التي لا تختص بالظالم، بل تعمّ الصالح والطالح. والجملة من قوله «لا تصيبن» خبرية صفة لقوله «فتنة» أي: غير مصيبة الظالم خاصة. إلاّ أن دخول نون التوكيد على المنفي بلا مختلَفٌ فيه؛ فالجمهور لا يجيزونه ويحملون ما جاء منه على الضرورة أو على النّدور. والذي نختاره الجواز، وإليه ذهب بعض النحويين. وإذا كان قد جاء لحاقها بالفعل منفياً بلا مع الفصل نحو قوله[4]: [من الطويل]

---

(١) البيت في كتاب سيبويه ١ : ٣٥٢ غير منسوب.

(٢) ق: دحوت.

(٣) البيت لطرفة من معلقته، انظر شرح القصائد السبع ص٢٠٥.

(٤) البيت لحسّان السّعدي في النوادر ص١١٢.

فـلاذا نعيـمٍ يتـركَـنْ لنعيمـه وإن قال قرّظني وَخُذْ رشوةً أبى

فَلأَن تلحقه مع غير الفصل أولى نحو «لا تصيبنّ». وزعم الزمخشري أن الجملة صفة وهي نهي، قال(١): وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول كأنه قيل: واتّقوا فتنةً مقولاً فيها: لا تصيبنّ. وزعم الفرّاء أن الجملة جواب للأمر نحو قولك: انزل عن الدّابة لا تطرحنّك، أي: [إن] تنزل عنها لا تطرحنّك. [قال(٢): ومنه ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴿١٨﴾﴾ [النمل] أي: إن تدخلوا لا يحطمنكم، فدخلت النون لما فيها من معنى الجزاء انتهى. وهذا المثال وهو قوله «ادخلوا»(٣) ليس نظير «واتقوا فتنة» لأنه ينتظم من المثال والآية شرط وجزاء كما قدّر، ولا ينتظم ذلك هنا. ألا ترى أنه لا يصحّ تقدير: إن تتّقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة، لأنه يترتب إذ ذاك على الشرط غير مقتضاه من جهة المعنى.

وأخذ الزمخشري قول الفرّاء وزاده فساداً وخبط فيه فقال(٤): وقوله «لا تصيبنّ» لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر أو نهياً بعد أمر أو صفة لـ«فتنة». فإذا كان جواباً فالمعنى: إن أصابتكم فتنة لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولكنها تعمّكم انتهى تقريره لهذا القول. فانظر كيف قرّر أن يكون جواباً للأمر الذي هو «اتقوا» ثم قدّر أداة الشرط داخلة على غير مضارع «اتقوا» فقال: فالمعنى إن أصابتكم، يعني الفتنة. وانظر كيف قدّر الفرّاء في: انزل عن الدابّة لا تطرحنك] وفي قوله «ادخلوا» فأدخل أداة الشرط على مضارع

---

(١) الكشاف ٢: ١٥٢.

(٢) معاني القرآن ٢: ٤٠٧، ونقل المصنّف مضمون عبارة الفرّاء.

(٣) يريد قوله تعالى ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴿١٨﴾﴾.

(٤) الكشاف ٢: ١٥٢.

فعل الأمر. وهكذا يقدّر ما كان جواباً للأمر، وفيه تخريجات أخر ذكرت في البحر[١]. قال الزمخشري[٢]: «خاصّة» أصله أن يكون نعتاً لمصدر محذوف اي: إصابة خاصّة، وهي حال من الفاعل المستكنّ في «لا تصيبنّ»، ويحتمل أن يكون حالاً من «الذين ظلموا» أي: مخصوصين بها بل تعمّهم وغيرهم. قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون «خاصة» حالاً من الضمير في «ظلموا» انتهى. لا أتعقّل أنا هذا الوجه.

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ الآية، نزلت عقيب بدر فقيل: خطاب للمهاجرين خاصة كانوا بمكّة قليلي العدد مقهورين فيها يخافون أن يستلبهم المشركون قاله ابن عباس، فآواهم بالمدينة وأيّدهم بنصره يوم بدر. و﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ الغنائم وما فتح به عليهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ قال ابن عباس: نزلت في أبي لبابة حين استنصحه قريظة لمّا أبى رسول الله ﷺ أن يسيّرهم إلى أذرعات وأريحا كفعله ببني النضير، فأشار أبو لبابة إلى حلقه، أي: ليس عند رسول الله ﷺ إلا الذبح[٣]، فكانت هذه خيانته في قصة طويلة[٤].

(١) انظر ٤: ٤٨٤.

(٢) لم أجده في الكشاف، وانظر المفصل ص١١٦.

(٣) ق: الربح.

(٤) انظر تفسير الطبري ٩: ١٤٦.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ وفي كون الأجر العظيم عنده تعالى إشارة إلى أن[١] لا يفتن المرء بماله وولده فيؤثر محبّته لهما على ما عند الله فيجمع المال ويحب الولد حتى يُؤثر ذلك كما فعل أبو لبابة لأجل كون ماله وولده كانوا عند بني قريظة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية، الفرقان مصدر، من فرق بين الشيئين أي: حال بينهما. قال ابن عباس وجماعة: فرقاناً: مخرجاً، قال الشاعر[٢]:

وكيف أُرجّي الخُلْدَ والموتُ طالبي ومـالـيَ مِـن كـأسِ المنيّـةِ فُـرقـانُ

[من الطويل]

أي: مخرج ومخلص.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٣٠ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣١ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٤ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ۝٣٥﴾.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لما ذكّر المؤمنين نعمة ربهم عليهم ذكّره[٣] ﷺ

(١) ق: أنه.

(٢) البيت في القرطبي ٧: ٣٩٦ غير منسوب.

(٣) ق: ذكّرهم.

نعمه عليه في خاصة نفسه، وكانت قريش تشاوروا في دار الندوة بما يُفعل به؛ فمن [٢٣٨/أ] قائل: يُحبس ويُقيَّد ويُتربّص به ريب المنون، ومن قائل: يُخرج من مكة لتستريحوا منه. وتصوّر لهم إبليس في صورة شيخ نجدي وفيّل[١] هذين الرأيين. ومن قائل: يجتمع من كل قبيلة رجل ويضربونه ضربة واحدة بأسيافهم فيتفرق دمه في القبائل فلا يقدر بنو هاشم على محاربة قريش كلها، فيرضون بأخذ الديّة. فصوّب إبليس لعنة الله عليه هذا الرأي، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى نبيّه ﷺ بذلك وأمره ألاّ يبيت في مضجعه، وأذن له في الخروج إلى المدينة. فأمر عليّاً أن يبيت في مضجعه ويتّشح ببردته وباتوا راصدين، فبادروا إلى المضجع فأبصروا عليّاً فبُهتوا، وخلّف عليًّا ليردّ ودائع[٢] كانت عنده، وخرج إلى المدينة. ومعنى «ليثبتوك» أي: ليثخنوك بالجراح والضرب، من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح، ورمى الطائر فأثبته أي: أثخنه، وقال الشاعر[٣]: [من البسيط]

فقلتُ ويحكَ ماذا في صحيفتكم قالوا الخليفةُ أمسى مُثْبَتاً وَجِعا

أي: مثخناً.

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾ الآية، قائل ذلك النضر بن الحارث واتّبعه قائلون كثيرون، وكان من مردة قريش، سافر إلى فارس والحيرة وسمع من قصص الرهبان والأناجيل وأخبار[٤] رستم وإسفنديار، ورأى[٥] اليهود والنصارى

---

(١) أي خطّأهما وأضعفهما.
(٢) ق: وحلف ليردوا ودائع. وانظر في ذلك السيرة النبوية ٢: ١٢٤ وما بعدها.
(٣) البيت في القرطبي ٧: ٣٩٧ غير منسوب.
(٤) ق: وأخبارهم.
(٥) ق: ويرى.

يركعون ويسجدون. والنضر قتله رسول الله ﷺ صبراً بالصّفراء بالأثيّل[١] منها، مُنْصَرَفَه من بدر. وفي هذا التركيب جواز وقوع المضارع بعد إذا وجوابه الماضي جوازاً فصيحاً، بخلاف أدوات الشرط فإنه لا يجوز ذلك فيها إلا في الشعر نحو[٢]:

من يكدني بشيء كنت منه

ومعنى ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾: ولا نطيع، أو قد سمعنا مثل هذا. [وقولهم ﴿لَوْ نَشَآءُ﴾ أي: لو نشاء القول لقلنا مثل] الذي يتلوه، وذكر على معنى المتلوّ. وهذا القول منهم على سبيل البهت والمصادمة، وليس ذلك في استطاعتهم فقد طولبوا بسورة منه فعجزوا، وكانوا أحب شيء إليهم الغلبة وخصوصاً في باب البيان، فقد كانوا يتمالطون[٣] ويتعارضون ويُحكم بينهم في ذلك. وكانوا أحرص الناس على قهر رسول الله ﷺ، فكيف يحيلون المعارضة على مشيئتهم ويتعلّلون بأنهم لو أرادوا لقالوا مثل هذا القول. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقدم في الأنعام[٤].

﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ﴾ الآية، قائل ذلك النضر بن الحارث، وقيل أبو جهل، رواه البخاري ومسلم[٥]. والإشارة في قوله «إن [كان] هذا» إلى القرآن أو ما جاء به رسول الله ﷺ من التوحيد وغيره، أو نبوّته عليه السلام من بين سائر

---

(١) الأثيل: موضع قرب المدينة، والصفراء: واد. انظر معجم البلدان «الأثيل».

(٢) لم أجد تمامه وقائله، وانظر البحر ٤ : ٤٨٨.

(٣) مالطه: قال نصف بيت وأتمّه الآخر.

(٤) انظر تفسير الآية ٢٥ من الأنعام.

(٥) انظر البخاري ٤ : ١٧٠٤، ولم أجده في مسلم، وانظر السيرة النبوية ٢ : ٣٢٥.

قريش. وتقدم الكلام على «اللّهم»[1]. وقرأ الجمهور: هو الحقَّ، بالنصب، جعلوا «هو» فصلاً. وقال ابن عطية: ويجوز في العربية رفع «الحق» على أنه خبر «هو» والجملة خبر «كان». قال الزّجاج: ولا أعلم أحداً قرأ بهذا الجائز، وقراءة الناس إنما هي بنصب «الحق» انتهى. وقد قرأ بها الأعمش وزيد بن علي وهي جائزة في العربية، فالجملة خبر كان وهي لغة تميم يرفعون بعد «هو» التي هي فصل في لغة غيرهم.

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: ما فائدة قوله «من السماء» والأمطار لا تكون إلا منها؟ قلت: كأنه أراد أن يقال: أمطر علينا السّجيل وهي الحجارة المسوّمة للعذاب، فوضع «حجارة من السماء» موضع السّجيل، كما يقال: صبّ عليه مسرودة من حديد، يريد درعاً انتهى.

ومعنى جوابه أن قوله «من السماء» جاء على سبيل التوكيد، كما أن قوله: من حديد، معناه التوكيد لأن المسرودة لا تكون إلا من حديد، كما أن الأمطار لا تكون إلا من السماء. وقال ابن عطية: وقولهم «من السماء» مبالغة وإغراق انتهى. [٢٣٨/ب] والذي يظهر لي أن حكمة قولهم «من السماء» هي [في] مقابلتهم مجيء الأمطار من الجهة التي ذكر صلى الله عليه وسلم أنه يأتيه الوحي من جهتها، أي: أنك تذكر أنك يأتيك الوحي من السماء، فأْتنا بعذاب من الجهة التي يأتيك منها الوحي، إذ كان يحسن أن يعبّر عن إرسال الحجارة [عليهم] من غير جهة السماء بقولهم: فأمطر علينا حجارة. وقالوا ذلك على سبيل الاستبعاد والاعتقاد أن ما أتى به ليس بحقّ.

(١) انظر تفسير الآية ٢٦ من آل عمران.

(٢) الكشاف ٢: ١٥٥.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ اللام في «ليعذّبهم» لام الجحود والنصب في الفعل بإضمار أن بعد اللام، وتقدم الكلام عليها في آل عمران[١] عند «ما كان الله ليذر المؤمنين»[٢]. وقال ابن بزّي: نزلت الجملة الأولى بمكة إثر قوله «بعذاب أليم»، والثانية عند خروجه من مكة في طريقه إلى المدينة وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، والثالثة بعد بدر عند ظهور العذاب عليهم. قال ابن عباس: لم تعذّب أمّة قطّ ونبيّها فيها انتهى.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الآية، انظر إلى حسن مساق هاتين الجملتين: لما كانت كينونته فيهم سبباً لانتفاء تعذيبهم أكّد خبر «كان» باللام على رأي الكوفيين، أو جعل خبر «كان» الإرادة المنتفية على رأي البصريين. وانتفاء الإرادة للعذاب أبلغ من انتفاء العذاب. ولمّا كان استغفارهم دون تلك الكينونة الشريفة لم يؤكّد باللام بل جاء خبر «كان» قوله «معذّبهم» فشتّان ما بين استغفارهم وكينونته صلى الله عليه وسلم فيهم. والظاهر أن هذه الضمائر كلها في الجمل عائدة على الكفّار. وقال ابن عباس أيضاً ما مقتضاه أن الضميرين عائدان على الكفار، وكانوا يقولون في دعائهم: غفرانك، ويقولون: لبّيك لا شريك لك، ونحو هذا ممّا هو دعاء واستغفار فجعله الله تعالى أمنة من عذاب الدنيا.

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ الظاهر أنّ «ما» استفهامية أي: أيّ شيء لهم في انتفاء العذاب؟ وهو استفهام معناه التقرير، أي: كيف لا يعذّبون وهم متّصفون بهذه الحال المقتضية للعذاب، وهي صدّهم للمؤمنين عن المسجد الحرام وليسوا بولاة البيت ولا متأهلين لولايته. ومن صدّهم ما فعلوا مع

---

(١) ق: البقرة.

(٢) انظر تفسير الآية ١٧٩ من آل عمران.

رسول الله ﷺ عام الحديبية، وإخراجه مع المؤمنين داخل في الصدّ. كانوا يقولون: نحن ولاة البيت نصدّ من نشاء وندخل من نشاء.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ الآية، لما نفى عنهم أن يكونوا أولياء البيت ذكر من فعلهم القبيح ما يؤكد ذلك، وأن من كانت صلاته ما ذكر لا يستأهل أن يكونوا أولياءه، فالمعنى - والله أعلم - أن الذي يقوم مقام صلاتهم هو المكاء والتّصدية. وضعوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله الصفير والتصفيق، وكانوا يطوفون بالبيت عراة رجالهم ونساؤهم مشبكين بين أصابعهم يصفرون ويصفقون، يفعلون ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ يخلطون عليه في صلاته وقراءته. «مكاء» مصدر مكا يمكو، وجاء على فُعال. ويكثر فُعال في الأصوات كالصراخ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ نزلت[1] في [نفقة] المشركين الخارجين إلى بدر، كانوا ينحرون يوماً عشراً من الإبل ويوماً تسعاً، وقيل غير ذلك.

---

(١) انظر أسباب النزول ص١٥٩.

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ هذا إخبار بما يؤول إليه حال الكفار في الآخرة من حشرهم إلى جهنم إذ[1] أخبر بما آل إليه حالهم في الدنيا من حسرتهم وكونهم مغلوبين. ومعنى قوله «والذين كفروا» من وافى[2] على الكفر. وأعاد الظاهر لأنّ من أنفق ماله من الكفار أسلم منهم جماعة. ولام «ليميز» متعلّقة بقوله «يحشرون». و«الخبيث» [٢٣٩/أ] و«الطيب» وصفان يصلحان للآدميين، و«الخبيث» هم الكفار، و«الطيب» هم المؤمنون. و«بعضه» بدل من «الخبيث» أي: ويجعل بعض الخبيث على بعض «فيركمه» أي: يضمّه. و«أولئك» إشارة إلى «الخبيث». و«الخبيث» اسم جنس لوحظ أولاً إفراده في قوله «بعضه» وفي قوله «فيركمه»، ولوحظ ثانياً جمعه في قوله «أولئك هم الخاسرون».

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟﴾ لمّا ذكر ما يحلّ بهم من حشرهم إلى النار وجَعْلهم فيها وخُسْرهم[3]، تلطّف بهم وأنّهم إذا انتهوا عن الكفر وآمنوا غفرت لهم ذنوبهم السالفة. وليس ثَمَّ ما يترتّب على الانتهاء عنه غفرانُ الذنوب سوى الكفر، فلذلك كان المعنى: وإن ينتهوا عن الكفر ويسلموا. واللام في «للذين» الظاهر أنها للتبليغ وأنه أُمر أن يقول لهم هذا المعنى الذي تضمّنته ألفاظ الجملة المحكيّة بالقول، وسواء أقاله[4] بهذه العبارة أم غيرها. ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ العَوْد يقتضي الرجوع إلى شيء سابق، ولا يكون الكفر لأنهم لم ينفصلوا عنه، فالمعنى عودهم إلى [ما]

---

(١) ق: إذا.
(٢) ق: آفى.
(٣) ق: وحشرهم.
(٤) ق: قاله.

أمكن انفصالهم عنه وهو الارتداد بعد الإسلام. وجواب الشرط: قالوا: فقد مضت سنة الأولين. ولا يصحّ ذلك على ظاهره بل ذلك دليل على الجواب والتقدير: وإن يعودوا انتقمنا منهم وأهلكناهم فقد مضت سنة الأولين في أنّا انتقمنا منهم فأهلكناهم بتكذيب أنبيائهم وكفرهم.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ تقدم الكلام على نظير هذه الجملة في البقرة[1]، وهنا زيادة «كله» توكيداً لـ«الدين». ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ أي: عن الكفر. ومعنى ﴿بَصِيرٌ﴾: بإيمانهم فيجازيهم على ذلك ويثيبهم.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾: أعرضوا عن الإسلام. والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: ونعم النّصير الله تعالى.

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ
وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم
بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ
لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ
هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ
يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ
فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ
ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ
مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٩٣ وهي قوله تعالى ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأثبتّها للمقارنة.

﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم ﴾ الآية، قال الواقدي: كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ ﴾ قال ابن عباس وجماعة: «[لله] خمسه» استفتاح كلام كما يقول الرجل لعبده: أعتقك الله وأعتقتُك، على جهة التبرّك وتفخيم الامر، والدنيا كلها لله تعالى. وقسم الله تعالى وقسم الرسول ﷺ واحد، وكان عليه السلام يقسم الخمس على خمسة أقسام. والظاهر أن «ما» موصولة، و«غنمتم» صلة ما، والعائد محذوف. و«من شيء» تفسير لما انبهم في لفظ «ما» أريد بها العموم، فلذلك دخلت الفاء في خبر «أنّ» لتضمّن العموم معنى الشرط. و«أنّ لله» في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: فالحكم أن لله[1] خمسه. وأجاز الفراء[2] أن تكون «ما» شرطية منصوبة بـ«غنمتم»، واسم «أن» ضمير الشأن محذوف تقديره: أنّه، وحَذْف هذا الضمير مع أنّ المشددة مخصوص عند سيبويه بالشعر. وتقدم الكلام على ذوي القربى وما بعدها في البقرة[3]. وظاهر العطف يقتضي التشريك فلا يُحرم أحد. «وما أنزلنا» معطوف على «بالله». و﴿ يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ ﴾ يوم بدر بلا خلاف، فرّق فيه بين الحق والباطل. و﴿ ٱلۡجَمۡعَانِۗ ﴾ جمع المؤمنين وجمع الكافرين. والمُنزل: الآيات والملائكة والنصر. وختم بصفة القدرة لأنه تعالى أدال المؤمنين على قلّتهم[4] على الكافرين على كثرتهم ذلك اليوم.

﴿ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ «العدوة» شط الوادي ويسمى شفيراً وضفة،

---

(١) ق: الله.

(٢) انظر معاني القرآن ١: ٤١١.

(٣) انظر تفسير الآية ٨٣ من البقرة.

(٤) ق: قتلهم.

سميت بذلك لأنها عدت ما في الوادي من ماء أن يتجاوزه، أي: منعته، قال الشاعر[1]: [من الوافر]

عَـدَتْني عـن زيـارتهـا العـوادي   وحـالـت دونهـا حـربٌ زَبـونُ

ويسمّى الفضاء المساير للوادي عدوة للمجاورة. وقرىء: بالعُدوة بكسر العين وبضمها. ومعنى «الدنيا» [٢٣٩/ب] القربى، و«القصوى» البُعدى. وثبوت الواو في «القصوى» شاذ في القياس فصيح في الاستعمال، والقياس: القصيا بالياء، وقد قاله بعض العرب لأن الفُعلى من ذوات الواو تقلب ياءً كالدنيا من الدنوّ، والعليا من العلوّ. والمدينة من الوادي من[2] موضع الوقعة منه في الشرق وبينهما مرحلتان. وقرىء: أسفلَ، بالنصب منصوباً على الظرف وهي في موضع الخبر للمبتدأ قبله، وأصله وصف لموصوف محذوف تقديره: والركب مكاناً أسفل منكم، أي: [في] مكان. وقرىء: أسفلُ بالرفع، اتسع في الظرف فجُعل خبراً للمبتدأ قبله، وذلك أن العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء وكانت أرضاً لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي الأرض اللينة التي تغوص فيها الأقدام ولا يُمشى فيها إلا بتعب ومشقّة. وكانت العير وراء ظهور العدوّ مع كثرة عددهم.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ كان الالتقاء على غير ميعاد، قال مجاهد: أقبل أبو سفيان وأصحابه تجاراً من الشام، لم يشعروا بأصحاب محمد ولا بأصحاب بدر. ولم يشعر أصحاب محمد ﷺ بكفار قريش ولا كفّار قريش بمحمد وأصحابه حتى التقوا على ماء بدر لسقي

(١) البيت للنابغة في ديوانه ص٢٥٦.
(٢) ق: هي.

ركابهم[١]، فاقتتلوا فغلبهم أصحاب محمد ﷺ ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾ أي: ولكن تلاقيتم على غير ميعاد ليقضي الله أمراً من نصر دينه وإعزاز كلمته وكسر الكفار وإذلالهم. ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: موجوداً متحققاً واقعاً. ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ بدل من «ليقضي» فيتعلق بمثل ما تعلق به «ليقضي». والظاهر أن المعنى: ليقتل من قتل من كفار قريش وغيرهم عن بيان [من الله تعالى وإعذار بالرسالة، ويعيش من يعيش عن بيان] منه[٢] وإعذار لا حجة لأحد عليه. وقرىء: حَيِيَ، بياءين على الفكّ، وحَيَّ: بالإدغام.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، وتظاهرت الروايات أنّها رؤيا منامٍ رأى رسول الله ﷺ فيها الكفار قليلاً فأخبر بها أصحابه فقويت نفوسهم وشجعت على أعدائهم. وقال النبي ﷺ لأصحابه حين انتبه «أبشروا لقد نظرت إلى مصارع القوم»[٣]. والمراد بالقلّة قلّة القدر والبأس والنجدة وأنّهم مهزومون مصروعون. ولا يُحمل على قلة العدد لأنه صلى الله عليه وسلم رؤياه حقّ، وقد كان علم أنهم ما بين تسع مئة إلى ألف فلا يمكن حمل ذلك على قلّة العدد. وانتصب «قليلاً» على أنه مفعول ثالث ليُري، والأول ضمير الخطاب، والثاني ضمير الغيبة. و«كثيراً» مفعول ثالث لأرى، والأول ضمير الخطاب، والثاني ضمير الغيبة، أجريت[٤] الحلمية مجرى: أعلمت، فتعدّت إلى ثلاثة مفاعيل. وجواز حذف هذا المنصوب

---

(١) ليستقي كلهم.

(٢) ق: منهم.

(٣) في صحيح مسلم ٤: ٢٢٠٣ من حديث عمر أن رسول الله ﷺ «كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس».

(٤) ق: أجرت.

يبطل هذا [المذهب]، تقول: رأيت زيداً في النوم وأرى الله زيداً في النوم.

وقال الزمخشري[1]: انتصب «قليلاً» على الحال. وما قاله ظاهر لأن: ارى منقولة بالهمزة من رأى البصرية فتعدّت إلى اثنين: الأول كاف الخطاب للرسول، والثاني ضمير الكفار. فـ«قليلاً» و«كثيراً» منصوبان على الحال. و﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي: تفرقت آراؤكم في أمر القتال، فكان يكون ذلك سبباً لانهزامكم وعدم إقدامكم على قتال أعدائكم، لأنه لو رآهم كثيراً أخبركم برؤياه ففشلتم. ولما كان رسول الله ﷺ محمياً عن الفشل معصوماً من النقائص، أسند الفشل إلى من يمكن ذلك في حقّه فقال تعالى «لفشلتم» وهذا من محاسن القرآن. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾ من الفشل والتنازع والاختلاف بإراءته له صلى الله عليه وسلم الكفار [٢٤٠/أ] قليلاً فأخبرهم بذلك.

﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾ الآية، [هذه] الرؤية[2] [يقظة] لا منام. وقلّل الكفار في أعين المؤمنين تحقيراً لهم ولئلاّ يجبنوا عن لقائهم وقال ابن مسعود: لقد قُلّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة. وقُلّل المؤمنون في أعين الكفار حتى قال قائل منهم: إنما هم أَكَلَةُ جزور، وذلك قبل الالتقاء [بهم] ليجترئوا على المؤمنين فتقع الحرب ويلتحم القتال، إذ لو كُثّروا قبل اللقاء لأحجموا وتحيّلوا في الخلاص أو استعدوا واستنصروا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ

---

(١) الكشاف ٢: ١٦١.

(٢) ق: هي الرؤية.

تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ
ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ
فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا
تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ
فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ الآية، أي: فئة كافرة، حذف الوصف لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار. واللقاء اسم للقتال غالب. وأمرهم تعالى بالثبات وهو مقيّد بآية الضعف. وفي الحديث[1] «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا». وأمرهم بذكره تعالى كثيراً في هذا الموطن العظيم من مصابرة العدوّ والتلاحم بالرماح والسيوف، وهي حالة يقع فيها الذهول عن كلّ شيء فأُمروا بذكر الله إذ هو سبحانه وتعالى الذي يُفزع إليه عند الشدائد. والأظهر أن يكون «فتفشلوا» [جواباً للنهي فهو منصوب، ولذلك عطف عليه منصوب: لأنه يتسبّب عن التنازع الفشل وهو الخور والجبن عن لقاء العدو. ويجوز أن يكون «فتفشلوا»] مجزوماً عطفاً على «ولا تنازعوا» ذلك على قراءة عيسى بن عمر: ويذهبْ، بالياء وسكون الباء. ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قال الزمخشري[2]: والريح: الدولة شبّهت

(١) أخرجه مسلم ٣: ١٣٦٢ من حديث أبي هريرة وروايته: فإذا لقيتموهم فاصبروا. وانظر صحيح الجامع الصغير ٦: ١٣٢.
(٢) الكشاف ٢: ١٦٢. ومع البيت الذي أورده ثانٍ.

بنفوذ أمرها وتمشّيه[1] بالريح وهبوبها فقيل: هبّت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره. وقول الشاعر[2]: [من البسيط]

أَتَنْظرانِ قليلاً رَيْثَ غَفْلَتِهِم   أم تَغْدُوَان فإنّ الرّيحَ للغادي

انتهى. وهو قول أبي عبيدة إن الريح هي الدولة. وقال آخر[3]:

إذا هبَّتْ رياحُكَ فاغْتَنِمْها   فإنّ لكلّ خافقةٍ سكونا

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم ﴾ الآية، نزلت في أبي جهل وأصحابه[4]، خرجوا لنصرة العير بالقينات والمعازف، ووردوا الجحفة فبعث خفاف الكناني، وكان[5] صديقاً له، بهدايا مع ابنه وقال: إن شئت أمددناك بالرجال وإن شئت بنفسي مع من خفّ من قومي. فقال أبو جهل: إن كنّا نقاتل الله تعالى كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله طاقة، وإن كنّا نقاتل [الناس] فوالله إنّ بنا على الناس لقوّة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدراً فنشرب فيها الخمور وتعزف علينا القيْنات، فإنّ بدراً مركز من مراكز العرب وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد. فوَردوا بدراً فسُقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القينات. فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا مثل هؤلاء بطرين طربين مرائين

---

(١) ق: وتسببه.

(٢) البيت لسليك بن السلكة في شرح شواهد الكشاف ص٣٧٤.

(٣) البيت في القرطبي ٨: ٢٤ غير منسوب. وهو من الوافر

(٤) انظر لباب النقول ص١١٢.

(٥) ق: وإن.

بأعمالهم صادّين عن سبيل الله تعالى. وقال رسول الله ﷺ[(١)]: «اللهم إنّ قريشاً أقبلت بفخرها وخيلائها تحادّك وتكذّب رسولك، اللهم فأَحِنْها[(٢)] الغداةَ». وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وعيد وتهديد لمن بقي[(٣)] من الكفار. وانتصب «بطراً ورئاء» على أنه مفعول من أجله.

﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ وهي ما كانوا فيه من الشرك وعبادة الأصنام ومسيرهم إلى بدر وعزمهم على قتال رسول الله ﷺ. وهذا التزيين والقول والنكوص من وسوسة الشيطان على سبيل المجاز وهو من باب مجاز التمثيل. ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ رجع في ضدّ إقباله، أي: رجع إلى وراء. ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ مبالغة في الخذلان والانفصال عنهم، لم يكتف بالفعل حتى أكّد ذلك بالقول ﴿[إِنِّيٓ] أَرَىٰ[٢٤٠/ب] مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ رأى خرق العادة ونزول الملائكة. ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ قال قتادة[(٤)] وابن الكلبي: معذرة كاذبة لأنه لم يخف الله قط. وقال الزّجاج وغيره: بل خاف مما رأى من الهول أنه يكون اليوم الذي أنظر إليه انتهى. ويحتمل أن يكون ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ معطوفاً على معمول القول، قال ذلك بسطاً لعذره عندهم وهو متحقق أن عقاب الله شديد. ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى استأنفه تهديداً لإبليس ومن تابعه من مشركي قريش وغيرهم.

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ الآية، ظاهر العطف التغاير فقيل: المنافقون هم

---

(١) انظر السيرة النبوية ٢: ٢٧٣.

(٢) تحادّك: تعاديك. أَحِنْها: أَهْلِكْها. وفي القرطبي ١٧: ١٤٦: فأَخْنِهم الغداة، من الخنا وهو الهلاك.

(٣) ق: لقي.

(٤) ق: قتال.

من الأوس والخزرج لما خرج رسول الله ﷺ قال بعضهم: نخرج معه، وقال بعضهم: لا نخرج. غرّ هؤلاء المؤمنين دينهم، يزعمون أنهم على حق وأنهم لا يُغلبون، هذا معنى قول ابن عباس. ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قوم أسلموا ومنعتهم أقرباؤهم من الهجرة وأخرجتهم قريش معها كرهاً، فلما نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وقالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ فقُتلوا جميعاً. ولم يُذكر أن منافقاً شهد بدراً مع المسلمين إلا متعب بن قشير فإنه ظهر منه يوم أحد قوله ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران]. «والذين في قلوبهم مرض» هو من عطف الصفات وهي لموصوف واحد؛ وصفوا بالنفاق وهو إظهار ما لا يخفيه، وبالمرض لقوله تعالى ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة] وهم منافقو[1] المدينة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية، «لو» التي ليست شرطاً في المستقبل تقلب المضارع للمضيّ، فالمعنى: لو رأيت وشاهدت. وحَذْف جواب «لو» جائز بليغ حذفه في مثل هذا لأنه يدلّ على التعظيم أي: لرأيت أمراً عجيباً وشيئاً هائلاً. والظاهر أن «الملائكة» فاعل «يتوفى» ويدلّ عليه

(١) ق: منافقون.

قراءة من قرأ: تتوفى، بالتاء. وقيل في هذه القراءة: الفاعل ضمير «الله» و«الملائكة» مبتدأ، والجملة حالية كهي في «يضربون». قال ابن عطية: ويضعفه سقوط واو الحال فإنها في الأغلب تلزم مثل هذا انتهى. ولا يضعفه إذا جاء بغير واوٍ في كتاب الله وفي كثير من كلام العرب، ولكن يضعفه تفكيك الكلام من حيث صار جملتين. وانصباب الرؤية على الملائكة في حال ضربهم وجوه الكفار. والملائكة هم المُمَدُّ بهم يوم بدر. و«يضربون» حال من «الملائكة». و«وجوههم» حال الإقبال. «وأدبارهم» حالة هزيمتهم؛ لأن الضرب في الأدبار أخزى وأشد نكالاً. ﴿وَذُوقُواْ(١) عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ هو كلام مستأنف من الله تعالى يقوله لهم في الآخرة.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ تقدم الكلام [عليه في آل عمران](٢).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً﴾ الآية، «ذلك» مبتدأ وخبره «بأن الله» إلخ، أي: ذلك العذاب والانتقام بسبب كذا. وظاهر النعمة أنه يراد بها ما يكون فيه من سعة الحال والرفاهية والعزّة والأمن والخصب وكثرة الأولاد. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ «حتى» هنا للغاية، المعنى: إلى أن يغيّروا. و«ما» موصولة بمعنى الذي. و«بأنفسهم» صلته، والباء ظرفية أي: في أنفسهم من تبديل شكر الله تعالى بكفران النعمة.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأب: العادة. وهذه الجملة تأكيد للجملة السابقة. ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ حُمل على معنى كلّ فجُمع الضمير في «كانوا» [و«ظالمين» مراعاة لمعنى «كل» أو] لأجل الفواصل. ولم يُحمل على لفظه

---

(١) ق: ونقول ذوقوا.

(٢) انظر تفسير الآية ١١ من آل عمران.

كما حُمل في قوله ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء] فأفرد الضمير كما أفرده في ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]. قال الزمخشري[1]: وكلٌّ من غرقى القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين[2] أنفسهم بالكفر والمعاصي انتهى. لا يظهر تخصيص الزمخشري «كلًّا» بغرقى القبط وقتلى قريش؛ إذ الضمير في «كذّبوا» وفي «أهلكناهم» لا يختصّ بهما، فالذي يظهر عموم المشبّه به [٢٤١/ا] وهم آل فرعون والذين من قبلهم، أو عموم المشبّه والمشبّه بهم.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية، نزلت في بني قريظة منهم كعب بن الأشرف وأصحابه؛ عاهدهم رسول الله ﷺ ألّا يمالئوا عليه فنكثوا [بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدهم فنكثوا] ومالؤوا معهم يوم الخندق، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم[3]. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون فلا يمكن أن يقع منهم إيمان، قال ابن عباس: شر الناس الكفار، وشر الكفار منهم المصرّون، وشرّ المصرّين الناكثون للعهود: فأخبر تعالى أنهم جامعون لأنواع الشر.

---

(١) الكشاف ٢: ١٦٤.

(٢) ق: ظالمي.

(٣) ق: فخالفهم.

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ بدل من «الذين كفروا».

﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ﴾ أي: فإمّا تظفر بهم. وثمّ محذوف تقديره: فاقتلهم، لأن التشريد لا يتسبب عن الظّفر فقط، بل عن الظفر والقتل. والتشريد: التطريد والإبعاد. ﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ أي: من الكفار. وقرأ الأعمش بخلافٍ عنه: فشرّذ، بالذال المعجمة، وكذا في مصحف عبد الله. قالوا: ولم تُحفظ هذه المادة في لغة العرب، وقيل: الذّال بدل من الدال كما قالوا: لحم خراديل وخراذيل[1].

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةً﴾ الظاهر أن هذا استئناف كلام. أخبره تعالى بما يصنع في المستقبل مع من يخاف منه خيانة. وقوله «من قوم» يدل على أنهم ليسوا الذين تقدّم ذكرهم، إذ لو كانوا إياهم لكان التركيب: وإما تخافن منهم. أمر تعالى نبيّه عليه السلام إذا أحسّ من أهل عهدٍ ما ذكرنا وخاف خيانتهم أن يلقي إليهم عهدهم وهو النبذ. ومفعول «فانبذ» محذوف، التقدير: فانبذ إليهم عهدهم أي: ارمه واطرحه. وفي قوله «فانبذ» عدم اكتراث [به] كقوله تعالى ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران]. ومعنى ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾: على طريق مستوٍ قَصْدٍ، وذلك أن يظهر لهم نبذ العهد ويخبرهم إخباراً مكشوفاً بيّناً أنك قطعت ما بينك وبينهم.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾ قال الزهري: نزلت فيمن أفلت من الكفار يوم بدر، فالمعنى: لا تظنّهم ناجين مفلتين لا يعجزون طالبهم بل لا بدّ من أخذهم في الدنيا. وقرىء: ولا يحسبنّ، بياء الغيبة والفاعل ضمير يعود على الرسول عليه السلام أو على السامع، والمفعول الأول «الذين» والثاني

---

(١) لحم خراديل وخراذيل: إذا كان مقطّعاً.

«سبقوا»، قال الزمخشري[1]: وليست هذه القراءة التي تفرّد بها حمزة بنيّرة[2]، يشير إلى قراءته «ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا» بياء الغيبة انتهى. لم ينفرد بها حمزة كما ذكر بل قرأ بها ابن عامر وهو من العرب الذين سبقوا اللحن، وقرأ علي وعثمان وحفص عن عاصم، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع وأبو عبد الرحمن وابن محيصن وعيسى والأعمش. وكان الزمخشري توهّم أن الفاعل «الذين» فما استنارت له. وقرىء: تحسبنّ، بتاء الخطاب والمفعول [الأول] «الذين كفروا» والثاني «سبقوا». وقرىء: إنهم، بكسر الهمزة، واستبعد أبو عبيد وأبو حاتم هذه القراءة. ولا استبعاد فيها لأنها تعليل للنّهي أي: لا تحسبنّهم فائتين لأنهم[3] لا يعجزون أي: لا يقع منك حسبان لفوتهم لأنهم لا يُعجزون. وقرىء: أنهم، بفتح الهمزة وهو تعليل للنهي أي: لأنهم لا يعجزون من طلبهم.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ الآية، لما اتفق في قصة بدر أن قصدوا

---

(١) الكشاف ٢: ١٦٥.

(٢) ق: بثيرة.

(٣) ق: أنهم.

الكفار بلا تكميل عدّة ولا آلة، وأمره تعالى بالتشريد وبنبذ العهد للناقضين، كان ذلك سبباً للأخذ في قتاله والتمالؤ عليه، فأمره تعالى والمؤمنين بإعداد ما قدروا عليه من القوة للجهاد ولإعداد الأرصاد، وعلّق ذلك بالاستطاعة لطفاً منه تعالى. والمخاطبون هم المؤمنون، والضمير في «لهم» عائد على الكفار المتقدمي الذكر وهم المأمور بحربهم في ذلك الوقت. والظاهر العموم في كل ما يُتَقوى به في حرب العدو والآلات كالرمي وذكور الخيل وقوة القلوب [٢٤١/ب] واتفاق الكلمة والحصون المشيّدة وآلات الحرب وعُددها والأزواد[١] والملابس الباهية. و«رباط» جمع رَبْط، قال ابن عطية: «ورباط» جمع رَبْط ككلب وكلاب، فلا يكثر ربطها إلا وهي كثيرة. ويجوز أن يكون الرباط مصدراً من رَبَط كصاح صياحاً، لأن مصادر الثلاثي غير المزيد لا تنقاس انتهى. وليس بصحيح بل له مصادر منقاسة ذكرها النحويون. وقوله «من قوة ومن رباط الخيل» تفسير لما أبهم في قوله «ما استطعتم».

وفي صحيح مسلم عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا وإن القوة الرّمي»[٢] ومعناه - والله أعلم - أنّ[٣] معظم القوة وأنكاها للعدوّ الرّمي. ﴿تُرْهِبُونَ﴾ تخوّفون وقرىء: ترهّبون، بالتشديد. ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ الظاهر أنهم المنافقون لأنه قال «لا تعلمونهم الله يعلمهم» أي: لا تعلمون أشخاصهم إذ هم متسترون[٤] عنكم أن تعلموهم بالإسلام. فالعلم هنا كالمعرفة تعدّى إلى

---

(١) ق: والازدراد. والأزواد: جمع الزّود وهو طعام السفر والحضر جميعاً.

(٢) أخرجه مسلم ٣: ١٥٢٢، وانظر صحيح الجامع الصغير ٢: ٣٧١.

(٣) ق: أنه.

(٤) ق: يسترون.

واحد وهو متعلق بالذوات وليس متعلقاً بالنسبة.

﴿ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ الضمير في «جنحوا» عائد على الذين نبذ [إليهم] على سواء وهم بنو قريظة والنضير. جنح الرجل إلى الآخر: مال إليه، وجنحت إليه، وجنحت الإبل: أمالت أعناقها في السير، قال ذو الرّمة[1]: [من الطويل]

إذا مات فوق الرّحل أحييتُ روحه بذكراكِ والعيسُ المراسيل جُنَّحُ

أي: مائلات. وجنَح: يتعدى بـ«إلى» وباللام. و«للسلم» يذكّر ويؤنث فقيل: التأنيث لغة، وقيل: على معنى المسالمة، وقيل: حملاً على النقيض وهو الحرب.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: وإن يرد[2] الجانحون للسّلم بأن يظهروا السلم ويبطنوا الخيانة والغدر مخادعة فاجنح لها، فما عليك من نيّاتهم الفاسدة، فإنّ حسبك وكافيك هو الله تعالى، ومن كان الله تعالى حسبه فلا يبالي بمن نوى سوءاً. ثمّ ذكّره بما فعل معه أولاً من تأييده بالنصر وبائتلاف المؤمنين على إعانته ونصره على أعدائه، فكما لطف بك أولاً يلطف بك آخراً. والمؤمنون هنا الأوس والخزرج [وكان بين الطائفتين من العداوة للحروب التي جرت بينهم ما كان لولا الإسلام ليُقضى أبداً، ولكنه تعالى منّ عليهم بالإسلام فأبدلهم بالعداوة محبّة وبالتباعد قرباً. ومعنى ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: على تأليف قلوبهم واجتماعها على محبة بعضها بعضاً، وكونها في الأوس والخزرج] تظاهرت به أقوال المفسّرين.

---

(١) ديوانه ص٨٧.

(٢) ق: يريدوا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٦٦ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ الآية، نزلت بالبيداء في غزوة [بدر] قبل القتال. والظاهر رفع «ومن» عطفاً على ما قبله، أي: حسبك الله والمؤمنون. وقال الشعبي وابن زيد: معنى الآية: حسبك الله وحسب من اتبعك. قال ابن عطية: فـ«من» في هذا التأويل في موضع نصب عطفاً على موضع الكاف لأن موضعها نصب على المعنى بيكفيك الذي سدت [«حسبك»] مسدّها انتهى. وهذا ليس بجيد لان «حسبك» ليس مما تكون الكاف فيه في موضع نصب، بل هذه إضافة صحيحة ليست من نصب، و﴿ حَسۡبُكَ ﴾ مبتدأ مضاف إلى الضمير وليس مصدراً ولا اسم فاعل. والذي ينبغي أن يُحمل عليه كلام الشعبي وابن زيد هو أن يكون ﴿ وَمَنِ ﴾ مجرورة على حذف «وحسب» لدلالة «حسب» عليه، فيكون كقول الشاعر[(١)]: [من المتقارب]

أكلَّ امرئٍ تحسبين امرأً ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا

أي: وكلّ نارٍ، فلا يكون من العطف على الضمير المجرور. وقال ابن عطية: وهذا الوجه من حذف المضاف مكروه، بابه في ضرورة الشعر انتهى. وليس بمكروه ولا ضرورة، وقد أجازه[(٢)] سيبويه في الكلام وخرّج عليه

(١) هو أبو دؤاد الإيادي، والبيت في الأصمعيات ص١٩١.
(٢) ق: أجاز.

البيت وغيره من الكلام الفصيح. قال الزمخشري[١]: «ومن اتّبعك» الواو بمعنى مع وما بعده منصوب [٢٤٢/أ] تقول: حسبك وزيداً درهم، ولا يُجرّ[٢] لأن عطف الظاهر المجرور على المكنى ممتنع قال[٣]: [من الطويل]

[إذا كانتِ الهيجاءُ وانشقَّتِ العصا] فَحَسْبُكَ والضحّاكَ سيفٌ مهنّدُ

والمعنى: كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصراً انتهى. وهذا الذي قاله الزمخشري مخالف لكلام سيبويه، قال سيبويه[٤]: قالوا: حسبك وزيداً درهم، لما كان فيه معنى كفاك، وقبح أن يحملوه على المضمر نَوَوُا الفعل كأنه قال: حسبك ويحسب أخاك درهم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هاتان الجملتان شرطيتان في ضمنهما الأمر بصبر عشرين لمئتين، وبصبر مئة لألف، ولذلك دخلها النسخ؛ إذ لو كان خبراً محضاً لم يكن فيه النسخ، لكن الشرط إذا كان فيه معنى التكليف جاز فيه النسخ، وهذا من ذلك، ولذلك نُسخ بقوله «الآن خفف الله عنكم». والتقييد بالصبر في أول كل شرط لفظاً هو محذوف من الثانية لدلالة ذكره في الأولى، وتقييد الشرط الثاني بقوله «من الذين كفروا» لفظاً هو محذوف من الشرط الأول في قوله «يغلبوا مئتين». فانظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت قيداً[٥] في الجملة الأولى وحذف نظيره من الثانية، وأثبت قيداً في

---

(١) الكشاف ٢: ١٦٧.

(٢) ق: يجيز.

(٣) نسب في ذيل الأمالي ص١٤٠ لجرير وليس في ديوانه. وهو في معاني القرآن ١: ٤١٧، وشرح شواهد الكشاف ص٣٧٤ غير منسوب فيهما.

(٤) لم أجد النصّ في كتابه وانظر ٢: ٣٤٧.

(٥) ق: قيد.

الثانية وحذف من الأولى. ولمّا كان الصبر شديد المطلوبية أثبت في أولى جملتي التخفيف وحذف من الثانية لدلالة السابقة عليه، ثم ختمت الآية بقوله تعالى «والله مع الصابرين» مبالغة في شدة المطلوبية، ولم يأت في جملتي التخفيف قيد الكفر اكتفاءً بما قبل ذلك.

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ نزلت في أسارى بدر، وكان رسول الله ﷺ قد استشار أبا بكر وعمر وعليًا، فأشار أبو بكر بالاستحياء وعمر بالقتل في حديث طويل يوقف عليه في صحيح مسلم[1]. وقرأ أبو الدرداء وأبو حيوة: ما كان للنبي، معرَّفاً، والمراد به في التنكير والتعريف رسول الله ﷺ، ولكن في التنكير إبهام في كون النفي لم يتوجّه عليه معيَّناً. وتقدّم مثل هذا التركيب وكيفية هذا النفي في آل عمران في قوله ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴿١٦١﴾ ﴾ [آل عمران][2] وهو هنا على حذف مضاف أي: ما كان لأصحاب نبي أو لأتباع نبيٍّ فحذف اختصاراً، ولذلك جاء الجمع في قوله «تريدون عرض الدنيا» [ولم يجيء التركيب: يريد أو تريد عرض الدنيا] لأنه عليه السلام لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد عرض الدنيا قطّ، وإنما فعله

(١) ٣: ١٣٨٥، أخرجه من حديث ابن عباس.

(٢) ق: وما كان للنبي.

جمهور مباشري الحرب. ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الإثخان: المبالغة في القتل والجراحات، يقال: أثخنته الجراحات: أثبتته حتى تثقل عليه الحركة، وأثخنه المرض: أثقله، من الثخانة التي هي الغلظ والكثافة.

﴿لَمَسَّكُمْ﴾ قال ابن عباس ومقاتل: لولا أن الله تعالى كتب في أمّ الكتاب أنه يسجل لكم الغنائم لمسّكم فيما تعجّلتم منها ومن الفداء يوم بدر قبل أن تؤمروا بذلك عذاب عظيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ نزلت هذه الآية عقيب بدر في أسرى بدر، أُعلموا أنّ لهم ميلاً إلى الإسلام وأنهم يؤمّلونهم إن فُدُوا ورجعوا إلى قومهم. والظاهر أن الضمير في ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ﴾ عائد على «الأسرى» لأنه أقرب مذكور. والخيانة هي كونهم أظهر الإسلام بعضهم ثم رجعوا إلى دينهم. ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ بخروجهم مع المشركين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟﴾ الآية، قسّم المؤمنين إلى المهاجرين والأنصار والذين لم يهاجروا، فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام وأول من استجاب لله تعالى، فهاجر قوم إلى المدينة [وقوم إلى الحبشة وقوم إلى ابن

ذي يزن، ثم هاجروا إلى المدينة] وكانوا قدوة لغيرهم في الإيمان وسَبَبَ تقوية للدين. «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[١]. وثنّى بالأنصار لأنهم ساوَوْهم في الإيمان وفي الجهاد بالنفس والمال، لكنه عادل الهجرة بالإيواء والنصر، وانفرد المهاجرون بالسبق. وذكر [٢٤٢/ب] ثالثاً من آمن ولم يهاجر ولم ينصر ففاتتهم هاتان الفضيلتان وحُرموا الولاية حتى يهاجروا.

ومعنى ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ في النصرة والتعاون والمؤازرة كما جاء في غير آية ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة]. وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجريّ يرثه أخوه الأنصاري إذا لم يكن له بالمدينة ولي مهاجريّ، ولا توارث بينه وبين قريبه المسلم غير المهاجريّ. قال ابن زيد: واستمرأمرهم كذلك إلى فتح مكّة ثم توارثوا بعدُ لمّا لم تكن هجرة، فمعنى «ما لكم من ولايتهم من شيء» نفي الموالاة في التّوارث، وكان قوله تعالى «وأولوا الأرحام» نسخاً لذلك. ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ والمعطوف مغاير للمعطوف عليه، فوجب أن تكون الولاية المنفيّة غير النصرة انتهى. ولما نزل «ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا» قال الزبير: هل نعينهم على أمر إن استعانوا بنا؟ فنزل «وإن استنصروكم». والاستثناء في قوله «إلا على قوم» معناه أنّ من بيننا وبينهم ميثاق، لا ننصر[٢] المستنصرين الذين لم يهاجروا عليهم بل نتركهم وإياهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ لمّا ذكر أقسام المؤمنين الثلاثة، وأنهم

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جرير ٢: ٧٠٤، وانظر صحيح الجامع الصغير ٥: ٣٠٤.

(٢) ق: لا تنصروا.

أولياء ينصر بعضهم بعضاً ويرث بعضهم بعضاً، بين أن فريق الكفّار كذلك، إذ كانوا قبل بعثة رسول الله ﷺ يعادي أهل الكتاب منهم قريشاً ويتربّصون بهم الدوائر، فصاروا بعد بعثته عليه السلام يوالي بعضهم بعضاً وإلباً[١] واحداً على رسول الله ﷺ خوفاً على رئاستهم وتحزّباً على المؤمنين. «إلا تفعلوه[٢]» الضمير عائد على الاستنصار[٣] وهو المصدر المفهوم من قوله «وإن استنصروكم». و«تكن» تامّة، و«فتنة» فاعل. والفتنة إهمال المسلمين المستنصرين بنا حتى يتسلّط عليهم عدوّهم من الكفّار. وقرأ أبو موسى الحجازي عن الكسائي: كثير، بالثاء.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ هذه الآية فيها تعظيم المهاجرين والأنصار، وهي مختصرة إذ حذف منها: بأموالهم وأنفسهم، وليست تكراراً لأن السابقة تضمّنت ولاية بعضهم بعضاً وتقسيم المؤمنين إلى الأقسام الثلاثة وبيان حكمهم في ولايتهم ونصرهم، وهذه تضمّنت الثناء والتشريف والاختصاص وما آل إليه حالهم من المغفرة والرزق الكريم. وتقدم تفسير نظير أواخر[٤] هذه الآية في أوائل السورة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ﴾ يعني الذين لحقوا بالهجرة من سبق إليها، فحكم تعالى بأنهم من المؤمنين السابقين في الثواب والأجر، وإن كان للسابقين شفوف السبق وتقدم الإيمان والهجرة والجهاد. ومعنى «من بعد»:

(١) الإلب: القوم تجمعهم عداوة واحد.
(٢) ق: تفعلوا.
(٣) ق: الانتصار.
(٤) ق: أواخر نظير. وانظر تفسير الآية ٤ من الأنفال.

من بعد الهجرة الأولى، وذلك بعد الحديبية، قاله ابن عباس. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ قيل: هو المواريث واستدلّ بها أبو حنيفة على توريث ذوي الأرحام، وقيل: ليست في المواريث والله أعلم.

سورة براءة[1]

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾.

قوله تعالى ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ هذه السورة مدنية كلها، وقيل: إلا آيتان من آخرها فإنهما نزلتا بمكّة، وهذا قول الجمهور. ويقال: برئت من فلان أبرأ براءة: أي: انقطعتْ بيننا العصمة. ومنه: برئت من الدَّين. وارتفع «براءة» على الابتداء، والخبر «إلى الذين عاهدتم». و«من الله» صفة مسوّغة لجواز الابتداء بالنكرة، أو على إضمار مبتدأ أي: هذه براءة. وقرأ عيسى بن عمر: براءةً بالنصب، قال ابن عطية: أي: الزموا، وفيه معنى الإغراء. قال الزمخشري[2]: اسمعوا براءةً إلى الذين عاهدتم. قال ابن إسحاق [٢٤٣/أ]

---

(١) مدنية وآياتها مئة وتسع وعشرون آية. وهي في القرآن الكريم باسم «التوبة»

(٢) الكشاف ٢: ١٧٢.

وغيره: كانت العرب قد أوثقها رسول الله ﷺ عهداً عامّاً على ألاّ يُصدّ أحد عن البيت الحرام ونحو هذا من الموادعات[١]، فنقض ذلك بهذه الآية وأحلّ لجميعهم أربعة أشهر، فمن كان له مع رسول الله ﷺ عهد خاص وبقي منه أقل من الأربعة أبلغ به تمامها، ومن كان أمده أكثر أتمّ له عهده. وإذا كان ممّن تحسّس منه نقض العهد قصر على أربعة أشهر. ومن لم يكن له عهد خاص فُرضت له الأربعة يسيح في الأرض أي: يذهب فيها مسرعاً آمناً. وظاهر من «المشركين» العموم فدخل فيه مشركو قريش وغيرهم.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أمر إباحة، وفي ضمنه[٢] تهديد وهو التفات من غيبة إلى خطاب، أي: قل لهم سيحوا. ويقال: ساح سياحة وسَوْحاً وسيحاناً ومنه: سيح الماء وهو الجاري المنبسط. قال ابن عباس: أول الأشهر شوّال حين نزلت الآية، وانقضاؤها انقضاء المحرّم بعد يوم الأذان بخمسين، فكان اجلُ من له عهد أربعة أشهر من يوم النزول، وأجل سائر المشركين خمسون ليلة من يوم الأذان. ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ﴾ أي: لا تفوتونه وإن أمهلكم وهو مخزيكم أي: مذلّكم في الدنيا بالقتل والأسر والنهب، وفي الآخرة بالعذاب.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قرىء: وإذْن، بكسر الهمزة وسكون الذّال. وقرىء: إنّ الله، بكسر الهمزة [وفتحها]؛ فالفتح على تقدير: بأن، والكسر على إضمار القول على مذهب البصريين، أو لأن الأذان في معنى القول فكسرت على مذهب الكوفيين. وحكى أبو عمرو عن أهل نجران أنهم يقرؤون: منِ الله، بكسر النون على أصل التقاء الساكنين وإتباعاً لكسرة الميم.

---

(١) ق: المرادعات.

(٢) ق: تضمّنه.

﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ الظاهر أنه يوم واحد، فقال عمر وجماعة: هو يوم عرفة، ورُوي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ[1]. وقال أبو موسى وجماعة: هو يوم النحر. وقيل: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلّها، قاله سفيان بن عيينة. والذي تظاهرت به الأحاديث أن عليًّا كرّم الله وجهه أذّن بتلك الآيات يوم عرفة وإثر خطبة أبي بكر، ثم رأى أنه لم يعمّ الناس بالإسماع فتتبّعهم بالأذان بها يوم النحر. وفي ذلك اليوم بعث أبو بكر من يعينه بها كأبي هريرة وغيره، وتتبّعوا بها أيضاً أسواق العرب كذي المجاز وغيره. وبهذا يترجّح قول سفيان. وجملة «براءة من الله ورسوله» إخبار بثبوت البراءة. وجملة «وأذان من الله ورسوله» إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت فافترقنا وعلقّت البراءة بالمعاهدين لأنها مختصّة بهم ناكثيهم وغير ناكثيهم. وعلّق الأذان بالناس لشموله معاهداً وغيره، ناكثاً وغيره، مسلماً وكافراً. و«رسوله» معطوف على موضع اسم «أنّ»، إذ كان قبل دخول «أنّ» كان في موضع رفع على الابتداء، وفي العطف على هذا الموضع خلاف. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المستكنّ في قوله: بريء هو ورسوله. والأجود أن يكون مرفوعاً على الابتداء وخبره محذوفاً[2] تقديره: ورسوله بريء منهم، وحذف الخبر لدلالة ما قبله عليه.

﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: من الشّرك الموجب لتبرّؤ الله ورسوله منكم. ﴿فَهُوَ﴾ أي: التوب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا لعصمة أنفسكم وأولادكم وأموالكم، وفي الآخرة لدخول الجنّة وخلاصكم من النّار. ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن الإسلام. ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي: لا تفوتونه عمّا يحلّ بكم من

(١) انظر تفسير الطبري ١٠: ٤٩.

(٢) ق: محذوف، وهو وجه.

نقماته. ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ جعل الإنذار بشارة على سبيل الاستهزاء بهم. و«الذين كفروا» عام يشمل المشركين عبدة الأوثان وغيرهم، وفي هذا وعيد عظيم بما يحلّ بهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ الأظهر [٢٤٣/ب] أن يكون استثناء منقطعاً بمعنى لكن، ويبعد أن يكون متصلاً وإن كان قال به قوم لعسر ظهور المستثنى منه قبله الذي هؤلاء بعض منه.

﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي: إلى انقضاء مدة عهدهم. والظاهر أن قوله «إلى مدّتهم» يكون في المدة التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، أُمروا بإتمام العهد إلى تمام المدّة. وعن ابن عباس: كان بقي لحيٍّ من كنانة تسعة أشهر فأتمّ إليهم عهدهم.

﴿وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم يعينوا عليكم أحداً كما فعلت قريش ببني بكر حين أعانوهم بالسلاح على خزاعة. وتعدى «أتمّوا» بإلى لتضمّنه معنى: فأدّوا، أي: فأدّوه تامًّا كاملاً.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ الظاهر أن هذه الأشهر هي التي أبيح للناكثين أن يسيحوا فيها، ووصفت «بالحُرم» لأنها محرّم فيها القتال. وتقدّم ذكر الخلاف في ابتدائها وانتهائها. وإذا تقدّمت النكرة وذكرت بعد ذلك فالتوجه أن يؤتى بالضمير نحو: لقيت رجلاً فضربته. ويجوز أن يعاد اللفظ معرّفاً بأل نحو: لقيت رجلاً فضربت الرجل(١).

ولفظ ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ عامّ في الأماكن من حلٍّ وحرم.

---

(١) يشير إلى تقدّم ذكر «الأشهر الحرم» نكرة في قوله «أربعة أشهر» (الآية) ثم إعادتها هنا معرّفة.

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ عبارة عن الأسر، والأخيذ: الأسير، ويدلّ على جواز اسرهم.

﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ قيّدوهم وامنعوهم من التصرّف في بلاد المسلمين، وقيل: استرقّوهم وحاصروهم إن تحصّنوا. قال القرطبي[١]: في قوله «واقعدوا لهم كل مرصد» دلالة على جواز اغتيالهم قبل الدعوة. لأن المعنى: اقعدوا لهم مواضع الغِرّة. وهذا تنبيه على أن المقصود إيصال الأذى إليهم بكل طريق: إما بطريق القتال وإما بطريق الاغتيال. وقد أجمع المسلمون على جواز السّرقة من أموال أهل الحرب وإسلال[٢] خيلهم وإتلاف مواشيهم إذا [عُجز] عن الخروج بها إلى دار الإسلام إلا أن يصالحوا على مثل ذلك.

قال الزمخشري[٣]: «كل مرصد»: كل ممرّ ومجتاز ترصدونهم فيه، وانتصابه على الظرف كقوله ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف] انتهى. وهذا الذي قاله [قد قاله] الزّجاج قال: «كل مرصد» ظرف كقولك: ذهبت مذهباً. وردّه أبو علي لأن المرصد المكان الذي يُرصد العدوّ فيه، فهو مكان مخصوص لا يحذف الحرف منه إلا سماعاً كما حكى سيبويه: دخلت البيت و[٤]:

[لَـدْنٌ بهـزّ الكـفّ يعسِـلُ متنُـه فيه] كما عسَلَ الطريقَ الثعلبُ

انتهى. وأقول: يصحّ انتصابه على الظرف لأن قوله ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ﴾ ليس معناه حقيقة القعود، بل المعنى: ارصدوهم في كل مكان يُرصد فيه. ولما

(١) الجامع ٨: ٧٣.

(٢) أي أخذها خفية.

(٣) الكشاف ٢: ١٧٥.

(٤) البيت لساعدة بن جؤية، وهو من شواهد الكتاب ١: ٣٦، ٢١٤. وهو من الكامل

كان هذا المعنى جاز قياساً أن يُحذف منه «في» كما قال[١]: [من الطويل]

[ولم تَدْرِ وَشْك البين حتّى رأتهُمُ] وقـد قعـدوا أرمـاقهـا كـلَّ مَقْعـدِ

فمتى كان العامل في الظرف المختص عاملاً من لفظه أو من معناه جاز أن يصل إليه بغير وساطة «في» فيجوز: جلست مجلس زيد، وقعدت مجلس زيد، تريد: في مجلس زيد. فكما يتعدى الفعل إلى المصدر من غير لفظه إذا كان بمعناه فكذلك إلى الظرف. وقال الأخفش: معناه: على كل مرصد، فحذف «على» وأعمل الفعل. وحَذْف «على» ووصول الفعل إلى مجرورها فينصبه يخصّه أصحابنا بالشعر وأنشدوا[٢]: [من الطويل]

تحـنّ فتبـدي مـا بهـا مـن صبابـةٍ وأخفي الذي لولا الأسى لقضاني

أي: لقضى عليّ.

﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ أي: عن الكفر والغدر. والتوبة تتضمن الإيمان وترك ما كانوا فيه من المعاصي.

﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ كناية عن الكفّ عنهم وإجرائهم مجرى المسلمين في تصرفاتهم حيثما شاؤوا، ولا تتعرضوا لهم.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا

(١) البيت لزهير في ديوانه ص٢٢٨.

(٢) البيت في الكامل ١ : ٢١ منسوب إلى أعرابي من بني كلاب.

يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا
كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ
وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ
فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ الظاهر أنها محكمة، وعن ابن جبير قال: جاء رجل إلى [٢٤٤/أ] علي كرم الله وجهه وقال: إن أراد الرجل منّا أن يأتي محمداً بعد انقضاء الأجل ليسمع كلام الله تعالى أو يأتيه لحاجة قُتل[١]؟ قال: لا لأن الله تعالى قال «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره» الآية، انتهى. ولمّا أمر تعالى بقتل المشركين حيث وُجدوا وأخذهم وحصرهم وطلب غرّتهم ذكر لهم حالة لا يُقتلون فيها ولا يؤسرون[٢] [وهي] إذا جاء واحد منهم مسترشداً طالباً للحجّة والدلالة على ما تدعو إليه من الدين. والمعنى: وإن أحد من المشركين استجارك أي: طلب منك أن تكون مجيراً له وذلك بعد انسلاخ الأشهر ليسمع كلام الله تعالى وما نصّ من التوحيد ويقف على ما بُعثْتَ[٣] به فكن مجيراً له حتى يسمع كلام الله ويتدبّره ويطّلع على حقيقة الأمر، ثم أبلغه داره التي يأمن فيها إن لم يُسلم، ثم قاتِلْه إن شئت من غير غدر ولا خيانة.

(١) ق: قُبل.

(٢) ق: لا يقتلون فيهما ولا يسوسون.

(٣) ق: بعث.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ذلك الأمر بالإجارة وإبلاغ المأمن بسبب أنهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ هذا استفهام معناه [التعجب] والاستنكار والاستبعاد. وفي الآية إضمار أي: كيف يكون للمشركين عهد مع إضمار الغدر والنكث. والاستفهام يراد به النفي كثيراً، قال الشاعر[1]:

فهذي سيوف يا هُدَيّ بن مالك كثير ولكن كيف بالسيف ضارب

أي: ليس بالسيف ضارب. ولما كان الاستفهام معناه النفي صلح مجيء الاستثناء وهو متصل، وقيل منقطع أي: لكن الذين عاهدتم منهم عند المسجد الحرام. وقال ابن عباس: هم قريش. وقال السدّي: بنو جذيمة ابن الديل. وقال ابن إسحاق: قبائل بني بكر كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش. «كيف» في موضع نصب خبراً «ليكون» و«عهد» اسم «يكون». والظاهر أن «ما» مصدرية ظرفية، [أي] استقيموا لهم مدة استقامتهم، وليست شرطية. وقال أبو البقاء[2]: هي شرطية كقوله تعالى ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر ٢] انتهى. فكان التقدير: ما استقاموا لكم من زمان فاستقيموا لهم. وقال الحوفي: «ما» شرطية في موضع رفع بالابتداء، والخبر «استقاموا»، و«لكم» متعلق بـ«استقاموا»، «فاستقيموا لهم» الفاء جواب الشرط انتهى. فكان التقدير: فأي وقت استقاموا فيه لكم فاستقيموا لهم. وإنما جوّز أن تكون شرطية لوجود الفاء

(١) البيت في الأمالي الشجرية ١: ٢٦٧ غير منسوب. وهو من الطويل.
(٢) إملاء ٢: ١٢.

في «فاستقيموا» لأن المصدرية الزّمانية لا تحتاج إلى الفاء.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ الظاهر أن الفعل المحذوف بعدها هو من جنس أقرب مذكور لها، وحُذف للعلم به في «كيف» السابقة والتقدير: وكيف يكون لهم عهد وحالهم هذه، والواو للحال. ومعنى «يظهروا» يغلبوا. وجواب الشرط «يرقبوا». وقال الشاعر[1] في حذف الفعل بعد كيف:

وخبّرتماني أنما الموت بالقُرى ... فكيف وهاتا هضبة وكثيبُ

أي: فكيف مات وليس في قرية. الإلُّ: الحلف. والذمّة: العهد. وقال أبو عبيدة: والإباء مخالفة[2] للقلب لما يجري على اللسان من القول الحسن.

﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الظاهر عود الضمير على من قِبَلَه من المشركين المأمور بقتلهم، ويكون المعنى: اشتروا بالقرآن وما يدعو إليه من الإسلام ثمناً قليلاً وهو اتّباع الشهوات والأهواء. لمّا تركت دين الله وآثرت الكفر كان ذلك كالشراء والبيع.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ هذا تنبيه على الوصف الموجب للعداوة وهو الإيمان [٢٤٤/ب] ولما كان قوله «لا يرقبوا فيكم» يوهم[3] أن ذلك مخصوص بالمخاطبين، نبّه على علّة ذلك وأن سبب المنافاة هو الإيمان. ﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: الجامعون لتلك الأوصاف الذميمة. ﴿هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المتجاوزن الحدّ في الظلم والشر ونقض العهد.

(١) هو كعب بن سعد الغنوي والبيت في الأصمعيات ص٩٧. وهو من الطويل

(٢) ق: مخالفته.

(٣) ق: يتوهّم.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فإن تابوا عن الكفر ونقض العهد والتزموا أحكام الإسلام.

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم. والإخوان والإخوة جمع أخ من نسب أو دين.

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نبيّنها ونوضّحها. وهذه الجملة اعتراض بين الشرطين[١] من قوله «فإن تابوا» وقوله «وإن نكثوا» بعثاً وتحريضاً[٢] على تأمّل ما فصّل تعالى من الأحكام. وقال «لقوم يعلمون» لأنّه[٣] لا يتأمل تفصيلها إلاّ من كان من أهل العلم والفهم.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ أي: وإن نقضوا عهدهم من بعد ما تعاهدوا وتحالفوا على ألّا ينكثوا.

﴿وَطَعَنُواْ [فِى دِينِكُمْ]﴾ أي: عابوه وثلبوه واستنقصوه. والطعن هنا مجاز وأصله الإصابة بالرمح أو العود وشِبْهه. والظاهر أن هذا الترديد في الشرطين هو في حقّ الكفّار أصلاً لا في من أسلم ثم ارتدّ، فيكون قوله «فقاتلوا أئمة الكفر» أي: رؤساء الكفر وزعماءه، والمعنى: فقاتلوا الكفار. وخصّ الأئمة بالذكر لأنهم هم الذين يحرّضون الأتباع على البقاء على الكفر.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ

---

(١) ق: الشركين.

(٢) ق: وتعريضاً.

(٣) ق: لأن.

وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا﴾ «ألا» حرف عرض ومعناه هنا الحضّ على قتالهم. ولمّا أمر تعالى بقتال أهل الكفر أتبع ذلك بالسبب الذي يبعث على مقاتلتهم وهو ثلاثة أشياء جمعوها، وكل واحد منها على انفراده كافٍ في الحضّ على مقاتلتهم. ومعنى «نكثوا أيمانهم» نقض العهد. وقال السدّي وجماعة: نزلت في كفار مكّة نكثوا أيمانهم بعد عهد الحديبية وأعانوا بني بكر على خزاعة انتهى. ﴿وَهَمُّوا۟﴾ هو همُّ قريش بإخراج رسول الله ﷺ من مكّة حين تشاوروا بدار الندوة، فأذن الله تعالى [لنبيّه عليه السلام] في الهجرة، فخرج رسول الله ﷺ بنفسه، وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة، لأن رسول الله ﷺ جاءهم أوّلاً بالكتاب المنير وتحدّاهم به فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادئون والبادىء أظلم.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ تقرير للخشية منهم وتوبيخ عليها ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ فتقتلوا أعداءه. ولفظ الجلالة مبتدأ وخبره «أحق»، و«أن تخشوه» بدل من «الله» أي: وخشية الله أحقّ من خشيتهم، «فأن تخشوه» في موضع رفع، ويجوز أن يكون في موضع نصب أو جرّ على الخلاف إذ حذف حرف الجر وتقديره: بأن تخشوه، أي: أحق من غيره بأن تخشوه. وجوّز أبو البقاء[1] أن يكون «أن تخشوه» مبتدأ و«أحق» خبره قدّم عليه. وأجاز ابن عطية أن يكون

---

(١) إملاء ٢: ١٢.

«أحقّ» مبتدأ وخبره «أن تخشوه» والجملة خبر عن الأول، وحَسُن الابتداء بالنكرة لأنها أفعل التفضيل.

﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ لما تقدم الحضُّ على القتال في قوله «ألا تقاتلون» أمره[1] ها هنا فقال «قاتلوهم». ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾ بالقتل والنّهب وسبي الذرّية، ونصّ بقوله «بأيديكم» على أنهم هم الذين يعذّبونهم. ﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ يُهِنْهُم ويذلّهم. ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يُعِنْكم[2] على قتلهم. وجاء التركيب «صدور قوم مؤمنين» ليشمل المخاطبين وكل مؤمن. وإذهابُ الغيظ بما نال الكفار من المكروه، وهذه الجملة كالتأكيد للتي قبلها. والضمير المجرور في «قلوبهم» عائد على «قوم». وقرأت فرقة: ويَذْهَبْ، فعلاً لازماً، «غيظُ» فاعل به. وقرأ زيد بن علي كذلك، إلا أنه رفع الباء. وقرىء: ويتوبُ الله، رفعاً وهو استئناف إخبار بأن بعض أهل مكة وغيرهم يتوب عن كفره وكان كذلك [فقد] أسلم عالم كثيرون [٢٤٥/أ] وحَسُن إسلامهم. وقرأ زيد بن علي ويعقوب وجماعة: ويتوبَ بنصب الباء، جعله داخلاً في جواب الأمر من طريق المعنى. قيل: ويمكن أن تكون التوبة داخلة في الجزاء. قال ابن عطيّة: ويتوجّه ذلك عندي إذا ذهب إلى أن التوبة يُراد بها ها هنا أنّ قتل الكافرين والجهاد في سبيل الله تعالى هو توبة لكم أيها المؤمنون وكمال لإيمانكم، فتدخل التوبة على هذا في شرط القتال انتهى. وهذا الذي قدّره من كون التوبة تدخل تحت جواب الأمر هو بالنسبة للمؤمنين الذين أُمروا بقتال الكفار. والذي يظهر أن ذلك بالنسبة إلى الكفار، فالمعنى: على من يشاء من الكفار، وذلك أن قتال الكفار وغلبة المسلمين إياهم قد ينشأ عنها إسلام

---

(١) ق: أمر به.

(٢) ق: يعينكم.

كثير من الناس وإن لم يكن لهم رغبة في الإسلام ولا داعية قبل القتال، ألا ترى إلى[1] قتال رسول الله ﷺ أهل مكة كيف كان سبباً لإسلامهم، لأن الداخل في الإسلام قد يدخل فيه على بصيرة وقد يدخل على كره واضطرار ثم قد يحسن حاله في الإسلام.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ﴾ تقدم تفسير هذه الجملة[2]. والمعنى أنكم لا تُتركون على ما أنتم عليه حتى يتبيّن الخلّص منكم وهم المجاهدون في سبيل الله والذين لم يتخذوا بطانة [من دون الله] من غيرهم. و«لم يتخذوا» معطوف على «جاهدوا» داخل في حيّز الصلة. ويجوز أن تكون الجملة حالاً من ضمير «جاهدوا» أي: جاهدوا غير متخذين وليجة. والوليجة فعيلة من ولج، كالدخيلة من دخل وهي البطانة والمدخل يدخل فيه على سبيل الاستسرار[3]، شبّه النفاق به.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ روي أنه لمّا أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر يعيّرونهم بالشرك، وطفق عليّ يوبّخ العباس فقال العباس: تظهرون مساوئنا وتكتمون محاسننا. فقال أَوَ لكم محاسن؟. قال:

---

(١) ق: أنّ.

(٢) انظر تفسير الآية ١٤٢ من آل عمران.

(٣) الاستسرار: الاستتار والتواري.

نعم ونحن أفضل منكم أجراً؛ إنّا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفكّ العاني. فأنزل الله هذه الآية[١] رادًّا عليهم. وانتصب «شاهدين» على الحال والعامل فيه «يعمروا»[٢] وصاحب الحال هو الضمير. وشهادتهم على أنفسهم بالكفر هو[٣] قولهم في الطواف: لبّيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. أو قولهم إذا سئلوا عن دينهم قالوا: نعبد اللات والعزّى.

﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ أعاد الضمير على لفظ مَن في قوله «آمن» وما عُطف عليه، ثم راعى المعنى في قوله «فعسى أولئك». و«عسى» من الله تعالى واجبة حيثما وقعت في القرآن، وفي ذلك قطع أطماع المشركين أن يكونوا مهتدين، إذ من جمع هذه الخصال الأربع[٤] جعل حاله حال من تُرجى له هذه الهداية، فكيف بمن هو عارٍ منها؟ وقال تعالى «أن يكونوا من المهتدين» أي: من الذين سبقت لهم الهداية. ولم يأت التركيب: أن يكونوا مهتدين، بل جُعلوا بعضاً من المهتدين، وكونهم منهم أقلّ في التعظيم من أن يجرّد لهم الحكم بالهداية.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ

(١) انظر لباب النقول ص١١٥.
(٢) ق: نعمر.
(٣) ق: وهو.
(٤) ق: الأربعة.

مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾ الآية، في صحيح مسلم[1] من حديث النعمان بن بشير قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي ألّا أعمل عملاً بعد أن أسقي الحاجّ. وقال آخر: ما أبالي ألّا[2] أعمل عملاً بعد أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل ممّا قلتم. فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وهو يوم الجمعة، ولكنّي إذا صلّيتُ الجمعة دخلتُ فاستفتيتُ رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه، فنزلت هذه الآية. و«سقاية» هو على حذف مضاف تقديره: [٢٤٥/ب] ذوي سقاية الحاج، فيعادل قوله «كمن آمن». ولمّا نفى المساواة بينهما أوضح بقوله «والله لا يهدي القوم الظالمين» مَن الراجح منهما، وأن الكافرين بالله هم الظالمون ظلموا أنفسهم بترك الإيمان بالله تعالى وبما جاء به رسول الله ﷺ، وظلموا المسجد الحرام إذ جعله الله متعبَّداً له فجعلوه متعبَّداً لأوثانهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، زادت هذه الآية وضوحاً في الترجيح للمؤمنين المتّصفين بهذه الأوصاف على المشركين المفتخرين بالسّقاية والعمارة، فطهّروا أنفسهم من دنس الشّرك بالإيمان، وطهّروا أبدانهم بالهجرة إلى مواطن رسول الله ﷺ وترك ديارهم التي نشؤوا بها، ثم بالغوا في الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، المعرَّضين بالجهاد للتّلف. فهذه الخصال أعظم درجات البشرية.

(١) ٣: ١٤٩٩.
(٢) ق: أن.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ﴾ الآية، نهى عن اتخاذ الآباء والإخوان أولياء إذ كانوا قد آثروا الكفر على الإيمان، وحَكَم بأنّ من تولّاهم كان منهم وأنه ظالم.

﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ ﴾ هذه الآية تقتضي الحضّ على الهجرة، وذكر الأبناء لأنهم أعلق بالنفس، وقدّم الآباء لأنهم هم الذين يجب برّهم وإكرامهم وحبّهم، وثنّى بالأبناء لأنهم أعلق بالقلوب. ولمّا ذكر الأصل والفرع ذكر الحاشية وهي الإخوان، ثم ذكر الأزواج وهنّ في المحبّة والإيثار كالأبناء، ثم الأبعد بعد الأقرب في القرابة فقال «وعشيرتكم». ثم ذكر «وأموال اقترفتموها» أي: اكتسبتموها[1]، لأن الأموال يعادل حبّها حبّ القرابة بل حبُّها أشدّ، وكانت الأموال في ذلك الوقت عزيزة وأكثر الناس كانوا فقراء. ثم ذكر «وتجارة تخشون كسادها» والتجارة لا تتهيأ إلا بالأموال، وجعل تعالى التجارة سبباً [لزيادة] الأموال ونمائها. ثم ذكر «ومساكن ترضونها» وهي القصور والدّور. ومعنى «ترضونها» تختارون الإقامة بها. وانتصب «أحب» على أنه خبر «كان»، واسمها «آباؤكم» وما بعده. وقرأ الحجاج بن

(١) ق: أكسبتموها.

يوسف: [أحبُّ] بالرفع، فخطّأه يحيى بن يعمر من حيث الرواية لأنه لم يرو إلاّ بالنّصب وإن كان الرفع جائزاً من حيث العربية، لأنه كان يكون في «كان» ضمير الأمر والشأن وهو اسمها، و«آباؤكم» وما عطف عليه مبتدأ و«أحبّ» خبر، والجملة في موضع [نصب على أنها] خبر «كان».

﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من الإيمان بالله واتّباع رسوله ﷺ.

﴿وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: انتظروا وهو أمر يتضمن التّهديد.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ قال ابن عباس: هو فتح مكة.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ المواطن: مقامات الحرب ومواقفها. وهذه المواطن وقعات بدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر وفتح مكة، ووصفت بالكثرة[1]، وقال أئمة التاريخ إنّها كانت ثمانين موطناً.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [حنين]: هو وادٍ بين مكّة والطائف قريب من ذي المجاز، وصُرف مذهوباً به مذهب المكان، ولو ذُهب به مذهب البُقعة لم يصرف كما قال الشاعر[2]: [من الكامل]

(١) ق: بالكثيرة.

(٢) البيت لحسّان في ديوانه ص٣٩٠.

نصروا نبيّهُم وشَدُّوا أزره   بحنينَ يوم تَواكُلِ الأبطال

و«إذ» بدل من «ويوم»، وأضاف الإعجاب إلى جميعهم وإن كان صادراً من واحد منهم لمّا رأى الجمع الكثير أعجبه ذلك وقال: لن نُغلب اليوم من قلّة. وهذه الكثرة قال ابن عباس: كانوا ستة عشر ألفاً. والباء في «بما رحبت» للحال، و«ما» مصدرية، أي: ضاقت بكم الأرض مع كونها رحبة واسعة لشدّة الحال عليهم. والرُّحب: السّعة، وبفتح الراء: الواسع، يقال: فلان رَحْب الصدر وبلد رَحْب وأرض رَحْبة، وقد رَحُبت رُحْباً [٢٤٦/أ] ورَحابة. «ثم وليتم» أي: ولّيتم فارّين على أدباركم منهزمين تاركين رسول الله ﷺ. وأسند التولّي إلى جميعهم وهو واقع من أكثرهم، إذ ثبت مع رسول الله ﷺ ناس من الأبطال على ما يأتي ذكره فنقول[1]: لمّا افتتح رسول الله ﷺ مكة كان في عشرة آلاف من أصحابه وانضاف إليه ألفان من الطّلقاء فصاروا في اثني عشر ألفاً إلى ما انضاف إليهم من الأعراب من سليم وبني كِلاب وعَبْس وذُبيان. وسمع بذلك كفّار العرب فشقّ عليهم، فجمعت له هوازن وألفافها وعليهم مالك بن عوف النصري، وثقيف عليهم عبد يا ليل بن عمرو، وانضاف إليهم أخلاط من الناس حتى كانوا ثلاثين ألفاً. فخرج إليهم رسول الله ﷺ بعد استعماله عتاب بن أسيد على مكة حتى اجتمعوا بحنين. فلمّا تصافّ الناس حمل المشركون على محاني[2] الوادي وكانوا قد كمنوا بها فانهزم المسلمون. قال قتادة: ويقال إن الطلقاء من أهل مكّة فرّوا وقصدوا إلقاء الهزيمة في المسلمين وبلغ فلّهم مكة، وثبت رسول

(١) انظر السيرة النبوية ٤: ٨٠ وما بعدها. وانظر أيضاً صحيح مسلم ٣:٣٩٨ وما بعدها.

(٢) مَحْنِيَة الوادي: منعطفه، والجمع محانٍ.

الله ﷺ على بغلة شهباء تسمّى دلدل لا يتخلخل، والعباس قد اكتنفه آخذاً بلجامها، وابن عمّه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابنه جعفر وعلي ابن أبي طالب وربيعة بن الحارث والفضل بن العباس وأسامة بن زيد وأيمن ابن عبيد، وهو أيمن بن أم أيمن، وقتل بين يدي رسول الله ﷺ [عنه]، وهؤلاء من أهل بيته. وثبت معه أبو بكر وعمر فكانوا عشرة رجال، ولهذا قال العباس(١): [من الطويل]

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة ... وقد فرّ من قد فرّ منهم وأقشعوا
وعاشرُنا لاقى الحمام بنفسه ... بما مسّه في الله لا يتوجّع

وثبتت أم سليم رضي الله عنها في جملة من ثبت، ممسكةً بعيراً لأبي طلحة وفي يدها خنجر. ونزل رسول الله ﷺ عن بغلته إلى الأرض واستنصر الله عزّ وجلّ وأخذ قبضة من تراب وحصى فرمى بها في وجوه الكفّار وقال: شاهت الوجوه. قال يعلى بن عطاء: فحدّثني أبناؤهم عن آبائهم قالوا: لم يبق منّا أحد إلاّ دخل عينيه ذلك التراب. وقال صلى الله عليه وسلم للعبّاس وكان صيّتاً: نادِ أصحاب السَّمُرة(٢). فنادى الأنصار فخذاً فخذاً، ثم نادى: يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب البقرة(٣). فكرّوا عَنَقاً واحداً(٤) وهم يقولون: لبّيك لبّيك. وانهزم المشركون، فنظر رسول الله ﷺ إلى قتال

---

(١) البيتان في الجامع ٨: ٩٨.

(٢) أي الشجرة المسمّاة بذلك وهي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان عام الحديبية.

(٣) عنى بأصحاب الشجرة أصحاب البيعة، وبأصحاب البقرة أصحاب القرآن، من إطلاق الجزء على الكلّ.

(٤) العَنَق: السير السريع.

المسلمين فقال: هذا حين حمي الوطيس. وركض رسول الله ﷺ [خلفهم] على بغلته. وفي صحيح مسلم[1] من حديث البراء أن هوازن كانوا رماةً فرموهم برِشْق من نَبلٍ كأنها رِجْلٌ[2] من جراد فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان يقود بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب، اللّهم أنزل نصرك. قال البراء: كنّا إذا حمي الوطيس نتّقي به صلى الله عليه وسلم، وإن الشجاع الذي يتحاذى[3] به، يعني النبي ﷺ. وفي أول هذا الحديث: أكنتم ولّيتم يوم حنين يا أبا عمارة؟ فقال: أشهد على رسول الله ﷺ أنّه ما ولّى.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ السكينة: النصر والوقار والثبات بعد الاضطراب والقلق. ويخرج من هذا القول رسول الله ﷺ، فإنه لم يزل ثابت الجأش ساكنه. «وعلى المؤمنين» ظاهره شمول من فرّ ومن ثبت. وقيل: هم الأنصار إذ هم الذين كرّوا وردُّوا الهزيمة.

﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هم الملائكة بلا خلاف، ولم تتعرّض الآية لعددهم.

﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالقتل الذي [٢٤٦/ب] استحرّ فيهم والأسر لذراريهم والنّهب لأموالهم. وكان السّبي أربعة آلاف رأس وقيل ستة آلاف، ومن الإبل اثنا عشر ألفاً سوى ما لا يُعلم من الغنم، وقسّمها رسول الله ﷺ بالجِعرانة[4]، وفيها قصّة عباس بن مرداس وشعره. وكان مالك بن عوف قد أخرج الناس للقتال، والذّراري ليقاتلوا عنها، فخطّأه في ذلك دريد بن

(١) مسلم ٣: ١٤٠٠، والبخاري ٣: ١٠٥٢.
(٢) الرِّجْل من الجراد: القطعة العظيمة منه.
(٣) يتحاذى به: يقابله ويجعله حذاءه أي: إزاءه.
(٤) موضع ظاهر مكة على سبعة أميال منها إلى الطائف.

الصمّة وقال: هل يردّ المنهزمَ شيءٌ؟. وفي ذلك اليوم قتل دريد القتلة المشهورة، قتله ربيعة بن رفيع بن أهبان السّلمي ويقال له ابن الدّغنة.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ إخبار بأن الله تعالى يتوب على من يشاء فيهدي من شاء ممّن بقي من الكفار للإسلام، وَوَعْدٌ بالمغفرة والرحمة كمالك بن عوف النصري رئيس هوازن ومن أسلم معه من قومه. وروي(١) أن ناساً منهم جاؤوا فبايعوا على الإسلام وقالوا: يا رسول الله، أنت خير النّاس وأبرّ الناس، وقد سُبي أهلونا وأولادنا وأُخذت أموالنا. فقال صلى الله عليه وسلم: إن خير القول أصدقه، اختاروا إمّا ذراريكم ونساءكم وإمّا أموالكم. فقالوا: ما نَعْدِلُ بالأحباب(٢) شيئاً. وتمام الحديث أنهم أخذوا نساءهم وذراريهم إلا امرأة وقع عليها صفوان بن أمية فحبلت منه فلم يردّها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ الآية، لمّا أمر صلى الله عليه وسلم عليًّا رضي الله عنه أن يقرأ على المشركين بمكّة أول «براءة» وينبذ إليهم عهدهم وأن الله بريء من المشركين ورسوله، قال أناس: يا أهل مكّة ستعلمون ما تَلْقَوْن من الشدّة وانقطاع السّبل وفقد الحمولات

(١) انظر البخاري ٤: ١٥٦٩ من حديث عروة بن الزبير.

(٢) في البحر ٥: ٢٦: بالأحساب، وفي القرطبي ٨: ١٠٢: بالأنساب.

فنزلت[١]. والظاهر الحكم عليهم بأنهم نجس، أي ذوو نجس. قال ابن عباس والحسن وعمر بن عبد العزيز والطبري وغيرهم: الشّرك هو الذي نجّسهم فأعيانهم نجسة كالخمر والكلاب والخنازير. وقال الحسن: من صافح مشركاً فليتوضأ. وفي التحرير: وبالغ الحسن حتى قال إن الوضوء يجب مِن مَسِّ يد المشرك. ولم يأخذ أحد بقول الحسن إلا الهادي من الزّيدية. وقال قتادة ومعمر بن راشد وغيرهما: وصف المشرك بالنجاسة لأنه جُنب إذ غسله من الجنابة ليس بغُسل. وعلى هذا القول يجب الغُسل على من أسلم من المشركين، وهو بذهب مالك. وقال ابن عبد الحكم: لا يجب. ولا شكّ أنهم لا يتطهّرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فجُعلوا نجساً مبالغة في وصفهم بالنجاسة.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ الظاهر أن النهي مختصّ بالمشركين وبالمسجد الحرام، وهذا مذهب أبي حنيفة. وأباح دخول اليهود والنصارى المسجد[٢] الحرام وغيره، ودخول عبدة الأوثان في سائر المساجد. وقال الشافعي: هي عامّة في الكفار، خاصّة في المسجد الحرام، فأباح دخول اليهود والنصارى والوثنيين في سائر المساجد. وقاس مالك جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على المشركين، وقاس سائر المساجد على المسجد الحرام، ومنع من دخول الجميع في جميع المساجد.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ العيلة: الفقر. وقرىء: عائلة، وهو مصدر كالعاقبة أو نعت لمحذوف أي: حالاً عائلة.

(١) انظر لباب النقول ص ١١٦.

(٢) ق: دخول المسجد.

﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أتى في جواب الشرط بسوف، وهي أكثر مبالغة في التنفيس من السين. والإغناء إنما وقع كثيراً بعد اتّساع نطاق الإسلام وفتح البلاد؛ يحكى عن الزبير وطلحة أنهما بلغا من اتّساع المال ما يُتَعَجَّب منه. وعلّق الإغناء بالمشيئة لأنه يقع في حقّ بعضٍ دون بعض وفي وقت دون وقت.

﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ نزلت حين أمر رسول الله ﷺ بغزو الروم، وغزا بعد نزولها تبوك. وقيل: نزلت في قريظة والنضير فصالحهم. وكانت أول جزية أصابها المسلمون وأول ذلّ أصاب أهل [٢٤٧/أ] الكتاب بأيدي المسلمين. نفى الإيمان بالله عنهم لأن سبيلهم سبيل من لا يؤمن بالله تعالى، إذ يصفونه بما لا يليق أن يوصف به «من الذين أوتوا الكتاب» بيان لقوله «الذين». والظاهر اختصاص أخذ الجزية من أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل والروم نصًّا، وأجمع الناس على ذلك. وأما المجوس فقال ابن المنذر: لا أعلم خلافاً أن الجزية تؤخذ منهم انتهى، ورُوي أنه كان بُعث في المجوس نبي واسمه زرادشت، واختلف أصحاب مالك في مجوس العرب. وأما السّامرة والصابئة فالجمهور على أنهم من اليهود والنصارى تؤخذ منهم الجزية وتؤكل ذبائحهم، وقالت فرقة: لا تؤخذ منهم جزية ولا تؤكل ذبائحهم، وقيل: تؤخذ منهم الجزية ولا تؤكل ذبائحهم. والظاهر شمول جميع أهل الكتاب في إعطاء الجزية. ولم يرد نصٌّ في مقدار الجزية، وقال الشافعي وغيره: على كل رأس دينار. وقال أبو حنيفة: على الفقير المكتسب اثنا عشر درهماً، وعلى المتوسط في الغنى ضعفها، وعلى المكثر ضعف الضعف ثمانية وأربعون درهماً. ولا تؤخذ عنده من فقير لا كسب له.

﴿عَن يَدٍ﴾ قال ابن عباس: أي: يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها.

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ جملة حالية أي: ذليلون حقيرون. وذكروا كيفيات في أخذها منهم وفي صَغارهم، ولم تتعرض الآية لتعيين شيء منها.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ بيّن سبحانه وتعالى لحاق اليهود والنصارى بأهل الشرك وإن اختلفت طرق الشرك، فلا فرق بين من يعبد الصنم أو يعبد المسيح وغيره، وقائل ذلك قوم من اليهود كانوا بالمدينة. قال ابن عباس: قالها أربعة من أحبارهم: سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف، وقيل: قاله فنحاص[1]. والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية تُليت عليهم فما أنكروا ولا كذّبوا مع تهالكهم على التكذيب.

---

(١) ق: فيحاص.

وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام، فرفع الله تعالى عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عزير وهو غلام يسيح في الأرض فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: إلى أين تذهب؟. قال: أطلب العلم. فحفّظه التوراة فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً. فقالوا: ماجمع الله له التوراة في صدره وهو غلام إلا أنّه ابنه. وظاهر قول النصارى «المسيح ابن الله» بنوّة النسل كما قالت العرب في الملائكة وكما قيل عنهم إنهم يقولون إن المسيح إله وابن إله. وقيل [إن] بعضهم يعتقدها بنوّة حنوٍّ ورحمة. وهذا القول لم يظهر إلا بعد النبوّة المحمّدية وظهور دلائل صدقها، وبعد أن خالطوا المسلمين وناظروهم، فرجعوا عمّا كانوا يعتقدونه في عيسى عليه السلام. وقرىء: عزيرٌ، منوّناً على أنه اسم عربي مصغّر. وقرىء غير منوّن على أنه أعجمي مُنع من الصرف للعجمة والعلمية. وهو مبتدأ وخبره «ابن». ومعنى «بأفواههم» أنه قول لا يعضده برهان فما هو إلاّ لفظ فارغ يفوهون[1] به كالألفاظ المهملة التي هي كالأجراس والنّغم لا تدلّ على معانٍ. وقرىء: يضاهئون ويضاهون، معناه يشابهون[2]، و[هو] على حذف مضاف تقديره: يضاهي قولهم قول الذين كفروا.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم أسلاف المعاصرين لرسول الله ﷺ.

﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم عامّ لأنواع الشر.

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل على

(١) ق: ينوهون.

(٢) لا وجه لتوجيه العبارة هكذا: وقرىء: يضاهئون. ويضاهون: معناه يشابهون. لأن هذا التوجيه يذهب بقراءة باقي السبعة بلا همز، عدا عاصم وابن مصرف.

سبيل التعجب.

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ تعدّت «اتخذ» إلى مفعولين، والضمير عائد على اليهود والنصارى. والأحبار: علماء اليهود واحدهُ حَبْر، والرهبان: عُبّاد النصارى الذين زهدوا في الدنيا وانقطعوا عن الخلق في الصوامع. أخبر عن المجموع وعاد كلٌّ إلى [٢٤٧/ب] ما يناسبه، أي: اتخذ اليهود أحبارهم والنصارى رهبانهم.

و﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عطف على «رهبانهم».

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ الظاهر أن الضمير عائد على من عاد عليه في «اتخذوا» أي: أُمروا في التوراة والإنجيل وعلى ألسنة أنبيائهم. وفي قوله «عما يشركون» دلالة على إطلاق اسم الشّرك على اليهود والنصارى.

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ مَثّلهم ومَثَّل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوّة محمد ﷺ بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبثٍّ في الآفاق، ونور الله تعالى: هُداه الصادر عن القرآن والشرع المنبثّ. فمن حيث سمّاه نوراً سمّى محاولة إفساده إطفاءً، وكنّى بالأفواه عن قلّة حيلتهم وضعفها. أخبر أنهم يحاولون أمراً جسيماً بشيء ضعيف، فكان الإطفاء بنفخ الأفواه.

﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ أجرت العرب [أبى] بمعنى الفعل المنفي كأنه قال: لا يريد الله، فلذلك دخلت «إلاّ» في الإيجاب بعد ما معناه النفي. و«أن يتم» [في موضع نصب] ونظير ذلك قول الشاعر(١): [من الطويل]

(١) البيت للنابغة في ديوانه ص٥٣.

أبـــى الله إلا عـــدلَـــه ووفـــاءَهُ   فلا النُّكْرُ معروفٌ ولا العُرْفُ ضائعُ

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ الآية، الظاهر أن الضمير في «ليظهره» عائد على الرسول ﷺ لأنه المحدَّث عنه. و«الدين» هنا جنس أي: ليعليه على أهل الأديان كلّهم، فهو على حذف مضاف. فهو صلى الله عليه وسلم غلبت أمّته[1] اليهود وأخرجوهم من بلاد العرب، وغلبوا النصارى على بلاد الشام إلى ناحية الروم والمغرب، وغلبوا المجوس على ملكهم، وغلبوا عُبّاد الأصنام على كثير من ملكهم مما يلي الترك والهند، وكذلك سائر الأديان.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ذكر ما عليه كثير منهم، تنقيصاً من شأنهم وتحقيراً لهم، وأن مثل هؤلاء لا ينبغي تعظيمهم فضلاً عن اتخاذهم أرباباً لما اشتملوا عليه من أكل المال بالباطل وصدّهم عن سبيل الله. واندرجوا في عموم الذين يكنزون الذهب والفضة فجمعوا بين الخصلتين الذّميمتين: أَكْل المال بالباطل وكَنْز المال. وأَكْلُهم المال بالباطل هو أخذهم من أموال أتباعهم ضرائب باسم الكنائس والبيع وغير ذلك ممّا يوهمونهم به أن النفقة فيه من الشّرع والتقرب إلى الله تعالى. وصَدُّهم عن سبيل الله هو دين الإسلام واتّباع رسول الله ﷺ. «والذين» مبتدأ اسم موصول ضُمّن معنى اسم الشرط، فلذلك دخلت الفاء في خبره في قوله «فبشرهم». والضمير في «ولا ينفقونها» عائد على المكنوزات الدّال عليها «الذهب والفضة».

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا ﴾، «يوم» منصوب بقوله «أليم». والضمير في «عليها» [عائد] على المكنوزات يوقد عليها في نار جهنم؛ إذ يجوز أن يجمع الله

---

(١) ق: ملّتهم.

تلك المكنوزات فيُحمى عليها.

﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ﴾ وخصّصت هذه المواضع بالكيّ لأنه في الجبهة أشنع، وفي الجنب والظهر أوجع، ولأنها مجوّفة فتصل إلى أجوافهم النار بخلاف اليد والرجل.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ هو على إضمار قول تقديره: فيقال لهم «هذا» إشارة إلى المصدر المفهوم من قوله «فتكوى» أي: هذا الكيّ جزاء ما كنزتم.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ﴾ الآية، كانت العرب لا عيش لأكثرها إلاّ من الغارات وإعمال سلاحها، فكانت إذا توالت عليهم الأربعة الحرم صَعُبَ عليهم وأملقوا، وكان بنو فقيم من كنانة أهل دين وتمسّكٍ بشرع إبراهيم عليه السلام، فانتدب لهم القَلَمَّس وهو حذيفة بن عبيد بن [٢٤٨/أ] فقيم، فنسأ الشهور للعرب ثم خلفه على ذلك ابنه عباد ثم ابنه قلع ثم ابنه أميّة ثم ابنه عوف ثم ابنه جنادة بن عوف وعليه قام الإسلام. وكانت العرب إذا فرغت من حجّها جاء إليه من شاء منهم مجتمعين فقالوا: أَنْسِئْنا شهراً، أي: أَخِّرْ عنّا حرمة المحرّم فاجعلها في صفر، فيُحلّ المحرم ويغزون فيه ويعيشون، ثم يلتزمون حرمة صفر ليوافقوا عدّة الأشهر الأربعة، ويسمّون ذلك الصّفر

المحرّم، ويسمّون ربيعاً الأول صفراً، وربيعاً الآخر ربيعاً الأول وهكذا في سائر الشهور يستقبلون نسيئهم في المحرّم الموضوع لهم، فيسقط على هذا حكم المحرّم الذي حلّل لهم، وتجيء السنّة من ثلاثة عشر شهراً أولها [المحرّم] المحلّل، ثم المحرّم الذي هو في الحقيقة صفر، ثم استقبال السّنة كما ذكرنا. قال مجاهد: ثم كانوا يحجّون [في] كل عام شهرين وِلاءً[1]، وبعد ذلك يبدّلون فيحجّون عامين ولاءً ثم كذلك حتى كانت حجّة أبي بكر رضي الله عنه في ذي القعدة حقيقة، وهم يسمّونه ذا الحجّة. ثم حجّ رسول الله ﷺ سنة عَشْرٍ في ذي الحجّة حقيقة. فلذلك قوله[2] «إن الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً أربعة حُرُم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب الذي بين جمادى وشعبان». ومناسبة هذه الآية [لما قبلها] أنه لمّا ذكر أنواعاً من قبائح أهل الشرك وأهل الكتاب، ذكر أيضاً نوعاً منه وهو تغيير العرب أحكام الله تعالى لأنه حَكَم في وقت بحكم خاص، فإذا غيّروا ذلك الوقت فقد غيّروا حكم الله تعالى. و«الشهور» جمع كثرة، وأعاد الضمير عليها كإعادته على الواحدة المؤنثة فقال «منها» أي: من تلك الشهور. ولمّا كانت الأربعة الحُرم للقلّة عاد الضمير عليها بالنون في قوله «فيهن»؛ تقول[3] العرب: الجذوع انكسرت لأنه جمع كثرة، والأجذاع انكسرن لأنه جمع قلّة. وانتصب «كافة» على الحال من الفاعل أو المفعول، ومعناه: جميعاً. ولا يثنّى ولا يُجمع ولا تدخله أل ولا يُتصرف فيها بغير الحال. وتقدم بسط الكلام فيها في قوله ﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة]. والمعيّة بالنصر والتأييد، وفي ضمنه

---

(١) أي: متابعة.

(٢) ق: وقول.

(٣) ق: وقول.

الأمر بالتقوى والحثّ عليها.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ﴾ قرىء: النسيء، مهموزاً على وزن فعيل. وقرىء: النسيّ، بتشديد الياء في غير همز. وتقدّم الكلام عليها في قوله ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة].

﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ جاءت مع كفرهم بالله لأن الكافر إذا أحدث معصية ازداد كفراً. والضمير في «به» عائد على «النّسيء».

واللام في ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟﴾ متعلقة بقوله «ويحرّمونه» وذلك على طريق الإعمال. ومعنى «ليواطئوا» أي: ليحفظوا في كل عام أربعة أشهر في العدد؛ فأزالوا الفضيلة التي خصّ الله تعالى بها الأشهر الحرم [وحفظوا العِدّة] وحدها، بمثابة أن يفطر رمضان ويصوم شهراً من السّنة بغير مرض أو سفر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ﴾ الآية، لمّا أمر الله رسوله ﷺ بغزاة تبوك، وكان زمان جدبٍ وحرٍّ شديد وقد طابت الثمار، عظم ذلك على الناس

وأحبّوا المقام. نزلت عتاباً على من تخلّف عن هذه الغزاة، وكانت سنة تسعٍ من الهجرة بعد الفتح بعام غزا فيها الرّوم في عشرين ألفاً من راكب وراجل، وتخلّف عنه قبائل من الناس، ورجال من المؤمنين كثير، ومنافقون. وخصّ الثلاثة بالعتاب الشديد بحسب مكانهم من الصحبة إذ هم من أهل بدر وممّن يُقتدى بهم. وكان تخلّفهم عن غير علّة حسبما يأتي[1] إن شاء الله تعالى. ولمّا شرح معايب الكفّار رغّب في مقاتلتهم. و«ما لكم» استفهام معناه الإنكار [٢٤٨/ب] والتقريع. وبُني «قيل» للمفعول، والقائل هو رسول الله ﷺ، ولم يذكر إغلاظاً ومخاشنةً لهم وصوناً لذكره، إذ أخلد إلى الهوينى والدّعة من أخلد وخالف أمره عليه السلام.

ومعنى ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ مِلْتُم إلى شهوات الدنيا حين أخرجت الأرض ثمارها، وكرهتم مشاقّ السفر. وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم، ولمّا ضُمّن معنى الميل والإخلاد عُدّي بـ«إلى». وفي قوله «أرضيتم» نوع من الإنكار والتعجب، أي: أرضيتم بالنعيم العاجل في الدنيا بدل النعيم الباقي. و«من» تضافرت[2] أقوال المفسرين على أنها بمعنى: [بدل، أي]: بدل الآخرة كقوله تعالى ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف] أي: بدلاً منكم. ومنه قول الشاعر[3]:

فليت لنا من ماء زمزم شربةً مبـرّدةً بـاتـت على طَهَيـان

أي: بدلاً من ماء زمزم. والطّهيان: عود ينصب في ناحية الدار للهواء تُعلّق فيه أوعية الماء [حتى] يبرد. وأصحابنا لا يُثبتون أن «مِنْ» تكون للبدل.

---

(١) انظر شرح الآية ١١٨ من السورة.

(٢) ق: تظافرت.

(٣) البيت للأحول الكندي كما في اللسان «طها». وهو من الطويل

ويتعلق «في الآخرة» بمحذوف تقديره: فما متاع الحياة الدنيا محسوباً في نعيم الآخرة.

﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾ الآية، هذا وعيد للمتثاقلين عظيم، حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدّارين، وأنه يهلكهم ويستبدل قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع، وأنه غني عنهم في نصرة دينه لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ فيه انتفاء النصر بأي طريق كان من نَفْرٍ أو غيره. وجواب الشرط محذوف تقديره: فسينصره [الله]، ويدلّ عليه «فقد نصره الله» أي: ينصره في المستقبل كما نصره في الماضي. ومعنى إخراج الذين كفروا إياه: فِعْلُهم به ما يؤدي إلى الخروج. والإشارة إلى خروج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة. ونسب الإخراج إليهم مجازاً كما نسب في قوله ﴿الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ⑬﴾ [محمد]. وقصة خروج رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه مذكورة في السِّيَر. وانتصب «ثاني اثنين» على الحال أي: أحد اثنين وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه. ورُوي أنه لمّا أُمر بالخروج قال لجبريل عليه السلام: مَن يخرج معي؟ قال: أبو بكر. وقال الليث: ما صحب الأنبياء عليهم السلام مثل أبي بكر. وقال سفيان ابن عيينة: خرج أبو بكر بهذه الآية من المعاتبة التي في قوله «إلاّ تنصروه». قال ابن عطية: بل خرج منها كلّ من شاهد غزوة تبوك، وإنما المعاتبة لمن تخلّف فقط. وهذه الآية منوّهة بقدر أبي بكر رضي الله عنه وتقدّمه وسابقته في الإسلام. وفي هذه الآية ترغيبهم في الجهاد ونصر دين الله تعالى؛ إذ بيّن فيها أن الله ينصره كما نصره إذ كان في الغار وليس معه أحد فيه سوى أبي بكر رضي الله عنه. و«الغار» نَقْب في أعلى ثور وهو جبل في يمنى مكّة على مسيرة ساعة، مكث فيه عليه السلام ثلاثاً. «إذ هما» بدل، و«إذ يقول» بدل ثانٍ. وقال العلماء: من أنكر صحبة أبي بكر فقد كفر لإنكاره كلام الله

وليس ذلك لسائر الصحابة. وكان سبب حزن أبي بكر خوفه على رسول الله ﷺ، فنهاه عليه السلام تسكيناً لقلبه، وأخبره بقوله «إن الله معنا» يعني بالمعونة والنصر. وقال أبو بكر: يا رسول الله، إن قُتلتُ فأنا رجل واحد، وإن قُتلتَ هَلَكَتِ الأمّة وذهب دين الله. فقال رسول الله ﷺ[1] «ما ظنّك باثنين الله ثالثهما». وأنشد أبو بكر[2]: [من البسيط]

[٢٤٩/أ] قال النبي: -ولم- يجزع يوقّرني ... ونحن في سدفٍ من ظلمة الغار
لا تَخْشَ شيئاً فإن الله ثالثنا ... وقد تكفّل لي منه بإظهار
وإنما كيدُ من يخشى بوادره ... كيد الشياطين قد كادت لكفّار
والله مهلكهم طرًّا بما صنعوا ... وعاجل المنتهى منهم إلى النار

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ قال ابن عبّاس: السكينة: الرحمة والوقار، والضمير في «عليه» عائد على رسول الله ﷺ إذ هو المحدَّث عنه. وقال ابن عطية: والسّكينة عندي إنما هي ما ينزله الله تعالى على أنبيائه من الحياطة لهم والخصائص التي لا تصلح إلاّ لهم، كقوله ﴿فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ۝٢٤٨﴾ [البقرة]. ويحتمل [أن يكون] قوله «فأنزل الله سكينته» إلى آخره، يراد به ما صنعه الله تعالى لنبيّه إلى وقت تبوك من الظهور والفتوح، لا أن يكون هذا يختصّ بقضيّة الغار.

و﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هي الشرك وهي مقهورة.

---

(١) أخرجه البخاري ٤: ١٧١٣ من حديث أنس عن أبي بكر.

(٢) البيتان الأوّلان في البداية والنهاية ٣: ١٨٣، وفيه إشارة إلى قصيدة أبي بكر وأنها مطولة جدًّا.

﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ هي التوحيد[١]، و«هي» فَصْل بين المبتدأ والخبر، أو مبتدأ و«العليا» خبره، والجملة خبر لقوله «وكلمة الله».

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ لمّا توعّد تعالى من لا ينفر مع رسول الله ﷺ وضرب له من الأمثال ما ضرب، أتبعه بهذا الأمر الجزم. والمعنى: انفروا على الوصف الذي يخفّ عليكم [فيه] الجهاد، أو الوصف الذي يثقل. والخفّة والثّقل هنا مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة ومن يمكنه بصعوبة. وأمّا من لا يمكنه كالأعمى ونحوه فخارج عن هذا.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٤٢)﴾.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ أي: لو كان ما دُعوا إليه غُنماً قريباً سهل المنال ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وسطاً مقارباً. وهذه الآية في قصة تبوك حين استنفر المؤمنين فنفروا، واعتذر منهم لا محالة فريق لا سيّما من القبائل المجاورة للمدينة. ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ لبادروا إليه لا لوجه الله تعالى ولا لظهور كلمته. ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة الطويلة في غزو الرّوم. و«الشّقة» السفر البعيد، وربما قالوه بالكسر في الشين. ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ أي: المنافقون. وهذا إخبار بغيب، قال الزمخشري ما نصّه[٢]: «بالله» متعلق بـ«سيحلفون» أو هو من كلامهم، والقول مراد في الوجهين أي: سيحلفون - [يعني] المتخلفين - عند رجوعك من غزوة تبوك، معتذرين يقولون: بالله

(١) ق: التوكيد.

(٢) الكشاف ٢: ١٩١.

لو استطعنا لخرجنا معكم، أو: وسيحلفون بالله يقولون: لو استطعنا. وقوله «لخرجنا» سدّ مسدّ جواب القسم و«لو» جميعاً. والإخبار بما سوف يكون بعد القول من حلفهم واعتذارهم، وقد كان من جملة المعجزات. ومعنى الاستطاعة استطاعة العُدّة أو استطاعة الأبدان كأنهم تمارضوا انتهى. وما ذهب إليه من أن قوله «لخرجنا» سدّ مسدّ جواب القسم و«لو» جميعاً، ليس بجيّد، بل للنحويّين في هذا مذهبان: أحدهما أنّ «لخرجنا» هو جواب القسم، وجواب «لو» محذوف على قاعدة اجتماع القسم والشرط إذا تقدّم القسم على الشرط، وهذا اختيار أبي الحسن ابن عصفور. والآخر أنّ «لخرجنا» هو جواب «لو»، وجواب القسم هو «لو» وجوابها، وهذا اختيار ابن مالك. أما أنّ «لخرجنا» يسدّ مسدّهما فلا أعلم أحداً ذهب إلى ذلك.

﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالحلف الكاذب أي: يوقعونها في الهلاك به. والظاهر أنها جملة استئناف إخبار منه تعالى. وقال الزمخشري[1]: «يهلكون أنفسهم» إمّا أن يكون بدلاً من «سيحلفون» أو حالاً بمعنى مهلكين، [٢٤٩/ب] والمعنى أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب، وما يحلفون عليه من التخلّف. ويحتمل أن يكون حالاً من قوله «لخرجنا» أي: لخرجنا معكم وإن أهلكنا أنفسنا وألقيناها في التّهلكة بما نحمّلها من المسير في تلك الشّقة[2]. وجاء به على لفظ الغائب لأنه مخبر عنهم، ألا ترى أنه لو قيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا، لكان سديدا. يقال: حلف بالله ليفعلنّ ولأفعلن، فالغيبة على[3] حكم الإخبار والتكلم على الحكاية انتهى. أما كون «يهلكون»

---

(١) الكشاف ٢: ١٩١.

(٢) ق: المشقة.

(٣) ق: في.

بدلاً من «سيحلفون» فبعيد، لأن الإهلاك ليس مرادفاً [للحلف] ولا هو نوع من الحلف، ولا يجوز أن يبدل فعل من فعل إلّا أن يكون مرادفاً له أو نوعاً منه. وأمّا كونه حالاً من قوله «لخرجنا» فالذي يظهر أن ذلك لا يجوز لأن قوله «لخرجنا» فيه ضمير المتكلم، فالذي يجري عليه إنما يكون بضمير المتكلم. فلو كان حالاً من ضمير «لخرجنا» لكان التركيب: نهلك أنفسنا أي: مهلكي أنفسنا. وأما قياسه على: حلف بالله ليفعلنّ ولأفعلنّ، فليس بصحيح لأنه إذا أجراه على ضمير الغيبة لا يخرج منه إلى ضمير التكلم، لو قلت: حلف زيد ليفعلنّ وأنا قائم، على أن يكون: وأناقائم، حالاً من ضمير ليفعلنّ، لم يَجُز. وكذا عكسه نحو: حلف زيد لأفعلنّ يقوم، تريد: قائماً، لم يَجُز. وأما قوله: وجاء به على لفظ الغائب لأنه مخبر عنهم فمغالطة؛ ليس مخبراً عنهم بقوله «لو استطعنا لخرجنا معكم» بل هوحاكٍ لفظ قولهم. ثم قال: ألا ترى [أنه] لوقيل: لو استطاعوا لخرجوا لكان سديداً إلى آخره. صحيح، لكنه تعالى لم يقل ذلك إخباراً عنهم بل حكاية والحال من جملة كلامهم المحكي، فلا يجوز أن يخالف بين ذي الحال وحاله لاشتراكهما في العامل، لو قلت: قال زيد: خرجت نضرب خالداً، تريد أضرب خالداً، لم يَجُز، ولو قلت: قالت هند: خرج زيد أضرب خالداً، تريد: خرج زيد ضارباً خالداً لم يَجُز.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن
يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾
۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا

وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ
بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ
ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا
تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ
بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ اللام في «لِمَ» لام التعليل و«ما» استفهامية حذف منها الألف. واللام الثانية للتبليغ. وهما متعلّقان «بأذنت» وجاز ذلك لاختلاف معنييهما. و«حتى» غاية للاستفهام. وقوله «الذين صدقوا» في استئذانك وأنك لو لم تأذن لهم خرجوا معك.

﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يريد في أنهم استأذنوك يظهرون لك أنهم يقفون عند حدّك وهم كَذَبة وقد عزموا على العصيان أذنت لهم أو لم تأذن.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ما قبل هذه [الآية] وما بعدها ورد في قصة [تبوك]. والظاهر أن متعلّق الاستئذان هو «أن يجاهدوا» أي: ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان(١) الخُلّص من المهاجرين والأنصار لا يستأذنون النبي ﷺ أبداً ويقولون: لنجاهدنّ معه بأموالنا وأنفسنا.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية، هم المنافقون وكانوا تسعةً وثلاثين رجلاً.

ومعنى «ارتابت»: شكّت.

و﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾: يتحيّرون لا يتجه لهم هدى، فتارة يخطر لهم صحة أمر

---

(١) ق: وإن كان.

رسول الله ﷺ وتارة يخْطر لهم خلاف ذلك.

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ﴾ قال ابن عباس: عدّة من الزّاد والماء والرّاحلة لأن سفرهم بعيد وفي زمان حرٍّ شديد. وفي تركهم العدّة دليل على أنهم أرادوا التخلّف.

﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ قال الزمخشري[1]: فإن قلت: كيف موقع حرف الاستدراك؟ قلت: لمّا كان قوله «ولو أرادوا الخروج» معطياً معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو، قيل «ولكن كره الله انبعاثهم» كأنه قيل: ما خرجوا ولكن تثبّطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم، [٢٥٠/أ] كما تقول: ما أحسن إليّ زيد ولكن أساء إليّ انتهى. وليست الآية نظير[2] هذا المثال، لأن المثال واقع فيه «لكن» بين [ضدين، وفي الآية «لكن» واقع فيها بين] متّفقين من جهة المعنى. والانبعاث: الانطلاق والنهوض، قال ابن عباس: «فثبطهم» كسّلهم وفتّر نيّاتهم.

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ لمّا خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنيّة الوداع، وضرب عبد الله بن أبيّ عسكره أسفل منها ولم يكن بأقلّ العسكرين. فلمّا سار تخلّف عنه عبد الله فيمن تخلّف فنزلت. والخبال: قال ابن عباس: الفساد ومراعاة إخماد الكلمة. وتقدم شرح الخبال في آل عمران[3]. وهذا الاستثناء متصل وهو مفرّغ، إذ المفعول الثاني لـ«زاد» لم يُذكر. وقد كان في هذه الغزوة منافقون كثير ولهم لاشك خبال، فلو خرج

---

(١) الكشاف ٢: ١٩٣.

(٢) ق: تظهر.

(٣) انظر تفسير الآية ١١٨ من آل عمران.

هؤلاء لالتأموا فزاد الخبال.

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟﴾ الإيضاع: الإسراع: قال الشاعر[١]: [من الوافر]

أَراناا مُـوضِعيـن لأمـرِ غيـبٍ ونُسحر بالطعام وبالشرابِ

ومفعول «أوضعوا» محذوف تقديره: ولأوضعوا ركائبهم[٢] بينكم، لأن الراكب أسرع من الماشي. والخِلال: جمع الخَلَل وهو الفرجة بين الشيئين، وجلسنا خلال البيوت وخلال الدّور: أي بينها. و«يبغون» حال أي: باغين. و«الفتنة» هي الكفر.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ قال الزمخشري[٣]: نمّامون، يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم، أو فيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم انتهى. فاللام في القول الأول للتعليل، وفي الثاني لتقوية التعدية كقوله تعالى ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج]. والقول الأول قاله سفيان بن عيينة والحسن ومجاهد وابن زيد، قالوا: معناه جواسيس يستمعون الأخبار وينقلونها إليهم، ورجّحه الطبري. والقول الثاني قول الجمهور، قالوا: معناه وفيكم مطيعون سامعون.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ تقدم ذكر السبب في نزول هذه الآية والتي قبلها من قصة رجوع عبد الله بن أبيّ بأصحابه في هذه الغزاة. حقّر شأنهم في هذه الآية وأخبر أنهم قديماً سعوا[٤] على الإسلام فأبطل الله سعيهم. قال ابن عباس: بَغَوْا لك الغوائل. وقال ابن جريج: وقف اثنا عشر رجلاً من

(١) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٩٧.
(٢) ق: ركائبكم.
(٣) الكشاف ٢: ١٩٤.
(٤) ق: سمعوا.

المنافقين على الثّنية ليلة العقبة كي يفتكوا برسول الله ﷺ.

ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذه الغزوة، وذلك ما كان من حالهم وقت هجرة رسول الله ﷺ ورجوعهم عنه في أحد وغيرها. وتقليب الأمور هو تدبّرها ظهراً لبطنٍ، والنظر في نواحيها وأقسامها والسعي بكل حيلة.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآن وشريعة رسول الله ﷺ. ولفظة «جاء» مشعرة بأنه كان قد ذهب.

﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وصفه بالظهور لأنه كان كالمستور، أي: غلب وعلا دين الله.

﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي: لمجيء الحق وظهور دين الله تعالى.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى﴾ نزلت في الجدّ بن قيس[1]، ذكر أن رسول الله ﷺ لمّا أمر بالغزو إلى بلاد الروم حرّض الناس فقال للجدّ بن قيس: هل لك العام في جِلاد بني الأصفر؟. وقال له وللناس: أغزوا تغنموا بنات الأصفر. فقال الجدّ: ائذن لي في التخلّف ولا تفتنّي بذكر بنات الأصفر فقد علم قومي أني لا أتمالك عن النساء إذا رأيتهن.

ومعنى[2] ﴿وَلَا تَفْتِنِّىٓ﴾: بالنساء، هذا قول ابن عباس. والفتنة التي سقطوا فيها هي فتنة التخلّف وظهور كفرهم ونفاقهم. ولفظة «سقطوا» تنبىء عن تمكّن وقوعهم فيها.

---

(١) انظر أسباب النزول ص١٦٦ ولباب النقول ص١١٨.

(٢) ق: وتضفني.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ [٢٥٠/ب] تَسُؤْهُمْ﴾ قال ابن عباس: الحسنة يوم بدر، والمصيبة[1] يوم أحد. وينبغي أن يُحمل قوله على التمثيل، واللفظ عامّ في كل محبوب ومكروه، وسياق الجمل يقتضي أن يكون ذلك في الغزو ولذلك قالوا: الحسنة: الظَّفَر والغنيمة، والمصيبة: الخيبة والهزيمة، مثلما جرى في غزوة أحد.

ومعنى ﴿أَمْرَنَا﴾ أي: الذي نحن متّسمون به من الحذر والتيقّظ والعمل بالجزم في التخلف عن الغزو من قبل ما وقع من المصيبة.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا﴾ الآية، أي: ما تنتظرون بنا إلا إحدى[2] العاقبتين كل واحدة منهما هي الحسنى من العواقب: إما النّصرة وإما الشهادة.

---

(١) ق: والمعصية.

(٢) ق: أحد.

فالنصرة مآلها إلى الغلبة والاستيلاء، والشهادة مآلها إلى الجنّة.

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قرىء بضم الكاف، ويعني في سبيل الله ووجوه البرّ، وهو أمر معناه التهديد والتوبيخ. «أنفقوا» قال ابن عطية: «أنفقوا» أمرٌ في ضمنه جزاء، وهذا مستمر في كل أمر معه جزاء، والتقدير[١]: إن تنفقوا لن يُتقبَّل منكم. وأما إذا عُرّي الأمر من الجواب فليس يصحبه تضمّن الشرط انتهى. ويقدح في هذا التخريج أن الأمر إذا كان فيه معنى الشرط كان الجواب كجواب الشرط. فعلى هذا يقتضي أن يكون التركيب: فلن يُتَقَبَّل، بالفاء، لأنّ لن لا تقع جواباً للشرط إلاّ بالفاء، فكذلك[٢] ما ضمّن معناه. وانتصب «طوعاً أو كرهاً» على الحال. والطَّوع أن يكون من غير إلزام الله ورسوله، والكره إلزام ذلك. وسُمّي الإلزام إكراهاً لأنهم منافقون، فصار الإلزام شاقًّا عليهم كالإكراه. وعلّل انتفاء التقبلّ بالفسق، والمراد به هنا الكفر، ويدلّ عليه قوله:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ الآية، ذكر السبب الذي هو بمفرده مانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر، وأتبعه بما هو ناشىء عن الكفر ومستلزِم له وهو دليل عليه، وذلك إتيان الصلاة وهم كسالى، وإيتاء النفقة وهم كارهون. فالكسل في الصلاة وترك النشاط إليها وأَخْذِها بالإقبال من ثمرات الكفر، فإيقاعها عندهم لا يرجون به ثواباً ولا يخافون بالتفريط فيها عقاباً. وكذلك الإنفاق للأموال لا يُخرجون[٣] ذلك إلاّ وهم لا يرجون به ثواباً.

(١) ق: أو التقدير.
(٢) ق: فلذلك.
(٣) ق: لا يكرهون.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ لما قطع رجاء المنافقين عن جميع منافع الآخرة بيّن أنّ الأشياء التي يظنّونها من باب منافع الدنيا، جعلها تعالى أسباباً لتعذيبهم في الدنيا بها، أي: ولا تعجبك أيّها السّامع، بمعنى: لا تستحسن ولا تَفْتَتِنْ بما أُوتوا من زينة الدنيا، وفي هذا تحقير لشأن المنافقين. والضمير في «بها» عائد على الأموال. واللام في «ليعذبهم» لام كي. ومفعول «يريد» محذوف تقديره: يريد[1] كسبهم الأموال والأولاد لأجل تعذيبهم.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي: لمن جملة المسلمين. وأكذبهم بقوله ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾. ومعنى ﴿يَفْرَقُونَ﴾ يخافون القتل وما يُفعل بالمشركين فيتظاهرون بالإسلام تقيّة وهم يبطنون النفاق.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ لما ذكر فَرَق المنافقين من المؤمنين أخبر بما هم عليه معهم مما يوجبه الفَرَق وهو أنهم لو أمكنهم الهرب منهم لهربوا، ولكنّ صُحْبتهم لهم[2] صحبة اضطرار لا اختيار. والملجأ: الحِرْز: والمغارات: جمع مغارة [وهي الغار] ويجمع على غيران، يبنى من غار يغور إذا دخل. بدأ أوّلاً بالأعمّ وهو الملجأ إذ يطلق على كل ما يلجأ إليه الإنسان، ثم ثنّى

(١) ق: يرـ.
(٢) ق: له.

بالمغارات وهي الغيران في الجبال، ثم أتى ثالثاً بالمدّخل وهو النفق باطن الأرض.

﴿ لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى واحد من الثلاث.

﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي: يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ اللاّمز هو حرقوص بن زهير التّميمي، وهو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج. كان رسول [٢٥١/أ] الله ﷺ يقسم غنائم حنين، فقال: اِعْدِلْ يا رسول الله، الحديث[١] وقيل غيره. والمعنى: من يعيبك في قَسْم الصدقات. وضمير «ومنهم» للمنافقين، والكاف لرسول الله ﷺ. وهذا الترديد بين الشرطين يدلّ على دناءة طباعهم ونجاسة أخلاقهم، وأنّ لَمْزَهم الرسول إنما هو لشَرَههم في تحصيل الدنيا ومحبّة المال، وأنّ رضاهم وسُخْطهم إنما مُتَعَلَّقُه العطاء. والظاهر حصول مطلق الإعطاء[٢] أو نفيه. وما أحسن مجيء جواب هذين الشرطين، لأن الأول لا يلزم أن يقارنه ولا أن يتعقّبه، بل قد يجوز أن يتأخر نحو: إن أسلمت دخلت الجنة. فإنما يقتضي مطلق الترتيب وأما جواب الشرط الثاني فجاء بإذا الفجائية وأنه إذا لم يُعطَوا فاجأ[٣] سخطهم ولم يمكن تأخره لِمَا جُبلوا عليه من محبة الدنيا والشّره في تحصيلها. ومفعول «رَضُوا» محذوف أي: رضوا ما أُعْطُوه. وليس المعنى: رَضُوا عن الرسول ﷺ، لأنهم منافقون، ولأن رضاهم وسخطهم لم يكن لأجل الدّين بل لأجل الدنيا. وجاءت «إذا» الفجائية رابطة

(١) انظر البخاري ٣: ١١٤٨، ٤: ١٧١٤. وأسباب النزول ص١٦٧.

(٢) ق: الأعضاء.

(٣) ق: فاجأهم.

لجواب الجزاء بجملة الشرط، ولا نحفظ أنّ «إذا» جاءت جواباً للشرط إلا وحرف الشرط «إن»، وكذلك في قوله ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾ [الروم]. وسائر أدوات الشرط كانت أسماء كمَن وما ومهما، أو ظرف زمان كمتى وأيّان، أو مكان كحيثما، لا نعلمه جاء جواب شيء منها بإذا الفجائية على كثرة مطالعتي لدواوين العرب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ الآية، هذا وصف لحال المستقيمين في دينهم، أي: رضوا قسمة الله ورسوله. وقالوا: كفانا فضل الله تعالى وعلّقوا آمالهم بما سيؤتيه الله إياهم، وكانت رغبتهم إلى الله تعالى لا إلى غيره. وجواب «لو» محذوف تقديره: لكان خيراً لهم في دينهم ودنياهم.

﴿ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦٠﴾.

﴿ ۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ لما ذكر تعالى من يعيب[1] الرسول في قسم الصدقات بأنه يعطي من يشاء ويحرم من يشاء أو يخصّ أقاربه أو يأخذ لنفسه ما بقي، وكانوا يسألون فوق ما يستحقون - بيّن تعالى مصرف الصدقات وأنه عليه السلام إنما قسم على ما فرضه الله تعالى. ولفظة «إنما» إن كانت وضعت للحصر فالحصر مستفاد من لفظها، وإن لم توضع للحصر فالحصر مستفاد من الأوصاف؛ إذ مناط الحكم بالوصف يقتضي التعليل به، والتعليل بالشيء يقتضي الاقتصار عليه. والظاهر أن مصرف الصدقات هؤلاء الأصناف، والظاهر أن العطف مشعر بالتغاير فيكون «الفقراء» غير

(١) ق: تعب.

«المساكين». والظاهر بقاء هذا الحكم للأصناف الثمانية دائماً إذ لم يرد نصٌّ في نسخ شيء منها. وتقدم الكلام على الفقراء والمساكين وفي الرقاب وابن السبيل في البقرة(١).

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ العامل هو الذي يستنيبه الإمام في السعي في جمع الصدقات وكلّ من تصرَّف لا يُستغنى عنه فيها فهو من العاملين ويسمّى جابي الصدقات أو السّاعي.

﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم أشراف من العرب مسلمون، لم يتمكن الإيمان من قلوبهم أعطاهم ليتمكّن الإيمان في قلوبهم. فمن المؤلّفة أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وحويطب بن عبد العزّى وصفوان بن أمية ومالك بن عوف النّضري والعلاء بن حارثة الثقفي. فهؤلاء أعطاهم رسول الله ﷺ مئة بعير [لكل واحد] ومخرمة بن نوفل الزهري وعمير بن وهب الجمحي وهشام بن عمرو العائذي أعطاهم دون المئة. ومن المؤلّفة سعيد بن يربوع والعباس بن مرداس والأقرع بن حابس وزيد الخيل وعلقمة بن علاثة وأبو سفيان الحارث بن عبد المطّلب وحكيم بن حزام وعكرمة بن أبي جهل [٢٥١/ب] وسعيد بن عمرو وعيينة بن حصن. وحَسُن إسلام المؤلّفة حاشا عيينة فإنه لم يزل مغموصاً عليه(٢).

﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ قال ابن عباس: الغارم من عليه دَيْن. وزاد مجاهد وقتادة: في غير معصية ولا إسراف. والجمهور على أنه يُقضى منها دين الميّت إذ هو غارم، وقال أبو حنيفة وابن الموّاز: لا يُقضى منها. قال أبو حنيفة: ولا

(١) انظر تفسير الآية ١٧٧ من البقرة.

(٢) أي مطعوناً عليه في دينه.

يقضى منها كفّارة ونحوها من حقوق الله تعالى. وإنما الغارم من عليه دين يُحبس فيه. وقيل: يدخل في الغارمين من تحمّل حمالات في إصلاحٍ وبرٍّ وإن كان غنيًّا إذا كان ذلك يُجحف بماله[١] وهو قول الشافعي وأصحابه وأحمد.

﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هو المجاهد يُعطَى منها إذا كان فقيراً، والجمهور على أنه يُعطى منها وإن كان غنيًّا ما ينفق في غزوته. وقال الشافعي وأحمد وعيسى بن دينار وجماعة: لا يُعطى الغني إلاّ إن احتاج في غزوته وغاب عنه وَفْره. وقال أبو حنيفة وصاحباه: لا يُعطى إلا إن كان فقيراً أو منقطعاً به، فإذا أُعطي ملك وإن لم يصرفه في غزوته. وقال ابن عبد الحكم: ويجعل من الصدقة في الكُراع[٢] والسّلاح وما يُحتاج إليه من آلات الحرب وكفّ العدوّ عن الحوزة لأنه كلّه في سبيل الله ومنفعته [للجمهور]. والجمهور على أنه يجوز الصّرف منها إلى الحجّاج والمعتمرين وإن كانوا أغنياء. وانتصب «فريضة» لأنه في معنى المصدر المؤكّد، لأنّ قوله «إنما الصدقات للفقراء» معناه: فَرَض الله الصدقات [فريضة] لهم. وقرىء: فريضةٌ، بالرفع على: تلك فريضة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لأنّ ما صدر عنه هو عن علم منه بخلقه وحكمةٍ منه في القسمة، أي: عليم بمقادير المصالح، حكيم لا يشرّع إلا ما هو الأصلح.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن

(١) ق: ماله. وأجحف بماله: ذهب به.

(٢) الكُراع: الدوابّ من الخيل والبغال والحمير.

يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ﴾ كان خِذام بن خالد وعبيد بن هلال والجلاس بن سويد في آخرين يؤذون رسول الله ﷺ. فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنّا نخاف أن يَبْلغه فيُوقع بنا. فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا فإنّ محمداً أذن سامعة ثم نأتيه فيصدّقنا [فنزلت[1]، وقيل غير ذلك. يقال: رجل أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد] يستوي فيه الواحد والجمع، قاله الجوهري. وقال الشاعر[2]: [من الطويل]

وقد صرت أذناً للوشاة سميعة ينالون من عرضي ولو شئت ما نالوا

وارتفع «أذن» على إضمار مبتدأ، أي: قل: هو أذن خير لكم «يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين» تعدية «يؤمن» أوّلاً بالباء وثانياً باللام قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر فعدّي بالباء، وقصد الاستماع للمؤمنين وأن يسلّم لهم ما يقولون فعدّي باللام. وقرىء: ورحمةٌ. بالرفع عطفاً على «أذن»، وبالجرّ عطفاً على «خير».

﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ وخصّ المؤمنين وإن كان رحمة للعالمين، لأنّ ما حصل لهم من الإيمان بسبب رسول الله ﷺ لم يحصل لغيرهم، وخُصُّوا هنا بالذّكر وإن كانوا قد دخلوا في العالمين لحصول مزيّتهم. وأبرز اسم الرسول - ولم يأت به مضمراً على نسق «يؤمن» - بلفظ الرسول تعظيماً لشأنه وجمعاً له في الآية بين الرّتبتين العظيمتين من النبوّة والرسالة. وإضافته

(١) انظر أسباب النزول ص١٦٨.
(٢) لم أجده، وانظر البحر ٥: ٦٢.

إليه زيادة في تشريفه وحتم على من آذاه بالعذاب الأليم وحقّ لهم ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ عام يندرج فيه هؤلاء الذين آذوا هذا الإيذاء الخاص وغيرهم.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ الظاهر أن الضمير في «يحلفون» عائد على الذين يقولون: هو أذن، أنكروه وحلفوا أنهم ما قالوه. واللام في «ليرضوكم» لام كي. قال ابن عطية: مذهب سيبويه أنهما جملتان حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها، والتقدير عنده: والله أحقّ أن يرضوه ورسوله أحقّ أن يرضوه. ومذهب المبرّد أنّ في الكلام تقديماً [٢٥٢/أ] وتأخيراً وتقديره: والله [أحقّ] أن يرضوه ورسوله انتهى. فقوله: مذهب سيبويه أنهما جملتان حذفت الأولى. إن كان الضمير في «أنّهما» عائداً[1] على كل واحدة من الجملتين، فكيف يقول: حذفت الأولى ولم تحذف الأولى إنما حُذف خبرها؟. وإن كان الضمير عائداً على الخبر وهو «أحق أن يرضوه» فلا تكون جملة إلا باعتقاد كون أن يرضوه مبتدأ و«أحقّ» المتقدم خبره. لكن لا يتعيّن هذا القول إذ يجوز أن يكون الخبر مفرداً بأن يكون التقدير: أحق بأن يرضوه. وعلى التقدير الأول يكون التقدير: والله إرضاؤه أحقّ. وقدّره الزمخشري[2]: والله أحقّ أن يرضوه ورسوله كذلك.انتهى. وفي تقديره تفكيك للكلام حيث جعل «أحقّ أن يرضوه» خبراً عن قوله «والله»، فنوى به التقديم أو أضمر خبراً لقوله «ورسوله» وقدّره: كذلك. والذي نقول: إنه لما كانت طاعة رسول الله ﷺ طاعة لله[3] تعالى كما قال ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۝٨٠﴾ [النساء]

---

(١) ق: عائد.

(٢) الكشاف ٢: ١٩٩.

(٣) ق: الله.

صارا لذلك[١] متلازمين كالشيء الواحد فأخبر عنهما إخبار الواحد فأفرد الضمير كما قال الشاعر[٢]: [من الهزج]

[لمن زُحلوقةٌ زُلٌّ] بهـا العينـان تنهـلُّ

ولم يقل: تنهلّان. وقالت العرب: ربّ يومٍ وليلةٍ مرّ بي، فأفرد الضمير لتلازُمهما.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: ألم يعلم المنافقون، وهو استفهام معناه التوبيخ والإنكار. وقرىء بالتّاء وهو التفات خرج من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب. واسم «أنَّ» هو ضمير الأمر والشأن، وخبر «أنّ» هو جملة الشرط والجزاء؛ «فمَن» مبتدأ، و«يحادد» مجزوم به. قال ابن عباس: المحادّة هنا المخالفة، و«يحادد» خبر «لمَن» والفاء داخلة في جواب الشرط. وينسبك من «أنْ» وما بعدها مصدر خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فجزاؤه كينونة النار له. قال الزمخشري[٣]: ويجوز أن يكون [«فأنّ له»] معطوفاً على «أنّه» على أنّ جواب «مَن» محذوف تقديره: ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأنّ له نار جهنم انتهى. فيكون «فأنّ له نار جنهم» في موضع نصب. وهذا الذي قدّره لا يصحّ؛ لأنهم نصّوا على أنه إذا حذف الجواب لدلالة الكلام عليه كان فعل الشرط ماضياً في اللفظ أو مضارعاً مجزوماً بلم، فمن كلامهم: أنت ظالم إن فعلت، ولا يجوز: إن تفعل. وهنا حذف جواب الشرط، وفعل الشرط ليس ماضي اللفظ ولا مضارعاً مقروناً بلم، وذلك إن

---

(١) ق: صار ذلك.

(٢) البيت منسوب لامرىء القيس في ملحق الديوان ص٤٧٢.

(٣) الكشاف ٢: ١٩٩.

جاء في كلامهم فمخصوص بالضرورة. وأيضاً فتجد الكلام تامًّا دون تقدير هذا الجواب.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ الآية، قال ابن كيسان: وقف جماعة منهم لرسول الله ﷺ في ليلة مظلمة عند مرجعه من تبوك ليفتكوا به، فأخبره جبريل عليه السلام فنزلت[١]. وقيل: قالوا في غزوة تبوك: أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات!. فأنزل الله تعالى «قل استهزءوا». والظاهر أن «يحذر» خبر، ويدلّ عليه «إن الله مخرج ما تحذرون» فقيل [هو] واقع منهم حقيقة لمّا شاهدوا رسول الله ﷺ يخبرهم بما يكتمونه وقع الحذر والخوف في قلوبهم.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ أي: ولئن سألتهم عما قالوا[٢] من القبيح في حقّك وحقّ أصحابك، من قول بعضهم: انظر إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام، وقول بعضهم: كأنكم [بهم] غداً في الحبال أسرى لبني الأصفر، وقول بعضهم: ما رأيت كهؤلاء أرغب[٣] بطوناً

(١) في أسباب النزول ص١٦٨ غير ذلك.
(٢) ق: يقولوا.
(٣) ق: لا أرغب.

ولا أكثر كذباً ولا أجبن عند اللقاء. فأطلع الله تعالى نبيّه على ذلك فعنّفهم، فقالوا: يا نبي الله، ما كنّا في شيء من أمرك [٢٥٢/ ب] ولا أمر أصحابك، إنما كنّا في شيء مما يخوض فيه الرّكب، كنّا في غير جدّ [فنزلت][١]. «قل أبالله» تقرير على استهزائهم، وضمّنه الوعيد ولم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجُعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود منهم حتى وُبّخوا بأخطائهم موضع الاستهزاء، حيث جعل المستهزأ به على حرف التقرير، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته وهو حسن. وتقديم «بالله» وهو معمول خبر كان عليها، يدلّ على جواز تقديمه عليها. وعن ابن عمر قال[٢]: رأيت قائل هذه المقالة؛ يعني «إنما كنا نخوض ونلعب» واسمه وديعة بن ثابت متعلقاً بحَقَب[٣] ناقة رسول الله ﷺ، يماشيها والحجارة تنكثه وهو يقول «إنما كنا نخوض ونلعب» والنبي ﷺ يقول «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون»؟.

﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم ﴾ نُهوا عن الاعتذار لأنها اعتذارات كاذبة فهي لا تنفع. «قد كفرتم» أظهرتم الكفر «بعد إيمانكم» أي: بعد إظهار إيمانكم لأنهم كانوا يُسرّون الكفر فأظهروه باستهزائهم. وجاء التقسيم بالعفو عن طائفة والتعذيب لطائفة. وكان المنافقون صنفين: صنف أُمر بجهادهم جهاد الكفّار والمنافقين، وهم رؤساؤهم المعلنون بالأراجيف، فعُذّبوا بإخراجهم من المسجد وانكشاف معظم أحوالهم. وصنف ضَعَفَة مظهرون الإيمان وإن أبطنوا الكفر، لم يؤذوا رسول الله ﷺ فعفا عنهم، وهذا العفو والعذاب في

(١) انظر لباب النقول ص١١٩.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الحَقَب: الحزام الذي يلي حقو الناقة.

الدنيا. وقيل: العفو عمّن علم الله تعالى أنهم سيَخلصون من النفاق ويُخلصون الإيمان، والمعذّبون من مات منهم على نفاقه. وقرىء: إن يُعفَ تُعَذَّب، مبنياً للمفعول. وقرىء: إن نعف نعذّب، بنونين. وقرىء: إن تُعفَ، بالتاء مبنيّاً للمفعول، التقدير: إن تُعف هذه الذنوب.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ بيّن تعالى أنّ ذكورهم وإناثهم ليسوا من المؤمنين كما قال تعالى ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة] بل بعضهم من بعض في الحُكم والمنزلة والنفاق فهم على دين واحد، وليس [المعنى] على التبعيض حقيقة لأن ذلك معلوم. ووصفهم بخلاف ما عليه المؤمنون من أنهم «يأمرون بالمنكر» وهو الكفر وعبادة غير الله تعالى والمعاصي «وينهون عن المعروف» وهو الإيمان والطاعات. وقَبْض الأيدي عبارة عن [عدم] الإنفاق في سبيل الله. والنسيان هنا التَّركُ، تركوا طاعة الله وطاعة رسوله.

﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركهم من الخير وأما من الشرّ فلم يَنْسَهم منه.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الآية، والكفار هنا المُعْلِنُونَ بالكفر.

و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: حال مقدّرة لأن الخلود لم يقارن الوعد.

و﴿حَسْبُهُمْ﴾: كافيهم وذلك مبالغة في عظم عذابهم؛ إذ عذابهم شيء لا يُزاد[1] عليه.

﴿وَلَعَنَهُمُ﴾: أهانهم مع التعذيب.

ولمّا ذكر تشبيههم بمن قبلهم وذكر ما كانوا فيه من شدّة القوة وكثرة الأموال والأولاد واستمتاعهم بما قدّر لهم من الأنصباء - شبّه استمتاع المنافقين باستمتاع الذين من قبلهم، وأبرزهم بالاسم الظاهر فقال «كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم»، ولم يكن التركيب: كما استمتعوا بخلاقهم، ليدلّ بذلك على التحقير، لأنه كما يُدَلّ بإعادة الظاهر مكان المضمر على التفخيم والتعظيم، كذلك يُدَلّ بإعادته على التحقير والتصغير لشأن المذكور كقوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم] وكقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة]. ولم يأت التركيب: إنه كان، ولا: إنهم هم.

﴿وَخُضْتُمْ﴾ أي: دخلتم في اللهو والباطل، وهو مستعار من الخوض في الماء، ولا يستعمل إلا في الباطل [٢٥٣/أ] لأن التصرّف في الحق إنما هو على ترتيب ونظام، وأمور الباطل إنما هي خوض، ومنه [قوله عليه

---

(١) ق: يزيد.

السلام][1] «رُبّ متخوّض في مال الله له النار يوم القيامة».

﴿كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ أي: كالخوض الذي خاضوا، قاله الفراء[2]. وقيل: كالنّوع الذي خاضوا. وقيل: النون محذوفة أي: كالذين خاضوا، أي: كخوض الذين. وقيل: الذي مع ما بعدها تنسبك مصدراً أي: كخوضهم. والظاهر أن «أولئك» إشارة إلى الذين وصفهم بالشدّة وكثرة الأموال والأولاد. والمعنى: وأنتم كذلك تحبط أعمالكم.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لمّا شبّه المنافقين بالكفّار المتقدّمين، في الرغبة في الدنيا وتكذيب الأنبياء عليهم السلام، وكان لفظ «الذين من قبلكم» فيه إبهام - نصّ على طوائف بأعيانها ستة، لأنه كان عندهم شيء من أنبائهم، وكانت بلادهم قريبة من بلاد العرب، وكانوا أكثر الأمم عدداً، وأنبياؤهم أعظم الأنبياء: نوح عليه السلام أول الرّسل، وإبراهيم الأب الأقرب للعرب، وما يليها من الأمم مقاربون لهم في الشدّة وكثرة المال الولد. وقوم نوح أُهلكوا بالغرق، وعاد بالريح، وثمود بالصيحة، وقوم إبراهيم بسلب النعمة عنهم حتى سُلّطت البعوضة على نمرود ملكهم، وأصحاب مدين بعذاب يوم الظلّة، والمؤتفكات بجعل أعالي أرضها أسافل وإمطار الحجارة عليهم.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ

(١) انظر النهاية ٢: ٨٨.

(٢) معاني القرآن ١: ٤٤٦.

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ الآية، لمّا ذكر المنافقين والمنافقات وما هم عليه من الأوصاف القبيحة والأعمال الفاسدة - ذكر المؤمنين والمؤمنات. وقال في أولئك «بعضهم من بعض» وفي هؤلاء «بعضهم أولياء بعض» إذ لا ولاية بين المنافقين ولا شفاعة لهم ولا يدعو بعضهم لبعض، فكان المراد هنا الولاية في الله تعالى خاصة.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية، لمّا أعقب المنافقين بذكر ما أوعدهم به من نار جهنم - أعقب المؤمنين بذكر ما وعدهم به من نعيم الجنّات ولمّا كان قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ وعداً إجماليًّا - فصّله هنا تنبيهاً على أنّ تلك الرحمة في هذه الأشياء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ لمّا ذكر وعيد غير المؤمنين وكانت السورة قد نزلت في المنافقين بدأهم في ذلك بقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة]. ولمّا ذكر أمر الجهاد وكان الكفار غير المنافقين؛ أشدّ شكيمة وأقوى أسباباً في القتال وأنكأ[١] بتصدّيهم للقتال - قال تعالى: «جاهد الكفار والمنافقين» [فبدأ بهم. قال ابن عبّاس: «جاهد الكفّار» بالسيف «والمنافقين»] باللّسان.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ الضمير عائد على المنافقين، فقيل هو حلف الجلاس وتقدّمت قصّته مع عامر بن قيس[٢].

﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ قال مجاهد: نزلت في خمسة عشر رجلاً همّوا بقتله عليه السلام وتوافقوا على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنّم العقبة، فأخذ عمّار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها. فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وقعقعة السّلاح، فالتفت فإذا قوم متلثّمون، فقال: إليكم يا أعداء الله، فهربوا. وكان منهم عبد الله بن أبي وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعيمة بن أبيرق والجلاس بن سويد وأبو عامر بن نعمان وأبو الأحوص.

﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ هذا إحسان منه عزّ وجلّ ورفقٌ ولطفٌ بهم حيث فتح لهم باب التوبة بعد ارتكاب تلك الجرائم العظيمة. وكان الجلاس بعد حلفه وإنكاره أنه ما قال ما نُقل عنه، قد اعترف وصدّق الناقل عنه وتاب وحَسُنت توبته. ولم يَرِدْ أنّ أحداً قُبلت توبته غير الجلاس. وقيل: وفي هذا دليل على قبول توبة الزنديق [٢٥٣/ب] المُسرّ للكفر المظهر للإيمان، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي. وقال مالك: لا تُقبل. فإن جاء من قِبَل نفسه

(١) أي أمعن في القتال.

(٢) انظر شرح الآية ٦١ المتقدمة، وانظر أيضاً أسباب النزول ص١٦٨.

قبل أن يُعثر عليه قُبلت توبته بلا خلاف. «يَكُ خيراً لهم» اسم «يك» ضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله «يتوبوا» تقديره: يك هو، أي: التَّوبُ خيراً لهم.

﴿ ۞وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ ﴾ الآية، قال الضحّاك: هم نَبْتل بن الحارث وجدّ بن قيس ومعتب بن قشير وثعلبة بن حاطب، وفيهم نزلت الآية.

والظاهر أن الضمير في «فأعقبهم» هو عائد على الله تعالى، عاقبهم على الذنب بما هو أشدّ منه. والظاهر عود الضمير في «يلقونه» على الله تعالى، وقيل: جزاء أفعالهم.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ ﴾ هذا استفهام تضمّن التوبيخ والتقريع. وقرأ علي وأبو عبد الرحمن والحسن: تعلموا، بالتاء وهو خطاب للمؤمنين على سبيل التقرير وأنه تعالى فاضح المنافقين ومُعْلِمُ المؤمنين أحوالهم التي يكتمونها شيئاً فشيئاً.

﴿ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ﴾ هذا التقسيم عبارة عن إحاطة علمه تعالى بهم. والظاهر أن الآية في جميع المنافقين: مَن عاهَدَ وأخلف وغيره.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية، نزلت فيمن عاب المتصدّقين. وكان رسول الله ﷺ حثّ على الصّدقة فتصدّق عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف وأمسك مثلها، فبارك له رسول الله ﷺ فيما أعطى وفيما

أمسك. وتصدّق عمر بنصف ماله، وعاصم بن عدي بمئة وَسْق، وعثمان بصدقة عظيمة، وأبو عقيل الأراشي بصاع تمرٍ وترك لعياله صاعاً، وكان آجر نفسه لسقي نخيلٍ بهما، ورجل بناقة عظيمة قال: هي وذو بطنها صدقة يا رسول الله، وألقى إلى رسول الله ﷺ خطامها. فقال المنافقون: ما تصدّق هؤلاء إلا رياءً وسمعةً، وما تصدّق أبو عقيل إلاّ ليُذكر مع الأكابر أو ليذكّر بنفسه فيُعطى من الصدقات والله غني عن صاعه فقال بعضهم: تصدّق بالنّاقة وهي خير منه، وكان الرجل أقصر الناس قامة وأشدّهم سواداً فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال «بل هو خير منك ومنها»(١) يقوله ثلاثاً.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ مندرجون في المطّوعين ذُكروا تشريفاً لهم حيثما فاتتهم الصدقة، بل تصدّقوا بالشيء وإن كانوا أشدّ الناس إليه حاجة، وأتعبهم(٢) في تحصيل ما تصدّقوا به كأبي عقيل وأبي خيثمة، وكان قد لُمز في التصدّق بالقليل، ونظرائهما. «الذين يلمزون» مبتدأ. و«في الصدقات» متعلق بـ«يلمزون». «والذين لا يجدون» معطوف على «المطوعين» كأنه قيل: يلمزون الأغنياء وغيرهم. و«فيسخرون» معطوف على «يلمزون». و«سخر الله منهم» وما بعده خبر عن «الذين يلمزون».

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الآية، سأل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ - وكان رجلاً صالحاً - رسول الله ﷺ أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل فنزلت(٣). فقال صلّى الله عليه وسلم: قد رخّص لي فأزيد على السبعين فنزلت ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ۝٦﴾ [المنافقون]. وعلى هذا فالضمائر

---

(١) انظر الطبري ١٠ : ١٣٦.

(٢) ق : وأتبعهم.

(٣) انظر لباب النقول ص١٢٢.

عائدة على جميع المنافقين، والخطاب بالأمر لرسول الله ﷺ. والظاهر أن المراد بهذا الكلام التخيير، وهو الذي رُوي عن رسول الله ﷺ وقد قال له عمر «كيف تستغفر لعدوّ الله وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم؟. فقال عليه السلام: ما نهاني ولكنّه خيّرني»(١). فكأنه قال له: إن شئت فاستغفر وإن شئت فلا تستغفر. ثم أعلمه [٢٥٤/أ] أنه لا يغفر لهم وإن استغفر سبعين مرة.

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ
يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ
ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ
عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾
وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ
وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ
أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ
ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾.

---

(١) انظر البخاري ٤ : ١٧١٥، وأخرجه من حديث ابن عمر.

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ لمّا ذكر الله تعالى ما ظهر من النفاق والهزء من الذين خرجوا معه إلى غزوة تبوك من المنافقين - ذكر حال المنافقين الذين لم يخرجوا معه وتخلّفوا عن الجهاد واعتذروا بأعذار حتى أذن لهم، فكشف الله تعالى لرسوله عليه السلام عن أحوالهم وأعلمه بسوء فعالهم فأنزل عليه «فرح المخلّفون» أي: عن غزوة تبوك. وكان رسول الله ﷺ قد خلّفهم بالمدينة لمّا اعتذروا فأذن لهم. وهذه الآية تقتضي التوبيخ والوعيد. ولفظة «المخلفون» تقتضي الذّم والتحقير، ولذلك جاء «رضوا بأن يكونوا مع الخوالف»[1]. وهي أمكن من لفظ: المتخلِّفين، إذ هم مفعول بهم ذلك. ولم يفرح إلا منافق فخرج من ذلك الثلاثة وأصحاب العذر. ولفظ المقعد يكون للزمان والمكان والمصدر، وهو هنا للمصدر أي: بقعودهم، وهو عبارة عن الإقامة بالمدينة. وانتصب «خلاف» على الظرف أي: بعد رسول الله ﷺ؛ يقال: فلان أقام خلاف الحيّ، أي: بعدهم إذ ظعنوا ولم يظعن معهم، ومنه قول الشاعر[2]: [من الطويل]

فقل للذي يبقى خلاف الذي مضى ... تأهّبْ لأخرى مثلها فكأن قد

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، والمعنى: فإن رجعك الله من سفرك هذا وهو غزوة تبوك.

﴿ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ ﴾ عطف على محذوف تقديره: فأردت الخروج بعد الرجوع فاستأذنوك. وجواب الشرط قوله «فقل». وأَمْرُ الله تعالى نبيّه عليه السلام أن يقول لهم «لن تخرجوا» هو عقوبة لهم وإظهار لدناءة منزلتهم وسوء حالهم.

---

(١) الآيتان ٨٧، ٩٣ التّاليتان.

(٢) البيت في الأمالي ٣: ٢١٨، والوفيات ١: ٢٣٩ غير منسوب فيهما.

وأكّد نفي الخروج في المستقبل بقوله «أبدا» وهو ظرف مستقبل. وانتقل بالنفي من الشّاق عليهم وهو الخروج إلى الغزاة إلى الأشقّ وهو قتال العدوّ لأنه أعظم الجهاد وثمرة الخروج وموضع بارقة السيوف التي تحتها الجنة. ثم علّل انتفاء الخروج والقتال بكونهم رضوا بالقعود أول مرّة، ورضاهم ناشىء عن نفاقهم وكفرهم وخداعهم وعصيانهم أَمْر الله تعالى في قوله ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴿٤١﴾﴾ [التوبة] وقالوا هم ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة] فعلّل بالمسبّب وهو الرّضى الناشىء عن السبب وهو النفاق.

و﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هي الخرجة إلى غزوة تبوك. و«مرّة» مصدر كأنه قيل: أول خرجة دُعيتم إليها، لأنها لم تكن أول خرجة خرجها رسول الله ﷺ للغزاة، فلا بدّ من تقييدها إذ الأوّلية تقتضي السّبق. وقيل: التقدير: أول خرجة خرجها رسول الله ﷺ لغزو الرّوم بنفسه. وقيل: أول مرّة قبل الاستئذان.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ النّهي عن الصلاة على المنافقين إذا ماتوا عقوبة ثانية وخزي متأبّد. وكان [عليه السلام] فيما روي يصلّي على المنافقين إذا ماتوا ويقوم على قبورهم بسبب ما يظهرونه من الإسلام، فإنهم كانوا يتلفّظون بكلمتي الشهادة ويصلّون ويصومون، فبنى الأمر على ما ظهر من أقوالهم وأفعالهم، ووكّل سرائرهم[1] إلى الله تعالى. ولم يزل على ذلك حتى وقعت واقعة عبد الله بن أبيّ. وروى أنس[2] أنه لما تقدّم ليصلي[3] عليه جاءه جبريل عليه السلام فجبذه بثوبه وتلا عليه «ولا تصل على أحد منهم

(١) ق: سائرهم.

(٢) رواه الحافظ أبو يعلى في مسنده من حديث يزيد الرقاشي، وهو ضعيف. انظر تفسير الطبري ١٠: ١٤٢، وابن كثير ٣: ٤٣٧.

(٣) ق: ليصلّ.

مات أبدا» الآية، فانصرف ولم يصلّ عليه. و«مات» صفة «لأحد»، تقدّم الوصف [٢٥٤/ ب] بالمجرور ثم بالجملة. وهو ماضٍ بمعنى المستقبل لأنّ الموتَ موجودٌ[(١)] لا محالة. نهاه تعالى عن الصلاة عليه والقيام على قبره، وهو الوقوف على قبره حتى يُفرغ من دفنه.

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ الآية، تقدّم الكلام على نظيرها[(٢)]. وأُعيد ذلك لأن تجدّد النزول له شأن في تقرير ما نزل له.

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ الآية، «أن» يحتمل أن تكون تفسيرية بمعنى أي، ويحتمل أن تكون مصدرية أي: بالإيمان. والظاهر أن الخطاب للمنافقين أي: آمنوا بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم. و«استأذنك»[(٣)] جواب «وإذا».

و﴿ أُوْلُوا ٱلطَّوْلِ ﴾ الكبراء والرؤساء. و«الطّول» قال ابن عباس: الغِنى. والمعنى: استأذنك أولو الغنى منهم في القعود. وفي «استأذنك» التفات، إذ هو خروج من لفظ الغيبة وهو قوله «مع رسوله»[(٤)] إلى ضمير الخطاب.

﴿ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ أي: مع الزَّمْنى[(٥)] وأهل العذر ومن تُرِك.

وفي قوله ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ﴾ تهجين لهم ومبالغة في الذّم. و«الخوالف» النساء. والظاهر أن قوله «وطبع» خبر من الله تعالى بما فعل بهم، فلأجل الطبع لا يفقهون ولا يتدبّرون ولا يتفهّمون ما في الجهاد من

---

(١) ق: غير موجود.
(٢) انظر تفسير الآية ٥٥ من السورة.
(٣) ق: واستأذنوك.
(٤) ق: ورسوله.
(٥) الزّمنى: جمع زَمِن وهو ذو العاهة.

الفوز والسعادة، وما في التخلف من الشقاء والضّلال.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ «لكن» وَضْعُها أن تقع بين متنافيَيْن. ولمّا تضمّن قول المنافقين «ذَرْنا» استئذانهم[1] في القعود، كان ذلك تصريحاً بانتفاء الجهاد، وكأنه قيل: رضوا بكذا ولم يجاهدوا لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا. والمعنى: إن تخلّف هؤلاء المنافقون فقد توجّه إلى الجهاد مَن هو خير منهم وأخلصُ نيّة.

و﴿ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ جمع خَيْرة وهو المستحسن من كل شيء، فيتناول محاسن الدنيا والآخرة لعموم اللفظ، وكثر استعماله في النساء ومنه قوله تعالى ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرحمن].

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ وقرىء بالتشديد والتخفيف. والظاهر أن هؤلاء الجائين كانوا مؤمنين كما قال ابن عباس، لأن التقسيم يقتضي ذلك؛ ألا ترى إلى قوله ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؟ فلو كان الجميع كفاراً لم يكن لوصف الذين قعدوا بالكذب اختصاص، وكان يكون: سيصيبهم عذاب أليم. و«المعذّرون» هم أسد وغطفان وقيل غير ذلك.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟

(١) ق: واستئذانهم.

بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾
۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا
ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا
ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ
بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ الآية، لمّا ذكر حال من تخلّف عن الجهاد مع القدرة عليه، ذكر حال من له عذر في تركه. و«الضعفاء» جمع ضعيف وهو الهَرِم ومن خُلق في أصل البنية شديد النحافة والضؤولة بحيث لا يمكنه الجهاد. والمريض: مَن عَرض له المرض أو كان زَمِناً[1] ويدخل فيه العمى والعَرَج. والذين لا يجدون ما ينفقون: هم الفقراء، قيل: هم مزينة وجهنية وبنو عذرة. ونفى الحرج عنهم في التخلّف عن الغزو. ونَفْي الحرج لا يتضمّن المنع من الخروج إلى الغزو؛ فلو خرج أحد هؤلاء ليُعين المجاهدين بما يقدر عليه من حفظ متاعهم أو تكثير سوادهم ولا يكون كَلًّا عليهم، كان له في ذلك ثواب جزيل. فقد كان عمرو بن الجموح أعرج وهو من أتقياء الأنصار وهو في أول الجيش رضي الله عنه، وقال له رسول الله ﷺ[2] «إن الله تعالى عَذَرك. فقال: والله لأحفزنّ بعرجتي هذه في الجنة». وكان ابن أم مكتوم أعمى فخرج إلى أُحد وطلب أن يُعطى اللواء فأخذه فأصيبت يده التي فيها اللواء فأمسكه باليد الأخرى فضُربت فأمسكه [٢٥٥/أ]

---

(١) أي ذا عاهة.

(٢) من حديث إسحاق بن يسار عن أشياخ من بني سلمة، انظر السيرة النبوية ٣: ١٦.

بصدره وقرأ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الآية [آل عمران]. وشرط في انتفاء الحرج النّصح لله ورسوله وهو أن تكون نيّاتهم وأقوالهم سرًّا وجهراً خالصة لله تعالى من الغشّ، ساعية في إيصال الخير للمؤمنين، داعية لهم بالنصر والتمكين. ففي سنن أبي داود[1] «لقد تركتم بعدكم قوماً ما سرتم سيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلاّ وهم معكم فيه. قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟. قال: حَبَسهم العذر». وقرأ أبو حيوة: إذا نصحوا الله ورسوله، بنصب الجلالة والمعطوف.

﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ أي: من لائمة تناط بهم أو عقوبة. ولفظ «المحسنين» عامّ في كل من أحسن.

﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: على ظهرٍ يُركب ويُحمل عليه أثاث المجاهد. و«إذا» تقتضي جواباً، والأولى أن يكون ما يقرب منها وهو «قلت»، ويكون قوله «تولوا» جواباً لسؤال مقدّر كأنه قيل: فما حالهم إذا أجابهم الرسول؟ قيل «تولوا وأعينهم تفيض من الدمع». قال الزمخشري[2]: فإن قلت: هل يجوز أن يكون قوله «قلت لا أجد» استئنافاً مثله - يعني مثل «رضوا بأن يكونوا مع الخوالف»[3] - كأنه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولّوا، فقيل: ما لهم [تولّوا] باكين؟ قلت: لا أجد ما أحملكم عليه، إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض؟ قلت: نعم ويحسن انتهى. ولا يجوز ولا يحسن في كلام العرب فكيف في كلام الله؟. وهو فهم أعجمي. وتقدّم الكلام على نحو

---

(١) ٣: ١٢ من حديث أنس بن مالك.

(٢) الكشاف ٢: ٢٠٨.

(٣) الآية ٨٧ المتقدمة.

﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ في المائدة[١]. وقال الزمخشري[٢]: هنا «وأعينهم تفيض من الدمع» كقولك: تفيض دمعاً، وهو أبلغ من: يفيض دمعها، لأن العين جُعلت كأنّ كلّها دمع فائض. و«مِن» للبيان كقولك: أفديك من رجل. ومحلّ الجار والمجرور النصب على التمييز انتهى. ولا يجوز ذلك لأن التمييز الذي أصله فاعل لا يجوز جرّه بمِن، وأيضاً فإنه معرفة [ولا يجوز إلا على رأي الكوفيين الذين يجيزون مجيء التمييز معرفة]. وانتصب «حزناً» على المفعول له، والعامل فيه «تفيض» وقال أبو البقاء: أو مصدر في موضع الحال. و«ألا يجدوا» مفعول له أيضاً، والناصب له «حزناً». وقال أبو البقاء[٣]: [ويجوز] أن يتعلق «بتفيض». ولا يجوز ذلك على إعرابه «حَزَناً» مفعولاً[٤] له والعامل فيه «تفيض»؛ لأن العامل لا يقتضي اثنين من المفعول له إلا بالعطف أو البدل. وقوله «ألا يجدوا ما ينفقون» فيه دلالة على أنهم مندرجون تحت قوله «ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج». وتقدّم نفيان: نفي الحرج عمّن ذكر، والثاني نفي السبيل بمعنى اللائمة والعتب عن المحسنين، فيكون قوله «ولا على الذين» معطوفاً على «المحسنين» عطف الخاصّ على العامّ. ويحسّن هذا قوله «إنما السبيل» معرّفاً باللّام إذا عاد على النكرة في قوله «من سبيل».

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ الآية، أثبت في حقّ المنافقين ما نفاه في حقّ المحسنين، فدلّ لأجل المقابلة بأن هؤلاء مسيئون. وأي إساءة

(١) انظر تفسير الآية ٨٣ من المائدة.

(٢) الكشاف ٢ : ٢٠٨.

(٣) إملاء ٢ : ٢٠ في الموضعين.

(٤) ق : مفعول.

أعظم من النفاق والتخلّف عن الجهاد والرغبة بأنفسهم عن رسول الله ﷺ.
«رضوا» تقدّم الكلام عليه[١].

﴿ ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ الآية، ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ علّة للنّهي عن الاعتذار لأن غرض المعتذر أن يُصدَّق فيما يعتذر به. فإذا عَلم أنه مكذَّب في اعتذاره كَفَّ عنه.

﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ علّة لانتفاء التصديق لأنه تعالى إذا أخبر الرسول والمؤمنين[٢] بما انطوت عليه سرائرهم من الشّر والفساد لم يمكن تصديقهم في معاذيرهم.

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ ﴾ الآية، لمّا ذكر أنه يصدر منهم الاعتذار [٢٥٥/ب] أخبر أنهم سيؤكّدون ذلك الاعتذار بالحلف الكاذب، وأن سبب الحلف هو طلبهم أن تُعرضوا[٣] عنهم فلا تلوموهم ولا توبّخوهم.

﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ أي: فأجيبوهم إلى طلبتهم. وعلّل الإعراض عنهم بأنهم رجس أي: مستقذرون بما انطووا عليه من النفاق، فتجب مباعدتهم واجتنابهم كما قال ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة].

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ﴾ الآية، قال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أبيّ، حلف بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلّف عنه بعدها، وحلف ابن أبي سرح ليكوننّ معه على عدوّه، وطلب من الرسول أن يرضى عنه فنزلت[٤]. وهنا

---

(١) انظر تفسير الآية ٨٧ من السورة.

(٢) ق: والمؤمنون.

(٣) ق: تعرض.

(٤) انظر البخاري ٤: ١٧١٦.

حذف المحلوف[1] به وفي قوله «سيحلفون بالله» أثبت، كقوله تعالى ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا ﴿١٧﴾﴾ [القلم] وقوله ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام] فلا فرق بين إثباته وحذفه في انعقاد ذلك يميناً. وغرضهم في الحلف رضى رسول الله ﷺ والمؤمنين عنهم لنفعهم في دنياهم، لا أن مقصدهم وجه الله تعالى والبرّ، إذ هي أيمان كاذبة وأعذار مختلقة لا حقيقة لها. وفي الآية قبلها لمّا ذكر حَلْفهم لأجل الإعراض جاء الأمر بالإعراض نصًّا لأنّ الإعراض من الأمور التي تظهر للناس. وهنا ذكر الحلف لأجل الرضى فأبرز النهي عن الرضى في صورة شرطية، لأن الرضى من الأمور القلبيّة التي تخفى، وخرّج مخرج المتردِّد فيه وجعل جوابه انتفاء رضى الله تعالى عنهم، فصار رضى المؤمنين عنهم أبعد شيء في الوقوع، لأنه معلوم منهم أنهم لا يرضون عمّن لا يرضى الله عنهم. ونصّ على الوصف الموجب لانتفاء الرضى وهو الفسق. وجاء اللفظ عامًّا فيُحتمل أن يراد به الخصوص كأنه قيل: فإن الله لا يرضى عنهم. ويحتمل بقاؤه على العموم فيندرجون فيه ويكونون أولى بالدخول، إذ العامّ إذا نزل على سبب مخصوص لا يمكن إخراج ذلك السبب من العموم بتخصيص ولا غيره.

﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ

(١) ق: المفعول به.

ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ
ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى
ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا
وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ
يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ
ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ
عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا﴾ نزلت في أعراب من بني أسد وتميم وغطفان. و﴿وَأَجۡدَرُ﴾ أحق.

﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾ أي: بأن لا يعلموا. والحدود هنا الفرائض.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ نزلت في أعراب من بني أسد ومن سبق ذكرهم، كانوا يتخذون ما يؤخذ منهم من الصدقات مغرماً. والمغرم: الغُرْم والخُسْر.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ نزلت في بني مقرن من مزينة، قاله مجاهد. ولمّا ذكر تعالى من يتّخذ ما ينفق مغرماً ذكر مقابله وهو من يتخذ ما ينفق مغنماً. وذكر هنا الأصل الذي ترتّب عليه إنفاق المال في القَربات وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، إذ جزاء ما ينفَق إنما يظهر ثوابه الدائم في الآخرة. وفي قصة أولئك اكتفى بذكر نتيجة الكفر وعدم الإيمان وهو اتّخاذه ما ينفق مغرماً وتربّصه بالمؤمنين الدوائر. والأجود

تعميم[١] القربات من جهاد وصدقة. والمعنى: يتخذه سبب وصل عند الله تعالى وأدعية الرسول. وكان عليه السلام يدعو للمتصدّقين بالخير والبركة ويستغفر لهم كقوله صلى الله عليه وسلم[٢] «اللهم صلّ على آل أبي أوفى». وقال تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۝١٠٣﴾ [التوبة]. والظاهر عَطْف و«صلوات» على «قربات».

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [قال أبو موسى الأشعري وغيره: من صلّى إلى القبلتين. و«مِن» تفسير «للسابقون». و«والسابقون»] مبتدأ، و«رضي الله عنهم» الخبر.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ ذكر في هذه الآية أنّ منافقين حولكم من الأعراب وفي المدينة لا تعلمونهم، أي: [٢٥٦/أ] لا تعلمون أعيانهم أو لا تعلمونهم منافقين. ومعنى «حولكم» حول بلدتكم وهي المدينة. والذين كانوا حول المدينة جهينة وأسلم وأشجع وغفار ومزينة وعصية ولحيان وغيرهم ممّن جاور المدينة.

و﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ معطوف على «ممّن حولكم» فاشتركا في النفاق، ويكون «مردوا» إخباراً[٣] عن الصّنفين. ويجوز أن يكون «ومن أهل المدينة» استئناف خبر لمبتدأ محذوف تقديره: قوم مردوا. ويجوز حذف هذا المبتدأ الموصوف بالفعل كقولهم: منّا ظَعَن ومنّا أقام، يريدون: منّا جمعٌ ظَعَن ومنّا جمع أقام ويكون الموصوف بالتمرد منافقو[٤] المدينة. قال

---

(١) ق: تعيم.

(٢) أخرجه ابن ماجه ١ : ٥٧٢ من حديث عبد الله بن أبي أوفى.

(٣) ق: إخبار.

(٤) ق: منافق.

الزمخشري[١]: كقولهم[٢]: [من الوافر]

أنا ابن جلا [وطلّاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني]

انتهى. إن كان شبّهه في مطلق حذف الموصوف فَحَسَنٌ، وإن كان شبّهه في خصوصيّته فليس بحسن، لأن حذف الموصوف مع «من» وإقامة صفة مقامه وهي في تقدير الاسم ولا سيّما في التفصيل، منقاس كقولهم: منّا ظعن ومنّا أقام، وأما: أنا ابن جلا، فضرورة شعر كقوله[٣]: [من الرجز]

يرمي بكفَّيْ كان مِن أرمى البشَرْ

أي: بكفَّي رجل. وكذلك: أنا ابن جلا، تقديره: أنا ابن رجل جلا أي: كشف الأمور وبيّنها. وفي قوله[٤] «نحن نعلمهم» تهديد، وترتّب عليه الوعيد بقوله «سنعذبهم مرتين». والظاهر إرادة التثنية، ويحتمل أن يكون لا يُراد بها شفع الواحد بل يكون المعنى على التكثير كقوله ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ۝٤﴾ [الملك] أراد: كرّة بعد كرّة. كذلك يكون معنى «سنعذبهم [مرتين»]: مرّة بعد مرّة.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية، نزلت في جماعة من الصحابة أوثق ثلاثة منهم أنفسهم بسواري المسجد فيهم أبو لبابة، رغبوا عن رسول الله ﷺ

---

(١) الكشاف ٢: ٢١١.

(٢) القائل سحيم بن وثيل الرياحي، والبيت في اللسان «جلا».

(٣) الرجز في الخصائص ٢: ٣٦٧ غير منسوب، وفيه: جادت بكفّي، وفي المقتضب ٢: ١٣٩.

(٤) ق: قولهم.

وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين فنزلت[١].

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، والضمير عائد على الذين خلطوا، قالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خلَّفَتْنا عنك فتصدّقْ بها وطهِّرْنا. فقال «ما أُمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً» فنزلت[٢].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الآية، قال الذين لم يتوبوا من المتخلّفين: هؤلاء كانوا بالأمس معنا لا يُكلَّمون ولا يجالَسون، فنزلت[٣].

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾ تقدم نظيره[٤].

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس وغيره: نزلت في الثلاثة الذين خُلّفوا قبل التوبة عليهم: هلال بن أميّة الواقفي، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك. وقرىء: مُرْجَؤون، بالهمز وبغير الهمز، ومعناه التأخير.

﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لحكمه.

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ إنْ أصرّوا ولم يتوبوا.

﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ

---

(١) انظر لباب النقول ص١٢٣.
(٢) اللباب ص١٢٤.
(٣) انظر تفسير الطبري ١١ : ١٥.
(٤) في الآية ٩٤ المتقدمة، ولم يفسّره.

أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾
أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾
لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ .

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا﴾ لمّا ذكر طرائق ذميمة لأصناف المنافقين أقوالاً وأفعالاً، ذكر أنّ منهم من بالغ في الشّر حتى ابتنى مجمعاً للمنافقين يرتّبون فيه ما شاؤوا من الشّر وسمّوه مسجداً. ولمّا بنى بنو عمرو بن عوف مسجد قباء وبعثوا إلى رسول الله ﷺ فجاء وصلّى فيه ودعا لهم، حسدهم بنو عمّهم بنو غنم بن عوف وبنو سالم بن عوف، وحرّضهم أبو عامر الفاسق على بنائه حين[1] نزل الشام هارباً من وقعة حنين[2] فراسلهم في بنائه وقال: ابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر آتي بجند من الروم فأُخرج محمداً وأصحابه. فبنوه إلى[3] مسجد قباء وكانوا [٢٥٦/ب] اثني عشر رجلاً من المنافقين: خِذام بن خالد، ومن داره أُخرج المسجد، وثعلبة بن حاطب ومعتّب بن قشير وحارثة بن عامر وابناه مجمّع وزيد ونَبْتل بن الحارث وعبّاد بن حُنيف وبَجاد بن عثمان ووديعة بن ثابت وأبو حبيبة [بن] الأزعر[4] وبخْزَج بن عمرو ورجل من بني ضبيعة. وقالوا لرسول الله ﷺ: [بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والشّاتية، ونحن نحب أن تصلّي لنا فيه وتدعو لنا

(١) ق: حتى. وانظر أمر مسجد الضّرار في السيرة النبوية ٤: ١٧٣.
(٢) ق: خيبر.
(٣) ق: على.
(٤) ق: وأبو حنيفة الأزهر. والتصويب من الطبري ١١: ١٨، والقرطبي.

بالبركة. فقال صلى الله عليه وسلم] «إني على جناح سفر وحال شغل، وإذا قدمنا إن شاء الله صلّينا فيه». وكان إمامهم مجمّع بن حارثة، وكان غلاماً قارئاً للقرآن حسن الصوت، وهو ممّن حَسُن إسلامه، وولّاه عمر إمامة مسجد قباء بعد مراجعة، ثم بعثه إلى الكوفة يعلّمهم القرآن. فلمّا قفل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك نزل بذي أوان، بلدٍ بينه وبين المدينة ساعة من نهار. ونزل عليه القرآن في شأن مسجد الضّرار، فدعا مالك بن الدُّخْشُم ومعناً[1] وعاصماً ابني عدي، وقيل: بعث عمار بن ياسر ووحشيّاً قاتل حمزة بهدمه وتحريقه. فهُدم وحُرق بنارٍ في سَعف، واتُّخذ كُناسة يرمى فيها الجيف والقمامة. وقرىء: الذين، بغير واو فاحتمل أن يكون بدلاً من قوله «وآخرون»، وأن يكون خبر ابتداء تقديره: هم الذين، وأن يكون مبتدأ محذوف الخبر تقديره: منهم الذين.

و﴿ ٱتَّخَذُواْ ﴾ هنا تعدّى لواحد كقوله تعالى ﴿ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت] أي: عملت بيتاً. و﴿ضِرَارٗا﴾ مفعول من أجله.

وقوله﴿ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ ﴾ هي جملة القسم المحلوف عليها مصدَّرة «بإنْ» النافية، التقدير: ما أردنا إلا الحسنى، كقوله ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر] أي: ما أمسكهما ﴿ مِّنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر].

﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ ﴾ نهاه أن يقوم فيه لأنّ بُناته كانوا خادعوا الرسول فهمّ عليه السلام بالمشي معهم واستدعى قميصه لينهض فنزلت[2] «لا تقم فيه أبدا»، وعبّر بالقيام عن الصلاة فيه. قال ابن عباس وجماعة من الصحابة

---

(١) ق: ومعتباً.

(٢) انظر اللباب ص١٢٥.

والتابعين: المؤسس على التقوى مسجد قباء، أسّسه رسول الله ﷺ وصلّى فيه أيّام مقامه بقباء وهي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس.

﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ وفي الحديث[١] «قال لهم: يا معشر الأنصار، رأيت الله أثنى عليكم بالطّهور فماذا تفعلون؟ قالوا: يا رسول الله: إنّا[٢] رأينا [جيراننا] من اليهود يتطهّرون بالماء - يريدون: الاستنجاء بالماء - ففعلنا ذلك، فلمّا جاء الإسلام لِم نَدَعْه. فقال: لا تَدَعوه إذن.

وقرىء: أسّس بنيانه، مبنيًّا للفاعل، وأُسّس، مبنيًّا للمفعول فيهما. شفا الشيء: حافّته، وألفه منقلبة عن واو، ولذلك[٣] يقال في تثنيته: شفوان. والجُرُف: ما جرفه السيل من الأودية، أو الهوّة، قاله أبو عبيدة. وقيل: الجرف: البئر التي لم تُطْوَ[٤]. و«هارٍ» أي: ساقط، يقال: هار يهور وهار يهير، واسم الفاعل هائر فقيل: حذفت الهمزة فبقي: هارٍ، وقيل: قلبت الكلمة من هائر إلى هاري فحذفت الياء لأجل التنوين وصار الإعراب في الرّاء، فقالوا في الرفع: هارٌ وفي النصب: هاراً وفي الجرّ: هارٍ.

﴿لَا[٥] يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ﴾ الآية، يحتمل أن [يكون] البنيان هنا مصدراً، أي: لا يزال ذلك الفعل وهو البنيان. ويحتمل أن يراد به المبنى على حذف مضاف، أي: لا يزال بناء المبنى.

---

(١) انظر سنن أبي داود ١ : ١١ من حديث أبي هريرة.

(٢) ق : إنّ.

(٣) ق : وكذلك.

(٤) طُوِيَتْ البئر : بنيت بالحجارة.

(٥) ق : ولا.

﴿رِيبَةً﴾ أي: شكًّا، يريد: سبب ريبة. وقرىء: تُقَطَّع، مبنيًّا للمفعول، وتَقَطَّع، مبنيًّا للفاعل. وأصله: تتقطّع، حُذفت التاء الثانية فبقي: تَقَطّع.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، نزلت في البيعة الثانية وهي بيعة العقبة الكبرى وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، وكان أصغرهم سنًّا عقبة بن عمرو. وذلك أنهم [اجتمعوا] مع رسول الله ﷺ عند العقبة وقالوا: [اشترط] لك ولربك، والمتكلم بذلك عبد الله بن رواحة. فاشترط رسول الله ﷺ [٢٥٧/أ] حمايته مما يحمون منه أنفسهم، واشترط لربّه[١] التزام الشريعة وقتل الأحمر والأسود في الدفع عن الحوزة. فقالوا: ما لنا على ذلك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: الجنّة. فقالوا: نعم، ربح البيع، لا نقيل ولا نقايل[٢] - وفي بعض الروايات: ولا نستقيل - فنزلت[٣]. والآية عامّة في كلّ من جاهد في سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة. والظاهر من قوله «في التوراة والإنجيل والقرآن» أنّ كلّ أمّة أُمرت بالجهاد ووُعدت عليه الجنّة، فيكون «في التوراة» متعلّقاً بقوله «اشترى».

(١) ق: لنفسه.

(٢) أي نعارض ونبادل.

(٣) لباب النقول ص١٢٦.

والأمر بالجهاد والقتال موجود في جميع الشرائع.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ هذا استفهام على جهة التقرير، أي: لا أحد أوفى. ولمّا أكّد الوعد بقوله «عليه حقاً» أبرزه هنا في صورة العهد الذي هو آكَدُ وأوثق من الوعد، إذ الوعد في غير حقّ الله جائزٌ إخلافه، والعهد لا يجوز إلا الوفاء به إذ هو آكد من الوعد.

قال الزمخشري(١): «ومن أوفى بعهده من الله» لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يُقْدم عليه الكرام من الخَلْق مع جوازه عليهم لحاجتهم، فكيف بالغنيّ الذي لا يجوز عليه قبيح قطّ؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ انتهى. وفيه دسيسة الاعتزال واستعمال «قط» في غير موضعه، لأنه أتى به مع قوله: لا يجوز عليه قبيح قطّ. وقطّ: ظرف ماضٍ فلا يعمل فيه إلا الماضي. ثم قال: «فاستبشروا» خاطبهم على سبيل الالتفات، لأن في مواجهته تعالى لهم بالخطاب تشريفاً(٢)، وهي حكمة الالتفات هنا. وليست «استفعل» هنا للطلب، بل هي بمعنى أفعل كاستوقد وأوقد.

و﴿ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ﴾ وصف على سبيل التوكيد ومحيل على البيع السابق، ثم قال: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: الظفر للحصول على الربح والغبطة في البيع لحطّ الذّنب ودخول الجنّة.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ الآية، قال ابن عبّاس: لمّا نزل ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، قال رجل: يا رسول الله، وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر؟ فنزلت «التائبون».

(١) الكشاف ٢: ٢١٦.
(٢) ق: تشريف.

وهذه الأوصاف للكَمَلة من المؤمنين، ذكرها الله تعالى ليستبق[1] إلى التحلّي بها عبادُه وليكونوا على أوفى درجات الكمال. «التائبون» قيل: هو مبتدأ خبره «العابدون»، وما بعده خبر بعد خبر، أي: التائبون في الحقيقة الجامعون لهذه الخصال. وقيل: خبره «الآمرون». وقيل: خبره محذوف بعد تمام الأوصاف وتقديره: من أهل الجنّة. وترتيب هذه الصفات في غاية من الحسن؛ إذ بدأ أولاً بما يخصّ الإنسان مرتّبة على ما ينبغي، ثم بما يتعدّى من هذه الأوصاف من الإنسان لغيره وهو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، [ثم] بما يشمل ما يخصّه في نفسه وما يتعدّى إلى غيره وهو الحفظ لحدود الله. ولمّا ذكر تعالى مجموع هذه الأوصاف أمر رسول الله ﷺ بأن يبشّر المؤمنين. وفي الآية قبلها «فاستبشروا» أمرهم بالاستبشار فحصلت لهم المزيّة التّامة بأنّ الله تعالى أمرهم بالاستبشار وأمر رسول الله ﷺ أن يبشّرهم.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية، نزلت في شأن أبي طالب[2] حين احتضر فوعظه وقال «أي عمّ، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاجّ لك بها عند الله تعالى». وكان بالحضرة أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقالا له: يا أبا طالب، أترغب عن

(١) ق: ليشتقّ.

(٢) انظر صحيح البخاري ٤: ١٧١٧، خرّجه من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه.

ملّة عبد المطّلب؟ فقال أبو طالب: لولا أنّي أخاف أن يعيّر بها ولدي من بعدي لأقررتُ بها عينك. ثم قال: أنا على ملّة عبد المطّلب، ومات فنزلت ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص] فقال رسول الله ﷺ «لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك». فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية فترك الاستغفار لأبي طالب.

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ[٢٥٧/ ب] إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ الآية، ولمّا كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد أن يُقتدى به - ولذلك قال جماعة من المؤمنين: نستغفر لموتانا كما استغفر إبراهيم لأبيه - بيّن العلّة في استغفار إبراهيم لأبيه، وذكر أنّه حين اتّضحت له عداوته لله تعالى تبرّأ منه إبراهيم. والموعدة التي وعدها إبراهيم إياه هي قوله ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ﴿٤٧﴾﴾ [مريم] وقوله ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة]. والضمير الفاعل في «وعدها» عائد على إبراهيم، وكان أبوه بقيد الحياة وكان يرجو إيمانه، فلما تبيّن له من جهة الوحي من الله تعالى أنه عدوّ لله وأنّه يموت كافراً وانقطع رجاؤه منه تبرّأ منه وقطع عنه استغفاره. ويدل على أنّ الفاعل في «وعد» ضمير يعود على إبراهيم قراءة الحسن وابن السميقع وأبي نهيك ومعاذ القارىء وحمّاد الرّاوية: وعدها أباه. وقيل: الفاعل ضمير والد إبراهيم و«إياه» ضمير إبراهيم، وعده أبوه أنه سيؤمن فكان إبراهيم قد قوي طمعه في إيمانه فحمله ذلك على الاستغفار له حتى [نُهي] عنه. والأوّاه: الخاشع المتضرّع، وقيل غير ذلك؛ قال الزمخشري[1]: «أوّاه» فعّال من أوه كلأّل من اللؤلؤ، وهو الذي يكثر التأوّه، ومعناه أنه لفرط ترحّمه ورأفته وحلمه كان يتعطّف على أبيه الكافر إلى آخره.

---

(١) الكشاف ٢ : ٢١٧.

تشبيهه «أوّاه» من أوه بلآل من اللؤلؤ ليس بجيّد، لأن مادّة أوه موجودة في صورة أوّاه، ومادة لؤلؤ مفقودة في اللآل لاختلاف التركيب إذ: لآل ثلاثي ولؤلؤ رباعي، وشرط الاشتقاق التوافق في الحروف الأصلية.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ ﴾ الآية، مات قوم كان عملهم على الأمر الأول كاستقبال بيت المقدس وشرب الخمر، فسأل قوم رسول الله ﷺ بعد مجيء النَّسْخ ونزول الفرائض عن ذلك فنزلت[1]. «وما كان الله» أي: ما كان ليديم الإضلال لقوم أرشدهم إلى الهدى حتى يبيّن لهم ما يتّقونه أي: يجتنبونه، فلا يجدي ذلك فيهم فحينئذ يدوم إضلالهم.

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ الآية، قال ابن عطية: التوبة من الله تعالى رجوعه بعبده من حالة إلى حالة أرفع منها، وقد تكون في الأكثر رجوعاً عن حالة المعصية إلى حالة الطاعة. وقد تكون رجوعاً من حالة طاعةٍ إلى أكمل منها. وهذه توبته في هذه الآية على النبي ﷺ لأنه رجع به من حالة قبل تحصيل الغزوة وتحمّل مشقّاتها، إلى حالةٍ بعد ذلك أكمل منها. وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرّضة لأن تكون من نقصان إلى طاعةٍ

---

(١) انظر القرطبي ٨: ٢٧٧.

وجدٌّ في الغزو ونصرة الدين. وأما توبته على الفريق [الذي كاد أن يزيغ] فرجوع من حالة محطوطة إلى [حالة] غفران ورضى [انتهى].

﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: اتّبعوا أمره.

﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ الضيق والشّدة والعدم. وهذا هو جيش العسرة الذي قال فيه رسول الله ﷺ «من جهّز جيش العسرة فله الجنة»(١) فجهّزه عثمان بن عفان بألف جمل وألف دينار. وروي أنّ رسول الله ﷺ قلّب الدنانير بيده وقال «وما على عثمان ما عمل بعد هذا»(٢). وجاء أنصاري بسبع مئة وَسق(٣) من تمر. وقال مجاهد وغيره: بلغت العسرة بهم إلى أن كان العشرة منهم يعتقبون(٤) على بعير واحد من قلّة الظَّهر، وإلى أن قسموا التّمرة بين الرجلين، وكان النّفر يأخذون التمرة الواحدة فيمصُّها أحدهم ويشرب عليها الماء [ثم يفعل بها كلّهم ذلك. وقال عمر بن الخطاب: أصابهم في بعضها عطش شديد حتى جعلوا ينحرون الإبل ويشربون ما في كروشها من الماء] ويعصرون الفرث(٥) حتى استسقى رسول الله ﷺ، فرفع يديه يدعو، فما رجعهما حتى انسكبت سحابة، فشربوا وادّخروا ثم ارتحلوا، فإذا السحابة [٢٥٨/أ] لم تخرج عن العسكر. وفي هذه الغزاة همّوا من المجاعة بنحر

---

(١) أخرجه البخاري ٣: ١٣٥١.
(٢) أخرجه الترمذي ٩: ٢٩١ من حديث عبد الرحمن بن خبّاب وقال: حديث غريب. وانظر تاريخ الخلفاء ص١٥١.
(٣) الوسق: ستون صاعاً، أو حمل بعير.
(٤) ق: يتعقّبون.
(٥) الفرث: «الزّبل ما دام في الكرش».

الإبل، فأمر صلى الله عليه وسلم[١] بجمع فضل أزوادهم حتى اجتمع منه على النِّطع شيء يسير، فدعا فيه بالبركة ثم قال «خذوا في أوعيتكم» فملؤوها حتى لم يبق وعاء، وأكل القوم كلّهم حتى شبعوا وفضل فضلة، وكان الجيش ثلاثين ألفاً وزيادة، وهي آخر مغازيه عليه السلام. وفيها خلّف عليًّا بالمدينة فقال المنافقون: خلّفه بغضاً فيه، وأخبره بقولهم فقال «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى»[٢]؟. ووصل صلى الله عليه وسلم إلى أوائل بلاد العدوّ وبثّ السّرايا فصالحه أهل أَذْرُح وأَيلة وغيرهما على الجزية وانصرف. وقال ابن عباس: تزيغ: تعدل عن الحقّ في المتابعة. و«كاد» تدلّ على القرب لا على التّلبّس بالزّيغ. وقرىء: يزيغ، بالياء فيتعيّن أن يكون في «كاد» ضمير الشأن. وارتفع «قلوب» بتزيغ لامتناع أن تكون «قلوب» اسم كاد و«يزيغ» في موضع الخبر لأن النيّة به التأخير، ولا يجوز: من بعد ما كاد قلوب يزيغ بالياء. وقرىء بالتاء فاحتمل أن يكون في «كاد» ضمير الشأن كقراءة الياء، واحتمل أن يكون «قلوب» اسم كاد و«يزيغ» الخبر وسّط بينهما كما فعل ذلك بكان. وفي هذين الإعرابين كلام ذكر في البحر[٣]. «فريق منهم» قال الحسن: همّت فرقة بالانصراف لِمَا لَقُوا من المشقّة. وقيل: زَيْغها بظنون لها ساءت في معنى عزم الرسول على تلك الغزوة لِمَا رأته من شدّة العسرة وقلّة الوفر وبُعد الشّقة وقوة العدوّ المقصود.

---

(١) صحيح مسلم ١: ٥٦ من حديث أبي هريرة أو أبي سعيد وانظر الفتح الرباني ٢٢: ٥٧. والنّطع: البساط يتخذ من أديم.

(٢) أخرجه البخاري ٣: ١٣٥٩ من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه.

(٣) انظر ٥: ١٠٩.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾[١] معطوف على قوله «والأنصار». ومعنى «خُلّفوا» أي: عن غزوة تبوك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ تقدّم تفسيره[٢].

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ استعارة، لأن الغمّ والهمّ ملأها بحيث لا يسعها أُنْس ولا سرور وحرجت من فرط الوحشة.

﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أي: علموا. وقال قوم: الظّن هنا على بابه من ترجيح أحد الجائزَيْن لأنه وقف أمرهم على الوحي ولم يكونوا قاطعين بأنه ينزل في شأنهم قرآن، أو كانوا قاطعين لكنهم يجوّزون تطويل المدّة في بقائهم في الشّدة. فالظّن عاد إلىتجويز[٣] تلك المدة قصيرةً. وجاءت هذه الجمل في كنف[٤] «إذا» في غاية الحسن والترتيب [فذكر أوّلاً] ضيق الأرض عليهم وهو كناية عن استيحاشهم وتنزّه الناس عن كلامهم، وثانياً «وضاقت عليهم أنفسهم» وهو كناية عن تواتر الهمّ والغمّ على قلوبهم حتى لم يكن فيها شيء من الانشراح والاتّساع، فذكر أوّلاً ضيق المحلّ ثم ثانياً ضيق الحال فيه، لأنه قد يضيق المحلّ وتكون النفس منشرحة، ثم ثالثاً لمّا يئسوا من الخَلْق عذقوا[٥] أمورهم بالله وانقطعوا إليه، وعلموا أنه لا يخلّص من الشّدة ولا يفرّجها إلا هو تعالى.

(١) انظر البخاري ٤ : ١٦٠٣.
(٢) انظر تفسير الآية ٢٥ من السورة.
(٣) ق: تجوّز.
(٤) ق: فعلق هذه الجمل في كيف!.
(٥) أي ربطوها به.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرّة أخرى ليستقيموا على توبتهم وينيبوا، أو ليتوبوا أيضاً فيما يُستقبل إن[1] فَرَطَتْ منهم خطيئة، علماً منهم أن الله توّاب على من تاب ولو عاد في اليوم مئة مرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الآية، هو خطاب للمؤمنين أُمروا بكونهم مع أهل الصدق بعد ذكر قصة الثلاثة الذين نفعهم صدقهم وأزاحهم عن رتبة النفاق. واعترضت هذه الجملة تنبيهاً على رتبة الصدق، وكفى بها أنها ثانية لرتبة النبوة في قوله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ۝٦٩﴾ [النساء].

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢١ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية، نزلت فيمن تخلّف من أهل المدينة عن غزوة تبوك وفيمن تخلّف من حولهم[2] من الأعراب من مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار. ومناسبتها لما قبلها أنه لمّا أمر [٢٥٨/ب] المؤمنين

---

(١) ق: لمن.

(٢) ق: وفي تخلّف ممن حوليهم.

بتقوى الله تعالى وأمر بكينونتهم مع الصادقين - وأفضل الصادقين رسول الله ﷺ ثم المهاجرون والأنصار - اقتضى ذلك موافقة الرسول وصحبته أنّى توجّه من الغزوات والمشاهد.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ قال الزمخشري[1]: أن يصحبوه على البأساء والضّراء ويكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يُلَقّوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه الكريمة صلى الله عليه وسلم، علماً بأنها[2] أعزّ نفس عند الله تعالى وأكرمها عليه. وإذا تعرّضت مع كرامتها وعزّتها للخوض في الشدائد والهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرّضت له ولا يكترث بها أصحابها ولا يقيموا لها وزناً [انتهى].

﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ الظمأ: العطش. ولمّا كان العطش أشقّ الأشياء المؤذية للمسافر بكثرة الحركة وإزعاج النفس وخصوصاً في شدة الحرّ كغزوة تبوك - بدىء به أوّلاً وثُنّي بالنَّصَب وهو التعب لأنه الكلال الذي يلحق المسافر والإعياء الناشىء عن العطش والسير. وأتى ثالثاً بالجوع لأنه حالة يمكن الصبر عليها الأوقات العديدة، بخلاف العطش والنصب المُفْضيَيْن إلى الخلود والانقطاع عن السفر، فكان الإخبار بما يعرض للمسافر أولاً فثانياً فثالثاً.

و﴿مَوْطِئًا﴾ مَفْعِل من وطىء، فاحتمل أن يكون مكاناً واحتمل أن يكون مصدراً. والفاعل في «يغيظ» عائد على المصدر؛ إما على موطىء إن كان مصدراً، وإما على ما يفهم من موطىء إن كان مكاناً، أي: يغيظ وَطْؤهم إياه

(١) الكشاف ٢: ٢٢٠.

(٢) ق: بها.

الكفار. والنَّيْل: مصدر، واحتمل أن يبقى على موضوعه واحتمل أن يراد به المَنِيْل. وأطلق «نَيْلاً» ليعمّ القليل والكثير ممّا يسوؤهم قتلاً وأسراً وغنيمة وهزيمة. وبدىء في هاتين الجملتين بالأسبق أيضاً وهو الوطء، ثم ثنّى بالنّيل[1] من العدوّ. وجاء العموم في «الكفار» بالألف واللام، وفي «من عدو» لكونه في سياق النفي. وبدىء أوّلاً بما يخصّ المسافر في الجهاد في نفسه، ثم ثانياً بما يترتب على تحمّل تلك المشاقّ من غيظ الكفّار والنّيل من العدوّ.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ قال ابن عباس: كالتمرة ونحوها، والكبيرة[2] ما فوقها. وقدّم «صغيرة» على سبيل الاهتمام كقوله تعالى ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]، ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]. وإذا كتب أجر الصغيرة فأحرى أجر الكبيرة. ومفعول «كُتب» مضمر يعود على المصدر المفهوم من «ينفقون» و«يقطعون» كأنه قيل: كُتب لهم هو، أي: الإنفاق والقطع. وتأخّرت هاتان الجملتان وقُدّمت تلك الجملة السابقة لأنها أشقّ على النفس وأنكى للعدوّ، وهاتان أهون لأنهما في الأموال[3] وقطع الأرض إلى العدوّ. وسواء حصل غيظ الكفار والنّيل من العدوّ أم لم يحصلا فهذا أعمّ وتلك أخصّ، وكان تعليل تلك آكد إذ[4] جاء بالجملة الاسمية المؤكدة «بأنّ». وذكر فيه الأجر ولفظ «المحسنين» تنبيهاً على أنهم جازوا رتبة الإحسان التي هي أعلى رتب المؤمنين. وفي هاتين الجملتين أتى بلام العلّة

---

(١) ق: بالقليل.

(٢) ق: والكبير.

(٣) ق: الأهوال.

(٤) ق: إذا.

وهي متعلقة «بكُتِب» والتقدير: أحسن جزاء الذين كانوا يعملون لأن عملهم له جزاء أحسن وله جزاء حسن.

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ﴾ لمّا سمعوا قوله ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [التوبة][1]، أهمّهم ذلك فنفروا إلى المدينة إلى رسول الله ﷺ فنزلت.

﴿ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ أي: ليجعلوا غرضهم في التفقّه إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم.

﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ إرادة أن يحذروا الله تعالى فيعملوا صالحاً.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ لمّا حضّ على التفقّه في الدّين وحرّض على رحلة طائفة من المؤمنين فيه [٢٥٩/أ] أمر تعالى المؤمنين كافة بقتال من يليهم من الكفار، فجمع بين الجهادَيْن: جهاد الحجّة وجهاد السيف، وقال بعض

(١) وانظر أسباب النزول ص١٧٨، ولباب النقول ص١٢٧.

الشعراء][1]: [من البسيط]

مـن لا يعـدّلـه القـرآن كـان لـه   من الجهاد وبيض البتر تعديل

﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ الغلظة تجمع الجرأة والصبر على[2] القتال وشدة العداوة. والغلظة حقيقة في الأجسام واستعيرت هنا للشدّة في الحرب. وفي قوله «واعلموا» تبشير لهم بالنصر.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه [والثانية في] المنافقين: كانوا إذا نزلت سورة فيها عيب[3] المنافقين، خطبهم رسول الله ﷺ وعرّض بهم في خطبته، فينظر بعضهم إلى بعض يريدون[4] الهرب ويقولون: هل يراكم من أحد إن قمتم؟ فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد.

﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ يحتمل أن يكون خطاب بعض المنافقين لبعضٍ على سبيل الإنكار والاستهزاء بالمؤمنين، ويحتمل أن يقولوا[5] ذلك لقراباتهم المؤمنين فيستقيمون لهم ويطمعون[6] في ردّهم إلى النفاق. ومعنى قولهم «هذه»[7] على سبيل التحقير للسّورة والاستخفاف بها، كما تقول: أي غريب في هذا وأي دليل فيه.

(١) لم أجد قائله، وانظر البحر ٥: ١١٤.
(٢) ق: عن.
(٣) ق: عتب.
(٤) ق: فنظر.. ويريدون.
(٥) ق: يقول.
(٦) ق: يبسمون لهم ويطعنون.
(٧) ق: ذلك.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ قرىء بياء الغيبة يعني به الكفّار، وبتاء الخطاب يعني به المؤمنين. والرؤية إما علمية وإما بصريّة. ومعنى الآية: أوَلا يزدجر هؤلاء الذين تفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين بحَسَبِ واحدٍ واحدٍ ويعلمون أن ذلك من عند الله تعالى فيتوبون ويذكرون وعد الله تعالى ووعيده.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ الآية، ذكر [أولاً] ما يحدث عنهم من القول على سبيل الاستهزاء، ثم ذكر ثانياً ما يصدر منهم من الفعل على سبيل الاستهزاء وهو الإيماء والتغامز بالعيون إنكاراً للوحي وسخريةً قائلين: هل يراكم من أحد من المسلمين لننصرف[1] فإنّا لا نقدر على استماعه. و«نظر» بصريّة وهي معلّقة. و«هل يراكم من أحد» في موضع نصب بها.

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ﴾ أي: عن الإيمان والفكر في السورة التي نزّلت.

﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ الظاهر أنه خبر. لمّا كان الكلام في معرض ذكر الذنب بدأ بالفعل المنسوب إليهم وهو قوله «ثم انصرفوا» ثم ذكر تعالى فعله بهم على سبيل المجازاة لهم على فعلهم كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ ۝٥﴾ [الصف].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾.

(١) ق: لنتصرّف.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ الآية، لمّا بدأ السورة ببراءة الله ورسوله من المشركين، وقصّ فيها أحوال المنافقين شيئاً فشيئاً، خاطب العرب على سبيل تعداد النعم عليهم والمنّ بكونه جاءهم رسول من جنسهم أو من نسبهم عربيّاً قرشيّاً، يبلّغهم عن الله تعالى، متّصف بالأوصاف الجميلة من كونه يعزّ عليه مشقّتهم في سوء العاقبة من الوقوع في العذاب، ويحرص على هداهم ويرأف بهم ويرحمهم. اللهم فصلّ عليه أشرف صلاة وسلّم عليه أزكى سلام.

سورة يونس (1)

عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ
مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ
ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى
سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ
ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ
إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ
مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾ .

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ هذه السورة مكّية إلا ثلاث آيات فإنها نزلت بالمدينة وهي ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ ۝٩٤ ﴾ [يونس] إلى آخرهنّ قاله ابن عباس. وسبب نزولها أن أهل مكة قالوا: لم يجد الله رسولاً إلاّ يتيم أبي طالب

(1) مكّية وهي مئة وتسع آيات.

فنزلت[1]. ومناسبتها [٢٥٩/ب] لما قبلها أنه تعالى لمّا أنزل ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة] وذكر تكذيب المنافقين، ثم قال ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] وهو محمد ﷺ، أتبع ذلك بذكر الكتاب الذي أُنزل والنبي الذي أُرسل، وأن ديدن الضّالين واحدٌ، منافقيهم ومشركيهم في التكذيب بالكتب الإلهية وبمن جاء بها، ولِمَا جاء بها. ولمّا كان ذكر القرآن مقدّماً على ذكر الرّسول في آخر السورة، جاء في أول هذه السورة كذلك، فتقدم ذكر الكتاب على ذكر الرسول. والظاهر أن «تلك» باقية على موضوعها من استعمالها لبُعد المشار إليه. وقال مجاهد وقتادة: وأشار «بتلك» إلى الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل والزّبور، فتكون الآيات: القصص التي وصفت في تلك الكتب. وقال الزّجاج: إشارة إلى آيات القرآن التي جرى ذكرها.

والهمزة في «أكان» للاستفهام على سبيل الإنكار لوقوع العجب من الإيحاء إلى بشر منهم بالإنذار والتبشير، أي: لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة؛ أوحى إلى رسلهم الكتب بالتبشير والإنذار على أيدي من اصطفاه منهم. واسم «كان»: «أن أوحينا» و«عجبا» الخبر. و«للناس» قيل: هو في موضع الحال من «عجباً» لأنه لو تأخر لكان صفة، فلما تقدّم كان حالاً. وقيل: يتعلق بقوله «عجباً» وليس مصدراً بل هو بمعنى معجب، والمصدر إذا كان بمعنى المفعول جاز تقديم معموله عليه كاسم المفعول. وقيل: هو تبيين أي: أعني للناس. وقيل: يتعلق بـ«كان» وإن كانت ناقصة، وهذا لا يتمّ إلا إذا قُدّرت دالّةً على الحدث؛ فإنها إن تمحّضت للدلالة على الزّمان لم يصحَّ تعلّقٌ بها. وقرأ عبد الله: عجب،

(١) انظر أسباب النزول ص١٧٩.

فقيل: «عجب» اسم كان، و«أن أوحينا» هو الخبر، فيكون نظير قوله[١]:

[كـأنّ سبيئـة مـن بيـت رأسٍ]   يكـون مـزاجَهـا عسـلٌ ومـاءُ

وهذا محمول على الشذوذ، وهذا تخريج الزمخشري[٢] وابن عطية. وقيل: «كان» تامّة، و«عجب» فاعل بها، والمعنى: أحدث للناس عجب لأن أوحينا، وهذا التوجيه حسن. و«أنْ أنذر» «أنْ» تفسيرية أو مصدرية مخفّفة من الثقيلة وأصله: أنّه أنذر الناس، على معنى أن الشأن قولنا: أنذر الناس قالهما الزمخشري[٣]. ويجوز أن تكون «أنْ» المصدرية الثنائية[٤] الوضع لا المخفّفة من الثقيلة، لأنها تُوصَل بالماضي والمضارع والأمر، فوُصلت هنا بالأمر، وينسبك منها معه مصدر تقديره: بإنذار الناس. وهذا الوجه أولى من التفسيرية لأن الكوفيين لا يثبتون «لأنْ» أن تكون تفسيرية، ومن المصدرية المخفّفة من الثقيلة لتقدير[٥] حذف اسمها وإضمار خبرها وهو القول، فيجتمع فيها حذف الاسم والخبر، ولأن التأصيل خير من دعوى الحذف بالتخفيف «قدم صدق» قال ابن عباس وغيره: هي الأعمال الصالحة من العبادات. «عند ربهم» سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة. ولما كان السّعي والسّبق بالقدم سُمّيت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً، كما سمّيت النعمة يداً لأنها تُعطَى باليد.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى الإيحاء بالإنذار والتبشير.

---

(١) البيت لحسّان في ديوانه ص٥٩. وهو من الوافر

(٢) انظر الكشاف ٢: ٢٢٤.

(٣) الكشاف ٢: ٢٢٤.

(٤) ق: الشائبة.

(٥) ق: التقدير.

﴿لَسَٰحِرٌ[١] مُّبِينٌ﴾ لَشيء يُعلَّل به وهو[٢] شيء لا حقيقة له كما قال[٣]:

[أرانــا مُــوضِعيــن لأمــر غيــبٍ] ونُسحــر بــالطعــام وبــالشــراب

[من الوافر]

أي: نُعلَّل بهما.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ تقدم تفسير مثل هذه الجملة في سورة الأعراف[٤] ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الآية، أي: المتصف بالإيجاد والتدبير والكبرياء، وهو ربكم الناظر في مصالحكم فهو المستحق للعبادة، إذ لا يصلح للعبادة إلا هو تعالى، فلا تشركوا به بعض خلقه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ حضٌّ على التدبّر والتفكّر في الدلائل الدالّة على ربوبيته وإمحاض العبادة له تعالى.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ الآية، ذكر ما يقتضي التذكر وهو كون مرجع الجميع [٢٦٠/أ] إليه، وأكّد هذا الإخبار بأنه وعد الله الذي لا شكّ في صدقه. ثم استأنف الإخبار وفيه معنى التعليل[٥] بابتداء الخلق وإعادته وأنّ مقتضى الحكمة بذلك هو جزاء المكلّفين على أعمالهم. وانتصب «وعد الله حقاً» على أنهما مصدران مؤكّدان لمضمون الجملة، والتقدير: وَعَدَ اللهُ وَعْداً،

---

(١) ق: بسحر. وأخذ المصنّف بقراءة الجمهور ونافع: لَسِحْرٌ، بدون ألف إشارة إلى الوحي. وقراءة الكوفيين وابن كثير: لساحر، بالألف إشارة إلى الرسول ﷺ. انظر التيسير ص١٢٠، والبحر ٥: ١٢٣.

(٢) ق: وهي.

(٣) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٩٧.

(٤) انظر شرح الآية ٥٤ من الأعراف.

(٥) ق: التعليق.

فلمّا حذف الناصب أضاف المصدر إلى الفاعل، وذلك كقوله تعالى ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة]. والتقدير في «حقّاً»: حَقَّ ذلك حقًّا. وقيل: انتصب «حقًّا» بوَعْد على تقدير: في، أي: وَعْد الله في حقّ. وقال علي بن سليمان: التقدير: وقت حقّ، وأنشد[1]: [من الطويل]

أحقًّا عباد الله أن لست خارجاً ولا والجاً إلاّ عليَّ رقيب

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى الدلائل على ربوبيّته من إيجاد هذا العالم العلوي والسفلي، ذكر ما أودع في العالم العلوي من هذين الجوهرين النيّرَيْن المشرقَيْن، فجعل الشمس ضياءً: أي ذات ضياء أو مضيئة أو نفس الضياء مبالغة. و«جعل» يُحتمل أن تكون بمعنى صيّر فيكون «ضياءً» مفعولاً ثانياً، ويُحتمل أن تكون بمعنى خلق فتكون حالاً.

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ أي: ذا نور أو منوّراً أو نفس النور مبالغة، إذ هما مصدران. ولمّا كانت الشمس أعظم جِرماً خُصَّت بالضياء لأنه هو الذي له سطوع ولمعان، وهو أعظم من النور. والظاهر عَوْد الضمير على القمر أي: مسيره منازل، أو قدّره ذا منازل. وعاد الضمير عليه وحده لأنه هو المراعى في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب. والمنازل هي البروج، وكانت العرب تنسب إليها الأنواء وهي ثمانية وعشرون منزلة: الشرطين والبطين والثّريا والدّبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعَوّاء والسّماك والغفر والزّبانان والإكليل والقلب والشّولة والنعائم والبلدة وسعد الذّابح وسعد بلع وسعد السّعود وسعد الأخبية والفرع المقدم والفرع المؤخر والرشاء وهو الحوت. واللام متعلّقة بقوله «وقدره منازل».

---

(١) البيت لابن الدمينة في ديوانه ص١٠٣. وروايته: لست صادراً ولا وارداً.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية، اختلافهما: تعاقبهما وكون أحدهما يخلف الآخر.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الأجرام النّيرة التي فيها، والملائكة المقيمين بها وغير ذلك مما يعلمه. «والأرض» من الجوامد والمعادن والنبات والحيوان. وخصّ المتّقين لأنهم الذين يخافون العواقب فيحملهم الخوف على تدبّرهم ونظرهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية، الظاهر أن الرجاء هو التأميل والطمع، أي: لا يؤملون رجاء ثوابنا وعقابنا، أو معنى لا يخافون.

والظاهر أن قوله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ﴾ هو قِسْم من الكفار غير القسم الأول وذلك لتكرير الموصول فيدلّ على المغايرة، ويكون معطوفاً على اسم «إنّ»، ويكون «أولئك» إشارة إلى صنفي الكفار: ذي الدنيا المتوسّع فيها الناظر في الآيات فلم يؤثر عنده [رجاء] لقاء الله بل رضي بالحياة الدنيا لتكذيبه بالبعث والجزاء، والعادم التوسّع(١) الغافل عن آيات الله الدالّة على الهداية. ويحتمل أن يكون من عطف الصفات فيكون «والذين هم عن آياتنا غافلون» [هم الذين] لا يرجون لقاء الله.

---

(١) ق: المتوسّع.

والظاهر أنّ ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ عطف على الصلة، ويحتمل أن تكون واو الحال أي: وقد اطمأنّوا بها. والآيات: قيل آيات القرآن أو العلامات الدالّة على الوحدانية والقدرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية، أي: يزيدهم في هداهم بسبب إيمانهم السابق ويثيبهم، أو يهديهم إلى طريق الجنة بسبب [٢٦٠/ب] إيمانهم السابق. والظاهر أن يكون «تجري» مستأنفاً، فيكون قد أخبر عنهم بخبرين عظيمين: أحدهما هداية الله تعالى لهم وذلك في الدنيا والآخرة، وبجريان الأنهار وذلك في الآخرة. كما تضمّنت الآية في الكفّار شيئين: أحدهما اتّصافهم بانتفاء رجاء لقاء الله وما عطف عليه، والثاني مقرّهم ومأواهم. فصار تقسيماً للفريقين في المعنى.

لمّا هداهم ونعّمهم بالجنة نزّهوا الله تعالى وقدّسوه بقولهم ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾. و«اللهم» تقدم الكلام عليه[1].

﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ﴾ أي: تحيّة بعضهم لبعض، أو تحيّة الملائكة لهم كما قال ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾﴾ [الرعد]. و«أنْ» هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن لازم الحذف، والجملة بعدها[2] خبر أنّ. [و«أنْ»] وصلتها خبر قوله «وآخر دعواهم». وزعم صاحب النظم أنّ «أنْ» هنا زائدة، و«الحمد لله» خبر «وآخر دعواهم» وهو مخالف لنصّ النحويين.

﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ

(١) انظر تفسير الآية ٢٦ من آل عمران.
(٢) ق: بعد.

ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ﴾ الآية، قال مجاهد: نزلت في دعاء الرجل على نفسه وماله أو ولده ونحو هذا، فأخبر تعالى أنه لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم. وانتصب «استعجالهم» على أنه مصدر تشبيهي تقديره: استعجالاً مثل استعجالهم. وقال الزمخشري[1]: أصله: ولو يعجّل الله للناس [الشّر] تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطَلِبَتهم، كأنّ استعجالهم بالخير تعجيلٌ لهم.انتهى. مدلول عجّل غير مدلول استعجل، لأن عجّل تدلّ على الوقوع واستعجل تدلّ على طلب التعجيل، وذلك واقع من الله تعالى وهذا مضاف إليهم، فلا يكون التقدير على ما قاله الزمخشري. فيحتمل وجهين: أن يكون التقدير: تعجيلاً مثل استعجالهم بالخير، فشبّه التعجيل بالاستعجال لأن طلبتهم للخير ووقوع تعجيله مقدّم عندهم على كل شيء. والثاني: أن يكون ثَمّ محذوف يدلّ عليه المصدر تقديره: ولو يعجّل الله للنّاس الشّر إذا استعجلوا به استعجالهم بالخير، لأنهم كانوا يستعجلون بالشّر ووقوعه على سبيل التّهكم كما كانوا يستعجلون بالخير. وقرىء: لقُضي، مبنيًّا للمفعول، أجلُهم: بالرفع. ولقَضَى، مبنيًّا للفاعل، وفيه ضمير يعود على الله تعالى، وأجلَهم: نصب على المفعول. والفاء في «فنذر»

(١) الكشاف ٢: ٢٢٧.

جواب ما أخبر به عنهم على طريق الاستئناف تقديره: فنحن نذر، قاله الحوفي. وقال أبو البقاء[١]: «فنذر» معطوف على فعل محذوف تقديره: ولكن نمهلهم[٢] فنذر.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه لمّا استدعوا حلول الشّر بهم وأنه تعالى لا يفعل ذلك بطلبهم بل يترك من لا يرجو لقاءه يعمّه في طغيانه، بيّن شدة افتقار الناس إليه واضطرارهم إلى استمطار إحسانه مسيئهم ومحسنهم. والظاهر أنه لا يراد بالإنسان هنا شخص معيّن وأنه لا يراد به الكفار، بل المراد الإنسان من حيث هو سواء أكان كافراً أم عاصياً بغير الكفر.

و﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ حال أي: مضطجعاً، ولذلك عُطف عليه الحالان، وذو الحال الضمير في «دعانا»، والعامل فيه «دعانا» أي: دعانا ملتبساً بأحد هذه الأحوال. واحتملت هذه الأحوال الثلاثة أنْ تكون لشخص واحد واحتملت أن تكون لأشخاص، إذ الإنسان جنس. والمعنى أن الذي أصابه الضرّ لا يزال داعياً ملتجئاً راغباً إلى الله تعالى في جميع حالاته كلها، وابتدأ بالحالة الشاقّة وهي اضطجاعه وعجزه عن النهوض وهي أعظم في الدّعاء وآكد، ثمّ بما يليها وهي حالة القعود وهي حالة العجز عن القيام، ثم [بما] يليها وهي حالة القيام وهي حالة العجز عن المشي فتراه يضطرب[٣] ولا ينهض للمشي كحالة الشيخ الهرم. [٢٦١/أ] والجملة من قوله «كأن لم يدعنا إلى ضر مسه» في موضع الحال أي: إلى كشف ضرّ مسّه. والكاف من «كذلك»

---

(١) الإملاء ٢: ٢٥.

(٢) ق: نهملهم.

(٣) ق: يضرب.

في موضع نصب أي: مثل ذلك. والإشارة [«بذلك»] إلى تزيين[١] الإعراض عن الابتهال إلى الله تعالى عند كشف الضّر وعدم شكره وذكره على ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾ الآية، هذا إخبار لمعاصري رسول الله ﷺ وخطاب لهم بإهلاك من سلف قبلهم من الأمم بسبب ظلمهم وهو الكفر، على سبيل الرّدع لهم والتذكير بحال من سبق من الكفار والوعيد لهم وضرب الأمثال، فكما فعل بهؤلاء يفعل بكم. ولفظة ﴿لَمَّا﴾ مشعرة بالعلّية، وهي حرف تعليق في الماضي.

و﴿وَجَاءَتْهُمْ﴾ ظاهره أنه معطوف على «ظلموا» أي: لمّا حصل هذان الأمران: مجيء الرّسل بالبيّنات وظُلْمهم أُهلكوا. والظاهر أن الضمير في قوله «وما كانوا[٢]» عائد على «القرون» وأنه معطوف على قوله «ظلموا». والكاف في «كذلك» في موضع نصب أي: مثلَ ذلك الجزاء - وهو الإهلاك - نجزي القوم المجرمين. فهذا وعيد شديد لمن أجرم يدخل فيه أهل مكة وغيرهم.

والخطاب في ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ لمن بُعث إليهم رسول الله ﷺ. والمعنى: استخلفناكم في الأرض بعد القرون المُهْلَكَة لننظر أتعملون خيراً أم شرًّا فنعاملكم على حسب عملكم. [ومعنى] «لننظر» ليتبيّن في الوجود ما[٣] علمناه أزلاً، فالنظر مجاز عن هذا.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ

(١) ق: تبيين.
(٢) ق: كان.
(٣) ق: وما.

بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا
مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا
تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ الآية، قال ابن عباس وابن الكلبي: [نزلت] في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة، قالوا: يا محمد ائت بقرآن غير هذا فيه ما نسألك. والتبديل يكون في الذات بأن تُجعل ذات بدل ذات أخرى، ويكون في الصّفة. والتبديل هنا هو في الصفة وهو أن يُزال بعض نظمه بأن يجعل مكان آية العذاب آية الرحمة. ولمّا كان الإتيان بقرآن غير هذا غير مقدور للإنسان لم يُحتج إلى نفيه، ونُفي ما هو مقدور للإنسان وإن [كان] مستحيلاً ذلك في حقّه صلى الله عليه وسلم فقيل له «قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي».

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ﴾ الآية، هذه مبالغة في التبرئة مما طلبوا منه، أي: أن تلاوته عليهم هذا القرآن إنما هو بمشيئة الله تعالى وإحداثِه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات، وهو أن يخرج رجل أمّي لم يتعلّم ولم يسمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ولا نشأ في بلدة فيها علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً يبهر كلام كلّ فصيح ويعلو كل منثور ومنظوم، مشحوناً بعلوم من الأصول والفروع وأخبار ما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطّلعون على أحواله ولا يخفى عليكم شيء من أسراره ولا سمعتم منه حرفاً من ذلك ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به. ومفعول «شاء» محذوف أي: قل لو شاء الله

أن لا أتلوه. وجاء جواب «لو» على الفصيح من عدم إتيان اللام لكونه منفيًّا بما. ويقال: دريت به وأدريت زيداً به، والمعنى: ولا أَعلمكم به على لساني. ونبّه على أن ذلك وحي من الله بإقامته فيهم عمراً وهو أربعون سنة من قبل ظهور القرآن على لساني يافعاً وكهلاً، لم تجرّبوني في كذب ولا تعاطيت شيئاً من هذا ولا عانيت اشتغالاً، فكيف أُتّهم باختلاقه؟. والظاهر عود الضمير في «من قبله» على القرآن.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تقدم تفسير مثل هذا الكلام(١).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الضمير في «ويعبدون» عائد على كفار قريش الذين تقدمت محاوراتهم. [٢٦١/ب].

و﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هو الأصنام جماد لا تقدر على نفع ولا ضرّ. قيل: إن عبدوها لم تنفعهم وإن تركوها لم تضرّهم، ومن حقّ المعبود أن يكون مثيباً على الطّاعة معاقباً على المعصية. وكان أهل الطائف يعبدون

---

(١) انظر تفسر الآية ٢١ من الأنعام.

اللاّت وأهل مكة يعبدون العُزّى ومناة وأسافاً ونائلة وهبل.

وفي قوله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دلالة على أنهم يعبدون الأصنام ولا يعبدون الله. قال ابن عباس: يعنون في الآخرة، أي: النفع والضّر.

و﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾ استفهام على سبيل التّهكم بما ادّعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلامٌ بأن الذي أَنبؤوا به باطل غير منطوٍ تحت الصحّة، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلّق به علمه.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لمّا ذكر تعالى الدّلالة على فساد عبادة الأصنام، ذكر الحامل على ذلك وهو الاختلاف الحادث بين الناس. والظاهر عموم «الناس» ويُتصوّر في آدم وبنيه إلى أن وقع الاختلاف بعد قتل أحد ابنيه الآخر. «أمّة واحدة» تقدم الكلام عليها في البقرة[١]. والكلمة هنا هو القضاء والتقدير لبني آدم بالآجال الموّقتة.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ الآية، هذا من اقتراحهم. وكانوا لا يعتدّون بما أنزل من الآيات العظام المتكاثرة التي لم يُنزّل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، فكأنه لم ينزّل عليه شيء قطّ حتى قالوا: لولا أُنزل عليه آية من ربه واحدة، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التّمرد وانهماكهم في الغيّ به.

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحدٍ به. يعني أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيّب لا

(١) انظر تفسير الآية ٢١٣ من البقرة.

يعلمه إلاّ هو.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول ما اقترحتموه.

﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ بما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحدكم الآيات.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ الآية، سبب نزولها[١] أنه لمّا دعا على أهل مكة رسول الله ﷺ بالجدب، قحطوا سبع سنين، فأتاه أبو سفيان فقال: ٱدْعُ لنا بالخصب فإن أخصبنا صدّقناك. فسأل الله تعالى لهم فَسُقُوا ولم يؤمنوا. والرحمة هنا الغيث بعد القحط والأمن بعد الخوف والصحة بعد المرض والغنى بعد الفقر وما أشبه.

ومعنى ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ خالطتهم. وفي هذه الجملة دليل على سرعة تقلّب ابن آدم من حالة الخير إلى حالة الشّر وذلك بلفظ «أذقنا» كأنه قيل: أول ذوقه الرحمة قبل أن يداوم استطعامها[٢] مكر، وبلفظ «مِن» المشعرة بابتداء الغاية أي: ينشىء[٣] المكر إثر كشف الضرّ لا يمهل ذلك، وبلفظ «إذا» الفجائية الواقعة جواباً «لإذا» الشرطية أي: في وقت إذاقة الرحمة فاجؤوا[٤] بالمكر. ولمّا كانت هذه الجملة كما قلنا تتضمن سرعة المكر منهم قيل: «قل الله أسرع مكرا» [فجاءت] أفعل التفضيل. ومعنى وصف المكر بالأسرعية أنه تعالى قبل أن تدبّروا مكائدكم قضى بعقابكم وهو مُوقعه بكم واستدرجكم بإمهاله.

(١) انظر القرطبي ٨: ٣٢٤.
(٢) ق: استعظامها.
(٣) ق: ينسى.
(٤) ق: فأبوا.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر أن الناس إذا أصابهم الضّر لجؤوا إلى الله تعالى، فإذا أذاقهم الرحمة عادوا إلى عادتهم من إهمال جانب الله تعالى والمكر في آياته، وكان المذكور في الآيتين أمراً كليًّا - أوضح ذلك الأمر الكلّي بمثال جليّ كاشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلّي، ينقطع فيه رجاء الإنسان عن كلّ متعلّق به إلا الله تعالى، فيخلص له الدّعاء وحده في كشف هذه النازلة التي لا يكشفها إلا هو تعالى. وقرىء: [٢٦٢/أ] ينشركم، من النشر والبثّ. ويسيّركم، من التسيير.

﴿ وَجَرَيْنَ ﴾ النون عائدة على الفلك ويراد به الجمع إذ الفلك يكون مفرداً كقوله ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الشعراء] ويكون جمعاً كهذا، ولهذا عاد الضمير عليه جمعاً، والباء في «بهم» للتعدية، وفي «بريح»[1] للسّبب. وفي قوله «بهم» التفات إذ هو خروج من خطاب في قوله «كنتم» إلى غيبة في قوله «بهم» «وفرحوا» وما بعد ذلك من ضمير الغيبة.

قال الزمخشري[2]: فائدة الالتفات في قوله تعالى «حتى إذا كنتم في

(١) ق: وفي بهم.
(٢) الكشاف ٢: ٢٣١.

الفلك وجرين بهم» المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجّبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح.انتهى.

والذي يظهر - والله أعلم - أن حكمة الالتفات هنا هي أنّ قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ خطاب فيه امتنان وإظهار نعمه للمخاطَبين، والمسيَّرون في البرّ والبحر مؤمنون وكفار والخطاب شامل، فَحَسُن خطابهم بذلك ليستديم الصالح [على] الشكر، ولعلّ الطالح[1] يتذكر هذه النعمة فيرجع، فلما ذكرت حالة آل الأمر في آخرها إلى [أنّ] المتلبّس بها هو باغٍ في الأرض بغير الحق، عدل عن الخطاب إلى الغيبة حتى لا يكون المؤمنون يخاطَبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي.

وقوله: «جاءتها» جواب «إذا». و«عاصف» صفة لـ«ريح» على معنى النّسب أي: ذات عصف، إذ لو كانت جارية على الفعل لكانت بالتّاء كقوله تعالى ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]. والمعنى: من كل مكان من أمكنة الموج. والظنّ هنا على بابه الأصلي من ترجيح أحد الجائزَيْن.

ومعنى ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: للهلاك كما[2] يحيط العدو بمن يريد إهلاكه، وهي كناية عن استيلاء أسباب الهلاك.

﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ جواب لسؤال مقدّر كأنه قيل: فما كان حالهم في تلك الشدة؟ قيل: دعوا الله.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ اللام موطّئة لقسم محذوف في موضع الحال تقديره: مُقْسِمين.

---

(١) ق: الصالح.

(٢) ق: كمن.

﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: من هذه الشّدة.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ الآية، وجواب «لمّا» «إذا» الفجائية وما بعدها. [ومجيء «إذا» وما بعدها] جواباً لها دليل على أنها حرف يترتّب ما بعدها من الجواب على ما قبلها من الفعل الذي بعد «لمّا»، وأنها تفيد الترتيب والتعليق في الماضي، وأنها كما قال سيبويه [حرف] ومذهب غيره أنها ظرف، وقد أوضحنا ذلك فيما كتبناه في علم النحو. والجواب بإذا الفجائية دليل على أنّه لم يتأخر بغيهم عن إنجائهم، بل بنفس ما وقع الإنجاء وقع البغي. قال ابن عباس: «يبغون» بالدعاء إلى عبادة غير الله تعالى والعمل بالمعاصي والفساد. والخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قال الجمهور: لأهل مكة. والذي يظهر أنه خطاب لأولئك الذين أنجاهم الله وبَغَوا، ويحتمل كما قالوا العموم فيندرج أولئك فيهم. وهذا ذمّ للبغي في أوجز لفظ.

ومعنى ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْۖ﴾ وبال البغي [عليكم] ولا يجني ثمرته إلا أنتم. وقرىء: متاعَ، بالنصب على الظرف أي: وقت متاع الحياة الدنيا. وقرىء: متاعُ، بالرفع على أنه [خبر] مبتدأ محذوف تقديره: هو متاع. وأجاز النحّاس وتبعه الزمخشري[1] أن يكون «على أنفسكم» متعلقاً[2] بقوله «بغيكم» كما تعلّق في قوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ ۝٧٦﴾ [القصص] ويكون الخبر «متاع» إذا رفعته.

ومعنى ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْۖ﴾ أي: على أمثالكم والذين جنسكم جنسهم، يعني: بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا

---

(١) الكشاف ٢: ٢٣٢.

(٢) ق: متعلق.

يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنّه لمّا قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴿٢٣﴾﴾ [يونس] ضرب مثلاً عجيباً غريباً للحياة الدنيا بذكر من سعى فيها على سرعة زوالها وانقضائها، وأنها بحال ما تعزّ وتسرّ، تضمحلّ[1] ويؤول أمرها إلى الفناء. والمَثَل هنا يحتمل أن يراد به الصفة وأن يراد به القول السائر المشبّه به حال الثاني بالأول.

و﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إمّا أن يراد به [٢٦٢/ب] السّحاب، وإما أن يراد: من جهة السماء. والظاهر أن النبات اختلط بالماء، ومعنى الاختلاط تشبّثه به وتلقّيه إياه وقبوله له لأنه يجري له مجرى الغذاء، فتكون الباء للمصاحبة، وكل مختلطين يصحّ في كلٍّ منهما أن يقال: اختلط بصاحبه. ولمّا كان النبات ينقسم إلى مأكول وغيره بيّن أنّ المراد أحد القسمين «بمِن» فقال: «مما يأكل الناس» كالحبوب والثمار والبقول، «والأنعام» كالحشيش وسائر ما يُرعى. و«مما يأكل» حال من النبات والعامل فيه محذوف تقديره: كائناً ممّا يأكل. و«ما» موصولة صلته «يأكل» والضمير محذوف تقديره: يأكله الناس. و«حتى» غاية فيحتاج أن يكون الفعل الذي قبلها متطاولاً حتى تصحّ الغاية، فإمّا أن يُقدّر قبلها محذوف[2] أي: فما زال ينمو حتى إذا، أو يُتجوّز في «فاختلط» ويكون معناه: فدام اختلاط النبات بالماء حتى إذا.

---

(١) ق: وتضمحلّ.

(٢) ق: تقدّر قبلها محذوفاً.

وقوله ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ جملة بديعة اللفظ جعلت الأرض آخذة زخرفها متزيّنة، وذلك على جهة التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة في كل لون فاكتست وتزيّنت بأنواع الحليّ، فاستعير الأخذ وهو التناول باليد لاشتمال نبات الأرض على بهجة ونضارة وألوان مختلفة، واستعير لتلك[1] البهجة والنضارة والألوان المختلفة لفظ الزخرف وهو الذهب لما كان من الأشياء المبهجة المنظر السّارة للنفوس. [و«ازّينت»] أي: بنباتها وما أودع فيها من الحبوب والثمار والأزهار.

﴿أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على التمكّن من تحصيلها ومنفعتها ورفع غلّتها، وذلك لحسن نموّها وسلامتها من العاهات. والضمير في «أهلها» عائد على الأرض، وهو على حذف مضاف أي: على [ما] أودعها من الغلّات وما ينتفع به. وجواب «إذا» قوله «أتاها أمرنا» كالرّيح والصّر والسموم وغير ذلك من الآفات كالفأر والجراد. وقيل: «أتاها أمرنا» بإهلاكها. وأبهم في قوله «ليلاً أو نهاراً» وقد علم تعالى متى يأتيها أمره، أو[2] تكون «أو» للتنويع لأن بعض الأرض يأتيها أمره ليلاً وبعضها نهاراً ولا يخرج كائن عن وقوعه. والحصيد: فعيل بمعنى مفعول أي: المحصود. وعبّر «بحصيد» عن التالف استعارةً؛ جعل ما هلك من الزرع بالآفة قبل أوانه حصيداً لعلاقة ما بينهما من الطّرح على الأرض.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ مبالغة في التلف والهلاك حتى كأنها لم توجد قبلُ ولم تقم بالأرض للحبّة [بهجة] خضرة نضرة تسرّ أهلها.

---

(١) ق: لذلك.

(٢) ق: إذ.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: مثل هذا التفصيل الذي فصّلناه في الماضي نفصّل في المستقبل.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لمّا ذكر الحياة الدنيا وما تؤول إليه من الفناء والاضمحلال وما تضمّنته من الآفات والعاهات، ذكر تعالى أنّه داعٍ إلى دار السلام والصحّة والأمن وهي الجنة، وأهلها سالمون من كل مكروه. ولمّا كان الدعاء [عامًّا] لم يتقيّد بالمشيئة، ولما كانت الهداية خاصة تقيّدت بالمشيئة فقال «ويهدي من يشاء» أي: من يشاء هدايته.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [أي: أحسنوا] في كلّ ما تعبّدوا به، أي: [أتوا] بالمأمور كما ينبغي واجتنبوا المنهيّ عنه. و«الحسنى» هي الجنّة[1]. و«زيادة» هي النظر إلى الله تعالى في الجنة، ولا يلحقها خزي والخزي يتغير به الوجه ويسودّ، فكنى بالوجه عن الجملة لكونه أشرفها ولظهور أثر السرور والحزن فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية، «والذين» مبتدأ. و«جزاء» مبتدأ ثانٍ وخبره

(١) ق: الحسنة.

«بمثلها» فقيل: الباء زائدة والضمير العائد على المبتدأ محذوف تقديره: جزاء سيئة منهم بمثلها. وقيل: خبر «والذين» قوله: «ما لهم من الله من عاصم» والجملتان قبله اعتراض بين المبتدأ وخبره.

﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ[٢٦٣/أ] وُجُوهُهُمۡ﴾ هذه مبالغة في سواد الوجوه، وقد جاء مصرَّحاً به في قوله ﴿وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران] و«أغشيت» كُسيت، ومنه الغشاء. وكون وجوههم مسودّة هو حقيقة لا مجاز فتكون ألوانهم مسودّة. وقرىء: قطْعاً، بسكون الطاء و«مظلماً» صفة له. وقرىء بفتح الطاء فيكون «مظلماً» حالاً[١] من «الليل». وقال الزمخشري[٢]: فإن قلت: إذا جعلت «مظلماً» حالاً من «الليل» فما العامل فيه؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون «أغشيت» من [قِبَل] أن «من الليل» صفة لقوله «قطعاً»، فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة. وإما أن يكون معنى الفعل في «من الليل» انتهى.

أما الوجه الاول فهو بعيد لأن الأصل أن يكون العامل في الحال هو العامل في ذي الحال، والعامل في «الليل» هو: مستقرّ، الواصل إليه «بمن»، و«أغشيت» عامل في قوله «قطعاً» الموصوف بقوله «من الليل» فاختلفا. فلذلك كان الوجه الأخير أولى أي: قطعاً مستقرّة أو كائنة من الليل في حال إظلامه. قال ابن عطية: وإذا كان نعتاً - يعني «مظلماً» - «لقطعاً»[٣]، فكان حقّه أن يكون قبل الجملة، ولكن قد يجيء بعد هذا وتقدير الجملة: قطعاً استقرّ من الليل مظلماً، على نحو قوله ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ

(١) ق: حال.
(٢) الكشاف ٢: ٢٣٤.
(٣) ق: يعني مظلماً نعتاً لقطع.

أَنزَلْنَهُ مُبَارَكٌ ﴿٩٢﴾﴾[1] [الأنعام] انتهى. لا يتعيّن تقدير العامل في المجرور بالفعل فيكون جملة، بل الظاهر أن يُقدّر باسم الفاعل[2] فيكون من قبيل الوصف بالمفرد والتقدير: قطعاً كائناً من الليل مظلماً.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الآية، الضمير في «نحشرهم» عائد على من تقدّم من الفريقين. وانتصب «ويوم» على فعل محذوف أي: ذَكِّرهْم أو خَوِّفْهم ونحوه. و«جميعا» حال. والشركاء هم من عُبد من دون الله تعالى كائناً من كان. و«مكانكم» عدّه النحويون من أسماء الأفعال وقُدّر بِٱثْبُتوا كما قال الشاعر[3]:

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

أي: اثبتي، ولكونها بمعنى اثبتي جزم «تحمدي». وتحملت ضميراً فأكد وعطف عليه في قوله «أنتم وشركاؤكم». وقال الزمخشري[4]: و«أنتم» أكّد به الضمير في «مكانكم» لسدّه[5] مسدّ قوله: الزموا و«شركاؤكم»[6] عطف عليه انتهى. يعني عطفاً على الضمير المستكن وتقديره: الزموا، وأن «مكانكم» قام مقامه فتحمّل الضمير الذي في «الزموا». ليس بجيد، إذ لو كان كذلك لكان «مكانكم» الذي هو اسم فعل يتعدى كما يتعدى: الزموا. ألا ترى اسم الفعل إذا كان الفعل لازماً كان اسم الفعل لازماً، وإذا كان متعدّياً كان متعدّياً، مثال ذلك: عليك زيداً. لمّا ناب مناب: الْزَم، تعدّى، وإليك: لمّا

(١) ق: مبارك أنزلناه.

(٢) ق: الفعل.

(٣) البيت لعمرو بن الإطنابة، وهو في الخصائص ٣: ٣٥. وهو من الوافر

(٤) الكشاف ٢: ٢٣٥.

(٥) ق: لسدّ.

(٦) ق: شركاؤكم.

ناب مناب: تَـنَحَّ[1]، ولكون: مكانك لا يتعدّى، قدّره النحويون: اثبتوا، واثبتوا لا يتعدى. قال ابن عطية: «أنتم» رفع بالابتداء، والخبر: مخزيّون أو مهانون ونحوه، فيكون «مكانكم» قد تمّ ثمّ أخبر أنهم كذا. وهذا ضعيف لفكّ الكلام الظاهرِ اتّصالُ بعض أجزائه ببعض، ولتقدير إضمار لا ضرورة تدعو إليه، ولقوله «فزيلنا بينهم» إذ يدلّ على أنهم ثبتوا هم وشركاؤهم في مكان واحد حتى وقع التزييل [بينهم] وهو التفريق، ولقراءة من قرأ: أنتم وشركاءكم، بالنصب على أنه مفعول معه والعامل فيه اسم الفعل. ولو كان «أنتم» مبتدأ وقد حذف خبره لما جاز أن يأتي بعده مفعول معه، تقول: كل رجل وضيعتُه، بالرفع ولا يجوز فيه النصب. قال ابن عطية: ويجوز أن يكون «أنتم» تأكيداً للضمير الذي في الفعل المقدّر الذي هو: قفوا أو نحوه. هذا ليس بجيّد إذ لو كان تأكيداً لذلك الضمير المتصل بالفعل لجاز تقديمه على الظرف إذ الظرف لم يتحمّل ضميراً على هذا القول فيلزم تأخيره عنه وهو غير جائز، لا تقول: أنت مكانك [٢٦٣/ب] ولا يُحفظ من كلامهم. والأصحّ أنه لا يجوز حذف المؤكد في التأكيد المعنوي، فكذلك [هذا لأن التأكيد] ينافي الحذف، وليس من كلامهم: أنت زيداً، لمن رأيته قد شهر سيفاً وأنت تريد: اضرب [أنت] زيداً، إنما كلام العرب: زيداً، تريد: اضرب زيداً[2].

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يقال: زِلْتُ الشيء عن مكانه أزيله، فعين الكلمة ياء. وزعم ابن قتيبة وتبعه أبو البقاء[3] أن قوله «زيّلنا» من مادة زال يزول، فتكون

---

(١) ق: تنحّى.

(٢) ق: زيد.

(٣) انظر الإملاء ٢: ٢٨.

عين الكلمة واواً. و«زيّلنا» وزنه عندهما: فيعل، اجتمعت ياء وواو وسُبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً[١] وأُدغمت الياء في الياء. والصحيح أنه من ذوات الياء وأن وزنه فَعَّل، ولذلك قالوا في مصدره: تزييلاً على وزن [تفعيل]، وقالوا في الاشتقاق منه: زايلنا بالياء. ونَفْي الشركاء عبادة المشركين هو ردّ لقولهم: إياكم كنا نعبد. و«إيّانا» مفعول «بتعبدون»، وحَسُن تقديمه كون «تعبدون» فصلاً.

ولمّا تنازعوا استشهد الشركاء بالله تعالى، وانتصب «شهيداً» على التمييز لقبوله صحة مِن. و«إنْ» هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين إنْ النافية وبين إنْ التي للإثبات، وتقدم الكلام على مثل ذلك في ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾. «هنالك» ظرف مكان أي: في ذلك الموقف والمقام المقتضي للحيرة والدّهش. «تبلو» أي: تختبر ما أسلفت من العمل فتعرف كيف هو أقبيح[٢] أم حسن، أنافع أم ضارّ، مقبول أو مردود. وقرىء: تبلو. وقرىء: تتلو.

﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى جزائه.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب وبطل ما كانوا يفترونه من الكذب.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا

(١) ق: الياء واواً.
(٢) ق: قبيح.

تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾
كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ
هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن
يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا
إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ الآية، لمّا بيّن فضائح عبدة الأوثان أتبعها بذكر الدلائل على فساد مذهبهم بما يوبّخهم ويحجّهم بما لا يمكن إلا الاعتراف به من حال رزقهم وحواسهم وإظهار القدرة الباهرة في الموت والحياة. فبدأ بما فيه [قوام] حياتهم وهو الرزق الذي لا بدّ منه، فمن السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات. «فمِن» لابتداء الغاية، هُيىء الرزق بالعالم العلوي والعالم السفلي معاً لم يقتصر على جهة واحدة توسعةً منه وإحساناً، ثم ذكر ملكه لهاتين الحاسّتين الشريفتين: السمع[1] الذي هو سبب مدارك الأشياء، والبصر الذي يُري ملكوت السماوات والأرض. ومعنى ملكهما أنه متصرف فيهما بما يشاء تعالى من إبقاء وحفظ وذهاب.

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ تقدم تفسيره[2].

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ شامل لما تقدّم من الأشياء الأربعة المذكورة ولغيرها. والأمور التي يدبّرها تعالى لا نهاية لها. فلذلك جاء بالأمر الكلّي بعد تفصيل بعض الأمور. واعترافهم بأن الرازق والمالك والمخرج والمدبّر هو الله تعالى

(١) ق: السمع والبصر.
(٢) انظر تفسير الآية ٢٧ من آل عمران.

أمرٌ لا يمكنهم إنكاره ولا المباهتة فيه.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى من اختصّ بهذه الأوصاف السابقة.

و﴿فَمَاذَا﴾ استفهام معناه النفي ولذلك دخلت «إلاّ» وصحبه التقرير والتوبيخ كأنه قيل: ما بعد الحقّ إلا الضلال. و«ماذا» مبتدأ، ركّبت ذا مع ما فصار مجموعهما استفهاماً كأنه قيل: أي شيء، والخبر «بعد الحق».

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف يقع صرفكم بعد وضوح الحق وقيام حججه عن عبادة من يستحق العبادة، وكيف تشركون [معه غيره] وهو لا يشاركه في شيء من تلك الأوصاف؟.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ الكاف للتشبيه في موضع نصب، والإشارة «بذلك» إلى المصدر المفهوم من «تُصرفون» [أي]: مثل صرفهم عن الحق بعد الإقرار به في قوله «فسيقولون الله» حقّ العذاب عليهم أي: جازاهم مثل أفعالهم.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ الآية، لمّا استفهم عن أشياء من صفات الله واعترفوا بها ثم أنكر عليهم صرفهم عن الحق وعبادة الله [٢٦٤/أ] تعالى، استفهم عن شيء هو سبب العبادة وهو إبداء الخلق وهم يسلّمون ذلك [لقوله] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان]، ثم إعادة الخلق وهم منكرون ذلك، لكنه عطف على ما يسلّمونه ليُعلم أنهما سواء بالنسبة إلى قدرة الله تعالى، وأن ذلك لوضوحه وقيام برهانه قُرن بما يسلّمونه إذ لا يدفعه إلا مكابر، إذ هو من الواضحات التي لا يختلف في إمكانها العقلاء وجاء الشرع بوجوبه فوجب اعتقاده. ولمّا كانوا لمكابرتهم لا يقرّون بذلك أمر تعالى نبيّه أن يجيب فقال «قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده» وأبرز الجواب في جملة مبتدأة مصرّح بجزئها، فعاد الخبر فيها مطابقاً لخبر

اسم الاستفهام، وذلك تأكيد وتَثَبّت. ولمّا كان الاستفهام قبل هذا لا مندوحة لهم عن الاعتراف به، جاءت الجملة محذوفاً منها أحد جزأيها في قوله «فسيقولون الله» [يونس:٣١] ولم يحتج إلى التأكيد بتصريح جزأيها.

ومعنى ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون وتقلبون عن اتباع الحق.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ الآية، لمّا بيّن تعالى عجز أصنامهم عن الإبداء[١] والإعادة اللذين هما من أقوى أسباب القدرة وأعظم دلائل الألوهية، بيّن عجزهم عن هذا النوع من صفاتِ الإله وهو الهداية إلى الحق وإلى منهاج الصواب. وقد أعقب الخلق بالهداية في القرآن في مواضع، فقال تعالى حكاية عن الكليم ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه] فاستدل بالخلق والهداية على وجود الصانع، وهما حالان للجسد والروح. وقرىء: لا يهدي، مخففاً مضارع هدى. ويَهَدّي، بفتح الهاء وتشديد الدال وأصله يهتدي، نقلت حركة التاء إلى الهاء وأدغمت التاء في الدال. وقرىء: يَهِدّي، بكسر الهاء وتشديد الدّال. وقرىء بكسر الياء إتباعاً لحركة الهاء وتشديد دال[٢] يهدي.

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ استفهام معناه التعجب والإنكار أي: أيّ شيء لكم في اتخاذ هؤلاء الشركاء إذ كانوا عاجزين عن هداية أنفسهم فكيف يمكن أن يهدوا غيرهم.

﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام آخر، أي: كيف تحكمون بالباطل وتجعلون لله أنداداً وشركاء؟. وهاتان جملتان أنكر في الأولى وتعجّب من اتّباعهم من لا

---

(١) ق: الابتداء.

(٢) ق: الذال.

يهدي ولا يهتدي، وأنكر في الثانية[١] حكمهم بالباطل وتسوية الأصنام بربّ العالمين.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ الظاهر أن «أكثرهم» على بابه، لأن منهم من تبصّر في الأصنام فرفضها كما قال[٢]: وهو من الطويل

أربٌّ يبــول الثعلبــان بــرأســه لقد هان من بالت عليه الثعالب

والمعنى: ما يتبع أكثرهم في اعتقادهم في الله تعالى وفي صفاته إلاّ ظنًّا ليسوا متبصّرين ولا مستندين إلى برهان، إنما ذلك شيء تلقّفوه من آبائهم. والظّن في معرفة الله تعالى لا يغني من الحق شيئاً أي: من إدراك الحق ومعرفته على ما هو عليه لأنه تجويز لا قطع.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ
مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟
بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا
يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

(١) ق: الثاني.

(٢) البيت في اللسان «ثعلب» وفي الاقتضاب ٣: ٨٦، ونُسب فيهما لغير واحد.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الآية، لما تقدّم قولهم ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس] وكان من قولهم أنه افتراه قال تعالى «وما كان هذا القرآن أن يفترى» أي: ما صحّ ولا استقام أن يكون هذا القرآن المعجز مفترى. والإشارة «بهذا» فيها تفخيم المشار إليه وتعظيمه وكونه جامعاً للأوصاف التي يستحيل لوجودها فيه أن يكون مفترى. والظاهر أنّ «أن يفترى» هو خبر «كان» أي: افتراء أي: ذا افتراء أو مفترى. ووقعت «ولكن» هنا أحسن موقع إذ كانت بين نقيضين وهما الكذب والتصديق المتضمّن الصدق. و«الذي بين يديه» الكتب الإلهية المتقدمة. وانتصب «تصديق» على أنه خبر كان مضمرة وهو على حذف مضاف [٢٦٤/ب] أي: ذا تصديق.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: «أم» منقطعة تتقدر ببل والهمزة تقديره: بل أيقولون افتراه، والاستفهام على سبيل الإنكار. وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في البقرة[1].

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: بل كذّبوا بهذا القرآن العظيم المنبىء بالغيوب الذي لم تتقدّم لهم به معرفة ولا أحاطوا بمعرفة غيوبه.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ﴾: «كيف» في موضع نصب خبر لكان. و«انظر» معلّقة. والجملة الاستفهامية مع ما بعدها في موضع نصب. قال ابن عطية: ولكيف تصرّفات تحلّ محل المصدر الذي هو كيفيّة، ويحتمل هذا الموضع أن يكون منها، ومن تصرّفاتها قولهم: كن كيف شئت انتهى. ليس «كيف» تحل محلّ المصدر، ولا لفظ كيفية هو مصدر، إنما ذلك نسبة إلى كيف. وقوله: ويحتمل أن يكون هذا الموضع منها ومن تصرّفاتها قولهم: كن كيف

(١) انظر تفسير الآية ٢٣ من البقرة.

شئت - لا يحتمل أن يكون منها لأنه لم يثبت لها هذا المعنى الذي ذكر من كون «كيف» بمعنى كيفية وادعاء مصدر كيفية. وأما: كن كيف شئت، فكيف ليست بمعنى كيفية وإنما هي شرطية، وهو المعنى الثاني الذي لها وجوابها محذوف، التقدير: كيف شئت فكن، كما تقول: قم متى شئت. فمتى: اسم شرط ظرف لا يعمل فيه قم، والجواب محذوف تقديره: متى شئت فقم[(١)].

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الآية، الظاهر أنه إخبار بأنّ من كفار قريش من سيؤمن به وهو من سبقت له السعادة. ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ فيوافي على الكفر.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ الآية، أي: وإن تمادوا على تكذيبك فتبرَّأْ منهم، قد أعذَرْتَ وبلَّغْتَ كقوله ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء].

ومعنى ﴿لِّي عَمَلِي﴾ أي: لي جزاء عملي[(٢)] ولكم جزاء عملكم. ومعنى «عملي» أي الصالح المشتمل على الإيمان والطاعة.

﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ المشتمل على الشرك والعصيان. والظاهر أنها آية منابذة لهم وموادعة وفي ضمنها الوعيد.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ الآية، قال ابن عباس: نزلت الآيتان في النّضر بن الحارث وغيره من المستهزئين. وهذه الآية فيها تقسيم من لا يؤمن من الكفار إلى قسمين، بعد تقسيم المكذبين إلى من يؤمن[(٣)] ومن لا يؤمن. والضمير في «يستمعون» عائد على «مَن» والعود على المعنى دون العود على

---

(١) ق: وقم.
(٢) ق: أي سأجزي عملي.
(٣) ق: لا يؤمن.

اللفظ في الكثرة، وهو كقوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴾ [الأنبياء: ٨٢]. والمعنى: من يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلّمت الشرائع. ثم نفى جدوى ذلك الاستماع بقوله «أفأنت تسمع الصم» أي: هم وإن استمعوا إليك صُمٌّ عن إدراك ما تلقيه إليهم ليس لهم وعي ولا قبول ولا سيّما قد انضاف إلى الصّمم انتفاء العقل. فَحَرٍ[1] بمن عدم السمع والعقل ألاّ يكون له إدراك لشيء البتّة، بخلاف أن لو كان الأصمّ عاقلاً فإنه بعقله يهتدي إلى أشياء. وأعاد في قوله: «ومنهم من ينظر إليك» الضمير مفرداً مذكراً على لفظ «مَن» وهو الأكثر في لسان العرب. قال ابن عطية: جاء «ينظر» على لفظ «مَن»، وإذا جاء الفعل على لفظها فجائز أن يُعطف عليه آخر على المعنى. وإذا جاء أولاً على معناها فلا يجوز أن يعطف بآخر على اللفظ، لأن الكلام يلبس حينئذ انتهى.

ليس كما قال بل يجوز أن يراعى المعنى أولاً فيعيد الضمير على حساب ما يريد من المعنى من تأنيث وتثنية وجمع، ثم يراعى اللفظ فيعيد الضمير مفرداً مذكراً، وفي ذلك تفصيل ذكر في علم النحو. والمعنى أنهم عُمْي فلا تقدر على هدايتهم، لأن السبب الذي يُهتدى به إلى رؤية الدلائل قد فقدوه. هذا وهم مع فقد البصر قد فقدوا البصيرة؛ إذ من كان أعمى فإنه يهديه نور بصيرته إلى أشياء بالحدس، [٢٦٥/أ] وهذا قد جمع بين فقدان البصر والبصيرة. وهذه مبالغة عظيمة في عدم قبول ما يُلقى إلى هؤلاء؛ إذ جمعوا بين الصمم وانتفاء العقل، وبين العمى وفقد البصيرة.

وفي قوله: ﴿أَفَأَنتَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ وألاّ يكترث بعدم قبولهم، فإن الهداية إنما هي لله تعالى. ولمّا ذكر تعالى هؤلاء الأشقياء ذكر تعالى أنه لا

(١) حَرٍ وحريّ بمعنى.

يظلمهم شيئاً؛ إذ قد أزاح عللهم ببعثة رسول الله ﷺ وتحذيرهم من عقابه، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالتكذيب والكفر. واحتمل هذا النفي للظلم أن يكون في الدنيا أي: لا يظلمهم شيئاً من مصالحهم، واحتمل أن يكون في الآخرة [وأنّ] ما يلحقهم من العقاب هو عدل منه، لأنهم هم الذين تسبّبوا فيه باكتساب ذنوبهم كما قدّر تعالى عليهم ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الآية، ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ جملة تشبيهية في موضع نصب من الضمير المنصوب في «نحشرهم» التقدير: مشبَّهين بمن لم يلبث إلا ساعة.

و﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ حال ثانية، ويجوز أن يكون استئناف إخبار. وأجاز ابن عطية في «كأن لم يلبثوا» أن يكون صفة لمصدر محذوف تقديره: حشراً كأن لم يلبثوا، وأن تكون الجملة المشبّهة في موضع صفة لقوله «يوم» انتهى. أما قوله إنه نعت لمصدر محذوف فيحتاج إلى رابط فقدّره: كأن لم يلبثوا قبله، ومثل هذا الرابط لا يجوز حذفه. وأما قوله إن الجملة في موضع الصفة «ليوم يحشرهم[1]» فلا يجوز، لأن الجملة التشبيهية هي نكرة و«يوم يحشرهم» معرفة؛ إذ التقدير: ويوم حَشْرهم، ولا توصف المعرفة بالنكرة.

(١) ق: نحشرهم.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ أخبر عنهم بخبرين: أحدهما خسرانهم معلّلاً بالتكذيب بلقاء الله تعالى، والثاني إخباره تعالى بانتفاء هدايتهم.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الآية، إمّا هي «إنْ» الشرطية زيد[١] عليها «ما». قال ابن عطية: ولأجلها جاز دخول النون الثقيلة، ولو كانت «إنْ» وحدها لم يَجُزْ انتهى. يعني أنّ دخول النون[٢] للتأكيد إنما يكون مع زيادة «ما» بعد «إنْ». وهذا الذي ذكره مخالف لظاهر كلام سيبويه؛ فأجاز سيبويه أن[٣] تقول: إنْ تقومنّ أقم، بغير زيادة «ما» بعد «إن». ومعنى هذه الآية الوعيد بالرجوع إلى الله تعالى أي: إن أريناك عقوبتهم أو لم نُرِكَها فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب. قال الزمخشري[٤]: «فإلينا مرجعهم» جواب «أو نتوفيّنك». [وجواب «نريّنك» محذوف كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعدهم فذاك أو نتوفّينك] قبل أن نُرِيَكَهُ فنحن نريكه[٥] في الآخرة انتهى. جعل الزمخشري الكلام شرطين لهما جوابان، ولا حاجة إلى تقدير جواب محذوف؛ لأن قوله «فإلينا مرجعهم» صالح أن يكون جواباً للشرط والمعطوف عليه. وأيضاً فقول الزمخشري: فذاك هو اسم مفرد لا ينعقد منه جواب شرط، فكان ينبغي أن يأتي بجملة يتضح بها جواب الشرط؛ إذ لا يُفهم من قوله: فذاك، الخبر الذي حُذف المتحصّل به فائدة الإسناد. «ثم» مع ذلك الله شهيد من أول تكليفهم على جميع أعمالهم. «فثَمّ» هنا لترتيب

---

(١) ق: يريد.

(٢) ق: دخول إن.

(٣) ق: له أن.

(٤) الكشاف ٢: ٢٣٩.

(٥) ق: نريك.

الإخبار لا لترتيب القصص في أنفسها.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ الآية، لمّا بيّن حال الرسول ﷺ في قومه، بيّن حال الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم تسليةً له صلى الله عليه وسلم وتطميناً لقلبه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ﴾ الآية، الضمير في «ويقولون» عائد على مشركي قريش ومَن تابعهم من منكري الحشر، استعجلوا بما وُعدوا به من العذاب على سبيل الاستبعاد أو على سبيل الاستخفاف، ولذلك قالوا: إن كنتم صادقين فيما وعدتم به فلا يقع منه شيء.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾ الآية، لمّا التمسوا تعجيل العذاب أو تعجيل الساعة، أمره أن يقول لهم: ليس ذلك إليّ بل إلى الله تعالى. وإذا كنت لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرًّا [٢٦٥/ب] فكيف أملكه لغيري وكيف أطّلع على ما لم يُطْلعني عليه الله تعالى.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ انفرد تعالى بعلمه، وتقدم الكلام على «لكلّ أمة أجل» في الأعراف[١].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا

(١) انظر شرح الآية ٣٤ من الأعراف.

﴿٥٤ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ[1] إِنۡ أَتَىٰكُمۡ﴾ الآية، تقدم الكلام عليها في الأنعام[2]. وقرّرنا هناك أن العرب تُضمّن «أرأيت» معنى «أخبرني» وأنها تتعدّى إذ ذاك إلى مفعولين، وأن المفعول الثاني أكثر ما يكون جملة استفهام ينعقد منها مع ما قبلها مبتدأ وخبر، تقول العرب: أرأيت زيداً ما صنع؟ المعنى: أخبرني عن زيد ما صنع، وقبل دخول «أرأيت» كان الكلام: زيد ما صنع؟. وإذا تقرّر هذا «فأرأيتم» هنا المفعول الأول لها محذوف، والمسألة من باب الإعمال: تنازع «أرأيت» و«إن أتاكم» على قوله «عذابه» فأعمل الثاني إذ هو المختار على مذهب البصريين وهو الذي ورد به السماع أكثر من إعمال الأول، فلما أعمل الثاني حذف من الأول، ولم يضمر، لأن إضماره مختصّ بالشعر أو قليل في الكلام على اختلاف النحويين في ذلك. والمعنى: قل لهم يا محمد أخبروني عن عذاب الله إن أتاكم أي شيء تستعجلون منه؟ فليس شيء من العذاب يستعجله عاقل؛ إذ العذاب كله مرّ المذاق موجب لنفار الطبع منه. فتكون جملة الاستفهام جاءت على سبيل التلطّف بهم والتنبيه لهم أن العذاب لا ينبغي أن يُستعجل. ويجوز أن تكون الجملة جاءت على سبيل التعجب والتهويل للعذاب أي: أيّ شيء شديد تستعجلون منه، أي: ما أشدّ وأهول ما تستعجلون من العذاب. وتقدّم الكلام في قوله «بياتاً» في الأعراف[3] مدلولاً وإعراباً، وانتصابه وما بعده على الظرف.

---

(١) ق: أرأيتكم.

(٢) ق: الأعراف. وانظر تفسير الآية ٤٠ من الأنعام.

(٣) انظر شرح الآية ٤ من الأعراف.

والمعنى: إن أتاكم عذابه وأنتم ساهون غافلون إمّا بنومٍ وإمّا باشتغال بالمعاش والكسب. وهو نظير قوله ﴿بَغْتَةً ۝﴾ [الأنعام] لأن العذاب إذا فاجأ من غير شعور به كان أشدّ وأصعب، بخلاف أن يكون قد استُعدّ له وهيّىء لحلوله. ويجوز في «ماذا» أن يكون «ما» مبتدأ و«ذا» خبره وهو بمعنى الذي، و«يستعجل» صفته، وحُذف الضمير العائد على الموصول التقدير: أيّ شيء الذي يستعجله من العذاب المجرمون؟. [ويجوز في «ماذا» أن يكون كله مفعولاً كأنه قيل: أي شيء يستعجله من العذاب المجرمون؟].

قال الزمخشري[1]: فإن قلت: بِمَ يتعلّق الاستفهام وأين جواب الشرط؟ قلت: تعلّق «بأرأيتم» لأن المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون. وجواب الشرط محذوف وهو: يندموا على الاستعجال ويعرفوا الخطأ فيه انتهى.

وما قدّره الزمخشري غير سائغ، لأنه لا يُقدّر الجواب إلا ممّا تَقَدَّمه لفظاً أو تقديراً، تقول: أنت ظالم إن فعلت. فالتقدير: إن فعلت فأنت[2] ظالم. وكذلك ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝﴾ [البقرة] التقدير: إن شاء الله نَهْتَدِ. فالذي يُسوّغ أن يُقدّر: إن أتاكم عذابه فأخبروني ماذا يستعجل. قال الزمخشري[3]: ويجوز أن يكون «ماذا يستعجل» جواباً للشرط كقولك: إن أتيتك ماذا[4] تطعمني؟، ثم تتعلّق الجملة «بأرأيتم» وأن يكون «أثمّ إذا ما

(١) الكشاف ٢: ٢٤٠.
(٢) ق: فأن.
(٣) الكشاف ٢: ٢٤٠.
(٤) ق: ما.

وقع آمنتم به» جواب الشرط، و«ماذا يستعجل منه المجرمون» اعتراضاً. والمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان انتهى.

أمّا تجويزه أن يكون «ماذا» جواباً للشرط فلا يصحّ؛ لأن جواب الشرط إذا كان استفهاماً فلا بد فيه من الفاء، تقول: إن زارنا فلان فأيّ رجل هو؟ وإن زارنا فلان فأي يدٍ له بذلك؟. ولا يجوز حذفها إلا إن كان في ضرورة، والمثال الذي ذكره وهو: إن أتيتك ماذا تطعمني هو من تمثيله لا من كلام العرب. وأما قوله: تتعلق الجملة «بأرأيتم»؛ إن عنى بالجملة «ماذا يستعجل» فلا يصحّ ذلك لأنه قد جعلها جواباً للشرط. وإن عنى بالجملة جملة الشرط [٢٦٦/أ] فقد فسّر هو «أرأيتم» بمعنى أخبرني. وأمّا تجويزه «أثمّ إذا ما وقع آمنتم به» جواب الشرط و«ماذا يستعجل منه المجرمون» اعتراضاً، فلا يصحّ أيضاً لِمَا ذكرناه من أن جملة الاستفهام لا تقع جواباً للشرط إلا ومعها فاء الجواب. وأيضاً «فثُمّ» هنا وهي حرف عطف تعطف الجملة التي بعدها على ما قبلها فالجملة الاستفهامية معطوفة، [وإذا كانت معطوفة] لم يصحّ أن تقع جواب شرط. وأيضاً «فأرأيتم» بمعنى أخبرني يحتاج إلى مفعول ولا تقع جملة الشرط موقعه. والظاهر عود الضمير في «منه» على العذاب، وبه يحصل الربط بجملة الاستفهام بمفعول «أرأيتم» المحذوف الذي هو مبتدأ في الأصل، وقيل: يعود على الله تعالى. و«المجرمون» هم المخاطبون في قوله «أرأيتم إن أتاكم». ونبّه على الوصف الموجب لترك الاستعجال وهو الإجرام، لأنّ من حقّ المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ويهلك فزعاً من مجيئه، وإن أبطأ فكيف يستعجله؟. و«ثم» حرف عطف، وتقدّمت همزة الاستفهام عليها كما تقدّمت على الواو والفاء في ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا ۝١٠٩﴾ [يوسف] وفي ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا ۝٩﴾ [الروم] وتقدم الكلام على

ذلك[١]. قال الطبري في قوله «أثُمّ» بضمّ الثاء، إنّ معناه: أهنالك. قال[٢]: وليست ثمّ هذه التي تأتي بمعنى العطف انتهى. وما قاله الطبري من أنّ ثُمّ ليست للعطف دعوى!. وأما قوله إن المعنى: أهنالك، فالذي ينبغي أن يكون ذلك تفسير معنى، لا أنّ ثُمّ المضمومة الثّاء معناها معنى هنالك. وفاعل «وقع» ضمير يعود على العذاب. وقرىء: آلآن، على الاستفهام بالمدّ. وقرىء بهمزة الاستفهام بغير مدّ، وهو على إضمار القول أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: ألآن آمنتم به؟. فالناصب لقوله «الآن» هو آمنتم وهو محذوف. «وقد كنتم» جملة حالية لأن استعجالهم بالعذاب تكذيب لوقوعه.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ الآية، أي: يقول [لهم] خَزَنة جهنم هذا الكلام. والظّلم ظلم الكفر. «ثم قيل» هذا من عطف الجمل وهو استئناف إخبار عمّا يقال لهم يوم القيامة.

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ ﴾ أي: يستخبرونك. وأصلها أن تتعدّى إلى واحد بنفسها وإلى الآخر بحرف الجر، تقول: استنبأت زيداً عن عمرو، أي: طلبت منه أن يخبرني عن عمرو. فاستفعل هنا للطلب، والمفعول الأول كاف الخطاب، والمفعول الثاني الجملة من قوله «أحق هو» على سبيل التعليق. و«حَقٌّ» يجوز أن يكون خبراً مقدماً و«هو» مبتدأ، ويجوز أن يكون مبتدأ و«هو» الخبر. قال ابن عطية: وقيل: هي بمعنى يستعلمونك. قال: فهي على هذا تحتاج إلى مفاعيل ثلاثة: أحدها الكاف والابتداء والخبر سَدَّا مسدّ المفعولين. انتهى. ليس كما ذكر لأن استعلم لا يُحفظ كونُها متعدّية إلى

(١) انظر تفسير الآية ١٨٤ من الأعراف.

(٢) جامع البيان ١١ : ٨٥.

مفاعيل ثلاثة، لا يُحفظ: استعلمت زيداً عَمْراً قائماً. فتكون جملة الاستفهام سدّت مسدّ المفعولين، ولا يلزم من كونها بمعنى يستعلمونك أن تتعدى إلى ثلاثة، لأنّ استعلم لا يتعدّى إلى ثلاثة كما ذكرنا. والضمير في «هو» عائد على العذاب.

﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾ أمر تعالى نبيّه أن يقول لهم مجيباً «إي وربّي». و«إي» هي من حروف الجواب بمعنى نعم، ولا تستعمل إلا مع القسم. وجواب القسم «إنه لحق»، قال الزمخشري[1]: وسمعتهم يقولون في التصديق [أيو] ويصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده. انتهى. لا حجّة فيما سمعه الزمخشري من ذلك لعدم الحجّة في سماعه لفساد كلام العرب إذ ذاك وقبله بأزمان كثيرة. «بمعجزين» أي: فائتين.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ الآية، ذكر بعض أحوال الظالمين في الآخرة. و«ظلمت» صفة لـ«نفس». والظلم هنا الشرك والكفر. وافتدى يأتي مطاوعاً لفدى فلا يتعدّى، تقول: فديته [٢٦٦/ب] فافتدى، وبمعنى فدى فيتعدى، وهنا يحتمل الوجهين.

و﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما كان لها في الدنيا من الخزائن والأموال والمنافع.

و﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ من الأضداد ويأتي بمعنى أظهروا أو بمعنى أخفوا.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ الآية، قيل: تعلّق هذه الآية بما قبلها من جهة أنه فرض أن النفس الظالمة لو كان لها ما في الأرض لافتدت به، وهي لا شيء لها البتّة

---

(١) الكشاف ٢: ٢٤١.

لأن جميع الأشياء إنما هي بأسرها ملك لله تعالى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى
وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا
يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا
قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا
يَشۡكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا
كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم ﴾ الآية، الخطاب بـ«يا أيها الناس» عام. ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر الأدلّة على الإلهية والوحدانية والقدرة، ذكر الدلائل الدّالة على صحة النبوّة والطريق المؤدي إليها وهو القرآن. والمتّصف بهذه الأوصاف الشريفة هو القرآن.

﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ ﴾ فَضل الله: الإسلام، والرحمة: القرآن، قاله ابن عباس وقيل غير ذلك. والظاهر أن قوله «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا» جملتان، وحذف ما تتعلّق به الباء والتقدير: [قل بفضل الله وبرحمته] ليفرحوا، ثم عُطفت الجملة الثانية على الأولى على سبيل التوكيد.

قال الزمخشري(١): والتكرير للتأكيد [والتقرير] وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحُذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه. والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا لشيء

---

(١) الكشاف ٢: ٢٤١.

فلْيخصّوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحقّ منهما. ويجوز أن يراد: بفضل الله وبرحمته فَلْيعتنوا فبذلك فليفرحوا. [ويجوز أن يراد: قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك - أي: فبمجيئهما - فليفرحوا] انتهى.

أما إضمار: فليعتنوا فلا دليل عليه. وأما تعليقه بقوله: قد جاءتكم، فينبغي أن يقدّر ذلك محذوفاً بعد: قل، ولا يكون متعلقاً بـ«جاءتكم» الأولى للفصل بينهما بقل.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه لمّا ذكر تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ۝٥٧ ﴾ [يونس][1] وكان المراد بذلك كتاب الله المشتمل على التحليل والتحريم - بيّن فساد شرائعهم وأحكامهم من الحلال والحرام من غير مستند في ذلك إلى الوحي. و«أرأيتم» هنا بمعنى أخبروني. وتقدّم[2] أنها تتعدى لمفعولين: فالأول هنا «ما» من قوله «ما أنزل» وهي موصولة وصلتها «أنزل»، والضمير محذوف تقديره: أنزله. و«من رزق» تبيين لما انبهم من لفظ «ما»، و«فجعلتم» معطوف على «أنزل». والمفعول الثاني محذوف تقديره: آلله أذن لكم [وهي جملة استفهام دلّ على حذفها قوله بعد أمر الله تعالى له بـ«قل»: «آلله أذنَ لكم»]. و«أم» الظاهر أنها متصلة.

والمعنى: أخبروني آلله أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكذبون على الله تعالى في نسبة ذلك إليه؟ فنبّه بتوقيفهم على أحد القسمين وهم لا يمكنهم ادّعاء إذن الله في ذلك فثبت افتراؤهم.

---

(١) وفي ق: قل يا أيها الناس.
(٢) انظر شرح الآية ٥٠ من هذه السورة.

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ ﴾ الآية، «ما» استفهامية مبتدأة خبرها «ظَنُّ» والمعنى: أيُّ شيءٍ ظَنُّ المفترين يوم القيامة؟.

أبهم الأمر على سبيل التهديد والإبعاد، يوم يكون الجزاء بالإحسان والإساءة.

و«يوم» منصوب بـ«ظَنُّ». ومفعول الظّن قيل: تقديره: ما ظنُّهم أن الله تعالى فاعل بهم أينجيهم أم يعذّبهم.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر جملة من أحوال الكفار ومذاهبهم والرّد عليهم ومحاولة الرسول لهم، ذكر فضله تعالى على الناس وأن أكثرهم لا يشكره على فضله، وذكر اطّلاعه تعالى على أحوالهم وحال الرسول معهم في مجاهدته لهم وتلاوة القرآن عليهم، وأنه تعالى عالم بجميع أعمالهم. واستطرد من ذلك إلى ذكر أولياء الله ليُظهر التفاوت بين الفريقين: فريق الشيطان وفريق الرّحمن.

والخطاب في قوله «وما تكون في شأن وما تتلو» للرسول ﷺ، وهو عام لجميع شؤونه عليه السلام. [٢٦٧/أ] «وما تتلو منه» مندرج تحت عموم «شأن» واندرج من حيث المعنى في الخطاب كلّ ذي شأن. و«ما» في الجملتين نافية، والضمير في «منه» عائد على «شأن»، و«من قرآن» تفسير للضمير، وخُصّ من العموم لأن القرآن هو أعظم شؤونه صلى الله عليه وسلم.

والخطاب في قوله «ولا تعملون» عامّ، وكذا «إلا كنّا عليكم شهوداً». وولي «إلاّ» هنا الفعل غير مصحوب بـ«قد»، لأنه قد تقدّم «إلاّ» فعل. والجملة بعد «إلا» حال. و«شهوداً» رقباء نحصي عليكم. و«إذ» معمولة

لقوله «شهوداً».

ولمّا كانت الأفعال السابقة المراد بها الحال[1] الدائمة وتنسحب على الأفعال الماضية، كان الظرف ماضياً وكان المعنى: وما كنت في شأن وما تلوت من قرآن وما عملتم من عمل إلا كنّا عليكم شهوداً إذ أفضتم فيه؛ و«إذ» تخلّص المضارع لمعنى الماضي.

ثم واجهه تعالى بالخطاب وحده في قوله «وما يعزب عن ربك» تشريفاً له عليه السلام وتعظيماً. ولمّا ذكر شهادته تعالى على أعمال الخلق ناسب تقديم «الأرض» التي هي محل المخاطبين على «السماء» بخلاف ما في سورة سبأ[2]، وإن كان الأكثر تقديمها على الأرض. وقرىء: يعزِب، بكسر الزّاي وكذا في سبأ.

والمثقال اسم لا صفة ومعناه هنا وزن ذرّة، والذّر صغار النّمل. ولمّا كانت الذّرة أصغر الحيوان المتناسل المشهور النوع عندنا، جعلها الله مَثَلاً لأقلّ الأشياء وأحقرها، إذ هي أحقر ما نشاهد، ثم قال «ولا أصغر من ذلك» أي: من مثقال ذرة.

ولما ذكر تعالى أنه لا يعزب عن علمه أدق الأشياء التي نشاهدها، ناسب تقديم «ولا أصغر من ذلك» ثم أتى بقوله «ولا أكبر» على سبيل إحاطة علمه بجميع الأشياء.

ومعلومٌ أنّ من علم أدقّ الأشياء وأحقرها وأخفاها كان علمه متعلّقاً بأكبر الأشياء وأظهرها. وقرىء: ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ، بفتح الراء فيهما،

---

(١) الحال: تذكر وتؤنّث، انظر مختصر المذكر والمؤنث ص٥٤.

(٢) وهو قوله تعالى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۝٣﴾ [سبأ].

ووُجِّه[1] على أنه معطوف على «ذرّة» أو على «مثقال» على اللفظ. وقرىء برفع الراء فيهما، ووُجّه على أنه عطف على موضع «مثقال» لأنّ «مِن» زائدة، فهو مرفوع بـ«يعزب».

وقال الزمخشري[2] تابعاً لاختيار الزّجاج: والوجه النصب على نفي الجنس. والرفع على الابتداء ليكون كلاماً مبتدأ. وفي العطف على محلّ «مثقال ذرّة» أو لفظه فتحاً[3] في موضع الجر إشكال؛ لأن قوله: لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب، مشكل انتهى.

وإنما أشكل عنده لأن التقدير يصير: إلا في كتاب فيعزب، وهذا كلام لا يصحّ. وخرّجه أبو البقاء[4] على أنه استثناء منقطع تقديره: لكن هو في كتاب مبين، ويزول بهذا التقدير الإشكال.

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ
لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ
وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ
وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ
مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ

(١) ق: ووجهه.

(٢) الكشاف ٢: ٢٤٣.

(٣) ق: ومحا.

(٤) انظر إملاء ٢: ٣٠.

سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الآية، «أولياء الله» هم الذين يتولّونه بالطّاعة ويتولاّهم بالكرامة. وعن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ سئل عن أولياء الله فقال «هم الذين يُذكّرون الله برؤيتهم»[١] يعني السمت والهيئة. وهذه الآية يدلّ ظاهرها على أنّ من آمن واتّقى فهو داخل في أولياء [الله]، هذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولاء دائماً.

وإنما نبّهنا هذا التنبيه حذراً من مذهب الصوفية وبعض الملحدين في الوليّ. وبشراهم في الحياة الدنيا: تظاهرت الروايات عن رسول الله ﷺ أنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له، وبشراهم في الآخرة تلقّي الملائكة إياهم مسلّمين مبشّرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحف بأيمانهم وما يقرؤون [منها] وغير ذلك من البشارات.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تغيير لأقواله ولا خلف في مواعيده[٢] كقوله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴿٢٩﴾﴾ [ق].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ إما أن يكون [٢٦٧/ب] «قولهم» أريد به بعض أفراده وهو التكذيب والتهديد وما يتشاورون به في أمر رسول الله ﷺ، فيكون من إطلاق العامّ وإرادة الخاص، وإمّا أن يكون ممّا حذفت منه الصّفة

(١) لم أجده، وروى ابن كثير ٣: ٥١٢ نحواً منه عن سعيد بن جبير مرسلاً.
(٢) ق: مواعده.

المخصّصة أي: قولهم الدّال على تكذيبك ومعاندتك[١].

ثم استأنف بقوله ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: لا عزّة لهم ولا منعة فهم لا يقدرون لك على شيء ولا يؤذونك، إنّ الغلبة والقهر لله تعالى وهو القادر على الانتقام منهم فلا يُعازّه شيء ولا يغالبه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المناسبة ظاهرة في هذه الآية: لمّا ذكر أنّ العزّة له تعالى، وهي القهر والغلبة، ذكر ما يناسب القهر وهو كون المخلوقات له تعالى.

و«مَن» الأصل فيها أن تكون للعقلاء، وهنا هي شاملة لهم ولغيرهم على حكم التغليب، وحيث جيء «بما كان تغليبا» للكثرة إذ أكثر المخلوقات لا تعقل.

والظاهر أنّ «ما» نافية و«شركاء» مفعول «يتّبع»، ومفعول «يدعون» محذوف لفهم المعنى تقديره: آلهةً أو شركاء. أي: أن الذين جعلوهم آلهة وأشركوهم مع الله في الربوبيّة ليسوا شركاء حقيقة؛ إذ الشركة في الإلهيّه مستحيلة، وإن كانوا قد أطلقوا عليهم اسم الشركاء. وجوّزوا أن تكون «ما» استفهامية في موضع نصب بـ«يتّبع» و«شركاء» منصوب بـ«يدعون»[٢]، أي: وأيّ شيء يتّبع، على تحقير المتّبَع كأنه قيل: من يدعو شريكاً لله تعالى لا يتّبع شيئاً.

ومعنى «يخرصون» أي: يحزرون.

---

(١) ق: ومعاندك.

(٢) ق: بتدعون.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ هذا تنبيه منه تعالى على عظم قدرته وشمول نعمته لعباده، فهو المستحقّ بأن يُفرد بالعبادة.

«لتسكنوا فيه» أي: ممّا تقاسون من الحركة والتردّد في طلب المعاش وغيره بالنهار. وأضاف الإبصار إلى النهار مجازاً لأن الإبصار يقع فيه كما قال[١]: [من الطويل]

[لقد لُمْتِنا يا أمّ غيلان في السُّرى]   ونمتِ وما ليلُ المَطِيّ بنائمِ

أي: يبصرون فيه مطالب معايشهم.

قال قطرب: يقال: أظلم الليل: صار ذا ظلمة، وأضاء النهار وأبصر: أي: صار ذا ضياء وبصر انتهى.

وذكر علّة خلق الليل وهي «لتسكنوا فيه» وحَذَفها من النهار، وذكر وصف النهار، وحذفه من الليل، وكلّ من المحذوف يدلّ على مقابله، والتقدير: جعل الليل مظلماً لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً لتتحركوا فيه في مكاسبكم وما تحتاجون إليه بالحركة.

ومعنى «يسمعون»[٢] سماع معتبر.

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ الآية، الضمير في «قالوا» عائد على مَن نَسب إلى الله الولد ممّن قال: الملائكة بنات الله وغير ذلك.

و«سبحانه» تنزيهه عن اتّخاذ الولد وتعجّب ممّن يقول ذلك.

---

(١) البيت لجرير في ديوانه ٢: ٩٩٣.

(٢) ق: تسمعون.

«هو الغني» علّة لنفي الولد، لأنّ اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه، والله تعالى غير محتاج إلى شيء، فهو غني عن اتخاذ الولد. و«إن» نافية. والسلطان: الحجة أي: ما عندكم من حجّة بهذا القول.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ الآية، لمّا ذكر الدلائل على وحدانيّته وذكر [ما جرى] بين الرسول وبين الكفار، ذكر قصصاً من قصص الأنبياء وما جرى لهم مع قومهم من الخلاف، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ وليتأسّى بمن قبله من الأنبياء. والضمير في «عليهم» عائد على أهل مكة الذين تقدّم ذكرهم.

و«كَبُر» معناه عُظُم. «مقامي» أي: طول مقامي [فيكم، أو قيامي] للوعظ.

قال ابن عطية: ولم يُقرأ هنا بضم الميم.انتهى.

ليس كما قال، بل قرأ «مُقامي» بضم الميم أبو مجلز وأبو رجاء وأبو الجوزاء. والمُقام: الإقامة بالمكان، والمَقام: مكان القيام. وجواب الشرط «فعلى الله توكّلت» فلا أبالي منكم.

وقرىء: فأجمعوا، مِن: أجمع الرجل الشيء: عزم عليه ونواه، قال

[٢٦٨/أ] الشاعر[١]: [من الخفيف]

أجمعوا[٢] أمرهم بليلٍ فلمّا   أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

وقرئ: فأجمعوا، أمرٌ من جَمَع.

و«شركاءَكم» معطوف على «أمركم» وهو على حذف مضاف تقديره: وأمر شركائكم.

ومعنى «اقضوا إليّ» أنفذوا قضاءكم نحوي. ومفعول «اقضوا» محذوف أي: اقضوا إليّ ذلك الأمر وأَمْضُوا ما في أنفسكم واقطعوا ما بيني وبينكم.

«ولا تُنظرون» أي: لا تؤخّروني، والنَّظِرة: التأخير.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ الآية، أي: فإن دام تولّيكم عمّا جئت به إليكم من توحيد الله ورفض آلهتكم، فلست أبالي بكم إذاً[٣] ما دعوتكم إليه وذكّرتكم به ووعظتكم لم أسألكم عليه أجراً إنما يثيبني الله عليه.

«فكذّبوه» أي: فتمّوا على تكذيبه وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان.

و«في الفلك» متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به «معه» أو بـ«نجّيناه».

«وجعلناهم» [جمع] ضمير المفعول على معنى «مَن».

---

(١) البيت للحارث بن حلزة من معلّقته، وهو في شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص٤٥٢.

(٢) ق: جمعوا.

(٣) ق: إذا.

و«خلائف» يخلفون الغارقين المُهلَكين.

ثم أمر بالنّظر إلى عاقبة المنذَرين بالعذاب وإلى ما صار إليه حالهم. وفي هذا الإخبار توعّد للكفّار بمحمد ﷺ وضَرْبُ مثالٍ لهم في أنهم بحال هؤلاء من التكذيب فستكون حالهم كحالهم في التعذيب.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا﴾ الآية، أي: من بعد نوح رسلاً.

«إلى قومهم» يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وشعيباً.

والبيّنات: المعجزات والبراهين الواضحة المُثبتة لما جاؤوا به.

وجاء النفي مصحوباً بلام الجحود ليدلّ على أن أيمانهم في حيّز الاستحالة والامتناع.

قال ابن عطية: ويحتمل اللفظ عندي معنى آخر وهو أن تكون «ما» مصدرية، والمعنى: فكذّبوا رسلهم فكان عقابهم من الله أن لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم من قبل، أي: من قبل سببه ومن جرّائه[1]. ويؤيد هذا التأويل [قوله] «كذلك نطبع» انتهى.

الظاهر أنّ «ما» موصولة ولذلك عاد الضمير عليها في قوله «بما كذّبوا به» ولو كانت مصدريّة بقي الضمير غير عائد على مذكور، فيحتاج أن يتكلف ما يعود عليه الضمير. والضمير في «كذّبوا» عائد على ما عاد عليه ضمير «كانوا» وهم قوم الرسل. والمعنى أنهم كانوا قبل بعثة الرّسل أهل جاهلية وتكذيب للحقّ فتساوت حالاتهم قبل البعثه وبعدها كأنْ لم يُبعث إليهم أحد. و«من قبل» متعلق «بكذّبوا» أي: من قبل بعثة الرسل.

---

(١) ق: جزاه.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ
لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾
فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ
ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ
وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ
تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾
وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾ الآية، لا يُخَصّ قوله «وملئه» بالأشراف بل هي عامة لقوم فرعون شريفهم ومشروفهم.

«فاستكبروا» تعاظموا عن قبولها. والحق: هو العصا واليد.

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ ﴾ استفهام إنكار، ومعمول القول محذوف تقديره: هذا سحر. ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام ثانٍ وهو قوله «أسحرٌ هذا» أي: أسحرٌ هذا الذي جئت به من معجز العصا واليد. ثم أخبر عليه السلام بقوله ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا ﴾ الآية، «أجئتنا» خطاب لموسى عليه السلام وحده، لأنه هو الذي ظهرت على يديه المعجزات وهي العصا واليد.

«لتلفتنا» لتصرفنا وتلوينا. «عما وجدنا عليه آباءنا» من عبادة غير الله

واتخاذ آلهة دونه. و«الكبرياء» مصدر.

ولما ادّعوا أن ما جاء به موسى عليه السلام هو سحر، أخذوا في معارضته بأنواع من السّحر ليظهروا[١] لسائر الناس أنّ ما جاء به موسى عليه السلام هو من باب السحر.

والمخاطب بقوله «ٱئتوني» خَدَمة فرعون [٢٦٨/ب] والمتصرّفون[٢] بين يديه. وقرىء: بكل سحّار، على المبالغة. وقرىء: بكل ساحر، على الإفراد.

وفي قوله «أَلْقُوا ما أنتم ملقون» استطالة عليهم وعدم مبالاة بهم. وفي إبهام «ما أنتم ملقون» تخسيس[٣] وتقليل وإعلام أنه لا شيء يلتفت إليه.

وقرىء: السحر، بغير أداة استفهام، «فما» مبتدأة موصولة بمعنى الذي، وصلتها «جئتم به»، وخبر المبتدأ «السّحر».

وقرىء: آلسحر، بالاستفهام، «فما» استفهامية مبتدأة تقديره: أي شيء، و«جئتم به» الخبر، و«آلسحر» بدل من «ما». ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ويكون استفهاماً ثانياً تقديره: أهو السّحر؟.

قال ابن عطية: والتعريف هنا في «السحر» أرتب لأنه قد تقدّم منكّراً في قوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ ۝٧٦﴾ [يونس] فجاء هنا بلام العهد، كما يقال أول[٤]

---

(١) ق: ليظهر.
(٢) ق: والمتصرّفين.
(٣) ق: تجنيس.
(٤) ق: إنّ أول.

الرسالة: سلام عليك، وفي آخرها: والسلام عليك انتهى.

أخذ هذا من[١] الفرّاء، قال الفرّاء[٢]: وإنما قال «السحر» بالألف واللام لأن النكرة إذا أعيدت أعيدت بالألف واللام. ولو قال له: من رجل، لم يقع[٣] له في فهمه أنه يسأله عن الرجل الذي ذكره له.انتهى.

وما ذكراه هنا في «السحر» ليس هو مِن باب تقدّم النكرة ثم أخبر عنها بعد ذلك؛ لأنّ شرط هذا أن يكون المعرَّف بالألف واللام هو النكرة المتقدم ولا يكون غيره كما قال تعالى ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ ۝١٦﴾ [المزمل]، وتقول: زارني رجل فأكرمت الرجل. ولمّا كان إياه جاز أن تأتي بالضمير بدله فتقول: فأكرمته. والسحر هنا ليس هو السحر الذي في قولهم «إنّ هذا لسحر» أي: إنّ الذي أخبر ذا عنه بأنه سحر هو ما ظهر على يدي موسى من معجزة العصا، والسحر الذي في قول موسى عليه السلام إنما هو سحرهم الذي جاؤوا به، فقد اختلف المدلولان إذ قالوا هم عن معجزة موسى، وقال موسى عما جاؤوا به، ولذلك لا يجوز أن يؤتى هنا بالضمير بدل السحر، فيكون عائداً على قولهم «السحر».

و«سيبطله» يمحقه بحيث يذهب ويظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ الآية، الظاهر في الفاء من حيث إن مدلولها التعقيب،

---

(١) ق: أخذ من هذا.

(٢) انظر معاني القرآن ١: ٤٧٥، وليست هذه عبارته فيه.

(٣) ق: يقل.

أنّ هذا الإيمان الصادر من الذّرية لم يتأخّر عن قصة الإلقاء.

والظاهر أن الضمير في «قومه» عائد على موسى، وأنه لا يعود على فرعون؛ لأن موسى عليه السلام هو المحدَّث عنه في هذه الآية، وهو أقرب مذكور، ولأنه لو كان عائداً على فرعون، لم يظهر لفظ «فرعون» وكان التركيب: على خوف منه ومن مَلَئهم أن يفتنهم. وهذا الإيمان من الذّرية كان أول مبعثه إذ قد آمن به بنو[1] إسرائيل قومه كلّهم: كان أوّلاً دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون، وأجابَتْه طائفة من أبنائهم مع الخوف من فرعون.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ الآية، الظاهر أنهم سألوا الله أن لا يُفتنوا عن دينهم، وأن يخلصوا من الكفار، فقدّموا ما كان عندهم أهمّ وهو سلامة دينهم لهم، وأخّروا سلامة أنفسهم، إذ الاهتمام بمصالح [الدّين] آكد من الاهتمام بمصالح الأبدان.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ
قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ
فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ
عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ
أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾
۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ

---

(١) ق: من بني. وانظر في هذا جامع البيان ١١: ١٠٣ وما بعدها.

بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ
ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ الآية، «أنْ» يجوز أن تكون تفسيرية بمعنى أي، وأن تكون مصدرية.

و«تبوّآ» فعل أمر أي: اتّخذا[1] مباءة، وهو المكان الذي يرجع الإنسان إليه.

والظاهر اتخاذ البيوت بمصر وهي مصر المعروفة، ومصر من البحر إلى أسوان، والإسكندرية من أرض مصر.

﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: قِبَل القبلة، ثم سيق الخطاب عامًّا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، ثم خصّ موسى عليه السلام بالتبشير الذي هو الغرض تعظيماً له وللمبشَّر به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ﴾ الآية، الزّينة عبارة [٢٦٩/أ] عمّا يُتزيّن به ويُتحسّن من الملبوس والمركوب والأثاث[2]. والمال ما يزيد على ذلك من الصامت والناطق. وفي تكرير «ربّنا» توكيد للدّعاء والاستغاثة. واللام في «ليضلّوا» الظاهر أنها لام كي على معنى: آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج فكان الإيتاء لكي يُضلّوا. ويُحتمل أن تكون لام الصيرورة والعاقبة كقوله تعالى ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿٨﴾﴾ [القصص] وكما قال

---

(١) ق: اتخذ.

(٢) ق: والإناث؟.

الشاعر[١]: [من البسيط]

وللمنايا تُربّي كلُّ مرضعةٍ   وللخراب يُجِدُّ الناسُ عمرانا

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: صارت دراهمهم حجارة منقوشة صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً، ولم يبق لهم معدن إلاّ طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعدُ.

﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: اطبع عليها وامنعها من الإيمان.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ مجزوم[٢] على أنه جواب «اشدد»، والأمر وجوابه ينعقد منهما شرط وجزاء وتقدير ذلك هنا: إن تشدد لا يؤمنوا.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ الآية، قال محمد بن كعب: كان موسى عليه السلام يدعو وهارون عليه السلام يؤمّن، فنُسبت الدعوة إليهما، ويمكن أن يكونا دَعَوَا معاً، ثم أُمرا بالاستقامة، والمعنى الديمومة عليها وعلى ما أُمرتما من الدعوة إلى الله وإلزام حجّة الله.

و«الذين لا يعلمون» فرعون وقومه، قاله ابن عباس.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ تقدّم الكلام في الباء من [قوله] «ببني[٣] إسرائيل» وكم كان الذين جاوزوا مع موسى عليه السلام في الأعراف[٤]. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ الآية، وإتباع فرعون هو بمجاوزة البحر. روي أن فرعون

(١) البيت في زاد المسير ٤: ٥٦ غير منسوب.
(٢) ق: منصوب. وإذا كان منصوباً فهو معطوف على ليضلوا.
(٣) ق: من بني.
(٤) انظر شرح الآية ١٣٨ من الأعراف.

لما انتهى إلى البحر، فوجده قد انفرق ومضى فيه بنو إسرائيل، قال لقومه: إنما انفرق بأمري. وكان فرعون على فرس ذكر، فبعث الله إليه جبريل على فرس أنثى ودَنَوَا، فدخل بها البحر ولج فرس فرعون وراءه وجنّب الجيوش خلفه، فلما رأى أن الانفراق قد ثبت واستمرّ له وبعث الله ميكائيل يسوق الناس حتى حصل جميعهم في البحر فانطبق عليهم، ولمّا لحقه من الدهش ما لحقه، كرّر المعنى بثلاث عبارات: إما على سبيل التّلعثم؛ إذ ذاك مقام تحار فيه القلوب، أو حرصاً على القبول، ولم يقبل الله تعالى منه، إذ فاته وقت القبول وهو حالة الاختيار وبقاء التكليف. والتوبة بعد المعاينة لا تنفع؛ ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿فَلَمْ [يَكُ] يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۝٨٥﴾ [المؤمن]. وتقدّم الخلاف في قراءة: «آلان» في قوله «آلان وقد كنتم به تستعجلون» في هذه السورة[1]، والمعنى: أتؤمن الآن الساعة في حال الاضطرار حين أدركك[2] الغرق وأيستَ من نفسك؟ قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ الآية، أي: نلقيك بنجوةٍ من الأرض وهي المكان المرتفع. و«ببدنك» بدرعك، وكان من لؤلؤ منظوم لا مثال له، قاله[3] ابن عباس. والبدن: بدن الإنسان، والبدن: الدرع القصيرة، قال الشاعر[4]:

[من الوافر]

---

(١) انظر شرح الآية ٥١.

(٢) ق: أدرك.

(٣) ق: قال.

(٤) البيت في شرح القصائد السبع ص٤١:٤ غير منسوب، وهو في القرطبي ٨: ٣٨٠ منسوب إلى كعب بن مالك.

تـــرى الأبـــدان فيهـــا مُسْبَغـــاتٍ على الأبطـال واليَلَـبَ[١] الحصينا

يعني الدروع. وقيل: نلقيك ببدنك عرياناً ليس عليك ثياب ولا سلاح، وذلك أبلغ في [٢٦٩/ب] إهانته.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ[٢] إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية، الظاهر أن بني إسرائيل هم الذين كانوا آمنوا بموسى عليه السلام، ونَجَوْا من الغرق وسياق الآيات يشهد لهم.

وانتصب «مبوّأ صدق» على أنه مفعول ثانٍ «لبوّأنا» كقوله تعالى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا ۝٥٨﴾ [العنكبوت] أو على المصدر.

ومعنى «صدق» أي: فضل وكرامة. ولمّا ذكر أنه بوّأهم مبوّأ صدق ذكر امتنانه عليهم بما رزقهم من الطيبات، وهي المآكل المستلذّات أو الحلال.

«فما اختلفوا» أي: كانوا على ملّة واحدة وطريقة مع موسى عليه السلام في أول حاله.

«حتى جاءهم العلم» أي: علم التوراة فاختلفوا. وهذا ذمٌّ لهم أي: أن سبب الاتفاق هو العلم فصار عندهم سبب الاختلاف فتشعّبوا شعباً بعدما قرؤوا التوراة.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ

(١) ق: والثلب.

(٢) ق: لبني.

ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا
عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي
ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ
ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم
مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ
وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا
كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ
عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ
فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم
بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ﴾ الآية، الظاهر أنّ «إنْ» شرطيّة تقتضي تعليق شيء على شيء، ولا تستلزم تحتّم وقوعه ولا إمكانه بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلاً كقوله تعالى ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف] ويستحيل أن يكون له ولد، فكذلك هذا يستحيل أن يكون عليه السلام في شك، وهذه الآية من ذلك.

وقيل: «إن» نافية. وقيل: الخطاب لغير رسول الله ﷺ. وقيل: معنى «في

شكّ» في ضيق ولا يُراد به حقيقة الشّك وهو تساوي الجائزَيْن. وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا أشكّ ولا أسأل بل أشهد أنه الحق»[(١)].

«فتكون» منصوب بإضمار أنْ بعد الفاء وهو جواب النّهي قبله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ذكر[(٢)] عباداً قضى عليهم بالشقاوة فلا تتغير. والكلمة التي حقّت عليهم هي اللعنة والغضب.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ هو في الوقت الذي لا ينفعهم فيه إيمانهم.

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ﴾ الآية، «لولا» هنا هي التحضيضيّة التي صَحِبها التوبيخ. وكثيراً ما جاءت في القرآن للتحضيض فهي بمعنى هلاّ. والتحضيض أن يريد الإنسان فعل الشيء الذي يحضّ عليه. وإذا كانت للتوبيخ فلا يريد[(٣)] المتكلّم الحضّ على ذلك الشيء. وهنا وبّخهم على ترك الإيمان النافع، والمعنى: فهلاّ آمن أهل قرية وهم على مهل لم يلتبس العذاب بهم، فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذه الحالة.

و«إلاّ قوم يونس» استثناء منقطع، إذ لم يندرج قوم يونس في قوله «قرية». وإلى الانقطاع فيه ذهب سيبويه والكسائي والفرّاء والأخفش. وقيل: هو استثناء متّصل لأن التّحضيض إنما يكون على شيء لم يقع فتضمّن معنى النفي، وصار المعنى: لم تكن قرية - يعني أهلها - آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى من بلاد الموصل كانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم يونس عليه السلام، فأقاموا على تكذيبه سبع سنين، وتوعّدهم

(١) رواه سعيد عن قتادة، انظر تفسير الطبري ١١: ١١٦.
(٢) ق: لما ذكر.
(٣) ق: يرد.

العذاب بعد ثلاثة أيام وقيل بعد أربعين يوماً.

«إلى حين» أي: إلى وقت انقضاء آجالهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، قيل: أُنزلت في أبي طالب لأن رسول الله ﷺ أسف لموته على ملّة عبد المطّلب، وكان حريصاً على إيمانه، وكان أحرص الناس على هداية من في الأرض.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ تقديم الاسم في الاستفهام على الفعل، يدلّ على إمكان حصول الفعل، لكن من غير الاسم، فللّه أن يُكره الناس على الإيمان لو شاء، وليس ذلك لغيره.

وقرىء: ونجعل، بنون المتكلم، ويجعل، بياء الغيبة.

[٢٧٠/أ] ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إذ السبيل إلى معرفته تعالى هو بالتفكر في مصنوعاته: ففي[1] العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها، والكواكب وما يختصّ بذلك من المنافع والفوائد. وفي العالم السفليّ في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان وخصوصاً حال الإنسان. وكثيراً ما ذكر الله في كتابه الحضّ على التفكر في مخلوقاته تعالى، وقال «ماذا في السماوات والأرض» تنبيهاً على القاعدة الكليّة، والعاقل يتنبّه لتفاصيلها وأقسامها. ثمّ لمّا أمر تعالى بالنّظر أخبر أنه من لا يؤمن، لا تغنيه الآيات.

و«النّذر» جمع نذير؛ إما مصدر فمعناه: والإنذارات، وإما بمعنى منذر فمعناه: المنذرون والرّسل.

---

(١) ق: وفي.

و«ما»[١] الظاهر أنها للنفي، ويجوز أن تكون استفهاماً أي: وأيّ شيء تغني الآيات وهي الدلائل؟ وهو استفهام على جهة التقرير.

قال ابن عطية: ويحتمل أن تكون «ما» في قوله «وما تغني» مفعولة لقوله «انظروا» معطوفة على قوله «ماذا» أي: تأمّلوا قَدْر غَناء الآيات والنذر عن الكفّار إذا قبلوا ذلك كفعل قوم يونس، فإنه يرفع العذاب في الدنيا والآخرة، وينجي من المهلكات. فالآية على هذا تحريض على الإيمان، وتجوُّز اللفظ على هذا التأويل إنما هو في قوله «لا يؤمنون» انتهى.

هذا احتمال فيه ضعف. وفي قوله: مفعولة معطوفة على قوله «ماذا» [تجوّز] - يعني[٢] أن الجملة الاستفهامية التي هي «ماذا في السماوات والأرض» في موضع المفعول - لأنّ «ماذا» وحده منصوب بـ«انظروا» فتكون «ماذا» موصولة و«انظروا» بصرية لما تقدّم. وفي الآية توبيخ لحاضري رسول الله ﷺ من المشركين.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ لما تقدّم قوله «فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم» وكان ذلك مشعراً بما حلّ بالأمم الماضية المكذّبة ومصرّحاً بهلاكهم في غير ما آية - أخبر تعالى عن حكاية حالهم الماضية فقال «ثم ننجّي رسلنا». والمعنى أن الذين خلوا، أهلكناهم لمّا كذّبوا الرّسل، ثم نجّينا الرّسل والمؤمنين. والظاهر أن «كذلك» في موضع نصب تقديره: مثلَ ذلك الإنجاء الذي نجّينا الرسل ومؤمنيهم ننجي من آمن بك يا محمد، ويكون

(١) ق: وأما.

(٢) ق: تغني.

«حقًّا» على تقدير: حقّ ذلك حقًّا[١].

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآيات خطاب لأهل مكّة، يقول: إن كنتم لا تعرفون ما أنا عليه فأنا أبيّنه لكم. فبدأ أولاً بالانتفاء من عبادة ما يعبدون من الأصنام تسفيهاً لآرائهم، وأثبت ثانياً مَن الذي يعبده وهو «الله الذي يتوفّاكم». وفي ذكر هذا الوصف الوسط الدّال على التَّوفي دلالة على البدء وهو الخلق، وعلى الإعادة، فكأنه أشار إلى أنه يعبد الله الذي خلقكم ويتوفّاكم ويعيدكم. وكثيراً ما صرّح بهذه الأطوار الثلاثة وكان التصريح بهذا الوصف لما فيه من التذكير بالموت وإرهاب النفوس به وصيرورتهم إلى الله تعالى بعده، فهو الجدير بأن يُخاف ويُتّقى ويُعبد لا الحجارة التي يعبدونها. «وأُمرت أن أكون من المؤمنين» لمّا ذكر أنه يعبد الله وكانت العبادة أغلب ما عليها عمل الجوارح، أخبر بأنه أُمر بأن يكون من المصدّقين بالله الموحّدين له المُفْرِديه بالعبادة، فانتقل من عمل الجوارح إلى نور المعرفة وطابق الباطن الظاهر.

﴿وَأَنۡ أَقِمۡ﴾ يحتمل أن تكون معمولة لقوله «وأُمرت» مراعى فيها المعنى، لأن معنى قوله «أن أكون»: كن من المؤمنين، فتكون [٢٧٠/ ب] «أن» مصدرية صلتها الأمر. والوجه هنا المنحى والمقصد، أي: استقم للدين ولا تَحِدْ عنه. و«حنيفاً» حال من الضمير في «أقم» أو من المفعول.

﴿فَإِن فَعَلۡتَ﴾ كنّى بالفعل عن الدّعاء مجازاً أي: فإن دعوت ما لا ينفعك ولا يضرّك. وجواب الشرط «فإنك» وخبرها. وتوسّطت «إذاً» بين اسم إنّ والخبر، ورُتْبَتها بعد الخبر، لكن روعي في ذلك الفاصلة.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ الآية، أتى في الضّر بلفظ المسّ، وفي الخير بلفظ

---

(١) وننجي: مضارع أنجى، وخطّ المصحف بغير ياء.

الإرادة. وطابق بين الضّر والخير مطابقة معنوية لا لفظية؛ لأن مقابل الضرّ النفع، ومقابل الخير الشّر، فجاءت لفظة[١] الضّر ألطف وأخصّ من لفظة الشّر، وجاءت لفظة الخير أتمّ من لفظة النفع. ولفظة المسّ أوجز من لفظة الإرادة وأنصّ على الإصابة وأنسب لقوله «فلا كاشف له إلاّ هو». ولفظة الإرادة أدلّ على الحصول في وقت الخطاب وفي غيره وأنسب للفظ الخير. وإن المسّ والإرادة معناهما الإصابة. وجاء جواب «وإن يمسسك» بنفي عام وإيجاب، وجاء جواب «وإن يُرِدْك» بنفي عامّ لأنّ ما أراده لا يردّه رادّ لا هو صلى الله عليه وسلم ولا غيره.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ الآية، «الحق» القرآن والرسول ودين[٢] الإسلام. والمعنى: فإنما ثواب هدايته حاصل له، ووبال ضلاله عليه. والهداية والضلال واقعان بإرادة الله تعالى. وروي أنه لما نزلت «واصبر» جمع صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال «إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني»[٣].

---

(١) ق: لفظ.

(٢) ق: دين.

(٣) أخرجه البخاري ٦: ٢٥٨٩ من حديث أسيد بن حضير.

سورة هود[1]

عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ﴾.

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ قال ابن عباس: هذه السورة مكية كلّها. وعنه أيضاً أنها مكّية إلا قوله ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ ۝١٢ ﴾ [هود]. و«كتاب» خبر مبتدأ محذوف يدلّ عليه ظهوره بعد هذه الحروف المقطّعة كقوله ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ۝٢ ﴾ [البقرة]. و«أحكمت» صفة له. ومعنى الإحكام نظمه نظماً رصيفاً[2] لا نقص فيه ولا خلل. والهمزة في «أُحكمت» للنقل، وأصله حكم فهو حكيم ثم أُدخلت عليه همزة النقل فصار يتعدّى إلى واحد. «ثم فصّلت» كما تفصّل القلائد بالدلائل من دلائل التوحيد والأحكام

(١) مكّية وآياتها مئة وثلاث وعشرون.

(٢) ق: رصفيًا.

والمواعظ والقصص، أو جُعلت فصولاً سورة سورة وآية آية، أو فرّقت في التنزيل ولم تُنزّل جملة واحدة، أو فُصّل بها ما يحتاج إليه العباد أي بُيّن ولُخّص. «من لدن» تقدّم الكلام عليه في آل عمران[١].

«حكيم» بمعنى مُحكِم وهي صفة راجعة لقوله «أحكمت». «خبير» عالم بخفايا الأشياء راجع إلى قوله «ثم فصّلت». وكان[٢] العطف بـ«ثمّ» لتراخي أوامر التفصيل ونواهيه عن المنزّل بالإحكام. و«من لدن» تتعلق بأحد الفعلين من باب الإعمال، ومن حيث المعنى تتعلق بهما.

و﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ يحتمل أن تكون «أن» حرف تفسير لأنّ في تفصيل الآيات معنى القول وهذا أظهر. ويجوز أن تكون الناصبة للمضارع و«لا» نفي، وعلامة النصب حذف النون. ويجوز أن تكون «أنْ» مصدرية وُصلت بفعل النّهي وعلامة الجزم فيه حذف النون. والظاهر عود الضمير في «منه» إلى الله تعالى أي: إنني لكم نذير من جهته وبشير، فتكون في موضع الصفة فتعلّق بمحذوف أي: كائن من جهته [٢٧١/أ] أو تعلّق بـ«نذير» أي: أنذركم من عذابه إن كفرتم وأبشركم بثوابه إن آمنتم.

﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ هذا أمر بالاستغفار يرجّح أن يكون «ألا تعبدوا» نهياً[٣]، نهى ثم أمر كقوله[٤]: [من الطويل]

[وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم] يقولون لا تَهْلِكْ أسىً وتجمَّلِ

(١) انظر تفسير الآية ٣٨ من السورة.

(٢) ق: وإن كان.

(٣) ق: نهي.

(٤) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٩.

والاستغفار: طلب المغفرة وهي الستر. والتوبة: الانسلاخ من المعاصي والنّدم على ما سلف منها والعزم على عدم العود إليها. وتقدّم أمران بينهما تراخٍ وترتّب عليهما جوابان بينهما تراخٍ: ترتّب على الاستغفار التمتيع المتاع الحسن [في الدنيا] وترتّب على التوبة إيتاء الفضل في الآخرة، وناسب كل جواب لما وقع جواباً له؛ لأن الاستغفار من الذنب أول حال الراجع إلى الله تعالى فناسب أن يرتّب عليه [حال] الدنيا، والتوبة هي المنجية من النار والتي تُدخل الجنة فناسب أن يرتّب عليها حال الآخرة. والضمير في «فضله» يحتمل أن يعود على الله أي: يعطي في الآخرة كلّ من كان له فضل في عمل الخير وزيادة ما تفضّل به عليه تعالى وزاده[1]. ويحتمل أن يعود على «كل» أي: جزاء ذلك الفضل الذي عمله في الدنيا لا يبخس منه شيء. والظاهر أن «تولَّوا» مضارع حذف منه التاء أي: وإن تتولّوا، وقيل: هو ماضٍ للغائبين والتقدير: فقل لهم إني أخاف عليكم. ووصف «يوم» بكبير وهو يوم القيامة لما يقع فيه من الأهوال.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى جزائه. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: نزلت في الأخنس بن شريق، وكان يجالس رسول الله ﷺ ويحلف أنه يحبّه ويضمر خلاف ما يُظهر، وقيل غير ذلك.

﴿لِيَسْتَخْفُوا۟﴾ أي: من الله فلا يُطْلع رسوله والمؤمنين على ازورارهم. والضمير في «منه» عائد على الله تعالى، والذي يظهر من أسباب النزول أنه عائد على رسول الله ﷺ، وكما قيل إنّ هذه الآية نزلت في الكفار الذين

---

(١) ق: وزيادة.

كانوا إذا لقيهم رسول الله ﷺ تطامنوا وثَنَوْا صدورهم كالمستتر وردّوا إليه ظهورهم، وغشوا وجوههم بثيابهم تباعداً منه وكراهة للقائه، وهم يظنّون أنّ ذلك يخفى عليه أو على الله تعالىٰ فنزلت الآية. فعلى هذا يكون «ليستخفوا» متعلّقاً بـ«يثنون صدورهم».

ومعنى ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يجعلونها أغشية، ومنه قول الخنساء[1]:

أرعى النجومَ وما كُلِّفتُ رِعْيَتَها وتارةً أتغشّى فضلَ أطماري[2]

[من البسيط]

وانتصب «حين» بقوله «يعلم».

وقال الزمخشري[3]: يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم.

وقال أبو البقاء[4]: «ألا حين» العامل في الظرف محذوف أي: ألا حين يستغشون ثيابهم يستخفون.

وتقدير الزمخشري وأبي البقاء إضمار لا يُحتاج إليه.

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي
كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ
عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ
مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ
ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ

(١) الديوان ص٥٨.
(٢) ق: أتماري.
(٣) الكشاف ٢: ٢٥٨.
(٤) إملاء ٢: ٣٥.

وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ
نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، الدابّة هنا عامّ في كلّ حيوان يحتاج إلى رزق. و«على الله» ظاهر في الوجوب وإنما هو تفضّل، ولكنّه لمّا ضمن تعالى أن يتفضّل عليهم، أبرزه في حيّز الوجوب. قال ابن عباس: «مستقرها» حيث تأوي إليه من الأرض، و«مستودعها» الموضع الذي تموت فيه فتدفن.

«من دابة» في موضع مبتدأ و«من» زائدة لاستغراق الجنس.

و«رزقها» مبتدأ و«على الله» خبره، والجملة خبر المبتدأ والتقدير: وما من دابّة إلّا رزقها كائن على الله.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى ما يدلّ على كونه عالماً ذكر ما يدلّ على كونه قادراً. وتقدّم تفسير الجملة [٢٧١/ب] الأولى في سورة يونس[١]. والظاهر أن قوله «وكان عرشه على الماء» تقديره: قبل خَلْق السماوات والأرض. وفي هذا دليل على أنّ الماء والعرش كانا مخلوقَيْن قبلُ. والظاهر تعلّق «ليبلوكم» بخلق، أي: خلقهنّ بحكمة بالغة وهي أن يجعلها مساكن لعباده، وينعم عليهم فيها بفنون النعم، ويكلّفهم فعل الطاعات واجتناب المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه ومن كفر وعصى عاقبه.

---

(١) انظر الآية ٣ من سورة يونس، وشرح الآية ٥٤ من الأعراف.

ومعنى ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ أي: ليختبركم.

و﴿أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ﴾ مبتدأ وخبر في موضع نصب بقوله «ليبولكم» وهو معلّق لأن الاختبار فيه معنى التمييز والعلم.

وذكر الزمخشري[١] أن «استمع» تعلّق ومثّله بقوله: استمع أيّهم أحسن صوتاً.انتهى.

ولا أعلم أحداً ذكر أنّ «استمع» تعلّق، وإنما ذُكر من غير أفعال القلوب: سَلْ وانظر. وفي جواز تعليق «رأى» البَصَريّة خلاف، ولذلك علّق عن جملة الاستفهام. والظاهر الإشارة «بهذا» إلى القول أي: إنْ قولك[٢] إنكم مبعوثون إلّا سحر، أي: بطلان هذا القول كبطلان السحر.

والظاهر أن «العذاب» هو العذاب الموعود به. والأمّة هنا: المدّة من الزمان.

﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ استفهام قالوه على سبيل التكذيب والاستهزاء. والظاهر أن «يوم» منصوب بقوله «مصروفاً» فهو معمول لخبر ليس. وقد استدلّ به على جواز تقديم خبر ليس عليها؛ قالوا: لان تقدّم المعمول يؤذن بتقدّم العامل، ونُسب هذا المذهب لسيبويه وعليه أكثر البصريين، وذهب الكوفيون والمبرّد إلى أنه لا يجوز ذلك وقالوا: لا يدلّ جواز تقديم المعمول على جواز تقدّم العامل، وأيضاً فإن الظرف والمجرور يُتّسع فيهما ما لا يُتّسع في غيرهما ويقعان حيث لا يقع العامل فيهما نحو: إنّ اليومَ زيداً مسافر. وقد تتبّعت جملة من دواوين العرب فلم أظفر بتقدّم خبر ليس عليها ولا بمعموله إلّا ما

(١) الكشاف ٢: ٢٥٩.

(٢) ق: قولكم.

دلّ عليه ظاهر هذه الآية، وقول الشاعر[1]: [من الطويل]

فيأبى فما يزداد إلا لجاجة وكنت أبيًّا في الخَنا لست أُقْدم

وتقدم تفسير جملة ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾[2].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الآية، الظاهر أن «الإنسان» هنا هو جنس، والمعنى أن هذا الخُلق في سجايا الناس، ثم استثنى منهم الذين ردّتهم الشرائع والإيمان إلى الصبر والعمل الصالح، ولذلك جاء الاستثناء منه في قوله «إلا الذين صبروا» متصلاً.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ﴾ الآية، كانوا يقترحون عليه الآيات تعنّتاً لا استرشاداً، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة ممّا جاء به كافية في رشادهم.

و﴿وَضَآئِقُۢ﴾ اسم فاعل من ضاق، وعبر «بضائق» دون ضيّق للمناسبة في اللفظ مع «تارك» وإن كان «ضيّق» أكثر استعمالاً، لأنه وصف لازم و«ضائق» وصف عارض، ولأن اسم الفاعل من الثلاثي إذا لم يأت على وزن فاعل نحو: فَرِح وثقيل، وأُريد الحدوث به بُني على فاعل كثَقُل فهو ثاقل وفَرِح

(١) لم أجده، وانظر البحر ٥: ٢٠٦.

(٢) انظر تفسير الآية ١٠ من سورة الأنعام.

فهو فارح، ولذلك جاء اسم الفاعل من ضاق على: فاعل، لحدوثه[١]، إذ ليس وصفاً لازماً فيجيء على: ضيّق.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ أي ليس عليك إلّا أن تنذرهم بما أوحي إليك وتبلّغهم بما أُمرت بتبليغه، وما عليك رَدُّوا أو تهاونوا واقترحوا.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ يحفظ ما يقولون، وهو فاعل بهم ما يجب أن يُفعل، فتوكّلْ عليه وكِلْ أمرك إليه.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ الآية، الظاهر أنّ «أم» منقطعة فتقدّر ببل والهمزة أي: بل أيقولون أفتراه. والضمير في «افتراه» عائد على قوله «يوحى إليك» وهو القرآن. ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لا تتعلّق [٢٧٢/أ] أطماعهم بأن يترك بعض ما أوحي إليه إلا لدعواهم أنه ليس من عند الله، وأنه هو الذي افتراه. وإنما تحدّاهم أوّلاً بعشر سور مفتريات قبل تحدّيهم بسورة، إذ كانت هذه السورة مكّية والبقرة مدنية، وسورة يونس أيضاً مكية[٢]. ويقتضي التحدّي بعشرٍ أن يكون قبل طلب المعارضة بسورة، فلمّا نسبوه إلى الافتراء طلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات إرخاءً لعنانهم[٣] وكأنه يقول: هَبُوا أني اختلقتُه ولم يُوحَ إليّ، فأْتوا أنتم بكلام مثله[٤] مختلق من عند أنفسكم، فأنتم عرب فصحاء مثلي، لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام. وإنما عنى بقوله «مثله» في حسن النظم والبيان وإن كان مفترى.

---

(١) ق: الحدوثة.

(٢) آية التحدي في البقرة قوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة]، وفي يونس قوله: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس].

(٣) ق: لعناتهم.

(٤) ق: مثله بكلام.

وشأن من يريد تعجيز شخص أن يطالبه أوّلاً بأن يفعل أمثالاً ممّا يفعل هو، ثم إذا تبيّن له عجزه قال له: افعل مثالاً واحداً.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ الذي يظهر أن الضمير في «فإن لم يستجيبوا» عائد على «من استطعتم»، وفي «لكم» عائد على الكفار، لعَوْد الضمير على أقرب مذكور، ولكون الخطاب يكون لواحد، ولترتُّب الجواب على الشرط ترتُّباً حقيقياً من الأمر بالعلم. ولا يُتجوّز بأنه [أريد به]: فدوموا على العلم بأن لا إله إلا هو، ولا أن يكون قوله «فهل أنتم مسلمون» تحريضاً على تحصيل الإسلام لا أنه يراد به الإخلاص.

ولمّا طولبوا بالمعارضة وأُمروا بأن يَدْعوا من يساعدهم فلم تُمْكن المعارضة ولا استجاب أصنامهم وآلهتهم لهم، أُمروا بأن يعلموا أنه من عند الله وليس مفترى فتمكن معارضته، وأنه تعالى هو المختصّ بالألوهية لا يشركه في شيء منها آلهتهم وأصنامهم، فلا يمكن أن يجيبوا لظهور عجزهم وأنها لا تنفع ولا تضرّ في شيء من المطالب.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر أشياء من أحوال الكفّار المنافقين في القرآن، ذكر شيئاً من أحوالهم الدنيويّة وما يؤولون إليه في الآخرة. وظاهرُ «مَن» العموم في كلّ من يريد زينة

الحياة الدنيا، والجزاء مقرون بمشيئته تعالى. وجاء فعل الشرط ماضياً في قوله «من كان» وفعل الجزاء مضارعاً مجزوماً وهو «نوفّ» والجزم أفصح من الرفع؛ إذ لو جاء «نوفّي» مرفوعاً لكان جائزاً كما قال[1]: [من البسيط]

وإن أتاه خليل يومَ مسألةٍ يقول لا غائبٌ مالي ولا حَرَمُ

فرفع «يقول» ولو جزمه لكان أفصح كالآية. وأفرد الضمير في «كان يريد» على لفظ «مَن» وجَمَعه في قوله «إليهم» مراعاة للمعنى.

والضمير في قوله ﴿مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ الظاهر أنه عائد على «الآخرة» والمجرور متعلق «بحبط» والمعنى: وظهر حبوط ما صنعوا في الآخرة. ويجوز أن يتعلق بقوله «صنعوا» فيكون عائداً على الحياة الدنيا كما عاد عليها في «فيها» قبلُ[2].

و«ما» في «ما صنعوا» بمعنى الذي، أو مصدريّة، و«باطل» وما بعده توكيد لقوله «وحبط ما صنعوا». و«باطل» خبر مقدّم إن كان من عطف الجمل و«ما كانوا» هو المبتدأ. وإن كان خبراً بعد خبر ارتفع «ما» «بباطل» على الفاعلية.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ الآية، لمّا ذكر حال من يريد الحياة الدنيا، ذكر حال من يريد وجه الله بأعماله الصالحة، وحذف المعادل الذي دخلت عليه الهمزة والتقدير: كمن يريد الحياة الدنيا. وكثيراً ما حُذف في القرآن كقوله تعالى ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴿٨﴾﴾ [فاطر]. وأراد بهم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره.

---

(١) البيت لزهير في ديوانه ص١٥٣.

(٢) أي في الآية السابقة.

«كان على بيّنة» أي: على برهان من الله وبيان أن دين [٢٧٢/ب] الإسلام حقّ وهو دليل العقل.

﴿وَيَتْلُوهُ﴾ ويتبع ذلك البرهان.

﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: شاهد بصحّته وهو القرآن. «منه» أي: من الله تعالى أو شاهد[1] من القرآن.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ومن قبل القرآن.

﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ وهو التوراة، أي: ويتلو ذلك أيضاً من قَبْل القرآن كتاب موسى.

والإشارة بـ«أولئك» إلى[2] «من كان على بيّنة»، راعى معنى «مَن» فجمع.

﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أي: مكان وعده الذي يصير إليه، وقال حسّان[3]:

أوردتموه حياض الموت ضاحيةً فالنار موعدها والموت لاقيها

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي

(١) ق: وشاهد.

(٢) ق: إلا.

(٣) ديوانه ص٤٨٥. وهو من البسيط

ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَمَنْ[1] أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تقدّم تفسير نظير هذه الجملة[2].

و«الأشهاد» جمع شاهد كصاحب وأصحاب، أو جمع شهيد كشريف وأشراف، والأشهاد: الملائكة الذين يحفظون عليهم أعمالهم في الدنيا.

وفي قوله «هؤلاء» إشارة إلى تحقيرهم وإصغارهم بسوء مرتكبهم[3].

وفي قوله «على ربّهم» أي: على من يحسن إليهم ويملك نواصيهم، وكانوا جديرين بأن لا يكذبوا عليه.

﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ اسم لـ«كان» و«مِن» زائدة. والضمير في «ما كانوا» عائد على «أولياء».

ومعنى أنه لا يستطيع [أن يسمع] ولا يبصر فكيف يصلح للولاية؟ ويكون «يضاعف لهم العذاب» اعتراضاً. وقيل: «ما» مصدرية أي: يضاعف لهم العذاب مدة استطاعتهم وإبصارهم، والمعنى أن العذاب وتضعيفه دائم لهم متمادٍ.

و﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ خسران أنفسهم كونهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى، فخسروا في تجارتهم خسراناً لا أعظم منه. وهو على حذف مضاف

---

(١) ق: فمن.

(٢) انظر تفسير الآية ٢١ من الأنعام.

(٣) ق: مركبتهم.

أي: راحة وسعادة أنفسهم.

﴿لَا جَرَمَ﴾ مذهب الخليل وسيبويه أنّهما رُكّبا من لا، وجرم، وبُنيا، والمعنى: حقّ، وما بعده رُفع به على الفاعلية.

وقال الكسائي: معناها: لا صدّ ولا منع، فيكون اسم لا، وهي مبنيّة على الفتح.

وقال قوم إنّ «جرم» مبنيّة مع لا على الفتح نحو قولك: لا رجل، ومعناها: لا بدّ. ولا محالة، وهو شبيه بقول الكسائي، فيكون «أنّهم» على إسقاط حرف الجر إذ صار التقدير: لا بدّ من أنّ لهم النار، أي: من كينونة النار لهم.

ولمّا كان خسران النفس أعظم الخسران، حكم عليهم بأنهم هم الزائدون في الخسران على كل خاسرٍ من سواهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية، والفريقان هنا الكافر والمؤمن.

ولمّا كان تقدّم ذكر الكفّار، وأعقب بذكر المؤمنين، جاء التمثيل هنا مبتَدَأً بالكافر فقال «كالأعمى والأصم».

ويمكن أن يكون من باب تشبيه اثنين باثنين، فقوبل[1] الأعمى بالبصير، وهو طباق، وقوبل الأصمّ بالسميع، وهو طباق أيضاً.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ استفهام معناه النفي أي: لا يستويان. «مثلاً» أي: صفة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ

(١) ق: وقوبل.

إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا
نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ
وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ
عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا
كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن
يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ
أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ
ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا
فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ
ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ
ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ
ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ الآية، ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ ظاهر في أنهم كانوا يعبدون الأوثان كما جاء مصرّحاً [به] في غير هذه السورة(١). و«أن» بدل من «أنّي لكم» في قراءة من فتح، ويحتمل أن تكون [«أنْ» المفسّرة.

وأما في قراءة من كَسَر فيحتمل أن تكون المفسّرة والمراعى قبلها إمّا «أرسلنا» وإمّا «نذير مبين»، ويحتمل أن تكون] معمولة «لأرسلنا» أي: بأن لا تعبدوا إلا الله.

وذكروا في ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ أنه منصوب على الظرف، والظاهر أن العامل

(١) انظر نوح ٧١: ٢٣. وفيها أسماء أصنام عبدها قوم نوح ثم عَبَدَتْها العرب بعد ذلك.

فيه «اتّبعك» وإن كان الظرف جائياً بعد «إلاّ» والمعنى: اتبعك في بادىء رأيهم أراذلنا. وقرىء: بادىء الرأي، من بدأ يبدأ ومعناه أول الرأي. وقرىء: بادي، بالياء من بدا يبدو، ومعناه ظاهر الرأي.

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ لمّا حكى شبهتهم في إنكار نبوّته عليه السلام في[1] قولهم «ما نراك إلا بشراً مثلنا» ذكر أن المساواة في البشرية لا تمنع من حصول المفارقة في صفة النبوّة والرسالة. ثم ذكر الطريق الدالّ على إمكانه على جهة التعليق والإمكان، وهو متيقّن أنه على بيّنة من معرفة الله وتوحيده، وما يجب له وما يمتنع، لكنه أبرزه في طريق الشرط والجزاء على سبيل الفرض لهم والاستدراج [٢٧٣/ أ] للإقرار بالحق وقيام الحجّة على الخصم.

والبيّنة: البرهان والشاهد بصحّة دعواه.

و﴿ رَحۡمَةً ﴾ قال ابن عباس: الرحمة النبوة.

«فعميت» [قرىء مبنيًا للفاعل، وقرىء: فعُمّيت] مبنيًا للمفعول مع شدّ الميم. والظاهر أن الضمير عائد على البيّنة، وبذلك يحصل الذّم لهم من أنه أتى بالمعجزة الجليلة الواضحة وأنها على وضوحها واستنارتها خفيت عليهم.

﴿ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا ﴾ تعدّى لمفعولين أحدهما ضمير الخطاب والثاني ضمير الغيبة، واتّصاله أفصح، ويجوز في الكلام انفصاله فتقول: أنلزمكم إياها.

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ ﴾ الآية، تلطّف نوح صلى الله عليه وسلم بندائه إياهم بقوله «ويا قوم» و«يا قوم» استدراجاً لهم في قبول كلامه، كما

---

(١) ق: وفي.

تلطّف مؤمن آل فرعون بقوله «يا قوم» «يا قوم»[١].

والضمير في «عليه» عائد على الإنذار وإفراد الله تعالى بالعبادة المفهوم من قوله ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴿٢٦﴾﴾ [هود]. وتقدم تفسير الجمل الثلاث في الأنعام[٢].

و﴿تَزْدَرِىٓ﴾ تفتعل والدّال بدل من التاء، قال الشاعر[٣]: [من الوافر]

ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه أسد هصور

والعائد على الموصول محذوف أي: تزدريهم [أي] تستحقرهم أعينكم.

و﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ﴾ معمول لقوله «ولا أقول».

و«للذين» معناه لأجل الذين.

﴿قَدْ جَـٰدَلْتَنَا﴾ الظاهر المبالغة في الخصومة والمناظرة.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ إشارة إلى قوله ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود]. و«بما» يجوز أن تكون موصولة بمعنى الذي، وحذف العائد تقديره: بما تَعِدُناه، ويجوز أن تكون مصدرية أي: بوعدك.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ الآية، أي: ليس ذلك إليّ إنما هو لله تعالى الذي يعاقبكم على عصيانكم إن شاء فعل.

---

(١) انظر سورة المؤمن ٤٠ : ٢٩ وما بعدها.

(٢) انظر تفسير الآيتين ٩٠، ٥٢ من الأنعام.

(٣) البيت للعباس بن مرداس في شرح ديوان الحماسة ٣ : ١١٥٣، وفي تهذيب اللغة ٥ : ١١١.

ولمّا قالوا «قد جادلتنا» وطلبوا تعجيل العذاب، وكان مجادلته لهم إنما هو على سبيل النّصح والإنقاذ من عذاب الله تعالى قال «ولا ينفعكم نصحي». وهذان الشرطان اعتقب الأول منهما قوله «ولا ينفعكم نصحي» وهو دليل على جواب الشرط تقديره: إن أردت أن أنصح لكم، فلا ينفعكم نصحي، والشرط الثاني اعتقب الأول، وجوابه أيضاً ما دلّ عليه قوله «ولا ينفعكم نصحي» تقديره: إن كان الله يريد أن يغويكم فلا يمنعكم نصحي. وصار الشرط الثاني شرطاً في الأول، وصار المتقدم متأخّراً والمتأخر متقدّماً، وكان التركيب: إن أردت أن أنصح لكم، إن كان الله يريد أن يغويكم، فلا ينفعكم نصحي. وهو من حيث المعنى كالشرط إذا كان بالفاء[1] نحو: إن كان الله يريد أن يغويكم، فإن أردت أن أنصح لكم، فلا ينفعكم نصحي.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الآية، الظاهر أن الضمير في «يقولون» عائد على قوم نوح أي: بل أيقولون افتراه فيما أخبرهم به من دين الله وعقاب من أعرض عنه، [فقال] عليه السلام: «إن افتريته فعليّ إجرامي» أي: إثم إجرامي، والإجرام مصدر أجرم.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم
مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن
تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا

(١) ق: بالغاً.

قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾
وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ
ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ
ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ
رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ
لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ
مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ
لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ
وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ
ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ الآية، «فلا تبتئس» نهاه تعالى عن ابتئاسه، وهو حزنه عليهم في استكانة. وابتأس: افتعل من البؤس، ويقال: ابتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه، قال الشاعر(١): [من الطويل]

وكم من خليلٍ أو حميمٍ رُزِئْتُهُ ... فلم أبتئسْ(٢) والرُّزْءُ فيه جليلُ

﴿وَٱصْنَعِ﴾ عطف على «فلا تبتئس».

«بأعيننا» بمرأى [منّا] وكلاءة وحفظ.

---

(١) البيت في القرطبي ٩ : ٣٠ غير منسوب.

(٢) ق: فلا نبتئس.

«ووحينا» نوحي إليك ونلهمك كيف تصنع، وعن ابن عبّاس: لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله تعالى إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر[١].

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ الآية، هي حكاية حالٍ ماضية، و«الفلك» السفينة، قال ابن عباس: [٢٧٣/ب] الخشب من خشب الشمشار[٢] وهو البقص، قطعه من جبل لبنان.

وسخريتهم منه لكونهم رأوه يبني السفينة، ولم يشاهدوا قبلها سفينة بنيت. قالوا: يا نوح ما تصنع؟ قال: أبني بيتاً يمشي على الماء. فتعجّبوا من قوله، وسخروا منه، وقالوا: هذا الذي يزعم أنه نبيّ، صار نجّاراً.

و«كلما» ظرف، و«ما» مصدرية ظرفية تقديره: وكل وقت مرور سخروا منه، والناصب لكلّ «سخروا».

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد بالغ، والعذاب المخزي: الغرق، والعذاب المقيم: عذاب الآخرة لأنه دائم عليهم سرمد[٣]. و«من يأتيه» مفعول «بتعلمون» و«مَن» موصولة. وتعدّى «تعلمون» إلى واحد استعمالاً لها استعمال عرف في التعدية إلى واحد.

قال ابن عطية: وجائز أن تكون التعدية إلى مفعولين، واقتصر على الواحد انتهى.

---

(١) أي صدره.

(٢) في سائر التفاسير: من خشب السّاج، وهو شجر يعظم جدًّا. والشمشار والبقص لم أجدهما.

(٣) ق: سرور.

ولا يجوز حذف الثاني اقتصاراً، لأنّ أصله خبر مبتدأ، ولا اختصاراً هنا، لأنه لا دليل على حذفه.

و﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ هنا غاية لقوله «ويصنع الفلك»، و«يصنع» كما قلنا حكاية حال ماضية أي: وكان يصنع الفلك إلى أن جاء وقت الوعد الموعود به. والجملة من قوله «وكلما مرّ عليه» حال، كأنه قيل: ويصنعها، والحال أنه كلما[1] مرّ.

و﴿ أَمْرُنَا ﴾ واحد الأمور، أو مصدر، أي: أَمْرنا بالفَوَران، أو للسحاب بالإرسال، والملائكة بالتصرّف في ذلك.

﴿ وَفَارَ ﴾ معناه انبعث بقوة. و﴿ ٱلتَّنُّورُ ﴾ وجه الأرض، والعرب تسمّيه تنّوراً قاله ابن عباس. والتّنور: مستوقَد النار ووزنه فُعُّول عند أبي علي، وهو أعجمي وليس بمشتقّ.

وقال ثعلب: وزنه تَفْعول من النّور، وأصله تَنْوُور فهمزت الواو ثم خفّفت وشدّد الحرف الذي قبله.

وقرىء: من كلٍّ، بالتنوين، فيكون «زوجين» مفعولاً بقوله «احمل». وقرىء بغير تنوين على الإضافة، فيكون «اثنين» مفعول «احمل». و«أهلك» و«من» معطوفان على المفعول قبله.

ولمّا كان المطر ينزل كأفواه القرب، جعلت الوحوش تطلب وسط الأرض هرباً من الماء حتى اجتمعت عند السفينة، فأمر الله تعالى أن يجعل فيها من الزوجين اثنين، يعني ذكراً وأنثى، ليبقى أصل النسل بعد الطوفان. فروي أنه

---

(١) ق: كما.

كان يأتيه بعض الحيوان فيضع يمينه على الذّكر ويساره على الأنثى، وكانت السفينة ثلاث طبقات: السفلى للوحوش والوسطى للطعام والشراب والعليا له ولمن آمن معه.

﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس: ثمانون رجلاً. وعنه: ثمانون إنساناً ثلاثة من بنيه: سام وحام ويافث وثلاث كنائن له. ولمّا خرجوا من السفينة بنوا قرية تدعى اليوم قرية الثمانين بناحية الموصل.

﴿ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾ الآية، الضمير في «وقال» عائد على نوح عليه السلام: أي: وقال نوح حين أُمر بالحمل في السفينة لمن آمن معه ولمن أُمر بحمله: اركبوا[1] فيها. والظاهر أنه خطاب لمن يعقل خاصّةً، لأنه لا يليق بمن لا يعقل. وعُدّي «اركبوا» بفي لتَضَمُّنه معنى: صِيْروا فيها أو ادخلوا، والتقدير: اركبوا الماء فيها.

والباء في ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ في موضع الحال أي: متبرّكين باسم الله.

و﴿ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ منصوبان إما على أنهما ظرفا زمان أو مكان، لأنهما يجيئان لذلك، أو ظرفا زمان على جهة الحذف كما حذف من: جئتك مقدم الحاجّ أي: وقت قدوم الحاج.

ويجوز أن يكون «مجراها ومرساها» مرفوعين على الابتداء و«باسم الله» الخبر.

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ إخبار من الله بما جرى للسفينة. و«بهم» حال: أي ملتبسة بهم، والمعنى: تجري وهم فيها.

(١) ق: اركبوها.

﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أي: في موج الطوفان، شبّه كلّ موجة منه بجبل في تراكمها وارتفاعها. وقوله «في موج» يدلّ على أنّ الموج[1] كان ظرفاً لهم وهم [٢٧٤/ أ] مظروفون فيه، وكانت السفينة تسبح بهم في الماء كالسمكة.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ الآية، الواو لا ترتّب، وهذا النداء كان قبل جَرْي السفينة في قوله «وهي تجري بهم». وفي إضافته إليه هنا وفي قوله «إنّ ابني من أهلي» وندائه دليل على أنه ابنه لصلبه، قاله ابن عباس. والضمير في «كان» عائد على ابنه. وأدغم بعض القراء الباء في الميم من «اركب معنا» لاشتراكهما في أنهما من حروف الشّفة، ولذلك أبدلت في قول بعضهم: با اسمك؟ يريدون: ما اسمك؟. ونداؤه بالتصغير خطاب تحنّن ورأفة. والمعنى: اركب معنا في السفينة فتنجو «ولا تكن مع الكافرين» فتهلك.

وظنّ ابن نوح أنّ ذلك المطر والتفجّر على العادة ولذلك قال «سآوي إلى جبل يعصمني» أي: من وصول الماء إليّ فلا أغرق. وهذا يدل على تماديه في الكفر وعدم وثوقه بأبيه فيما أخبر. قيل: والجبل الذي عناه طورزيتا[2] فلم يمنعه.

والظاهر إبقاء «عاصم» على حقيقته وأنه نفى كلّ عاصم من أمر الله في ذلك الوقت وأن «من رحم» يقع فيه مَنٌّ على المعصوم. والضمير الفاعل يعود على الله تعالى وضمير[3] الموصول محذوف ويكون الاستثناء منقطعاً أي: لكن من رحمه الله معصوم.

---

(١) ق: الموضع.

(٢) علم مرتجل لجبل يقع شرقي وادي سلوان، انظر معجم البلدان «طورزيتا». وقيل إن الجبل الذي آوى إليه طور سيناء، انظر القرطبي ٩: ٤٠.

(٣) ق: والضمير.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ أي: بينه وبين نوح عليه السلام. قيل: كانا يتراجعان الكلام فما استتمّت المراجعة حتى جاءت موجة عظيمة وكان راكباً على فرس وقد بطر وأُعجب بنفسه فالتقمَتْه وفرسه، وحيل بينه وبين نوح فغرق.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ الآية، في هذه الآية أحد وعشرون نوعاً من البديع: المناسبة في قوله «أقلعي» و«ابلعي»، والمطابقة بذكر الأرض والسماء، والمجاز في قوله «يا سماء» والمراد مطر السماء، والاستعارة في قوله «أقلعي»، والإشارة في قوله «وغيض الماء» فإنها إشارة إلى معانٍ كثيرة، والتمثيل في قوله «وقضي الأمر» عبّر بإهلاك الهالكين ونجاة النّاجين بلفظة[1] فيها بُعد عن لفظه الموضوع له، والإرداف في قوله «واستوت على الجودي» فقوله «استوت» كلام تام و«على الجودي» مُردَف قصداً للمبالغة في التمكّن بهذا المكان، والتعليل في قوله «وغيض الماء» فإنّ ذلك علّة الاستواء، وصحة التقسيم باستيعاب أقسام الماء في حالة نقصه إذ ليس إلّا احتباس ماء السماء واحتقان ماء الأرض وغَيْضُ الماء حاصل على ظهرها، والاحتراس في قوله «وقيل بعداً للقوم الظالمين» وهو أيضاً ذمّ لهم ودعاء عليهم، والإيضاح بقوله «الظالمين» بيّن أنّهم هم القوم الذين سبق ذكرهم في قوله ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ ﴿٣٨﴾﴾ [هود] فالألف واللام في «القوم» للعهد، ولو سقط لفظة «القوم» هنا حصل لبس في المعنى، والمساواة فلفظها مساوٍ لمعناها، وحُسْن النّسق لعطف[2] قضايا بعضها على بعض، والإيجاز لذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمّة،

(١) ق: وبلفظة.

(٢) ق: العطف.

والتّسهيم لأن أوّل الآية «يا أرض ابلعي» فاقتضى آخرها «ويا سماء أقلعي»، والتهذيب لأن مفردات الألفاظ موصوفة بكمال الحُسن، كلّ لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة، وحُسْن البيان والتمكين، لأن الفاصلة مستقرّة في قرارها، والتجنيس في قوله «أقلعي» و«ابلعي»، والمقابلة في قوله «يا أرض ابلعي» و«يا سماء أقلعي»، والذّم في قوله «بعداً للقوم الظالمين»، والوصف: قصّ القصّة ووصفها بأحسن وصف بحيث استعمل نعوت ألفاظها وصفات معانيها. فما أعظم إعجازها من آيةٍ عدّة ألفاظها تسع عشرة لفظة فيها أحد وعشرون نوعاً من البديع.

و﴿ٱلْجُودِيِّ﴾ اسم جبل(١). وهذا النداء والخطاب بالأمر هو استعارة مجازية وعلى هذا جمهور الحُذّاق، وقيل إن الله تعالى أحدث فيهما إدراكاً وفهماً [٢٧٤/ب] لمعاني الخطاب. رُوي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال: هذا كلام القادرين!.

ومعنى ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ أراد أن يناديه، ولذلك أدخل الفاء؛ إذ لو أراد حقيقة النداء والإخبار عن وقوعه منه، لم يدخل الفاء في «فقال» ولسقطت. والواو في هذه الجملة لا ترتّب أيضاً، وذلك أن هذه القصّة كانت أول ما ركب نوح السفينة.

ومعنى: ﴿مِنْ أَهْلِى﴾ أي: الذين أُمرت أن أحملهم في السفينة بقوله تعالى ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴿٤٠﴾﴾ [هود] ولم يظنّ أنه داخل فيمن استثناه الله تعالى بقوله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ ﴿٤٠﴾﴾ [هود] لِظنّه أنه مؤمن.

وعموم قوله «ومن آمن» يشمل المؤمن من أهله وغيرهم. وحسن الخطاب

(١) جبل بقرب الموصل. انظر معجم البلدان «الجودي».

بقوله «وإنّ وعدك الحق».

ومعنى ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ على قول من قال إنه ابنه لصلبه، أي: الناجين أو الذين عمّهم الوعد. ومن زعم أنه ربيبه فهو ليس من أهله حقيقةً، إذ لا نسبة بينه وبينه بولادة. فعلى هذا نفى ما قَدَّر أنه داخل في قوله «وأهلك» ثم علّل انتفاء كونه ليس من أهله بأنه «عملٌ غير صالح». والضمير في «إنه» عائد على ابن نوح.

وقرىء: عملٌ، منوّناً «غيرُ» رفعاً صفة له، فاحتمل قوله «إنه» أن[1] يكون على حذف مضاف تقديره: أي: إنّ عَمَلَه غيرُ صالح، أو يكون الحذف في «عمل» تقديره: إنه ذو عمل غير صالح، أو جعله نفس العمل مبالغة في ذمّه.

[وقرىء]: عَمِلَ، فعلاً ماضياً و«غيرَ» منصوب به.

ومعنى قوله ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: إذا وعدتك، فاعلم يقيناً أنه لا خُلْفَ في الوعد، فإذا رأيت ولدك لم يُحمل، فكان عليك أن تقف وتعلم أن ذلك بحقّ واجب عند الله تعالى. ولكنّ نوحاً عليه السلام حملته شفقة النبوّة وسجيّة البشر على التعرض لنفحات الرحمة والتذكير، وعلى هذا القدر وقع عتابه ولذلك جاء بترفّق في قوله «إني أعظك أن تكون من الجاهلين».

﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾ في المستقبل ما لا علم لي بصحّته، تأديباً بأدبك واتّعاظاً بموعظتك.

(١) ق: إذ.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ الآية، القائل هو الله تعالى لقوله [«منّا»] و«سنمتّعهم». أُمر عند نزوله بالهبوط من السفينة أو من الجبل مع أصحابه للانتشار في الأرض. والباء للحال أي: مصحوباً بسلامة وأمن.

﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ هي الخيرات النامية في كل الجهات. والظاهر أنّ «مِن» لابتداء الغاية، أي: ناشئة من الذين معك وهم الأمم المؤمنون إلى آخر الدهر. ويجوز أن يكون «أمم» مبتدأ محذوف الصّفة، وهي المسوّغة لجواز الابتداء بالنكرة، والتقدير: وأممٌ منهم، أي: ممّن معك أي: ناشئة معك. ويجوز أن يكون مبتدأ، ولا يقدّر صفة، والخبر «سنمتّعهم» في التقديرين، ومسوّغ الابتداء كون المكان مكان تفصيل. ويدلّ على أن الممتَّعين تقع منهم معاصٍ فلذلك قال ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية، «تلك» الإشارة إلى قصة نوح، وتلك: إشارة[1] للبعيد لأنّ بين هذه القصّة والرسول عليه السلام مُدداً لا تُحصى. و«من أنباء الغيب» مِن للتّبعيض، وهو الذي تقادم عهده، ولم يبق عِلْمه إلا عند الله تعالى.

و﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾ لتكون لك هداية وأسوة فيما لقيه غيرك من الأنبياء، ولم يكن علمها عندك ولا عند قومك، وأعلمناهم بها لتكون لهم مثالاً وتحذيراً أن يصيبهم إذا كذّبوك ما أصاب أولئك. وَلِلَحْظِ هذا المعنى ظهرت فصاحة قوله «فاصبر» أي: فاصبر على أذاهم مجتهداً في التبليغ عن الله تعالى، فالعاقبة لك كما كانت لنوحٍ عليه السلام في هذه القصة.

ومعنى «ما كنت تعلمها» أي: مفصّلة كما سردناها عليك، وعِلْمُ

---

(١) ق: الإشارة.

[٢٧٥/أ] الطوفان كان معلوماً عند العالم على سبيل الإجمال. والجملة من قوله «ما كنت تعلمها» في موضع الحال من مفعول «نوحيها» أو من[1] مجرور «إليك».

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ
أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى
فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ
مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾
إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى
وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟
فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟
أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟
رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ الآية، «وإلى عاد» معطوف على قوله ﴿ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [هود] عطفت الواو والمجرور على المجرور والمنصوب على المنصوب.

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ قال الحسن: في جعلكم الإلهيّة لغير الله تعالى.

---

(١) ق: ومن.

﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: بحجّة واضحة تدلّ على صدقك. وقد كذبوا في [ذلك] وبهتوه. و«عن» في قوله «عن قولك» حال من الضمير في «تاركي آلهتنا» كأنه قيل: صادرين عن قولك.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ نسبوا ما صدر منه[1] من دعائهم إلى الله تعالى وإفراده بالإلهيّة إلى الخبل والجنون، وأن ذلك ممّا اعتراه به بعض آلهتهم لكونه سبّها وحرّض على تركها ودعا إلى ترك عبادتها. و«اعتراك» جملة محكيّة «بنقول» فهي في موضع المفعول، ودلّت على بَلَهٍ حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ الآية، وصف قدرة الله تعالى وعِظَم ملكه من كون كلّ دابة في قبضته وملكه وتحت قهره وسلطانه. فأنتم من جملة أولئك المقهورين.

وقوله ﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ تمثيل؛ إذ كان المالك القادر يقود المقدور عليه بناصيته كما يُقاد الأسير والفرس بناصيته حتى صار الأخذ بالناصية عُرفاً في القدرة على الحيوان. وكانت العرب تجزّ ناصية الأسير الممنون عليه، علامة أنه قُدر عليه وقُبض على ناصيته.

والظاهر أن الضمير في «تولّوا» عائد على قوم هود، وخطابه لهم من تمام الجمل المقولة قبلُ. و«تَولّوا» أصله تتولّوا، حُذفت التاء الثانية فصار تَولّوا. وجواب الشرط قوله «قد أبلغتكم» وصحّ أن يكون جواباً، لأنّ في إبلاغه إليهم رسالته تَضَمُّنَ ما يحلّ بهم من العذاب المستأصِل، فكأنه قيل: فإن تتولّوا استؤصلتم بالعذاب، ويدل على ذلك الجملة الخبرية وهي قوله «ويستخلف ربي قوماً غيركم».

---

(١) ق: منهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ الآية، قيل: كانوا أربعة آلاف وقيل ثلاثة آلاف. والظاهر تعلُّق «برحمةٍ منّا» بقوله «نجّينا» أي: نجّيناهم بمجرد رحمة من الله، لحقتهم، لا بأعمالهم الصالحة.

وقال الزمخشري[(١)]: فإن قلت: ما معنى تكرير التّنجية؟ قلت: ذكر أوّلاً أنه حين أهلك عدوّهم نجّاهم ثم قال «ونجّيناهم من عذاب غليظ» على معنى: وكانت التّنجية من عذاب غليظ. قال: وذلك أن الله تعالى بعث عليهم السّموم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أدبارهم وتقطّعهم عضواً عضواً.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ إشارة إلى قبورهم وآثارهم، كأنه قيل: سيحوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا. ثم استأنف الإخبار عنهم فقال «جحدوا بآيات ربهم»[(٢)] أي: أنكروها. وأضاف الآيات إلى «ربّهم» تنبيهاً على أنه مالكهم ومربّيهم[(٣)]، فأنكروا آياته، والواجب إقرارهم بها. وأصل جَحَد أن يتعدّى بنفسه، لكنه أجري مجرى كَفَر، فعُدّي بالباء كما عُدّي كَفَر بنفسه.

﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ﴾ قيل: عَصَوْا هوداً والرسل الذين كانوا من قبله، وقيل: يُنزَّل تكذيب الرسول الواحد منزلة تكذيب الرّسل لأنهم كلهم مجمعون على الإيمان بالله والإقرار بربوبيّته لقوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة].

﴿وَٱتَّبَعُوٓا﴾ أي: اتّبع سقاطهم أمر رؤسائهم وكبرائهم، والمعنى أنهم

---

(١) الكشاف ٢: ٢٧٧.

(٢) ق: جحدوا بها أي: بآيات ربهم.

(٣) ق: أو مربّيهم.

أطاعوهم فيما أمروهم به.

﴿وَأُتْبِعُوا﴾[1] عامّ في المتّبعين والمتبوعين. وانتصب «بعداً» على أنه مصدر بمعنى الدعاء كأنه قيل: أبعدهم الله بعداً، ومعناه الدعاء بالهلاك.

و«قوم هود» بدل من «عاد»[2] وإنما خصّهم بالذكر لأنّ ثَمَّ عاداً أخرى [٢٧٥/ب] وهم المشار إليهم بقوله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [النجم]. وهم عاد إرم.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ﴾ الآية، «هو أنشأكم» اخترعكم «من الأرض» أي: باختراعه آدم صلى الله عليه وسلم أصلهم، فكان إنشاء الأصل إنشاء

---

(١) ق: واتبعناهم.

(٢) ق: هاد.

للفرع.

﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ جعلكم عُمّاراً، وقيل: «استعمركم» من العُمر، أي: استبقاكم فيها.

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ﴾ أي: داني الرحمة. «مجيب» لمن دعاه.

﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾ قال كعب: كانوا يرجونه للمملكة بعد مَلِكهم، لأنه كان ذا حسب وثروة. وعن ابن عباس: كان فاضلاً خيّراً، نقدّمك على جميعنا. والإشارة «بهذا» إلى الأمر بعبادة الله تعالى وإفراده[1] بها.

و«ما يعبد آباؤنا» حكاية حال ماضية.

وفي[2] «إنّنا» لغتان لقريش، قال الفرّاء: من قال: إنّنا، أخرج الحرف على أصله، لأن كناية المتكلمين: نا، فاجتمعت ثلاث نونات. ومن قال: إنّا، استثقل اجتماعها، فأسقط الثالثة، وأبقى الأوليين.

والذي أختاره أنّ نا ضمير المتكلمين لا تكون المحذوفة لأنّ في حذفها حذف بعض اسم وهي منه حرف ساكن، وإنّما المحذوفة النون الثانية من إنّ فحذفت لاجتماع الأمثال، وبقي من الحرف الهمزة والنون الساكنة بعدُ، هذا أولى من حذف ما بقي منه حرف[3].

وأيضاً فقد عُهد حذف هذه النون مع غير ضمير المتكلّمين، ولم يُعهد حذف نون نا، فكان حذفها من إنّ أولى.

---

(١) ق: وأفرده.

(٢) ق: وإننا.

(٣) ق: حذف.

و«مريب» اسم فاعل من متعدٍّ، أرابه: أوقعه في الرّيبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمأنينة[١]، أو من لازم: أراب الرجلُ: إذا كان ذا ريبة. وأسند ذلك إلى الشكّ إسناداً مجازيًّا. ووجود مثل هذا الشّك كوجود التصميم[٢] على الكفر.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ الآية، تقدّم الكلام على «أرأيتم» في قصة نوح عليه السلام[٣].

«غير تخسير» غير أن أخسركم أي: أنسبكم إلى الخسران وأقول إنكم خاسرون. فَفَعل هذا للنّسبة كفسّقته وفجّرته أي: نسبتُه إلى الفسق والفجور.

قال الزمخشري[٤]: فإن قلت: فبم يتعلّق «لكم»؟. قلت: «بآية» حالاً منها متقدّمة، لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها، فلمّا تقدّمت انتصبت على الحال انتهى.

هذا متناقض لأنه من حيث تعلُّق «لكم» «بآية» كان «لكم» معمولاً «لآية»، وإذا كان معمولاً لها امتنع أن يكون حالاً منها، لأن الحال يتعلّق بمحذوف فيتناقض هذا الكلام؛ لأنه من حيث كونه معمولاً لها كانت هي العاملة، ومن يث كونه حالاً منها كان العامل غيرها.

ومعنى: «تمتعوا» استمتعوا بالعيش. «في داركم» [في بلدكم] وتسمى البلاد الديار.

(١) ق: وانتفاء هي الطمأنينة.
(٢) ق: التعميم.
(٣) انظر تفسير الآية ٢٨ من السورة.
(٤) الكشاف ٢: ٢٧٩.

«ذلك» أي: الوعد بالعذاب. «غير مكذوب» أي: صدق حق، والأصل: غير مكذوب فيه، فاتّسع فيه بحرف الجر، وأجرى الضمير مجرى المفعول به.

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا ﴾ الكلام في «جاء أمرنا» كالكلام السابق في قصة هود[1]. و«مِن» تعلّق بمحذوف أي: ونجيّناهم من خزي، أي: وكانت التّنجية[2] من خزي يومئذ. وقرىء: ومن خزيٍ، بالتنوين ونَصْب «يومَئذ» على الظرف معمولاً لِخزْي. وقرىء بالإضافة وفتح الميم. والتنوين في «إذ» تنوين عوض من الجملة المحذوفة المتقدمة الذكر أي: ومن فضيحة يوم إذ جاء الأمر وحلّ بهم.

وقال الزمخشري[3]: ويجوز أن يريد «بيومئذ» يوم القيامة، كما فسّر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة[4] انتهى.

وهذا ليس بجيّد لأن التنوين في إذ تنوين العوض، ولم يتقدم إلا قوله «فلما جاء أمرنا» ولم تتقدم جملة فيها ذكر يوم القيامة ولا ما يكون فيها، فيكون هذا التنوين عوضاً من الجملة التي تكون في يوم القيامة. وناسب مجيء الأمر وَصْفه تعالى بالقوي العزيز فإنهما من [٢٧٦/ أ] صفات الغلبة والقهر والانتقام. والجملة التي من بعد هذا تقدّم الكلام عليها في الأعراف[5].

---

(١) انظر تفسير الآية ٥٨ من السورة.

(٢) ق: النتيجة.

(٣) الكشاف ٢: ٢٧٩.

(٤) انظر أيضاً ٢: ٢٧٧.

(٥) انظر تفسير الآية ٩٢ من الأعراف.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ ﴾ الآيات، أدرج شيئاً من أخبار إبراهيم عليه السلام بين قصّة صالح ولوط لأنّ له مدخلاً في قصة لوط. وكان إبراهيم ابن خالة لوط. والرّسل هنا الملائكة، بشّرت إبراهيم عليه السّلام بثلاث بشائر: بالولد وبالخلة وبإنجاء لوط ومن آمن معه، قيل: كانوا اثني عشر ملكاً قاله ابن عباس.

وانتصب «سلاماً» على إضمار الفعل أي: سلّمنا عليك سلاماً، «فسلاماً» قَطَعه[1] [معمولاً] للفعل المضمر المحكيّ بـ«قالوا».

و«سلام» خبر مبتدأ محذوف أي: أمري وأمركم سلام، أو مبتدأ محذوف الخبر أي: عليكم سلام، والجملة محكية وإن كان حُذف منها أحد جزأيها.

﴿ فَمَا لَبِثَ ﴾ «ما» نافية، و«لبث» معناه تأخّر وأبطأ و«أن جاء» فاعل بلبث، التقدير: فما تأخّر مجيئُه. ويجوز أن يكون في «لبث» ضمير إبراهيم، فهو فاعل وإن جاء على إسقاط الحرف، فقدّر بأن وبعن وبفي. وهذا من أدب

---

(١) ق: قطعة.

الضيافة وهو تعجيل القِرى، وكان مال إبراهيم البقر فقدّم أحسن ما فيه وهو العجل.

ومعنى «حنيذ» أي: مشوي.

﴿لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى أكله. «نكرهم» أي: أنكرهم، قال الشاعر[١]:

وأنكرَتْني وما كان الذي نَكِرَتْ من الحوادث إلا الشّيبَ والصّلعا

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قال الحسن: حدّث به نفسه. والظاهر [أنه لم يعرف] أنهم ملائكة لمجيئهم في صورة البشر، وكان مشغوفاً بإكرام الضيف فلذلك جاؤوا في صورهم. وإنما عرف أنهم ملائكة بقولهم «لا تخف إنّا أُرسلنا إلى قوم لوط».

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ وهي سارة بنت هاران بن ناحور[٢] وهي ابنة عمّه.

«قائمة» أي: لخدمة الأضياف. وكان نساؤهم لا يحتجبن كعادة [العرب] ونازلة البوادي والصحراء، ولم يكن التّبرج مكروهاً عندهم، وكانت عجوزاً، وخدمة الضيفان مما تُعدّ من مكارم الأخلاق.

﴿فَضَحِكَتْ﴾ قال مجاهد: حاضت. وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، فقيل: هو مجاز معبَّرٌ به عن طلاقة الوجه وسروره بنجاة أخيها وهلاك قومه.

---

(١) البيت للأعشى في ديوانه ص١٣٧. وهو من البسيط

(٢) وقع في الاسم اختلاف، انظر مثلاً تفسير الرازي ١٨ : ٢٦.

﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا﴾ هذا موافق لقوله ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [هود]. والمعنى: فبشّرناها على لسان رسلنا، بشّرتها الملائكة بإسحاق، وبأنّ إسحاق سيلد يعقوب.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ الألف بدل من ياء الإضافة. و«يا ويلتا» كلمة تخفّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه. واستفهمت بقولها «أألد» استفهام إنكار وتعجّب. «وأنا عجوز» وما بعده، جملتا حال.

وانتصب «شيخاً» على الحال. والإشارة «بهذا» إلى «بعلي» تعجيب من حدوث ولد بين شيخين هرمين، واستغربت ذلك من حيث العادة لا إنكاراً لقدرة الله تعالى.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الملائكة. «أتعجبين» استفهام إنكار لعجبها.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ أي: الخيفة التي كان أوجسها في نفسه حين نكر أضيافه، والمعنى: اطمأن قلبه بعلمه أنهم ملائكة.

و«البشرى» تبشيره بالولد، أو أن المراد بمجيئهم غيره. وجواب «لمّا» محذوف تقديره: اجترأ[١] على الخطاب، ودلّ على ذلك الجملة المستأنفة وهي «يجادلنا».

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ أي: قالت الملائكة. والإشارة «بهذا» إلى الجدال والمحاورة في شيء مفروغ منه، والأمر ما قضاه وحكم به من عذابه الواقع[٢] بهم لا محالة.

(١) ق: اجتراء.

(٢) ق: أي الواقع.

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ
عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ
هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ
رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى
بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ
أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا
عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ
رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ ﴾ الآية، خرجت الملائكة من قرية [٢٧٦/ب] إبراهيم عليه السلام إلى قرية لوط عليه السلام وبينهما ثمانية أميال، وقيل: أربعة فراسخ، فأتوها عشاءً، وقيل: نصف النّهار، ووجدوا لوطاً عليه السلام في حرثٍ له، وقيل: وجدوا ابنته تسقي ماءً في نهر سدوم وهي أكبر حواضر قوم لوط. فسألوها الدلالة على من يضيّفهم، ورأت هيئتهم، فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم. وذهبت إلى أبيها، فأخبرته، فخرج إليهم، فقالوا: إنّا نريد أن تضيفنا الليلة. فقال لهم: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أشهد بالله إنهم شرّ قوم في الأرض. وقد كان الله تعالى [قال] للملائكة: لا تعذّبوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات. فلما قال هذه قال جبريل عليه السلام: هذه واحدة، وتردّد القول بينهم حتى كرّر لوط الشهادة أربع مرّات. ثم دخل لوط المدينة، فحينئذ سيء بهم أي: لحقه سوء بسببهم وضاق ذَرْعه.

﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ أي: شديد لما كان يتخوّفه من تعدّي قومه على أضيافه.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ لما جاء لوط[1] بضيفه لم يعلم بذلك أحد إلا أهل بيته. فخرجت امرأته حتى أتت مجالس قومها، فقالت: إنّ لوطاً أضاف الليلة قوماً ما رُئي مثلهم جمالاً وكذا وكذا، فحينئذ جاؤوا يهرعون أي: يسرعون كأنما يُدفعون دفعاً فِعْلَ الطّامع الخائف فَوْتَ ما يطلبه.

﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ أي: كان ذلك ديدنهم وعادتهم، أصرّوا على ذلك ومرنوا عليه، فليس ذلك بأول إنشاء هذه المعصية، جاؤوا يهرعون إليه، لا يكفّهم حياء لضراوتهم عليها.

والتقدير في «ومن قبل» أي: من قبل مجيئهم إلى هؤلاء الأضياف وطلبهم إياهم.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ [الأحسن أن تكون الإضافة مجازية أي: بنات قومي أي: البنات أطهر لكم، إذ النّبي يُنزّل منزلة الأب لقومه. وقرىء: أطهرَ، على الحال فقيل «هؤلاء» مبتدأ و«بناتي هنّ» مبتدأ وخبر. وقيل «هؤلاء بناتي»] مبتدأ وخبر، و«هن» مبتدأ و«لكم» خبره. قيل: والعامل المضمر، وقيل: «لكم» بما فيه من معنى الاستقرار. وقيل «هؤلاء بناتي» مبتدأ وخبر، و«هنّ» فصل، و«أطهر» حال.

ورُدَّ بأن الفصل لا يقع إلا بين جزأي الجملة، ولا يقع بين الحال وذي الحال. وقد أجاز ذلك بعضهم وادّعى السماع فيه عن العرب لكنه قليل.

---

(١) ق: إبراهيم.

﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ قال ذلك على سبيل التفجّع. وجواب «لو» محذوف تقديره: لفعلت بكم وصنعت. والظاهر أنّ «أو» عطف جملة فعلية [على جملة فعلية][1].

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ الآية، روي أن لوطاً عليه السّلام غلبوه وهمّوا بكسر الباب وهو يمسكه، قال له الرّسل: تنحَّ عن الباب. فتنحّى فانفتح الباب، فضربهم جبريل عليه السلام بجناحه فطمس أعينهم فَعَمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون: النّجاء النّجاء، فعند لوط قوم سحرة. وتوعّدوا لوطاً، فحينئذ قالوا له «إنّا رسل ربك» الآية.

والجملة من قوله «لن يصلوا إليك» موضّحة للذي قبلها؛ لأنهم إذا كانوا رسل الله لن يصلوا إليه ولم يقدروا على ضرره. ثم أمروه بأن يسري بأهله.

وقرىء: فأسْرِ، بالوصل وبالهمز. «بقطع من الليل» قال ابن عباس: بطائفة من الليل. وقرىء: إلاّ امرأتك، بالنصب وهو استثناء من «فَأَسْرِ بأهلك»، وبالرفع بدل من قوله «أحد».

قال الزمخشري[2]: وفي إخراجها مع أهله روايتان: روي أنه أخرجها معهم، وأُمر أن لا يلتفت منهم أحد إلاّ هي، فلمّا سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت: يا قوماه! فأدركها حجر فقتلها.

وروي أنه أُمر بأن يخلفها مع قومها، فإنّ هواها إليهم، ولم يَسْرِ بها.

واختلاف القراءتين لاختلاف الروايتين.انتهى.

---

(١) انظر بيان ذلك في البحر ٥: ٢٤٧.

(٢) الكشاف ٢: ٢٨٤.

وهذا وهم فاحش، إذ بنى القراءتين على اختلاف الروايتين من أنه سرى بها أو[1] أنه لم يَسْرِ بها، وهذا [٢٧٧/أ] تكاذب في الأخبار. يستحيل أن تكون القراءتان وهما من كلام الله تعالى تترتّبان على التكاذب.

والضمير في «إنّه» ضمير الشأن. و«مصيبها» مبتدأ. و«ما أصابهم» الخبر.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي: موعد هلاكهم الصبح. [وجعل الصبح] ميقاتاً لهلاكهم لأن النفوس فيه أودع والراحة فيه أجمع.

ويروى أنّ لوطاً عليه السلام خرج بابنتيه، ليس معه غيرهما، عند طلوع الفجر، وطوى الله تعالى له الأرض في وقته حتى نجا، ووصل إلى إبراهيم عليه السلام.

والضمير في «عليهـا» عائد على مدائن قوم لوط؛ جعل جبريل عليه السلام جناحه في أسفلها ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبهم عليهم وأُتبعوا الحجارة من فوقهم وهي المؤتفكات سبع مدائن، وقيل خمس عدّها المفسّرون[2]، وفي ضبطها إشكال.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي: على أهلها. وروي أن الحجارة أصابت منهم من كان خارج مدنهم، حتى قتلتهم أجمعين، وأنّ رجلاً كان في الحرم، فبقي الحجر معلّقاً في الهواء حتى خرج من الحرم فقتله.

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ

---

(١) ق: لو.

(٢) وهي سدوم، وعامورا، ودادوما، وضعوه، وقتم. وانظر القرطبي ٩: ٨١.

وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا
تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ
أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ
إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى
وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا
ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا
قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ
وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا
رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ
ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ الآية، كان قوم شعيب عبدة الأوثان، فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وبالكفر استوجبوا العذاب. ولم يعذّب الله أمّة عذاب استئصال إلا بالكفر، وإن انضافت إلى ذلك معصية، كانت تابعة.

قال ابن عباس: «بخير» أي: في رخص الأسعار.

«يوم محيط» أي: مهلك، من قوله ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف]. وأصله من إحاطة العدوّ، وهو العذاب الذي حلّ بهم في آخر[1]. وَوَصْفُ اليوم بالإحاطة أبلغ من وصف العذاب به، لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه، فقد اجتمع للمعذَّب ما اشتمل عليه منه، كما إذا أحاط بنعيمه.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ﴾ الآية، لمّا أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى، وترك عبادة الأوثان، وإيفاء المكيال والميزان، ردّوا عليه على سبيل الاستهزاء والهُزء بقولهم «أصلواتك». وكان كثير الصلاة، وكان إذا صلّى تغامزوا وتضاحكوا.

﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ مقابل لقوله ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴿٨٤﴾﴾ [هود]. ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ مقابل لقوله ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴿٨٤﴾﴾ [هود]. وكون الصلاة آمرة، هو على وجه المجاز، كما كانت ناهية في قوله ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت] أو يقال إنها تأمر بالجميل والمعروف أي: تدعو إليه وتبعث عليه. إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطَّنز[2]، وجعلوا الصلاة آمرةً على سبيل التهكّم بصلاته. والمعنى: تأمرك بتكليفنا أن نترك، فحذف المضاف لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره.

والظاهر أنه أراد بالصلاة الصلاة المعهودة في تلك الشريعة.

﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ظاهره أنه إخبار منهم على سبيل الاستهزاء

---

(١) ق: أخذ.

(٢) حاشية ق: الطنز: السخرية.

والتهكّم.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ هذه مراجعة لطيفة واستنزال حسن واستدعاء برفق، ولذلك قال فيه رسول الله ﷺ[١] «ذلك خطيب الأنبياء». وهذا النوع يسمّى استدراج المخاطب عند أرباب علم البيان. وهو نوع لطيف غريب المعنى والمغزى، يُتوسّل به إلى بلوغ الغرض.

قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: أين جواب «أرأيتم» وما له لم يثبت كما أثبت في قصة نوح وصالح[٣]؟ قلت: جوابه: محذوف، وإنما لم يثبت، لأن إثباته في القصّتين دلّ على مكانه[٤]. ومعنى الكلام: ينادى عليه. والمعنى: أخبروني إن كنت على حجّة واضحة ويقين من ربي، وكنت نبيًّا على الحقيقة، أيصحّ لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصي، والأنبياء [٢٧٧/ ب] لا يُبعثون إلا لذلك[٥]؟ انتهى.

وتسمية هذا جواباً لـ«أرأيتم» ليس بالمصطلح، بل هذه الجملة التي قدّرها هي في موضع المفعول الثاني لـ«أرأيتم»، لأن «أرأيتم» إذا ضُمّنت معنى: أخبِرْني، تعدّت لمفعولين، والغالب في الثاني أن يكون جملة استفهامية، ينعقد منها ومن المفعول الأول، في الأصل، جملة ابتدائية كقول العرب: أرأيتك زيداً ما صنع؟.

---

(١) نسب في البداية والنهاية ١: ١٨٥ إلى رسول الله ﷺ تارة، ونسب إلى بعض السلف أخرى.

(٢) الكشاف ٢: ٢٨٧.

(٣) انظر الآيتين ٢٨، ٦٣ من السورة.

(٤) ق: في الصّفتين دلّ على كلامه.

(٥) ق: كذلك.

قال ابن عطية: وجواب الشرط الذي في قوله «إن كنت على بيّنة» محذوف تقديره: أأضلّ[1] كما ضللتم أو: أترك تبليغ الرسالة، ونحو هذا ممّا يليق بهذه المحاجّة انتهى.

وليس قوله: أضلّ جواباً للشرط، لأنه إذا كان مثبتاً، فلا يمكن أن يكون جواباً، لأنه لا يترتّب على الشرط، وإن كان استفهاماً حَذْفُ الهمزة منه[2]، فهو في موضع المفعول الثاني «لأرأيتم» وجواب الشرط محذوف يدلّ عليه الجملة السابقة مع متعلّقها.

قال الزمخشري[3]: «ما استطعت» يجوز في «ما» وجوه: أحدها أن تكون بدلاً من «الإصلاح» أي: المقدار[4] الذي استطعته، أو على حذف مضاف تقديره: إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت، فهذان وجهان في البدل. والثالث أن يكون مفعولاً كقوله[5]: [من المتقارب]

ضعيف النكاية أعداءه [يخال الفرار يراخي الأجل]

أي: ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم انتهى.

وهذا الثالث ضعيف، لأن المصدر المعرّف بأل، لا يجوز إعماله في المفعول به عند الكوفيين، وأما البصريون فإعماله عندهم فيه قليل.

---

(١) ق: أضلُّ.

(٢) ق: منه الهمزة.

(٣) الكشاف ٢: ٢٨٧. ونقل المصنف عبارة الزمخشري متصرّفاً فيها.

(٤) ق: المقدر.

(٥) من شواهد شرح ابن عقيل ٢: ٩٥.

ومعنى «لا يجرمنكم» يكسبنّكم[(١)]. «شقاقي» أي: خلافي[(٢)] وعداوتي. و«شقاقي» فاعل «يجرمنكم». و«أن يصيبكم» مفعول ثانٍ لـ«يجرمنكم». و«مثل» مرفوع به.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ إما في الزّمان، لقرب عهد هلاكهم من عهدكم، إذ هم أقرب الهالكين، [وإما في الكفر والمعاصي وما يستحق به الهلاك].

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ﴾ الآية، كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبة عنه وكراهة له، أو قالوا ذلك على وجه الاستهانة به.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ احترموه لرهطه، إذ كانوا كفاراً مثلهم، أو كان في عزة ومنعة منهم.

﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ ظاهره القتل بالحجارة وهي شر القتلات.

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: بذي منعة علينا.

والظاهر في قوله ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أن الضمير عائد على الله تعالى أي: ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر، لا يُعبأ به. والظّهري بكسر الظاء: منسوب إلى الظّهر من تغييرات النسب، ونظيره قولهم في النسب إلى أمس: إمسي بكسر الهمزة.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا﴾ تقدم تفسير نظيره[(٣)].

(١) ق: يلبسنكم.
(٢) ق: في خلافي.
(٣) انظر تفسير الآية ١٣٥ من الأنعام.

قال الزمخشري[١]: فإن قلت: قد ذكر عملهم[٢] على مكانتهم وعمله على مكانته، ثم أتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان القياس أن يقول: من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق، حتى ينصرف «من يأتيه عذاب يخزيه» إلى الجاحدين. ومن هو صادق، إلى النبي المبعوث إليهم. قلت: القياس ما ذكرت. ولكنهم [لمّا] كانوا يعدّونه كاذباً قال «ومن هو كاذب» يعني في زعمكم ودعواكم تجهيلاً لهم انتهى.

وفي ألفاظ هذا الرجل سوء أدب، والذي قاله ليس بقياس لأنّ التهديد الذي وقع ليس بالنّسبة إليه ولا هو داخل في التهديد المراد بقوله «سوف تعلمون» إذ لم يأت التركيب: اعملوا على مكانتكم وأعمل على مكانتي ولسوف تعلمون وأعلم، وإنما التهديد مختصّ بهم.

واستسلف الزمخشري قوله: قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته، فبنى على ذلك سؤالاً فاسداً لأن المترتّب على ما ليس مذكوراً لا يصحّ البتّة. وجميع الآية والتي قبلها إنما هي بالنسبة إليهم على سبيل التهديد، ونظيره في سورة تنزيل[٣] ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر] فهذا جاء بالنسبة إلى المخاطبين في قوله ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام] كما جاء [٢٧٨/أ] هنا. «مَن يأتيه» «من» يجوز أن تكون موصولة مفعولة بقوله «تعلمون» أي: تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب. ويجوز أن تكون استفهامية في موضع رفع على الابتداء و«تعلمون»

(١) الكشاف ٢: ٢٩٠.
(٢) ق: أعمالهم.
(٣) تنزيل أو الزمر.

معلّق[1] كأنه قيل: أيّنا يأتيه عذاب يخزيه وأيّنا هو كاذب.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ الآيات: المعجزات التّسع وهي اليد والعصا والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدّم ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، ومنهم من أبدل النقص بإظلال الجبل. وقيل: الآيات: التوراة، وهذا ليس بسديد، لأنه قال «إلى فرعون وملئه» والتوراة إنما أُنزلت بعد هلاك فرعون وملئه.

والسلطان المبين: هو الحجة الواضحة.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقال: قَدَم زيدٌ القومَ يَقْدُم قَدْماً وقُدوماً: تقدّمهم. والمعنى أنه يقدم قومه المغرقين إلى النار كما كان قدوة في الضلال متَّبعاً كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه.

وعدل عن: فيوردهم إلى «فأوردهم» [لتحقُّق وقوعه لا محالة وكأنه قد وقع، ولِما في ذلك من الإرهاب والتخويف. والهمزة في «فأوردهم»] للتعدية، وَرَدَ يتعدّى إلى واحد فلمّا أدخلت الهمزة، تعدّى إلى اثنين، فتضمّن وارداً وموروداً. ويطلق الوِرد على الوارد، فالوِرد لا يكون المورود، فاحتيج إلى حذف ليطابق فاعل «بئس» [المخصوص بالذّم فالتقدير: وبئس

---

(١) ق: متعلق.

مكان الورد المورود، ومعنيّ به النار، فالورد فاعل ببئس]، والمخصوص بالذم «المورود» وهي النار.

قال ابن عطية: و«المورود» صفة «للورد» أي: بئس مكان الورد المورود[١] النار ويكون المخصوص محذوفاً لفهم المعنى كما حُذف في قوله ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧﴾ [آل عمران] انتهى.

وهذا التخريج ينبني على جواز وصف فاعل نعم وبئس وفيه خلاف.

وذهب ابن السّراج والفارسي إلى أنّ ذلك لا يجوز.

وقال الزمخشري[٢]: «بئس الرفد المرفود» رِفْدهم: أي بئس العون المُعان، وذلك أن اللعنة في الدنيا رفد للعذاب ومددٌ له، وقد رُفدت باللعنة في الآخرة. وقيل: بئس العطاء المعطى انتهى.

ويظهر من كلامه أن «المرفود» صفة «للرفد» وأن المخصوص بالذّم محذوف تقديره: رفدهم. وما ذكر من تفسيره: أي بئس العون هو قول أبي عبيدة. وسمّي العذاب رفداً على نحو قوله[٣]: [من الوافر]

[وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ] تحيّةُ بَيْنِهم ضربٌ وجيعُ

وقال الكلبي: الرّفد الرفادة، أي: بئس ما يرفدون به بعد الغرق النار.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ

(١) ق: والمورود.
(٢) الكشاف ٢: ٢٩١.
(٣) البيت لعمرو بن معد يكرب في المقتضب ٢: ٢٠.

لَمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ
وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ
يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾
يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى
ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا
شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا
دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية، الإشارة «بذلك» إلى ما تقدّم من ذكر الأنبياء وقومهم وما حلّ بهم من العقوبات، أي: ذلك النبأ بعض أنباء القرى. والضمير في «منها» عائد على «القرى».

قال ابن عباس: «قائم» عامر. و«حصيد» داثر[1].

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: ما محلّ هذه الجملة؟ قلت: هي مستأنفة لا محلّ لها انتهى.

وقال أبو البقاء[3]: «منها قائم» ابتداء وخبر في موضع الحال من الهاء في «نقصّه». و«حصيد» مبتدأ خبره محذوف أي: ومنها حصيد انتهى.

وما ذكره أبو البقاء يجوز، أي نقصّه عليك وحال القرى ذلك. فالحال أبلغ في التخويف وضرب المثل للحاضرين أي: نقصّ عليك بعض أنباء القرى وهي على هذه الحال، يشاهدون فعل الله تعالى بها.

---

(١) ق: دامر.

(٢) الكشاف ٢: ٢٩١.

(٣) إملاء ٢: ٤٥.

﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ﴾ «ما» نافية أو استفهامية بمعنى أي شيء الذي كانوا يَدْعون.

و«غير تتبيب» أي: غير تخسير.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ الآية، أي: ومثل ذلك الأخذ أخذ الله الأمم السابقة أَخْذ ربك.

و«القرى» عامّ في القرى الظالمة. والظلم يشمل ظلم الكفر وغيره.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة الدالّ عليه قوله «عذاب الآخرة».

و«الناس» مفعول لم يُسمَّ فاعله رافعه «مجموع».

وأجاز ابن عطية أن يكون «الناس» مبتدأ، و«مجموع» خبر مقدم.

وهو بعيد لإفراد الضمير في «مجموع» وقياسه على إعرابه: مجموعون: و«مجموع له الناس» عبارة عن الحشر.

و«مشهود» عامّ يشهده [٢٧٨/ب] الأوّلون والآخرون من الإنس والجن والملائكة والحيوان.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أي: ذلك اليوم. وقيل: يعود على الجزاء.

«إلا لأجل معدود» أي: لقضاء سابقٍ(١)، قد نفذ فيه بأجل محدود لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه.

والظاهر أن الفاعل «بيأتي» ضمير يعود على ما عاد عليه الضمير في «نؤخّره» وهو قوله «ذلك يوم»، والناصب له «لا تكلّم» والمعنى: لا تكلّم

---

(١) ق: القضاء السابق.

نفس ذلك اليوم إلا بإذنه تعالى، وذلك من عظم المهابة والهول في ذلك اليوم.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ ﴾ الآية، الزفير: أول نهيق الحمار، والشهيق آخره.

وانتصاب «خالدين» على أنه حال مقدّرة. و«ما» مصدرية ظرفية أي: مدة دوام السماوات والأرض. والمراد بهذا التوقيت التأبيد كقول العرب: ما أقام ثبير[١] وما لاح كوكب. وضعت العرب ذلك للتأبيد من غير نظر لفناء ثبير أو الكوكب أو لعدم فنائهما.

﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: ما معنى الاستثناء في قوله «إلا ما شاء ربك» وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في هذه الآية من غير استثناء؟ قلت: هو استثناء من الخلود في عذاب النار ومن الخلود في نعيم الجنة[٣]، وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده بل يعذّبون بالزّمهرير وبأنواع من العذاب سوى[٤] عذاب النار وبما هو أغلظ منها كلها، وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانته إياهم. وهكذا أهل الجنة [لهم] مع تبوىء الجنة ما هو أكبر منها وأجلّ موقعاً منهم وهو رضوان الله تعالى، كما قال تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۝٧٢﴾ [التوبة]. ولهم ما يتفضّل الله به عليهم سوى ثواب الجنّة ما لا يعرف كنهه إلا هو، فهو المراد بالاستثناء. والدليل عليه قوله «عطاء غير مجذوذ».

---

(١) ثبير: جبل بظاهر مكة. انظر معجم البلدان «ثبير».

(٢) الكشاف ٢: ٢٩٤.

(٣) ق: أهل الجنة.

(٤) ق: يساوي.

ومعنى قوله في مقابله «إن ربك فعّال لما يريد» أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له، فتأمّلْه فإن القرآن يفسّر بعضه بعضاً [انتهى].

وقال الفراء[1] فيما حكى عنه ابن عطية: «إلّا» في هذه الآية بمعنى سوى، والاستثناء منقطع كما تقول: لك عندي ألفا درهم إلا الألف التي كنت أسلفتك، بمعنى: سوى تلك. ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى بعد هذا «عطاء غير مجذود». وانتصب «عطاءً» على المصدر أي: أعطوا عطاءً بمعنى إعطاءً، كقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح] أي: إنباتاً. ومعنى «غير مجذوذ» أي: غير مقطوع بل هو ممتدّ إلى غير نهاية.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ لمّا[2] ذكر تعالى قصص عبدة الأوثان من الأمم السالفة، وأتبع ذلك بذكر أحوال الأشقياء والسعداء، شرح لرسول الله ﷺ أحوال

---

(١) انظر معاني القرآن ٢: ٢٨.

(٢) ق: كما.

الكفار من قومه، وأنهم متّبعو آبائهم كحال من تقدّم من الأمم السالفة في اتّباع آبائهم في الضلال.

و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى مشركي العرب باتفاق، وأن ديدنهم كديدن الأمم الماضية في التقليد والعمى عن النظر في الدلائل والحجج. وهذه تسلية لرسول الله ﷺ، وعده بالانتقام منهم إذ حالهم كحال الأمم السّالفة، قد قصصنا عليك ما جرى لهم من سوء العاقبة. والتشبيه في قوله «كما يعبد» معناه أنّ حالهم في الشّرك مثل حال آبائهم من غير تفاوت، وقد بَلَغك ما نزل بأسلافهم فسينزل بهم مثله.

و«ما يعبدون[١]» استئناف جرى مجرى التعليل للنهي عن المرية.

و«ما» في «ممّا» و«كما» تحتمل أن تكون مصدرية وبمعنى الذي.

والنصيب هنا: قال ابن عباس: ما قُدّر لهم من خير وشرّ.

وقال الزمخشري[٢]: فإن قلت: كيف نصب «غير منقوص» حالاً عن النصيب الموفّى؟ قلت: يجوز أن يوفّى وهو ناقص، ويوفّى وهو كامل؛ ألا [٢٧٩/أ] ترى أنك تقول: وفّيته شطر حقّه وثلث حقّه وحقّه كاملاً وناقصاً؟ انتهى.

وهذه مغلطة. إذا قال: وفّيته شطر حقّه، فالتّوفية وقعت في الشطر، وكذا ثلث حقّه. فالمعنى: أعطيته الشطر أو الثلث كاملاً لم أنقصه عنه شيئاً. وأما قوله: وحقّه كاملاً وناقصاً؛ أما كاملاً فصحيح، وهو حال مؤكدة،

---

(١) ق: يعبد.

(٢) الكشاف ٢: ٢٩٥.

لأن التوفية تقتضي الإكمال. وأما: وناقصاً، فلا يقال، لمنافاته التّوفية[١].

والخطاب في «فلا تك» موجّه إلى من داخله الشّك لا إلى الرسول عليه السلام والمعنى والله أعلم: قل يا محمد لمن شكّ: لاتك في مرية ممّا يعبد هؤلاء، فإن الله لم يأمرهم بذلك، وإنما اتّبعوا في ذلك آباءهم تقليداً لهم وإعراضاً عن حجج العقول.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية. «الكتاب» التوراة.

«فاختُلف[٢] فيه» فقبله بعض وأنكره بعض. والظاهر عود الضمير في «فيه» على «الكتاب» لقربه، ويجوز أن يعود على موسى عليه السلام. ويلزم من الاختلاف في أحدهما الاختلاف في الآخر.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ الآية، الظاهر عموم «كلّ» وشموله للمؤمن والكافر. وقرىء: وإنّ كلاً، بالتشديد و«كُلاًّ» اسمها. وقرىء: وإنْ، بالتخفيف و«كلاًّ» اسمها، وإعمالها مخفّفةً ثابت في لسان العرب؛ ففي كتاب سيبويه[٣]: إنْ زيداً لمنطلق، بتخفيف إنْ. وقرىء: لَمَا، بتخفيف الميم، فاللام هي الداخلة في خبر «إن» المخففة والمشدّدة، و«ما» زائدة. واللام في «ليوفّينهم» جواب قسم محذوف، وذلك القسم في موضع خبر «إن»، و«ليوفّينهم» جواب ذلك القسم المحذوف، فالتقدير: وإن كلاً لأُقسم ليوفّينهم. وقرىء: لمّا، بالتشديد وهي لمّا الجازمة، حذف الفعل المجزوم لدلالة المعنى عليه وتقديره: وإن كلاً لمّا ينقص من جزاء عمله. ويدلّ عليه

(١) ق: التوبة.
(٢) ق: فاختلفوا.
(٣) ٢: ١٣٩.

قوله تعالى «ليوفّينهم ربك أعمالهم»، لما أخبر بانتفاء نقص جزاء أعمالهم أكّده بالقسم، قالت العرب: قاربتُ المدينة ولمّا، يريدون: ولما أدخُلْها [لدلالة] المعنى عليه.

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ الآية، أُمر بالاستقامة وهو عليها، وهو أمر بالدوام والثبوت. والخطاب لرسول الله ﷺ وأصحابه الذين تابوا من الكفر، ولسائر الأمّة بالمعنى. و«أُمرت» مخاطبة تعظيم. واستفعل هنا للطلب أي: اطلب الإقامة على الدّين كما تقول: استغفِرْ أي: اطلب الغفران.

«ومن تاب معك» معطوف على الضمير المستكنّ في «فاستقم» وأغنى الفاصل عن التوكيد.

﴿ وَلَا تَطْغَوْاْ ﴾ قال ابن عباس: في القرآن فتُحلّوا وتحرّموا ما لم آمركم به.

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ قال ابن عباس: معنى الركون: الميل.

﴿ فَتَمَسَّكُمُ ﴾ جواب للنّهي منصوب بإضمار أنْ بعد الفاء كقوله تعالى ﴿ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [طه][1].

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ الآية، سبب نزولها ما في صحيح مسلم[2] من حديث الرجل الذي عالج امرأة أجنبية منه فأصاب منها ما سوى إتيانها فنزلت.

وانظر إلى الأمر والنّهي في هذه الآيات حيث جاء الخطاب في الأمر «فاستقم كما أُمرت» «وأقم الصلاة» موحّداً في الظاهر، وإن كان المأمور به

---

(١) ق: ولا.

(٢) انظر ٤: ٢١١٦، رواية عن عبد الله بن مسعود.

من حيث المعنى عامًّا، وجاء الخطاب في النّهي «ولا تطغوا» «ولا تركنوا» موجَّهاً إلى غير الرسول مخاطباً به أمّته، فحيث كان الأمر بأفعال[١] الخير توجّه إليه، وحيث كان النهي عن المحظورات عدل عن الخطاب عنه إلى غيره من أمّته، وهذا من جليل الفصاحة.

ولا خلاف أن المأمور بإقامتها هي الصلاة المكتوبة، وإقامتها: دوامها. وانتصب «طرفي النهار» على الظرف. وطرف الشيء يقتضي أن يكون من الشيء، فالذي يظهر أنهما الصبح والعصر لأنهما طرفا النهار.

والزُّلَف [٢٧٩/ب] قيل: المغرب والعشاء.

والظاهر أن الإشارة بقوله «ذلك» إلى أقرب مذكور، وهو قوله «أقم الصلاة» أي: إقامتها في هذه الأوقات.

«ذكرى» أي: سبب عظة وتذكرة. [«للذاكرين»] أي: للمتّعظين.

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ
مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾
وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ
وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾
وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ
وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾
وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ

(١) ق: بأصحاب.

﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ الآية، «لولا» هنا للتحضيض[1]، صحبها معنى التفجّع والتأسّف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تَهْتَدِ. و«القرون» قوم نوح وعاد وثمود.

والبقيّة هنا يراد بها الخير والنظر.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء منقطع، أي: لكن قليلاً ممّن أنجينا منهم نهوا عن الفساد [وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم.

والظاهر أن «الذين ظلموا» هم تاركو النّهي عن الفساد].

و﴿مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: ما نعموا فيه من حبّ الرياسة والثروة وطلب أسباب العيش الهنيّ، ورفضوا ما فيه صلاح دينهم.

﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ أي: ذوي جرائم غير ذلك.

قال الزمخشري[2]: إن كان معناه: واتبعوا الشهوات كان معطوفاً على مضمر، لأن المعنى: إلا قليلاً ممّن أنجينا منهم نَهَوا عن الفساد في الأرض واتّبع الذين ظلموا شهواتهم، فهو عطف على نهوا. وإن كان معناه: واتّبعوا جزاء الإتراف، فالواو للحال[3] كأنه قيل: أنجينا القليل وقد اتّبع الذين ظلموا جزاءهم وكانوا مجرمين، لأنّ تابع الشهوات مغمور بالآثام.انتهى.

جعل «ما» في قوله «ما أُترفوا فيه» مصدرية، ولهذا قدّره: اتّبعوا الإتراف،

---

(١) ق: للتخصيص.

(٢) الكشاف ٢: ٢٩٨.

(٣) ق: قالوا وللحال.

والظاهر أنها بمعنى الذي، لعَوْد الضمير في «فيه» عليها.

وأجاز أيضاً أن يكون معطوفاً على: اتّبعوا أي: اتّبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك.

وأجاز أيضاً[1] أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون. انتهى.

ولا يسمّى هذا اعتراضاً في اصطلاح النّحو، لأنه آخر آية، فليس بين شيئين يحتاج أحدهما إلى الآخر.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الآية، تقدّم تفسير شبه هذه الآية في الأنعام[2]، إلا أنّ هنا «ليهلك» وهي آكد في النّفي لأنه على مذهب الكوفيين زيدت اللام في خبر كان على سبيل التوكيد، وعلى مذهب البصريين توجّه النّفي إلى الخبر المحذوف المتعلّق به اللام، تقديره: مريداً لإهلاك القرى.

وقال ابن عطية: المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلم منه، تعالى الله عن ذلك، وأهلها مصلحون بالإيمان به تعالى.

وقال الزمخشري[3]: «وأهلها مصلحون» تنزيهاً لذاته عن الظلم وإيذاناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم.انتهى.

وهو مصادم للحديث[4] «أنهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كَثُر

---

(١) المصدر السابق نفسه في الموضعين.

(٢) انظر تفسير الآية ١٣١ من الأنعام.

(٣) الكشاف ٢: ٢٩٨.

(٤) رواه مسلم ٤: ٢٢٠٧ من حديث زينب بنت جحش.

الخَبَثُ»، وللآية ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۝٢٥﴾ [الأنفال].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ قال الزمخشري[1]: بمعنى: لاضطرّهم إلى أن يكونوا أهل ملّة واحدة. وهذا كلام يتضمّن نفي الاضطرار، وأنه لم يقهرهم على الاتفاق على دين الحق ولكنّه مكّنهم من الاختيار الذي هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحقّ وبعضهم الباطل، فاختلفوا «ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربك» إلا ناساً هداهم الله ولطف بهم فاتّفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه انتهى.

وهو على طريقة الاعتزال. وقال ابن عباس وقتادة: «أمة واحدة» مؤمنة حتى لا يقع منهم كفر، لكنه تعالى لم يشأ ذلك.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ استثناء متصل من قوله «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك» فلا يقع منهم اختلاف.

والإشارة بقوله «ولذلك خلقهم» إلى المصدر المفهوم من قوله «مختلفين» كما قال الشاعر[2]: [من الوافر]

إذا نُهِـي[3] السّفيـه جـرى إليـه ... [وخالَفَ والسفيهُ إلى خلاف]

فعاد الضمير على المصدر المفهوم من اسم الفاعل كأنه قيل: وللاختلاف

(١) الكشاف ٢: ٢٩٨.

(٢) البيت في معاني القرآن ١: ١٠٤، والخصائص ٣: ٤٩، والإنصاف ١: ١٤٠ غير منسوب.

(٣) ق: لهى.

خلقهم. ويكون على حذف مضاف أي: لثمرة الاختلاف من الشقاء والسعادة خلقهم.

وقال الزمخشري[1]: «ولذلك» إشارة إلى ما دلّ عليه الكلام أوّلاً من التمكين والاختيار الذي [٢٨٠/أ] [كان] عنه الاختلاف. «خلقهم» ليثيب مختار الحقّ بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره انتهى.

وهذا على طريقة الاعتزال.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أي: نفذ قضاؤه وحقّ أمره. واللام في «لأملأنّ» هي التي يتلقّى بها القسم، إذ الجملة قبلها ضمّنت معنى القسم كقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ثم قال ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

والجِنّة والجنّ بمعنى واحد، قال ابن عطية: والهاء فيه للمبالغة، وإن كان الجن يقع على الواحد فالجِنّة جمعه انتهى.

فيكون ممّا يكون فيه الواحد بغير هاء وجمعه بالهاء كقول بعض العرب: كَمْءٌ للواحد وكَمْأة للجمع.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ «وكلاًّ» مفعول به والعامل فيه «نقصّ» والتنوين عوض المحذوف والتقدير: وكلَّ نبأ نقصّ عليك.

«من أنباء الرسل» في موضع الصفة لقوله «وكلاًّ» إذ هي مضافة في التقدير إلى نكرة.

و«ما» زائدة كما هي في قوله ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) الكشاف ٢: ٢٩٨.

﴿ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ قال ابن عباس: ما نسكّن به فؤادك.

وتثبيت الفؤاد هو بما جرى للأنبياء عليهم السلام وبأتباعهم المؤمنين وبما لقوا من مكذّبيهم من الأذى، ففي هذا كلّه أسوة لهم إذ المشاركة في الأمور الصعبة تهوّن ما يلقى الإنسان من الأذى.

ثم الإعلام بما جرى على مكذّبيهم من العقوبات المستأصلة بأنواع العذاب من غرق وريح ورجفة وخسفٍ وغير ذلك فيه طمأنينة للنفس وتأنيس.

والإشارة بقوله «في هذه» إلى أنباء الرسل التي قصّها الله تعالى عليه أي: النبأ الصدق[1] «الحق» الذي هو مطابق لما جرى، ليس فيه تغيير ولا تحريف كما ينقل شيئاً من ذلك المؤرخون.

«وموعظة» أي: اتعاظ وازدجار لسامعه.

«وذكرى» لمن آمن، إذ الموعظة والذكرى لا ينتفع بهما إلا المؤمن لقوله تعالى ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات].

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ ﴾ «اعملوا» صيغة أمر ومعناه التهديد والوعيد، والخطاب لأهل مكة وغيرها.

﴿ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي: جهتكم وحالتكم التي أنتم عليها.

﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ ﴾ بنا الدوائر.

﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أن ينزل بكم [نحو] ما اقتصّ الله من النّقم النازلة بأشباهكم.

(١) ق: والصدق.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [أضاف تعالى علم الغيب بما في السماوات والأرض] له توسّعاً، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، ولا حظّ لمخلوق في علم الغيب.

فالجملة الأولى دلّت على أنّ علمه محيط بجميع الكائنات كلّيها وجزئيّها حاضرها وغائبها؛ لأنها إذا أحاط علمه بما غاب[1]، فهو بما حضر محيط، إذ علمه تعالى لا يتفاوت.

والجملة الثانية دلّت على القدرة النافذة والمشيئة.

والجملة الثالثة دلّت على الأمر بإفراد مَنْ هذه صفاته بالعبادة الجسديّة والقلبية، والعبادة أولى الرّتب التي يتحلّى بها العبد.

والجملة الرابعة دلّت على الأمر بالتوكّل وهي أخيرة الرّتب؛ لأنه بنور العبادة أَبْصَرَ أنّ جميع الكائنات معذوقة[2] بالله تعالى، وأنه هو المتصرّف وحده في جميعها لا يشاركه في شيء منها أحد من خلقه، فَوَكَل نفسه إليه تعالى ورفض سائر ما يُتوهَّم أنه سبب في شيء منها.

والجملة الخامسة تضمّنت التّنبيه على المجازاة، فلا يُضيع طاعة مطيع ولا يهمل حال متمرّد. لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

(١) ق: أغاب.
(٢) أي مرتبطة به.

سورة يوسف[1]

عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ
وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ
رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥
وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ
يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦ ﴾.

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ إِنَّآ [٢٨٠/ب] أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هذه السورة مكية كلها، وقال ابن عباس وقتادة: إلا ثلاث آيات من أوّلها. وسبب نزولها أن كفار مكّة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أحلّ بني[2] إسرائيل بمصر. ووجه مناسبتها لما قبلها وارتباطها أنّ في آخر السورة التي قبلها ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ ۝١٢٠ ﴾ [هود]، وكان في تلك الأنباء المقصوصة فيها ما لاقى الأنبياء عليهم السلام من قومهم، فأتبع ذلك بقصة

---

(١) مكيّة وآياتها مئة وإحدى عشرة.

(٢) ق: ببني.

يوسف وما لاقاه عليه السلام من إخوته، وما آلت إليه حاله من حُسن العاقبة ليحصل لرسول الله ﷺ التسلية الجامعة لما يلاقيه من أذى البعيد والقريب.

وجاءت هذه القصة مطوّلة مستوفاة، فلذلك لم تتكرّر في القرآن إلا ما أخبر به مؤمن آل فرعون من سورة غافر[١].

والإشارة «بتلك آيات» إلى «آلر» وسائر حروف المعجم التي تركّبت منها آيات القرآن. والظاهر أن المراد «بالكتاب» [القرآن] و«المبين» إما المبين في نفسه الظاهر أمره في إعجاز العرب وتبكيتهم، وإما المبيّن الحلال والحرام والحدود والأحكام وما يُحتاج إليه من أمر الدين، قاله ابن عباس.

والضمير في «أنزلناه» عائد على «الكتاب» الذي فيه قصة يوسف عليه السلام.

وانتصب «قرآناً» على البدل من الضمير.

و«عربيًّا» صفة له، وهو منسوب إلى العرب، والعرب جمع عربّي كروم ورومي[٢].

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما تضمّن من المعاني، واحتوى عليه من البلاغة والإعجاز فتؤمنون. ولعلّ: ترجٍّ فيه معنى التعلّل لقوله «أنزلناه».

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ الآية، «القصص» مصدر قصّ. والمراد بكونه أحسن أنه اقتُصّ على أبدع طريقة وأحسن أسلوب، ألا ترى أن هذا الحديث مقتصّ في كتب الأوّلين وفي كتب التواريخ ولا ترى اقتصاصه في

---

(١) الآية ٣٤.

(٢) ق: ورميّ.

كتاب منها مقارباً لاقتصاصه في القرآن.

وانتصب «أحسن» على المصدرية، لإضافته إلى المصدر.

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾ الباء للسبب و«ما» مصدرية. و«هذا القرآن» تنازعه عاملان [أحدهما] «نقصّ» والثاني «أوحينا»، فأعمل الثاني جرياً على الأفصح في باب التنازع.

والضمير في «مِن قبله» يعود على الإيحاء.

ومعنى «من الغافلين» لم يكن لك شعور بهذه القصة ولا سبق لك علم فيها.

والعامل في ﴿إِذۡ﴾ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ [يوسف] كما تقول: إذ[1] قام زيد قام عمرو. وتبقى «إذ» على وضعها الأصلي من كونها ظرفاً[2] لِما مضى.

وللزمخشري وابن عطية أقوال في العامل في «إذ» ردّت في البحر[3] لضعفها. و«يوسف» اسم عبراني امتنع من الصرف للعلمية والعجمية، وتقدّمت فيه لغات[4]. وقرىء يا أبتَ، بفتح التاء، وجمهور القراء على كسرها. وهي عوض من ياء الإضافة فلا يجتمعان، لا يقال: يا أبتي. «إني رأيت» معمول للقول فهو في موضع نصب. و«رأيت» هي حُلميّة لدلالة متعلّقها على أنه منام. والظاهر أنه رأى في منامه كواكب والشمس[5]

---

(١) ق: إن.

(٢) ق: ظرف.

(٣) انظر ٥: ٢٧٩.

(٤) لم يتقدم فيه شيء.

(٥) ق: الشمس.

والقمر. ومن حديث جابر بن عبد الله[١] أنّ يهوديًا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد أخبرني عن أسماء الكواكب التي رآها يوسف. فسكت عنه ونزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها، فدعا رسول الله ﷺ اليهودي فقال «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بذلك؟ قال: نعم. قال: جربان والطارق والذيال وذو الكتفين وقابس ووثاب وعمودان والفليق والمصبح والضّروح وذو الفرغ[٢] والضياء والنور. فقال اليهودي: [٢٨١/أ] إي والله إنها لأسماؤها».

قال الزمخشري[٣]: فإن قلت: لِمَ أخّر «الشمس والقمر»؟ قلت: أخّرهما ليعطفهما[٤] على الكواكب على طريق الاختصاص[٥] بياناً لفضلهما واستبدادهما بالمزيّة على غيرهما من الطوالع، كما أخّر جبريل وميكائيل عن الملائكة ثم عطفهما عليها لذلك[٦]. ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع، أي: رأيت الكواكب مع الشمس والقمر [انتهى.

الذي يظهر] أن التأخّر إنما هو من باب التّرقي من الأدنى إلى الأعلى، ولم يقع التّرقي في الشمس والقمر جرياً على ما استقرّ في القرآن من أنه إذا اجتمعا قُدّمت عليه، ولامتناع أن يجتمع الشمس والقمر في أحد عشر كوكباً لأنهم إخوته، فليس المكنى عنه بالشمس والقمر داخلاً فيهم.

---

(١) انظر الطبري ١٢: ٩٠، وابن كثير ٤: ٩، ودلائل النبوة ٦: ٢٧٧.

(٢) وردت بعض الأسماء مصحفة في ق: جربان: خرثان، الذيّال: الذبال، الضّروح: الصّروح، ذو الفرغ: ذو الفرع، والتصويب من البحر ٥: ٢٧٩ والطبري ١٢: ٩٠.

(٣) الكشاف ٢: ٣٠٢.

(٤) ق: ليعظهما.

(٥) ق: الاختصار.

(٦) انظر البقرة ٢: ٩٨.

والظاهر أن «رأيتهم» كرّر على سبيل التوكيد للطّول بالمفاعيل، وجاء الضمير ضمير من يعقل، لأنه صدر منهم السجود، لأنه من صفات من يعقل.

و«لي» متعلق بساجدين: و«ساجدين» منصوب على الحال.

ولمّا خاطب يوسف عليه السلام أباه بقوله «يا أبت» وفيه إظهار الطواعية والبرّ والتنبيه على محلّ الشفقه بطبع الأبوة [خاطبه أبوه] بقوله ﴿يَبُنَيَّ﴾ تصغير التحبيب والتقريب والشفقة.

«فيكيدوا لك» منصوب بإضمار أنْ على جواب النّهي. وعُدّي «فيكيدوا» باللام، وفي ﴿فَكِيدُونِ﴾[1] [المرسلات] بنفسه فاحتمل أن يكون من باب التضمين: ضمّن «فيكيدوا» معنى ما يتعدّى باللاّم، فكأنه قال: فيحتالوا لك بالكيد. والتضمين أبلغُ لدلالته على معنى الفعلين، وللمبالغة أكّد بالمصدر.

ونبّه يعقوب عليه السلام على سبب الكيد وهو ما يزيّنه الشيطان للإنسان ويسوّل له وذلك للعداوة التي بينهما، فهو يجتهد دائماً أن يوقعه في المعاصي ويدخله فيها ويحضّه عليها.

وكأنّ يعقوب دلّته رؤيا يوسف عليه السلام على أنّ الله تعالى يبلغه مبلغاً من الحكمة، ويصطفيه للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه، فخاف عليه من حسد إخوته، فنهاه أن يقصّ رؤياه لهم.

وفي خطاب يعقوب ليوسف بنهيه عن أن يقصّ على إخوته مخافة كيدهم، دلالة على تحذير المسلم أخاه من يخافه عليه، والتنبيه على بعض ما لا

---

(١) ق: فيكيدون.

يليق، ولا يكون ذلك داخلاً في باب الغيبة.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: مثل ذلك الاجتباء وهو ما أراه من تلك الرؤيا التي دلّت على جليل قدره وشريف منصبه ومآله إلى الرسالة والنبوّة والملك.

و«يجتبيك» يختارك ربك للنبوّة والملك. وما أحسن لفظة «ربك» هنا لأنه المالك لأمره الناظر في مصلحته.

﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ كلام مستأنف، ليس داخلاً في التشبيه كأنه قال: وهو يعلّمك.

و﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ عبارة عن مآل الرؤيا وعاقبة أمرها. وهي اسم جمع للحديث وليس بجمع أحدوثة.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ وإتمامها بأنّه تعالى وصل لهم نعمة الدنيا بأن جعلهم أنبياء وملوكاً بنعمة الآخرة بأن نقلهم إلى أعلى الدرجات في الجنة.

و«آل يعقوب» هم[1] أولاده ونسله إذ جعل النبوّة فيهم.

وإتمام النعمة[2] على إبراهيم عليه السلام بالخلّة والإنجاء من النار وإهلاك عدوّه نمروذ، وعلى إسحاق بإخراج يعقوب والأسباط من صلبه. وسمّى الجدّ وأبا[3] الجدّ أبوين لأنهما في عمود النسب كما قال ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة] ولهذا يقولون: ابن فلان وإن كان بينهما عدّة في عمود النسب.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الاجتباء. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها.

---

(١) ق: إنهم.

(٢) ق: النبوّة.

(٣) ق: وآباء.

وهذان الوصفان مناسبان لهذا الوعد الذي وعده يعقوب يوسف عليهما السلام [٢٨١/ ب] في قوله «وكذلك يجتبيك ربك».

﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ ﴾.

﴿ ۞ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ ﴾ الآية، «آيات»[١] على نبوّة نبيّنا صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها، فأخبرهم بالصحّة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب.

والذي يظهر أن الآيات: الدلالات على صدق رسول الله ﷺ وعلى ما أظهره الله في قصة يوسف من عواقب البغي عليه وصدق رؤياه وصحة تأويله وضبط نفسه وقهرها حتى قام بحقّ الأمانة وحدوث السرور بعد اليأس.

والضمير في «قالوا» عائد على إخوة يوسف. و«أخوه» هو بنيامين. ولمّا كانا شقيقين أضافوه ليوسف. واللام في «ليوسف» لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة، أي: كثرة حبّه لهما ثابت لا شبهة فيه.

و﴿ أَحَبُّ ﴾ أفعل تفضيل، وهو مبني من المفعول شذوذاً، ولذلك عُدّي بإلى؛ لأنه إذا كان ما تعلّق به فاعلاً، من حيث المعنى، عُدّي إليه بإلى، وإذا كان مفعولاً، عُدّي إليه بفي، تقول: زيد أحبّ إلى عمروٍ من خالد[٢]،

---

(١) ق: الآيات.

(٢) ق: زيد أحبّ إليّ من عمروٍ ومن خالد.

فالضمير في أحبُّ مفعول من حيث المعنى، وعمرو هو المحبّ. وإذا قلت: زيد أحبّ في عمرٍو من خالد، كان الضمير فاعلاً وعمروٌ هو المحبوب. ومن خالد في المثال الأول محبوب، وفي الثاني فاعل. ولم يثنّ[1] «أحبّ» لتعدّيه بمِن. وكان بنيامين أصغر من يوسف، فكان يعقوب يحبّهما بسبب صغرهما وموت أمّهما. وحبّ الصغير والشفقة عليه مركوز في فطرة البشر.

وقد نظم الشعراء في محبّة الولد الصغير قديماً وحديثاً، ومن ذلك ما قاله الوزير أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري[2] في قصيدة بعث بها إلى أولاده وهو في السجن منها: [من الكامل]

وصغيركم عبد العزيز فإنني	أطوي لفرقته جوى لم يصغر
ذاك المقدّم في الفؤاد وإن غدا	كُفأً لكم في المنتمى والعنصر
إن البنـان الخمـس أكفـاء معـاً	والحَلْي دون جميعها للخنصر
وإذا الفتى فقد الشباب سما له	حبّ البنين ولا كحب الأصغر

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جملة حالية أي: يفضّلهما علينا في المحبّة، وهما لا كفاية فيهما، ونحن جماعة نقوم بمرافقه، فنحن أحقّ بزيادة المحبّة منهما.

وعن ابن عباس: العصبة ما زاد على العشرة، وعنه أيضاً: ما بين العشرة إلى الأربعين. والضلال هنا هو الهوى قاله ابن عباس.

والظاهر أن «اقتلوا يوسف» من جملة قولهم [والظاهر] أنّ «أو اطرحوه أرضاً» هو من قولهم أن يفعلوا به أحد الأمرين.

---

(١) مط: يبن.

(٢) توفي سنة ٣٩٤هـ، وترجمته في الأعلام ٤: ١٥٦، والأخير من الأبيات في اليتيمة ٢: ١٠٢.

وانتصب «أرضاً» على إسقاط حرف الجر، أي: في أرض[١] بعيدة من الأرض التي هو فيها قريب من أرض يعقوب.

قال الزمخشري[٢]: أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف[٣]، ولإبهامها من هذا الوجه نُصِبت[٤] نَصْبَ الظروف المبهمة.

وقال ابن عطية: ذلك خطأ - يعني كونها منصوبة على الظرف - قال: لأن الظرف ينبغي أن يكون مبهماً، وهذه ليست كذلك، بل هي أرض مقيّدة بأنها بعيدة أو قاصية ونحو ذلك، فزال بذلك إبهامها. ومعلوم أن يوسف لم يَخْلُ من الكون في أرض، فتبيّن أنهم أرادوا أرضاً بعيدة غير التي هو فيها قريب من أبيه انتهى.

هذا الرّد صحيح، لو قلت: [جلست] داراً بعيدة أو قعدت مكاناً بعيداً، لم يصحّ إلا بواسطة في، ولا يجوز حذفها إلا في ضرورة شعر، أو مع: دخلتُ، على الخلاف في دخلتُ أهي لازمة [٢٨٢/ أ] أم متعدّية. والضمير في «من بعده» عائد على «يوسف» أو قَتْله أو طَرْحه. وصلاحهم هو بالتوبة والتنصّل من هذا الفعل.

والقائل: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ هو يهوذا وكان أحلمهم وأحسنهم فيه رأياً، وهو الذي قال ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف] وقال لهم:

---

(١) ق: الأرض.

(٢) الكشاف ٢: ٣٠٥.

(٣) ق: الناس.

(٤) ق: نصب.

القتل عظيم. وهذا عطف منهم على أخيهم لِمَا أراد الله من إنفاذ قضائه وإبقاءِ على نفسه، وسبب لنجاتهم من الوقوع في هذه الكبيرة وهو إتلاف النفس بالقتل.

قال الهروي: الغيابة[١] في الجبّ: شِبْهُ لِحْفٍ[٢] أو طاقٍ في البئر فويق الماء يغيب ما فيه عن العيون.

و«السيّارة» جمع سيّار وهو الكثير السّير في الأرض.

ومفعول «فاعلين» محذوف أي: فاعلين ما يحصل به غرضكم من التفريق بينه وبين أبيه.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ﴾ لمّا تقرّر في أذهانهم التفريق بين يوسف وأبيه، أعملوا الحيلة على يعقوب، وتلطّفوا في إخراجه معهم، وذكروا نصحهم له وما في

(١) ق: الغاية.

(٢) اللّحف: الفتحة أو الشّق، انظر تهذيب اللغة «لحف».

إرساله معهم من انشراح صدره بالارتعاء واللعب، إذ هو ممّا يشرح الصبيان، وذكروا حفظهم له ممّا يسوؤه.

وفي قولهم «مالك لا تأمنّا على يوسف» دليل على أنهم تقدم منهم سؤال في أن يخرج معهم، وذكروا سبب الأمن وهو النصح، أي: لِمَ لم تأمنّا عليه وحالتنا هذه؟ والنصح دليل على الأمانة ولهذا قُرِنا في قوله ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾ [الأعراف]. وكان قد أحسّ منهم قبلُ ما أوجب ألّا يأمنهم عليه.

و«لا تأمنّا» جملة حالية، وهذا استفهام صحبه معنى التعجب. وقرىء: لا تأمنّا، باختلاس الحركة والإدغام.

وفي لفظة ﴿أَرْسِلْهُ﴾ دليل على أنه كان يمسكه ويصحبه دائماً.

وانتصب «غداً» على الظرف، وهو ظرف مستقبل، يطلق على اليوم الذي يلي يومك، وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد باليوم الذي يلي يومك. وأصله غدو، فحذفت لامه وقد جاء تامًّا.

وقرىء: يرتع ويلعب، بالياء. وقرىء بالنون. واللعب ها هنا الاستباق والانتضال، يتدربون بذلك لقتال العدوّ. وسمّوه لعباً لأنه بصورة اللعبِ، ولم يكن ذلك للّهو بدليل قولهم ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ۝١٧﴾ [يوسف] ولو كان لعب لهوٍ ما أقرّهم عليه يعقوب.

ومن كسر العين من «يرتع» فهو يفتعل[1]، قال مجاهد: هي من المراعاة، أي: يراعي بعضنا بعضاً ويحرسه.

ثم اعتذر لهم يعقوب عليه السلام بشيئين: أحدهما عاجل في الحال،

---

(١) ق: تفتعل.

وهو ما يلحقه من الحزن لمفارقته، وكان لا يصبر عنه، والثاني خوفه عليه من الذئب إن غفلوا عنه برعيهم ولعبهم.

وعدل إخوة يوسف عن أحد الشيئين وهو حزنه على ذهابهم [به] لقصر مدّة الحزن، وإيهامهم أنهم يرجعون به إليه عن قريب، وعدلوا إلى قضيّة الذئب، وهو السبب الأقوى في منعه أن يذهبوا به. فحلفوا له لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم، وحالهم أنهم عشرة رجال، بمثلهم تُعصب الأمور، وتُكفى الخطوب، إنهم إذاً لقوم خاسرون، أي: هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ﴾ بين هذه الجملة والجمل التي قبلها محذوف يدلّ عليه المعنى تقديره: فأجابهم إلى ما سألوه، وأرسل معهم يوسف. «فلما ذهبوا به وأجمعوا» أي: عزموا واتّفقوا على إلقائه في الجبّ.

و﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ مفعول «أجمعوا» يقال: أجمع الأمر وأزمعه بمعنى العزم عليه. واحتمل أن يكون الجعل هنا بمعنى الإلقاء وبمعنى التصيير.

وجواب «لمّا» هو قولهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: لمّا كان كيت وكيت قالوا. والظاهر أن الضمير في «وأوحينا إليه» عائد على يوسف، وهو وحي إلهام، قال ابن عباس: هو وحي منام. ويدلّ[1] على أن الضمير [٢٨٢/ب] عائد على يوسف قوله لهم ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف].

وتقدّم أنّ جواب «لمّا» هو قولهم «قالوا»، ونختار أن يكون الجواب

---

(١) ق: يدلّ.

محذوفاً لدلالة المعنى عليه تقديره: سُرُّوا[١] بذلك، أي: بذهابهم به وإجماعهم على ما يريدون أن يفعلوا به. ويكون قوله «وأوحينا إليه» ليس داخلاً تحت جواب «لمّا» بل هو استئناف إخبار بإيحاء الله تعالى إلى يوسف عليه السلام.

وانتصب «عشاء» على الظرف. و«يبكون» حال أي: باكين. قيل: وإنما جاؤوا عشاءً ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة، ولذلك قيل: لا تطلب الحاجة بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر[٢]، في النهار من ذنب فتتلجلج[٣] في الاعتذار. وفي الكلام حذف تقديره: وجاؤوا أباهم دون يوسف عشاءً يبكون، فقال: أين يوسف؟ فقالوا: إنا ذهبنا نستبق.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ أي: بمصدّق الآن، «ولو كنّا صادقين» فما أنت بمؤمن لنا على كل حالة ولو في حالة الصدق. رُوي أنهم أخذوا جدياً أو سخلة فذبحوه ولطّخوا قميص يوسف بدمه، وقالوا ليعقوب: هذا قميص يوسف، فأخذه ولطخ به وجهه وبكى، ثم تأمّله فلم يَرَ خرقاً ولا ارتاب، فاستدلّ بذلك على خلاف ما زعموا وقال لهم: متى كان الذئب حليماً يأكل يوسف، ولا يخرق قميصه؟!. قيل: كان في قميص يوسف صلى الله عليه وسلم ثلاث آيات: كان دليلاً ليعقوب على أنّ يوسف لم يأكله الذئب، وألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً، ودليلاً على براءة يوسف حين قُدَّ من دُبُر.

قال الزمخشري[٤]، وسبقه إليه الحوفي: فإن قلت: «على قميصه» ما

---

(١) ق: لسرّوا.

(٢) «في الظّلمة... ولا تعتذر» كتب في حاشية ق.

(٣) ق: فتتلخلخ. وفي اللسان «لخخ» اللّخلخانية: اللكنة في الكلام والعجمة.

(٤) الكشاف ٢: ٣٠٨.

محلّه؟ قلت: محلّه النصب على الظرف كأنه قيل: وجاؤوا فوق قميصه بدم، كما تقول: جاء على جِماله بأحمال. فإن قلت: هل يجوز أن يكون حالاً متقدمة؟ قلت: لا لأنّ حال المجرور لا يتقدّم عليه انتهى.

ولا يساعد المعنى على نصبه على الظرف بمعنى فوق، لأن العامل فيه إذ ذاك «جاؤوا» وليس الفوق ظرفاً لهم.

وقال أبو البقاء[1]: «على قميصه» في موضع نصب حالاً من الدم، لأن التقدير: جاؤوا بدم كذب على قميصه انتهى.

وتقديم الحال على المجرور بالحرف غير الزائد في جوازه خلاف، ومن أجاز استدلّ على ذلك بأنه موجود في لسان العرب، وأنشد على ذلك شواهد مذكورة في علم النحو. والمعنى يرشد إلى ما قاله أبو البقاء.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ هنا محذوف تقديره: لم يأكله الذئب بل سوّلت.

وقال قتادة: معنى «سوّلت» زيّنت.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: فأمري صبر جميل أو «فصبر جميل» أي: أمثل.

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ أي: المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف، فالصبر على الرزيّة.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي

---

(١) إملاء ٢: ٥٠.

﴿مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ قيل: كانوا من مدين قاصدين إلى مصر.

﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ وهو مالك بن دعر الخزاعي، فأرسلوه ليطلب لهم الماء. والوارد: الذي يرد الماء ليستقي للقوم، وإضافة الوارد إلى الضمير ليست إضافة إلى المفعول بل المعنى: الذي يرد لهم الماء.

﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أي: أرسلها ليستقي الماء.

﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ[1]﴾ في الكلام حذف تقديره: فتعلّق يوسف بحبل الدّلو، فلما بَصُر به المُدْلي قال يا بشرى، وتعلّقه بالحبل يدلّ على صغره إذ لو كان ابن ثمانية عشر أو سبعة عشر عاماً[2] لم يحمله الحبل غالباً، ولفظة «غلام» ترجّح ذلك إذ يطلق عليه ما بين الحولين إلى البلوغ حقيقة، وقد يطلق على الرجل الكامل. وقوله «يا بشرى[3]» هو على سبيل السرور والفرح بيوسف عليه السلام إذ رأى أحسن ما خلق، وأضاف البشرى إلى نفسه.

وقرىء: يا بشراي، بياء الإضافة، ويا بشرى. قيل: ذهب به الوارد إلى أصحابه فبشّرهم به.

﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ أي: أخفوه وكتموا أمره من وجدانهم له في الجبّ وقالوا:

---

(١) ق: بشراي.

(٢) ق: سنة. «وتعلّقه بالحبل.. سبعة عشر عاماً» كتبت في حاشية ق.

(٣) ق: بشراي.

دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه [٢٨٣/أ] لهم بمصر.

وقال ابن عباس: الضمير في «وأسرّوه» و«شروه» لإخوة يوسف عليه السلام وأنهم قالوا للرفقة: هذا غلام قد أبق لنا، فاشتَروه منا. وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه.

وانتصب «بضاعة» على الحال، أي: متجراً لهم ومكسباً.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ أي: لم تَخْفَ عليه أسرارهم، أو هو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم.

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ الآية، «وشروه» أي: باعوه. والظاهر أن الضمير في «شروه» عائد على السيّارة، أي: وباعوا يوسف. ومن قال إن الضمير في [«وأسرّوه»] عائد على إخوة يوسف، جعله هنا عائداً عليهم، أي: وباعوا أخاهم يوسف بثمن بخس. و«بخس» مصدر وُصف به، بمعنى مبخوس، أي: زَيْفٌ ناقص العيار. و«دراهم» بدل من «ثمن» فلم يبيعوه بدنانير. و«معدودة» إشارة إلى القلّة، وكانت عادتهم أنهم لا يزِنون إلاّ ما بلغ أوقية وهي أربعون درهماً، لأن الكثيرة يعسر فيها العدد بخلاف القليلة. قال ابن عباس: أربعون درهماً.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ﴾ الضمير عائد على يوسف. و«فيه» الأجود أن يكون متعلّقاً «بالزاهدين» وإن كان في صلة[1] الألف واللام، لأن الظرف والمجرور يُتّسع فيهما ما لا يُتّسع في غيرهما بخلاف المفعول به، وتقدّم الخلاف في ذلك في قوله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾[2] [الأعراف].

---

(١) ق: أصله.

(٢) ق: من.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ لم تتعرض الآية لاسم من اشتراه، وذكر المفسرون فيه اختلافاً كثيراً.

و«مثواه» مكان إقامته وهو كناية عن الإحسان إليه في كل مأكل ومشرب وملبس.

ولام «لامرأته» تتعلق «بقال» فهي للتبليغ نحو: قلت لك، لا «باشتراه»[(١)].

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ لعلّه إذا تدرّب وراض الأمور وعرف مجاريها نستعين به على بعض ما نحن بصدده، فينفعنا بكفايته، أو نتبنّاه، ونقيمه مقام الولد. وقيل: كان عقيماً لا يولد له، فتفرّس فيه الرشد، فقال ذلك.

«وكذلك» أي: مثل ذلك التمكين من قلب العزيز حتى عطف عليه وأمر امرأته بإكرام مثواه.

﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أرض مصر يتصرّف فيها بأمره ونهيه، أي: حكّمناه فيها.

ولام «لنعلّمه» متعلّقة بمحذوف إما قبله [أي]: لنملّكه [ولنعلّمه]، وإما بعده أي: ولنعلّمه من تأويل الأحاديث كان ذلك الإنجاء والتمكين[(٢)].

و«الأحاديث»:الرؤيا.

والضمير في «على أمره» عائد على يوسف أي: يدبّره ولا يَكِلُه إلى غيره.

(١) ق: لاشتراه.
(٢) ق: الإيحاء والتكهين.

والأَشُدّ عند سيبويه جمعٌ واحده شِدّة وأشُدّ كنعمة وأنعمُ.

وقال الكسائي: شَدٌّ وأشُدّ نحو صَكّ وأصُكّ[1].

والأشُدّ: بلوغ الحلم.

والحكم: الحكمة. والعلم: النبوّة. وقيل: الحكم بين الناس، والعلم: الفقه في الدين. وهذا أشبه لمجيء قصّة المراودة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء لمن صبر ورضي بالمقادير نجزي المحسنين. وفيه تنبيه على أنّ يوسف كان محسناً في عنفوان شبابه، فآتاه الله الحكم والعلم على جزاء إحسانه.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ
قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ
بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا
سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ
قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ
وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ
كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ
ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ الآية، المراودة: المطالبة برفق، مِن راد يرود،

(١) ق: صل وأصل. والصّك: الكتاب وجمعه أَصُكّ، فارسي معرّب.

إذا ذهب وجاء، وهي مفاعلة من واحد نحو: داويت المريض. وكنّى به عن طلب النكاح والمخادعة لأجله، كأنّ المعنى: وخادعته عن نفسه، ولذلك عدّاه بعن.

وقال تعالى «التي هو في بيتها» ولم يصرّح باسمها، ولا بامرأة العزيز ستراً على الحرم. والعرب تضيف البيوت إلى النساء فتقول: ربّة البيت وصاحبة البيت، قال الشاعر(١): [من البسيط]

يا ربّة البيت قومي غير صاغرة

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ هو تضعيف تكثير بالنسبة إلى وقوع الفعل بكل باب باب، وقيل: كانت سبعة أبواب.

﴿هَيْتَ﴾ اسم فعل بمعنى أسرع [٢٨٣/ب] و«لك»(٢) للتبيين أي: لك أقول، أمرَتْه بأن يسرع إليها.

وزعم الكسائي والفراء أنها لغة حورانيّة، وقعت لأهل الحجاز، فتكلّموا بها، ومعناها تعال.

وانتصب «معاذ الله» على المصدر أي: عياذاً بالله من فعل السّوء.

والضمير في «إنه» يعود على الله تعالى أي: إن الله ربي أحسن مثواي [أي]: نجّاني من الجبّ فأقامني في أحسن مقام.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي: المجازون الإحسان بالسّوء.

---

(١) لم أتعرف قائله وتمامه، وانظر البحر ٥ : ٢٩٣.

(٢) ق: وذلك.

وما أحسن هذا التنصّل من الوقوع في السّوء: استعاذ أولاً بالله تعالى الذي بيده العصمة وملكوت كل شيء، ثم نبّه على أن إحسان الله إليه لا يناسب أن يجازى بالسّوء، ثم نفى الفلاح عن الظالمين، وهو الظفر والفوز بالبغية، فلا يناسب أن أكون ظالماً، أضع الشيء غير موضعه.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ الذي نقوله إن يوسف عليه السّلام لم يقع منه همٌّ بها البتّة، بل هو منفيّ لوجود رؤية البرهان كما تقول: لقد قارفتَ[1] لولا أن عصمك الله.

قال ابن عطية: قول من قال إن الكلام قد تمّ في قوله «ولقد همّت به» وأن جواب «لولا» في قوله «وهمّ بها» وأنّ المعنى: لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها، فلم يهمّ يوسف عليه السلام - يردّه لسان العرب وأقوال السلف انتهى.

أما قوله: يردّه لسان العرب فليس كما ذكر، وقد استدل من ذهب إلى [جواز] ذلك بوجوده في لسان العرب، قال تعالى ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص]. فقوله «إن كادت لتبدي به» [إمّا] أن يتخرّج على أنه الجواب على ما ذهب إليه ذلك القائل، وإمّا أن يخرّج على ما ذهبنا إليه من أنه دليل الجواب والتقدير: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به.

وأما أقوال السّلف فنعتقد أنّه لا يصحّ عن أحد منهم شيء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً، مع كونها قادحة في بعض المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة. والذي رووا عن السّلف لا يساعد عليه

(١) ق: فارقت.

كلام العرب، لأنهم قدّروا جواب «لولا» محذوفاً، ولا يدلّ عليه دليل لأنهم لم يقدّروا الهمّ بها.

ولا يدلّ كلام العرب إلا أن [يكون] المحذوف من معنى ما قبل الشرط، لأنّ ما قبل الشرط دليل عليه، ولا يُحذف الشيء لغير دليل.

والبرهان الذي رآه هو ما آتاه الله من العلم الدالّ على تحريم ما حرّمه الله تعالى، ولا يمكن الهمّ به فضلاً عن الوقوع به.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ﴾ التقدير: مثل ذلك الرؤية نري براهيننا لنصرف عنه، فتجعل الإشارة إلى الرؤية. والناصب للكاف ما[1] دلّ عليه قوله «لولا أن رأى برهان ربّه». و«لنصرف» متعلّق بذلك الفعل الناصب للكاف.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ الآية، واستبق يوسف وامرأة العزيز إلى الباب: هذا[2] للخروج والهروب منها، وهذه لمنعه ومراودته. وأصل استبق أن يتعدّى بإلى فحذف اتّساعاً.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾ أي: قطعته، والقدّ: القطع والشقّ، وأكثر استعماله فيما كان طولاً. «من دبر» أي: من وراء. «وألفيا» أي: وجدا وصادفا زوجها. والمرأة تقول لزوجها سيدي، ولم يُضَف إليهما لأنّ زوجها ليس بسيّد يوسف على الحقيقة.

﴿مَا جَزَآءُ﴾ «ما» نافية. وبدأت بالسجن إبقاءً على محبوبها، ثم ترقّت إلى العذاب الأليم، قيل: وهو الضرب بالسّوط. وقولها «ما جزاء» أي: أن

---

(١) ق: ممّا.

(٢) ق: وهذا.

الذنب ثابت متقرّر في حقّه. وأتت بلفظة «سوءاً» أي: بما يسوؤها وليس نصًّا في معصية كبرى؛ إذ يحتمل خطابه لها بما يسوؤها، أو ضربه إياها.

وقولها: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يدلّ على عظم موقع السجن من ذوي الأقدار حيث قرنته بالعذاب الأليم.

ولمّا أغرت بيوسف عليه السلام وأظهرت [٢٨٤/أ] تهمته، احتاج إلى إزالة التّهمة عن نفسه فقال: «هي راودتني عن نفسي» ولم يسبق أوّلاً إلى القول ستراً عليها، فلمّا خاف على نفسه وعلى عرضه الطّاهر[1] قال «هي راودتني»، وأتى بضمير الغيبة إذ كان غلب عليه الحياء أن يشير إليها ويعيّنها بالإشارة فيقول: هذه[2] راودتني، أو تلك راودتني؛ لأنّ في المواجهة بالقبيح ما ليس في الغيبة.

ولمّا تعارض قولاهما عند العزيز - وكان رجلاً فيه أناة ونَصَفَة - طلب الشاهد من كلٍّ، فشهد شاهد من أهلها، فقيل: كان ابن خالتها طفلاً في المهد، أنطقه الله ليكون أدلَّ على الحجة. وجواب الشرط «فصدقت» و«فكذبت» وهو على إضمار قد، أي: فقد صدقت وفقد كذبت.

﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ أي: زوجها. ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ﴾ أي: إنّ قولكِ «ما جزاء» إلى آخره، أو إنّ هذا الأمر وهو طمعها في يوسف. والخطاب في «كيدكنّ» لها ولجواريها أو لها وللنّساء. ووصف كيد النساء بالعظم وإن كان قد يوجد في الرجال، لأنهنّ ألطف كيداً بما جبلن عليه وبما تفرّغن له واكتسب بعضهنّ من بعض، وهن أنفذ حيلة وقال تعالى ﴿وَمِن شَرِّ

---

(١) ق: الظاهر.

(٢) ق: هي.

﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَـدِ ۝٤﴾ [الفلق]. وأما اللواتي في القصور فمعهنّ من ذلك ما لا يوجد لغيرهنّ لكونهنّ أكثر تفرّغاً من غيرهنّ وأكثر تأنّساً بأمثالهن.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا﴾ أي: عن هذا الأمر، واكتمه ولا تتحدث به. وفي ندائه باسمه تقريب له وتلطيف. ثم أقبل عليها فقال «واستغفري»، ثم ذكر سبب الاستغفار وهو قوله «لذنبك». ثم أكّد ذلك بقوله «إنك كنت من الخاطئين»،ولم يقل: من الخاطئات، لأن الخاطئين أعمّ لأنه يُطلق على الذكور والإناث بالتغليب. خَطِىءَ إذا أذنب متعمّداً.

وقال الزمخشري[1]: وما [كان] العزيز إلا حليماً، روي أنه كان قليل الغيرة، انتهى.

وتربة إقليم مصر اقتضت هذا. وأين هذا ممّا جرى لبعض ملوكنا أنه كان مع ندمائه المختصّين به في مجلس أنس، وجارية تغنّيهم من وراء ستر، فاستعاد بعض خلصائه بيتين[2] من الجارية كانت قد غنّت بهما، فما لبث أن جيء برأس الجارية مقطوعاً في طشت. وقال له الملك: استَعِد البيتين من هذا الرأس. فسُقط في يد ذلك المستعيد ومرض مدّة حياة ذلك الملك!

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ

(١) الكشاف ٢: ٣١٦.

(٢) ق: ببيتين.

ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ .

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ الآية، لم تلحق تاء التأنيث لأنه جمع تكسير المؤنث، ويجوز فيه الوجهان. و«نسوة» جمع قلّة، وكنّ على ما نُقل خمساً: امرأة خبّازه وامرأة ساقيه وامرأة بوّابه وامرأة سجّانه وامرأة صاحب دوابّه.

«في المدينة» هي مصر، ومعنى «في المدينة» أنهم أشاعوا هذا الأمر من حبّ امرأة العزيز ليوسف، وصرّحوا بإضافتها إلى العزيز مبالغةً في التشنيع، لأنّ النفوس أميل لسماع أخبار ذوي الأخطار وما يجري لهم. وعبّرن «بتُراود» وهو المضارع الدالّ على أنه صار ذلك سجيّةً لها تخادعه دائماً عن نفسه، كما تقول: زيد يعطي ويمنع، ولم يقلن[1]: راودت فتاها. ثم نبّهن على علّة ديمومة المراودة [وهي] كونها قد شغفها حبًّا، أي: بلغ حبّه شغاف قلبها. الشّغاف: حجاب القلب وقيل سويداؤه[2] قال[3]: [من الطويل]

أتقتلنـي وقـد شَغفـتُ فـؤادهـا كما شَغفَ المهنوءةَ الرّجلُ الطّالي

وانتصب «حبًّا» على التمييز المنقول من الفاعل. والفتى: الغلام وعُرْفه في المملوك. وفي الحديث[4] «لا يقل أحدكم عبدي وأَمَتي وليقل فتاي وفتاتي»، وقد قيل في غير المملوك. وأصل الفتى في اللغة الشابّ، ولكنّه

---

(١) ق: يقل.

(٢) ق: سوائده.

(٣) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٣٣.

(٤) رواه مسلم ٤: ١٧٦٤ من حديث أبي هريرة.

لما كان جُلّ الخَدَمة شباباً استعير لهم اسم الفتى. ثم نقمن ذلك عليها فقلن «إنّا لنراها [٢٨٤/ب] في ضلال مبين» أي: تحيّر واضح للناس.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾ الآية، روي أن تلك المقالة الصادرة عن النسوة، إنّما قصدن بها المكر بامرأة العزيز. ومكرهنّ هو اغتيابهنّ إياها وسوء مقالتهنّ فيها أنها عشقت يوسف. وسمّي الاغتياب مكراً لأنه في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره.

﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ الضمير عائد على تلك النسوة القائلة ما قلن عنها.

﴿وَأَعۡتَدَتۡ﴾ أي: عدّت. «لهن متكأً» أي: يسّرت وهيّأت لهن ما يتّكئن عليه من النمارق والمخادّ والوسائد وغير ذلك.

﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ ومعلوم أن هذا المجلس لا بدّ فيه من طعام وشراب، فيكون في جملة الطعام ما يُقطع بالسكاكين، فقيل: كان لحماً وكانوا لا ينهشون اللحم إنما كانوا يأكلونه حزًّا بالسكاكين.

﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ هذا الخطاب ليوسف. وخروجه يدلّ على طواعيتها فيما لا يُعصى الله فيه. وفي الكلام حذف تقديره: فخرج عليهن.

ومعنى «أكبَرْنه» أعظَمْنه ودهشن برؤية ذلك الجمال الفائق الرائع. قيل: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء.

﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ أي: جَرَّحْنَها كما تقول: كنت أقطع اللحم فقطعت يدي. فالتضعيف للتكثير، فالجرح كأنه وقع مراراً في اليد الواحدة، وصاحبتها لا تشعر، لما ذُهلت بما راعها من جمال يوسف، فكأنها غابت عن حسّها. والظاهر أنّ الأيدي هي الجوارح المسمّاة بهذا الاسم.

ولمّا فعلن هذا الفعل الصعب من جرح أيديهنّ وغلب عليهنّ ما رأين من يوسف وحُسْنه «قلن حاش لله» أي: حاشا يوسف أن يقارف ما رَمَتْه به. ومعنى «لله» أي: لطاعة الله [أو لمكانته من الله] أو لترفيع الله أن يُرمى بما رمته به أو يذعن إلى مثله، لأنّ تلك أفعال البشر، وهو ليس منهم إنما هو مَلَك. فعلى هذا تكون اللام في «لله» للتعليل، أي: جانب يوسف المعصية لأجل [طاعة] الله تعالى.

قال الزمخشري[١]: حاشا كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء، تقول: أساء القوم حاشا زيد، قال[٢]: [من الكامل]

حاشا أبا ثوبان إنّ به ضنًّا عن الملحاة والشّتم

وهي حرف من حروف الجر، فوضعت موضع التنزيه والبراءة. فمعنى «حاش لله» براءة الله وتنزيه الله انتهى.

ما ذكره من أنها تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء غير معروف عند النحويين، لا فرق بين قولك: قام القوم إلا زيداً، وقام القوم حاشا زيدٍ. ولمّا مثّل بقوله: أساء القوم حاشا زيد، وفهم هو من التمثيل براءة زيد من الإساءة جعل ذلك مستفاداً منها في كل موضع. وأمّا ما أنشده: حاشا أبا ثوبان البيت، فهكذا أنشده أيضاً ابن عطية وأكثر النحاة، وهو بيت ركّبوا فيه صدر بيت على عجز بيت آخر وهما من بيتين[٣]: [من الكامل]

(١) الكشاف ٢: ٣١٧.
(٢) انظر التعليقة التالية.
(٣) البيتان للجميح الأسدي في الأصمعيات ص٢١٨، والمفضليات ص٣٦٧.

حاشا أبي ثوبانَ إنّ أبا ثَوْبانَ ليس ببُكْمَةٍ[1] فَدْمِ
عمرو بن عبد الله إنّ به ضِنًّا عن المَلْحاة والشّتم

﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا[2]﴾ ولمّا كان غريب الجمال فائق الحسن عما عليه حُسْن صور الإنسان، نفين عنه البشرية، وأثبتن له الملكية، لِمَا كان مركوزاً في الطباع حُسْن المَلَك وإن كان لا يُرى. وقد نطق بذلك شعر العرب والمُحْدَثين[3]. قال بعض العرب[4]: [من الطويل]

[٢٨٥/أ] فلستَ لإنسيٍّ ولكن لِمَلأَكٍ تنزَّلَ من جوّ السماء يَصُوبُ

وقال أبو إسحاق الغزّي[5]: [من البسيط]

ترك إذا قوبلوا كانوا ملائكة حسناً وإن قوتلوا كانوا عفاريتا

وانتصاب «بشراً» على لغة الحجار، وكذا جاء ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ ﴾ [المجادلة] و﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

ولغة تميم الرفع، قال ابن عطية: ولم يُقرأ بها.

وقال الزمخشري[6]: ومن قرأ على سليقته من بني تميم قرأ: بشرٌ، بالرفع وهي قراءة ابن مسعود.انتهى.

---

(١) ق: بكمة.
(٢) ق: بشر.
(٣) ق: والمحدّثين.
(٤) البيت لعلقمة الفحل في ديوانه ص١٣٢، وهو من شواهد سيبويه ٤: ٣٨٠.
(٥) البيت في الوفيات ١: ٣٩٦، وفيه: قوم إذا.
(٦) الكشاف ٢: ٣١٧.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ الآية، ذا: اسم إشارة، واللام لبُعد المشار[١]، وكنّ: خطاب لتلك النسوة. والمعنى أن هذا الذي صدر منكنّ من الإكبار وتقطيع الأيدي ونفي البشرية عنه وإثبات الملكية له هو الذي لمتنّني فيه أي: في محبّته.

ثم جعلت تتوعّده مقسمة على ذلك وهو يسمع قولها «ولئن لم يفعل ما آمره». و«ما» موصولة. والضمير في «ما آمره» عائد على يوسف، والعائد على الموصول محذوف تقديره: ما آمره به، أي: من الموافقة لي فيما أريد. واللام في «لئن» مؤذنة بقسم محذوف وجوابه «ليسجننّ». وجاءت النون المشدّدة، لأنها آكَدُ من المخفّفة، ثم عطف عليه «وليكونَنْ» بالنون الخفيفة لأن الصَّغار أخفّ من السجن. فقالت له النسوة: أَطِعْ وافعل ما أَمَرْتك به.

فقال ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ فأسند الفعل إليهنّ كلهنّ لما نصحن[٢] له وزيّنَّ له مطاوعتها، ونهينه عن إلقاء نفسه في السجن والصَّغار[٣]، فالتجأ إلى الله تعالى، والتقدير: دخول السجن أحبّ إليّ. وقرأ يعقوب وجماعة: السَّجن، بفتح السين وهو مصدر سَجَن أي: حَبْسُهم إياي في السِّجن أحبّ إليّ. و«أحبّ» هنا ليست على بابها من التفضيل لأنه لم يحبب ما يدعونه إليه قطّ، وإنما هذان شرّان[٤] فآثر أحد الشرّين على الآخر، وإن كان في أحدهما مشقّة، وفي الآخر لذّة. لكن لِمَا ترتّب على تلك اللذة من معصية الله تعالى وسوء العاقبة، لم يخطر له ببال، ولما في

(١) ق: المشافر.
(٢) ق: تنصحن.
(٣) ق: والصغار: الذل.
(٤) ق: الشّران.

الآخر[١] من احتمال المشقة في ذات الله والصبر على النوائب وانتظار الفرج والحضور مع الله تعالى في كل وقت داعياً له في تخليصه، آثره. ثم ناط العصمة بالله واستسلم له كعادة الأنبياء والصالحين وأنه تعالى لا يصرف السّوء إلاّ هو فقال «وإلاّ تصرف عني كيدهنّ أصبُ إليهنّ» أي: أَمِلْ إلى ما دعونني إليه.

وجعل جواب الشرط قوله «أصبُ إليهن» وهي كلمة مشعرة بالميل فقط لا بمباشرة المعصية.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي: من الذين لا يعملون بما يعلمون، لأنّ [من] لا جدوى لعلمه فهو ومن لا يعلم سواء.

وذكر استجابة الله تعالى له ولم يتقدم لفظ دعاء لأنّ قوله «وإلا تصرف عني» فيه معنى طلب الصرف والدّعاء، وكأنه قال: اصرف عني كيدهنّ.

﴿فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّ﴾ أي: حال بينه وبين المعصية.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعاء الملتجىء إليه. «العليم» بأحواله وما انطوت عليه نيّاته.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ﴾ أي: ظهر. والفاعل «لبدا» ضمير يفسّره ما يدلّ عليه المعنى، أي: بدا لهم هو، أي: رأي وبداء كما قال الشاعر[٢]: **[من الطويل]**

[لعلّك والموعود حقٌّ لقاؤه] بدا لكَ من تلك القَلوص بَداءُ

(١) ق: الآخرة.

(٢) البيت منسوب للشّماخ في ديوانه ص٤٢٧.

هكذا قاله النّحاة والمفسرون إلاّ من أجاز أن تكون الجملة فاعلة، فإنه زعم أنّ قوله «ليسجننّه» في موضع الفاعل «لبدا» أي سَجْنُه [٢٨٥/ب] حتى حين، والردّ على هذا المذهب مذكور في النّحو[١].

والذي أذهب إليه أن الفاعل ضمير يعود على السجن المفهوم من قوله «ليسجننّ» أو من قوله «السِّجن» على قراءة الجمهور، أو السَّجن، على قراءة من قرأ بفتح السّين. والضمير في «لهم» للعزيز وأهله.

و«الآيات» هي الشواهد الدالّة على براءة يوسف عليه السلام.

و«ليسجننَّه» جواب قسم محذوف، والقسم وجوابه معمول[٢] لقول محذوف تقديره: قائلين.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ المعنى: إلى زمان. والحين يدلّ على مطلق الوقت. ومن عيّن له هنا زماناً فإنّما كان ذلك باعتبار مدة سجن يوسف لا أنه موضوع في اللغة لذلك، وكأنها اقترحت زماناً حتى تبصر ما يكون منه.

وفي سجنهم ليوسف دليل على مكيدة النساء واستنزال المرأة لزوجها ومطاوعته لها وعشقه وجَعْله زِمام أمره بيدها، هذا مع ظهور خيانتها وبراءة يوسف عليه السلام. روي أنه لما امتنع يوسف من المعصية ويئست منه امرأة العزيز قالت لزوجها: إنّ هذا الغلام العبراني قد فضحني في الناس، وهو يعتذر إليهم ويصف الأمر بحسب اختياره، وأنا محبوسة محجوبة، فإمّا أذنت لي فخرجت إلى الناس فاعتذرتُ وكذّبتُه وإمّا حبستَه كما أنا محبوسة!. فحينئذ بدا لهم سجنه. قال ابن عباس: فأمر به فحُمل على حمار وضُرب

(١) ق: البحر.

(٢) ق: معمولة.

أمامه بالطبل ونودي عليه في أسواق مصر أن يوسف العبرانيّ أراد سيّدته فهذا جزاؤه أن يُسجن. قال أبو صالح: ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلاّ بكى.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ
إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ
ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ
بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾
مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا
مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ
وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ
تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ ﴾ الآية، في الكلام حذف تقديره: فسجنوه فدخل معه السجن فتيان. روي أنهما كانا للملك الأعظم الوليد بن الرّيان، أحدهما خبّازه والآخر ساقيه، واتّهمهما المَلك بأنّ الخابز منهما أراد سمّه ووافقه على ذلك السّاقي فسجنهما. و«مع» تدلّ على الصحبة واستحداثها، فدلّ على أنهم سُجنوا الثلاثة في ساعة واحدة.

ولمّا دخل يوسف السّجن استمال الناس بحسن حديثه وفضله ونبله، وكان يسلّي حزينهم ويعود مريضهم ويسأل لفقيرهم ويندبهم إلى الخير، فأحبه

الفَتَيان ولزماه[١]، وأحبّه صاحب السجن والقيّم عليه وقال له: كن في أيّ البيوت شئت.

وكان يوسف عليه السلام قال لأهل السجن: إني أعبر الرؤيا وأجيد. ورأى الحلميّةُ جرت مجرى أفعال القلوب في جواز كون فاعلها ومفعولها ضميرين متّحدي المعنى، «فأراني» فيه ضمير الفاعل المستكن، وقد تعدّى الفعل إلى الضمير المتّصل وهو رافع للضمير المستكنّ[٢] وكلاهما لمدلول واحد، ولا يجوز أن تقول: أضرِبُني ولا أُكرِمُني.

و«أعصر» في موضع المفعول الثاني. و«خمراً» ليس المعصور إنما المعصور ماؤه ويؤول إلى الخمر، فعبّر عنه بما يكون مآله إلى الخمرية.

«نبّئنا» يدلّ على أنه كان نبّأهم بأنه يحسن تعبير الرؤيا.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ الآية، لمّا استعبراه ووصفاه بالإحسان، افترض ذلك، فوصف يوسف نفسه بما هو فوق علم العلماء وهو الإخبار بالغيب، وأنه ينبّئهما بما يُجعل لهما من الطعام قبل أن يأتيهما ويصفه لهما. وقيل: كان ذلك في اليقظة وقيل: كان في النوم. فقالا له: ومن أين لك ما تدّعيه من العلم وأنت لست بكاهن ولا منجّم؟. فقال لهما «ذلكما ممّا علّمني ربي» وجعل ذلك تخليصاً إلى أن يذكر لهما التوحيد[٣]، ويعرض عليهما الإيمان، ويزيّنه لهما، ويقبّح لهما الشرك بالله [٢٨٦/أ] تعالى. وروي أنه نُبّيء في السجن.

(١) ق: ولزمه.
(٢) ق: المتّصل.
(٣) ق: التوكيد.

والظاهر أنّ قوله «إني تركت» استئناف إخبار بما هو عليه، إذ كانا قد أحبّاه، وكَلِفا به وبحسن أخلاقه ليُعْلمهما ما هو عليه من مخالفة قومهما فيتّبعاه. وفي الحديث[١] «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النّعم».

وعبّر «بتركت» مع أنه لم يتشبّث بتلك الملّة قطّ إجراءً للترك مجرى التّجنب من أول حاله، واستجلاباً لهما لأن يتركا تلك الملّة التي كانا فيها.

والذين لا يؤمنون: هم أهل مصر. ونبّه على أصلين عظيمين: الإيمان بالله والإيمان بدار الجزاء. وكرّر لفظة «هم» على سبيل التوكيد، وحَسَّن ذلك الفصل[٢].

قال الزمخشري[٣]: وتكرير «هم» للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة وأنّ غيرهم مؤمنون، ولتوكيد كفرهم بالجزاء تنبيهاً على ما هم عليه من الظلم والكبائر التي لا يرتكبها إلا كافر بدار الجزاء انتهى.

ليست «هم» عندنا تدلّ على الخصوص، وباقي ألفاظه ألفاظ المعتزلة.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ لمّا ذكر أنه رفض ملّة أولئك ذكر اتّباعه ملّة آبائه، ليُريهما أنه من بيت النبوّة، بل عرّفهما أنه نبيّ بما ذكره من إخباره بالغيوب، لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه وإيقاع قوله.

(١) أخرجه مسلم ٤ : ١٨٧٢ من حديث سهل بن سعد. وانظر صحيح الجامع الصغير ٢ : ٣٣.

(٢) ق: الفضل.

(٣) الكشاف ٢: ٣٢٠.

﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما صحّ وما استقام[١] «لنا» معشر الأنبياء.

﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ عموم في المَلَك والجنّي والإنسي، فكيف بالصّنم الذي لا يسمع ولا يبصر، «فشيء» يراد به المُشْرَك[٢]، ويجوز أن يراد به المصدر أي: شيء من الإشراك، فيعمّ الإشراك ويلزم عموم متعلّقاته. و«مِن» زائدة لأنها في حيّز النفي إذ المعنى: ما نشرك بالله شيئاً[٣]. والإشارة «بذلك» إلى شرعهم وملّتهم.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ لمّا ذكر ما هو عليه من الدّين الحنيفيّ، تلطّف في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفَتَيَيْن من عبادة الأصنام، فناداهما باسم الصحبة في المكان الشّاق الذي تخلص فيه المودّة وتمحض فيه النصيحة. واحتمل قوله «يا صاحبي السجن» أن يكون من باب الإضافة إلى الظرف والمعنى: يا صاحبيّ في السجن، واحتمل أن يكون من باب إضافته إلى شبه المفعول كأنه قيل: يا ساكني السجن، كقوله تعالى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر].

ثم أورد الدليل على بطلان ملة قومهما بقوله «أأرباب» فأبرز ذلك في صورة الاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام. وهكذا الوجه في مجاجّة الجاهل[٤]: أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك حتى يصل إلى الإذعان بالحقّ.

---

(١) ق: استفهام.
(٢) ق: الشّر.
(٣) ق: من شيء.
(٤) ق: الجهلة.

وقابل تفرُّق آبائهم بالوحدانيّة. وجاء بصفة «القهّار» تنبيهاً على أنه تعالى له هذا الوصف الذي معناه الغلبة والقدرة التامة، وإعلاماً بِعِزْوِ أصنامهم[1] عن هذا الوصف الذي لا ينبغي أن يُعبد إلا المتّصف به، وهم عالمون بأنّ تلك الأصنام جماد. والمعنى: أعبادة أرباب متكاثرة في العدد خير أم عبادة واحد قهّار وهو الله تعالى؟ فمن ضرورة يرى العاقل خيريّة عبادة الله تعالى. ثم استطرد بعد هذا الاستفهام إلى الإخبار عن حقيقة ما يعبدون.

والخطاب بقوله «ما تعبدون» لهما ولقومهما من أهل مصر. ومعنى الأسماء الألفاظ، أحدثتموها أنتم وآباؤكم فهي فارغة لا مسمّيات تحتها. وتقدّم تفسير مثل [٢٨٦/ب] هذه الجملة في الأعراف[2].

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ليس لكم ولا لأصنامكم حكم، ما الحكم في العبادة والدّين إلاّ لله. ثم بيّن ما حَكَم به فقال «أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إياه».

ومعنى «القيّم» الثابت الذي دلّت عليه البراهين.

«لا يعلمون» لجهالتهم وغلبة الكفر عليهم.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ الآية، لمّا ألقى إليهما ما كان أهمّ وهو أمر الدين رجاءً في إيمانهما، ناداهما ثانياً لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب. فروي أنهما قالا: ما رأينا شيئاً وإنما تحالمنا[3] لنجرّبك. فأخبرهما يوسف عليه السلام عن غيب علمه من قِبَل الله تعالى، أن الأمر قد قُضي ووافق القدر، وسواء أكان ذلكما منكما حلماً أم تحالماً. وأفرد «الأمر» وإن كان

(١) أي: بتجرّدها، يقال: هو عِزْوٌ منه: خِلْوٌ، والجمع أعراء.
(٢) انظر تفسير الآية ٧١ من الآعراف.
(٣) ق: وإن تحاكمنا.

أمر هذا غير أمر هذا، لأن المقصود إنما هو عاقبة أمرهما الذي أُدخلا به السجن، وهو اتّهام الملك إياهما بسمّه، فرأيا ما رأيا أو[1] تحالما بذلك.

﴿وَقَالَ﴾ [أي]: يوسف عليه السلام. ﴿لِلَّذِى ظَنَّ﴾ أي: أيقن هو أي: يوسف. ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾ وهو السّاقي.

والذي يظهر أن يوسف عليه السلام إنّما قال لساقي الملك «اذكرني عند ربك» ليتوصّل إلى هدايته وإيمانه بالله تعالى كما توصّل إلى إيضاح الحق للساقي ورفيقه.

والضمير في «فأنساه» عائد على الساقي. ومعنى «ذكر ربه» أي: ذكر يوسف، والإضافة تكون بأدنى ملابسة. وإنساء الشيطان له بما يوسوس إليه من اشتغاله حتى يذهل عمّا قال له يوسف، لما أراد الله تعالى بيوسف من إجزال أجره بطول مقامه في السجن.

و«بضع سنين» مجمل فقيل: سبع سنين وقيل اثني عشر[2]. والظاهر أنّ قوله «في السجن» إخبار عن مدة مقامه في السجن منذ سجن إلى أن خرج.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ

---

(١) ق: وتحالما.

(٢) على تقدير: عاماً.

يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا
حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ
يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ
ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ
رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا
خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ
ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾
ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ
إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ ﴾ الآيات، لمّا دنا فرج يوسف عليه السلام رأى ملك مصر الريان بن الوليد رؤيا عجيبة، هالَتْه، فرأى سبع بقرات سمان، خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السّمان. ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبّها وسبعاً[1] أخر يابسات قد استحصدت وأدركت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها.

«أرى» يعني في منامه، ودلّ على ذلك «أفتوني في رؤياي». و«رأى» حكاية حال فلذلك جاء بالمضارع دون رأيت.

وجاء لفظ «بقرات» و«سنبلات» مجموعاً جمع سلامة في المؤنث، لأنه موضوع في القلّة، فناسب لفظ «سبع».

و«للرؤيا» مفعول «تعبرون» قوي تعدّي الفعل باللام لتأخره، فتقول: زيداً

(١) ق: وسبع.

ضربت، ولزيدٍ ضربت. فلو تأخّر المفعول عن الفعل لم يجىء باللام إلا قليلاً، كقول الشاعر[١]: [من الوافر]

فلمّا [أن] تواقفنا قليلاً   أَنَخْنا للكلاكل فارتمينا

يريد: أنخنا الكلاكل.

و﴿أَضْغَٰثُ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي، أي: تلك الرؤيا أضغاث أحلام. والأضغاث: جمع ضغث أي: تخاليط أحلام، وهو ما يكون من حديث النفس أو وسوسة الشيطان أو مزاج الإنسان. وأصله أخلاط النبات استعير للأحلام. وجمعوا الأحلام وإن كانت رؤياه واحدة إما[٢] باعتبار متعلّقاتها إذ هي أشياء، [وإمّا باعتبار جواز ذلك كما تقول: فلان يركب الخيل، وإن لم يركب إلا فرساً واحداً تعليقاً بالجنس، وإمّا بكونه قصّ عليهم مع هذه الرؤيا غيرها]. ونَفَوْا عن أنفسهم العلم بتأويل الأحلام أي: لسنا من أهل تعبير الرؤيا.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ الآية، أي: تذكّر ما سبق له مع يوسف عليه السلام.

«بعد أمّة» أي: مدّة طويلة.

والجملة من قوله «وادّكر» حاليّة، وأصله ادتكر، أُبدلت التاء دالاً، وأدغمت الدال فيها، فصار ادّكر.

﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ [٢٨٧/أ] أي: أخبركم عمّن عنده علمه.

---

(١) البيت في المقرّب ١: ١١٥ غير منسوب.

(٢) ق: وإما.

«فأرسلون» أي: ابعثوني.

وفي الكلام حذف تقديره: فأرسلوه إلى يوسف عليه السلام فأتاه فقصّ عليه رؤيا الملك.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ إلى آخره، تضمّن هذا الكلام من يوسف عليه السلام ثلاثة أنواع من القول: أحدها[١] تعبير بالمعنى لا باللفظ. الثاني عرضُ رأيٍ وأَمْرٌ به وهو قوله «فذروه في سنبله». والثالث الإعلام بالغيب في أمر العام الثامن.

والظاهر أن قوله «تزرعون سبع سنين دأباً» خبر؛ أخبر أنهم تتوالى لهم هذه السنون السبع لا ينقطع فيها زرعهم للريّ الذي يوجد.

﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ إشارة برأي نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل، فإذا بقيت فيه انحفظت[٢]. والمعنى: اتركوا الزّرع في السّنبل إلا ما [لا] غنى عنه للأكل، فيجتمع الطعام ويتركب ويؤكل الأقدم فالأقدم[٣] من ذلك المدّخر.

وحذف المميّز في قوله ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ لدلالة قوله «سبع سنين» عليه، وأسند الأكل إليهنّ في قوله «يأكلن» على سبيل المجاز من حيث إنه يؤكل فيها كما قال تعالى ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۝٦٧﴾ [يونس]. ومعنى «تحصنون» تحرزون وتخبّئون، مأخوذ من الحصن وهو الحرز والملجأ.

(١) ق: أحدهما.

(٢) عبارة ق: في السنبل إلا بحيلة فإذا بقيت فيه وانحفظت.

(٣) ق: الأقدم في الأقدم.

وقرىء: دأباً، بفتح الهمزة وسكونها. و«ما» شرطية، وجوابه «فذروه».

قال ابن عباس: ﴿يُغَاثُ﴾ من الغيث، وقيل من الغوث وهو الفرج. وفي الأول يبنى[١] من ثلاثي، وفي الثاني من الرباعي، تقول: غاثنا الله: من الغيث، وأغاثنا: من الغوث.

وقرىء: تعصرون، بالتّاء على الخطاب، وقرىء بالياء على الغيبة. والجمهور على أنه من عصر النبات كالعنب والقصب والزيتون والسّمسم وجميع ما يُعصر. ومصر بلد عصير لأشياء[٢] كثيرة.

وفي الكلام حذف تقديره: فأتى المستفتي يوسف إلى الملك، وأخبره بفتيا يوسف عليه السلام، فقال الملك: ائتوني به. فلما جاء الرسول يوسف قال له: ارجع إلى ربك - وهو الملك - فاساله: ما بال النسوة. ليعلم الملك براءة يوسف عليه السلام ممّا نسب إليه. فأحضر الملك النسوة وقال الملك: ما خطبكنّ. ومن كرم يوسف أنه سكت عن زوج العزيز مع ما صنعت به، وتسبّبت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر مقطّعات الأيدي.

﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الله ﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أراد أنّ كيدهن عظيم لا يعلمه إلا الله لِبُعْدِ غَوْرِه.

واستشهد بعلم الله تعالى على أنّهن كِذْبَةٌ[٣] وأنه بريء ممّا قُذف به.

---

(١) ق: ينبىء.
(٢) ق: كأشياء.
(٣) ق: كذبة.

والضمير [في] «بكيدهنّ» عائد على النسوة المذكورات لا للجنس، لأنها حالة توقيف على ذنب. وجاء «النسوة» بالألف واللام للعهد في قوله ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف]، كما قال تعالى ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المزمل].

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ في الكلام حذف تقديره: فرجع الرسول فأخبره بما قال يوسف، فجمع الملك النّسوة وامرأة العزيز وقال لهنّ: ما خطبكنّ؟. وهذا استدعاء منه أن يُعْلِمْنَه بالقصة. ونزّه جانب يوسف بقوله «إذ راودتن يوسف عن نفسه» ومراودتهنّ له قولهنّ: أطع مولاتك. فأجاب النسوة بجواب جيد تظهر منه براءة أنفسهنّ جملة وتنزيه يوسف عليه السلام بقولهن «ما علمنا عليه من سوء». فلمّا سمعت امرأة العزيز مقالتهنّ في براءة يوسف أقرّت بأعظم ممّا أقررن به - إذ كانت هي أقوى سبب فيما جرى من المراودة ومن سجن يوسف - قالت «الآن حصحص الحق». وقرىء: حُصْحِص، مبنيًّا للمفعول. وأتبعَتْ ذلك بقولها[1] «أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين».

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ[2] أَنِّي [٢٨٧/ب] لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ الظاهر أن هذا من كلام امرأة العزيز، وهو داخل تحت قوله «قالت» والمعنى: ذلك الإقرار والاعتراف بالحق، ليعلم يوسف أني لم أخُنْه في غيبته، وأكذبْ عليه، وأَرْمِه بذنب هو بريء منه.

ثم اعتذرت عمّا وقعت فيه ممّا يقع فيه البشر من الشهوات بقولها ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ﴾ والنفوس مائلة إلى الشهوات أمّارة بالسوء.

(١) ق: بقوله.

(٢) ق: لم يعلم.

ومن ذهب إلى أن قوله «ذلك ليعلم» إلى آخره من كلام يوسف يحتاج إلى تكلُّفِ ربطٍ بينه وبين ما قبله، ولا دليل يدلّ على أنّه من كلام يوسف، إذ لم يكن يوسف حاضراً وقت سؤال الملك النّسوة وإقرار امرأة العزيز بما أقرتّ به.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ الآية، روي أن الرسول جاءه فقال: أجب الملك. فخرج من السجن، ودعا لأهله. فلمّا دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بعزّتك وقدرتك من شرّه. ثم سلّم عليه ودعا له بالعبرانية. فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي. وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً، فكلّمه بها فأجابه يوسف عليه السلام بجميعها فتعجّب منه.

ومعنى «أستخلِصْه» أجعله خالصاً لنفسي وخاصًّا بي. وفي الكلام حذف تقديره: فأتوه به.

والظاهر أن الفاعل «بكلّمه» ضمير يوسف أي: فلمّا كلّم يوسف الملك، ورأى الملك حُسْنَ منطقه بما صدق به الخبر. «قال إنك اليوم لدينا مكين أمين» أي: ذو مكانة ومنزلة. «أمين» مؤتمن على كل شيء.

ولمّا وصفه الملك بالتمكّن عنده والأمانة، طلب من الأعمال ما يناسب هذين الوصفين فقال ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي: ولّني خزائن أرضك.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ أي: احفظ ما تستحفظه. «عليم» بوجوه التصرف. وصف نفسه بالأمانة والكفاءة، وهما مقصود الملوك ممّن يولّونه، إذ هما يعمّان وجوه التثقيف والحياطة، ولا خلل معهما لعامل. وجاء «حفيظ» بصفة المبالغة وهي مقصودة ولمناسبة قوله «عليم». وكان الملك يصدر[1] عن رأي يوسف، ولا يعترض عليه في كل ما رأى فكان في حكم التابع.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك التمكين في نفس الملك. ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر.

﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ يتّخذ منها مباءة ومنزلاً كلّ مكان أراد، فاستولى على جميعها ودخلت[2] تحت سلطانه. وروي أن الملك توّجه بتاجه، وختمه بخاتمه، وردّاه[3] بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مكلّلاً بالدّر والياقوت، فجلس على السرير ودانت له الملوك وفوّض إليه أمره. وعزل قطفير العزيز، ثم مات بعدُ، فزوّجه الملك امرأته زليخا. فلمّا دخل عليها قال: أليس هذا خيراً ممّا طلبت؟ فوجدها [عذراء] لأنّ العزيز كان لا يطؤها، فولدت له ولدين: أفرايم ومنشا. وأقام العدل بمصر وأحبّه الرجال والنساء، وأسلم على يده الملك وكثير من الناس.

وباع من أهل مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الأولى، حتى لم يبق معهم منها شيء، ثم بالحُلِيّ والجواهر ثم بالدوابّ ثم بالضّياع والعقار ثم برقابهم ثم استرقّهم[4] جميعاً فقالوا: والله ما رأينا كاليوم

---

(١) ق: لا يصدر.

(٢) ق: ودخل.

(٣) أي ألبسه إياه.

(٤) ق: افترقهم.

ملكاً أجلّ ولا أعظم منه. فقال للملك: كيف رأيت صنع الله فيّ وفيما خوّلني فما ترى؟. قال: الرأي رأيك. قال: فإني أُشهد الله وأُشهدك أني أعتقتُ أهل مصر عن آخرهم ورددتُ عليهم أملاكهم.

وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس.

وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب مصر، فأرسل يعقوب عليه السلام بنيه ليمتاروا، واحتبس بنيامين.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ أي: [٢٨٨/أ] بنعمتنا من الملك والغنى وغيرهما. ولا نضيع في الدنيا أجر من أحسن. ثم ذكر أنّ أجر الآخرة خير، لأنه الدائم الذي لا يفنى. وفي الآية إشارة إلى أنّ حال يوسف في الآخرة خير من حالته في الدنيا.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ
ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ
عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا
ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ
مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ
عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ
ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا
نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ
كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ
أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟

مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ﴾ الآية، أي: جاؤوا من القريات من أرض فلسطين بغور الشام إلى مصر ليمتاروا منها، فتوصّلوا إلى يوسف للميرة، فعرفهم لأنه فارقهم وهم رجال، ورأى زيّهم قريباً من زيّه إذ ذاك، ولأنّ همته كانت معمورة بهم وبمعرفتهم، فكان يتأمّل ويتفطّن. وإنكارهم إياه كان لطول العهد ومفارقته إياهم في سنّ الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك ولذهابه عن قلّة أفكارهم فيه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان عن حالته التي فارقوه عليها طريحاً في البئر مشريًّا بدراهم معدودة. حتّى لو تخيّل لهم أنه هو لكذّبوا أنفسهم، ولأنّ المُلْك مما يبدّل الزّي ويلبس صاحبه من التّهيب والاستعظام ما يُنْكَر منه العرف.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ وكان الجهاز الذي لهم هو الطعام الذي امتاروه. وفي الكلام حذف تقديره: وكان قد استوضح منهم أنه لهم أخ قد قعد عند أبيهم. روي أنه لمّا عرفهم أراد[1] أن يخبروه بجميع أمرهم، فباحثهم بأن قال لهم ترجمانه: أظنكم جواسيس. فاحتاجوا إلى التعريف بأنفسهم فقالوا: نحن أبناء رجل صدّيق وكنّا اثني عشر ذهب منّا واحد في البرّية، وبقي أصغرنا عند أبينا، ونحن جئنا للميرة، وسقنا بعير الباقي منّا، وكانوا عشرة ولهم أحد عشر بعيراً. فقال لهم يوسف: ولِمَ تخلّف أحدكم؟. قالوا: لمحبّة

---

(١) ق: أرادوا.

أبينا فيه. قال: فأتوني بهذا الأخ حتى أعلم حقيقة قولكم، وأرى لِمَ أحبّه أبوكم أكثر منكم، إن كنتم صادقين. ثم ذكر ما يحرّضهم به على الإتيان بأخيهم بقوله «ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين» أي: المضيفين، يعني في قطره وفي زمانه، يؤنسهم بذلك ويستميلهم. ثم توعّدهم إن لم يأتوا إليه بحرمانهم من الميرة في المستقبل. واحتمل قوله «ولا تقربونِ» أن يكون نهياً وأن يكون نفياً مستقبلاً ومعناه النهي، وحذفت النون وهو مرفوع كما حذفت في قوله ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر]، وأن يكون نفياً داخلاً في الجزاء معطوفاً على محلّ «فلا كيل لكم عندي» فيكون مجزوماً. والمعنى أنهم لا يقربون له بلداً ولا طاعة. وظاهر كلّ ما فعله يوسف معهم أنه بوحي من الله تعالى، وإلاّ فإنه كان مقتضى البرّ أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه، لكن الله أراد تكميل أجر يعقوب عليه السلام ومحنته وليفسّر الرؤيا الأولى.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ أي: سنخادعه ونستميله في رفق إلى أن يتركه[1] يأتي معنا إليك، ثم أكّدوا ذلك الوعد بأنهم فاعلو ذلك لا محالة لا نفرّط فيه ولا نتوانى.

وقرىء: لفتيانه، ولفتيته. فالكثرة على مراعاة المأمورين، والقلّة على مراعاة المتناولين، وهم الخَدَمة الكائلون. أمرهم بجعل المال الذي اشتروا به الطعام في رحالهم مبالغة في استمالتهم.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ﴾ أي: يعرفون حقّ ردّها وحقّ التكرّم بإعطاء البدلَيْن، فيرغبون فيها إذا انقلبوا إلى أهلهم وفرغوا ظروفهم. و«لعلهم يعرفونها» تعليق بالجَعْل. و«لعلهم يرجعون» تعليق بترجّي معرفة البضاعة للرجوع إلى يوسف.

(١) ق: نتركه.

قيل: وكانت بضاعتهم النّعال والأدم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ الآية، أي: رجعوا من مصر ممتارين، بادروا [٢٨٨/ب] بما كان أهمّ الأشياء عندهم من التوطئة لإرسال أخيهم معهم، وذلك[1] قبل فتح متاعهم وعلمهم بإحسان العزيز إليهم من رَدِّ بضاعتهم. وأخبروا بما جرى لهم مع العزيز الذي على أهراء[2] مصر، وأنهم استدعى منهم العزيز أن يأتوا بأخيهم حتى يتبيّن صدقهم أنهم ليسوا جواسيس.

وقولهم ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ إشارة إلى قول يوسف ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي ۝٦٠﴾ [يوسف] ويكون منعٌ يُراد به في المستأنَف وإلاّ فقد كيل لهم وجاؤوا أباهم بالميرة. لكن لمّا أُنذروا بمنع الكيل قالوا «مُنع منّا الكيل». وقيل: أشاروا إلى بعيرِ بنيامين الذي مُنع من الميرة، وهذا أولى بحمل[3] «مُنع» على الماضي حقيقةً ولقولهم «فأرسِلْ معنا أخانا نَكْتَلْ» ويقوّيه قراءة: يكتل، بالياء أي: يكتل أخونا، فإنه مُنع كيل بعيره لغيبته.

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ الآية، هذا تقرير وتوقيف وتألّم من فراقه بنيامين، ولم يصرّح بمنعه من حمله لما رأى في ذلك من المصلحة. وشبّه هذا الائتمان في ابنه هذا بائتمانه إياهم في حقّ يوسف: قلتم فيه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف] كما قلتم في هذا، فأخاف أن تكيدوا له كما كِدْتُم لذلك. لكنّ يعقوب لم يَخَفْ عليه كما خاف على يوسف، واستسلم لله

(١) ق: ومع ذلك.
(٢) ق: على أهل.
(٣) ق: لحمل.

فقال: فالله خيرٌ حفظاً. وقرىء: حافظاً، اسم فاعل. وانتصب حفظاً وحافظاً على التمييز. والمنسوب له الخير هو حفظ الله، والحافظ الذي من جهة الله.

وأجاز الزمخشري[1] أن يكون «حافظاً» حالاً.

وليس بجيّد لأنّ فيه تقييد «خير» بهذه الحالة.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ اعتراف بأن الله تعالى هو ذو الرحمة الواسعة فأرجو منه حفظه، وألّا يجمع عليَّ مصيبته ومصيبة أخيه.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ الآية، «ما نبغي» استفهامية أي: أيَّ شيء نبغي ونطلب من الكرامة؟ هذه أموالنا رُدّت إلينا. وكانوا قالوا لأبيهم: قَدِمْنا على خير رجل وأنزلَنَا وأكرَمَنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرَمَنَا كرامته.

والجملة من قوله «هذه بضاعتنا رُدّت إلينا» موضّحة لقولهم «ما نبغي»، والجمل بعدها معطوفة عليها على تقدير: فنستظهر بها.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ في رجوعنا إلى الملك.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ فلا يصيبه شيء ممّا تخافه. وكرّر حفظ الأخ مبالغة في الحضّ على إرساله.

﴿وَنَزْدَادُ﴾ باستصحاب أخينا وَسْقَ بعير على أوساق بعيرنا[2]، لأنه إنما كان حمل لهم عشرة أبعرة ولم يحمل الحادي عشر لغيبة صاحبه.

---

(١) انظر الكشاف ٢ : ٣٣١.

(٢) ق: لعيرنا. ووَسْق البعير: حمله.

والإشارة «بذلك» الظاهر أنها إلى «كيل بعير» أي: يسير بمعنى قليل يجيبنا إليه الملك ولا يضايقنا فيه.

قال الزمخشري[١]: أي ذلك مكيل قليل لا يكفينا، يعني ما يُكال لهم فازدادوا إليه ما يُكال لأخيهم. ويجوز أن يكون من كلام يعقوب أي: حمل بعير واحد[٢] شيء يسير لا يُخاطَر لمثله بالولد، كقوله ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ ۝٥٢﴾ [يوسف] انتهى.

يعني ظاهر الكلام أنه من كلامهم وهو من كلام يعقوب، كما أن قوله «ذلك ليعلم» ظاهره أنه من كلام امرأة العزيز وهو من كلام يوسف. وهذا كلّه تحميل للفظ القرآن ما يبعد تحميله وفيه مخالفة الظاهر لغير دليل.

ولمّا كان يعقوب غير مختار لإرسال ابنه، وألحّوا عليه في ذلك، علّق إرساله بأخذ الموثق عليهم وهو الحلف بالله، إذ به تؤكَّد العهود وتُشدَّد. ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ جواب للحلف، لأن معنى ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا﴾. حتى تحلفوا لي لتأتُنّني به.

وقوله ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ لفظ عام لجميع وجوه الغلبة، والمعنى: تعمّكم الغلبة من جميع الجهات حتى لا يكون لكم حيلة ولا وجه مَخْلص، وهذا الاستثناء من المفعول [٢٨٩/أ] من أجله مراعى في قوله «لتأتنّني» وإن كان مثبتاً [فهو] بمعنى[٣] النفي، لأن المعنى: لا تمتنعون من الإتيان به لشيء من الأشياء إلا أن يحاط بكم. ومثاله من المثبت في اللفظ ومعناه النفي قولهم:

---

(١) الكشاف ٢: ٣٣١.

(٢) ق: وأي.

(٣) ق: يعني.

أنشدك الله إلاّ فعلت، أي: ما أنشدك إلا الفعل. وفي الكلام حذف تقديره: فأجابوه إلى ما طلب.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ﴾ يعقوب ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ مِن طَلَب الموثق وإعطائه. ﴿وَكِيلٌ﴾ رقيب ومطّلع.

ونهيه إياهم أن يدخلوا من باب واحد هو خشية العين، وكانوا أحد عشر كرجل واحد أهل جمال وبسطة، قاله ابن عباس. والعين حق، وفي الحديث[1] «إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القِدْر» وفي التعوّذ[2] «من كلّ عين لامّة».

ويظهر أن خوفه عليهم من العين في هذه الكرة بحسب أنّ محبوبه فيهم وهو بنيامين الذي [كان] يتسلّى به عن شقيقه يوسف، ولم يكن فيهم في الكرّة الأولى، فأهمل أمرهم، ولم يحتفل بهم لسوء صنيعهم في يوسف.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ أي: هو الذي يحكم وحده وينفّذ ما يريد، فعليه وحده توكّلت.

و﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ أي: من أبواب متفرقة. روي أنهم لمّا ودّعوا أباهم قال لهم: بلّغوا ملك مصر سلامي، وقولوا له: إنّ أبانا يصلّي عليك، ويدعو لك، ويشكر صنيعك معنا. وفي كتاب أبي منصور الهمذاني أنه خاطبه بكتاب قرىء على يوسف عليه السلام فبكى.

وجواب «لما» قوله «ما كان يغني عنهم من الله من شيء» وفيه حجة لمن

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣: ٢٥٠، وصحيح الجامع الصغير ٤: ٦٤.

(٢) انظر النهاية ٤: ٢٧٢، وسنن أبي داود ٤: ٢٣٥.

زعم أنّ لمّا حرف وجوب لوجوب لا ظرف زمان بمعنى حين؛ إذ لو كانت ظرف زمان جاز أن تكون معمولاً لما بعد «ما» النافية، لا يجوز: حين قام زيد ما قام عمرو، ويجوز: لما قام زيد ما قام عمرو. فدلّ ذلك على أنّ لمّا حرف يترتّب جوابه على ما بعده.

«وإنه لذو علم» يعني لقوله «إن الحكم إلا لله» وما بعده، وعلمُه بأنّ القدر لا يرفعه الحذر. وهذا ثناء من الله تعالى على يعقوب عليه السلام.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا
تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ
زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا
سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى
رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ
ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ
ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ
عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى
نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا
لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ
أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ

أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ روي أنهم قالوا له: هذا أخونا قد جئناك به. فقال: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي. فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين وحده فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيًّا لأجلسني معه. فقال يوسف عليه السلام: بقي أخوكم وحيداً. فأجلسه معه على مائدته، وجعل يؤاكلهم وقال: أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتاً وهذا لا ثاني له فيكون معي. وبات يوسف يضمّه إليه، ويشمّ رائحته حتى أصبح. وسأله عن ولده فقال: لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخٍ لي هلك. فقال: أتحبّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟. قال: من يجد أخاً مثلك، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل!. فبكى يوسف عليه السلام، وقام إليه وعانقه وقال: أنا أخوك يوسف فلا تبتئس ولا تحزن بما كانوا يعملون بنا فيما مضى، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير، فلا تُعْلِمْهم بما أعلمتك.

وعن ابن عباس: تعرّف إليه أنه أخوه وهو الظاهر.

قال ابن عطية: ويحتمل أن يشير بقوله «بما كانوا يعملون» إلى ما يعمله فتيان يوسف [من أمر السقاية ونحو ذلك انتهى.

ولا يحتمل ذلك لأنه لو كان التركيب: بما يعملون، بغير «كانوا» لأمكن على بُعده، لان الكلام إنما هو مع إخوة يوسف.] وأما ذكر فتيانه فبعيد جدًّا لأنه لم يتقدم لهم ذكر إلا في قوله ﴿وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف] وقد حال

بينهما قصص، واتّسق الكلام مع الإخوة اتّساقاً لا ينبغي أن يعدل عن أن الضمير عائد إليهم، وأن ذلك إشارة إلى ما كان يلقى منهم قديماً من الأذى، إذ قد[1] أَمِن من ذلك باجتماعه بأخيه يوسف.

والظاهر أن الذي [٢٨٩/ب] جعل السّقاية في رحل أخيه هو يوسف، ويظهر من حيث كونه ملكاً أنه لم يباشر ذلك بنفسه بل أمر غيره من فتيانه أو غيرهم أن يجعلها.

وقال ابن عمر، وابن عباس وجماعة: «السّقاية» إناء يشرب به الملك، وبه كان يكال الطعام للناس.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: نادى منادٍ. أذَن: أعلم وأذّن: أكثر الإعلام، ومنه المؤذّن لكثرة ذلك منه. و«ثم» تقتضي مهلة بين جعل السقاية والتأذين، [فروي] أنه لمّا فصلت العير بأوقارها، وخرجوا من مصر أُدركوا وقيل لهم ذلك. والظاهر أن «العير» الإبل، وقال مجاهد: كانت دوابّهم حميراً. ومناداة العير والمراد أصحابها كقوله[2]: يا خيل الله اركبي، ولذلك جاء الخطاب «إنكم لسارقون» فروعي المحذوف ولم يُراعَ[3] «العير» كما روعي في: اركبي، وفي قوله ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۝٨٢﴾ [يوسف]. ويجوز أن يُطلق العير على القافلة أو الرفقة، فلا يكون من مجاز الحذف.

﴿قَالُوا۟﴾ أي: إخوة يوسف. ﴿وَأَقْبَلُوا۟﴾ جملة حالية أي: وقد أقبلوا. «عليهم» أي: على طالبي السقاية أو على المؤذّن إن كان أريد به جمع، كأنه

---

(١) ق: أقد.

(٢) أورده البيهقي في الكلام على غزوة ذي قَرَد، انظر دلائل النبوة ٤ : ١٨٧.

(٣) ق: يراعى.

جعل مؤذّنين ينادون. وساءهم أن يُرموا بهذه المثلبة العظيمة وقالوا «ماذا تفقدون» ليقع التفتيش فتظهر براءتهم. واحتمل أن يكون «ماذا» استفهاماً في موضع نصب بـ«تفقدون»، واحتمل أن تكون [«ما»] وحدها استفهاماً مبتدأ و«ذا» موصولة بمعنى الذي خبر عن «ما» و«تفقدون» صلة لذا، والعائد محذوف أي: تفقدونه.

و«صواع الملك» هو المكيال وهو السقاية، سمّاه أولاً بإحدى جهتيه[1] وآخِراً بالثانية.

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ أي: لمن دلّ على سارقه وفضحه، وهذا جُعْل.

﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ من كلام المؤذّن أي: وأنا بحمل البعير كفيل أؤدّيه إلى من جاء به، وأراد به وسق بعير من طعام جُعْلاً لمن حصّله.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ أقسموا بالتاء من حروف القسم لأنها يكون فيها التعجب غالباً، كأنهم عجبوا من رَمْيهم بهذا الأمر العظيم. وروي أنهم ردّوا البضاعة التي وجدوها في الرّحال وتحرّجوا من أخذ الطعام بلا ثمن، وكانوا قد اشتهروا بمصر بصلاح وعفّة، وكانوا يجعلون الأَكِمَّة[2] في أفواه إبلهم لئلا تنال زرع الناس، فأقسموا على إثبات شيء قد علموه منهم وهو أنكم قد علمتم أنّ مجيئنا لم يكن لفساد. ثم استأنفوا الإخبار عن نفي صفة السّرقة عنهم، وأن ذلك لم يوجد منهم قطّ.

قال ابن عطية: والتاء في «تالله» بدل من واو، كما أبدلت في: تراث وفي التّوراة والتّخمة. ولا تدخل التاء في القسم إلاّ في الله من بين أسمائه تعالى

---

(١) ق: جهته.

(٢) الأكِمَّة: جمع كِمّ وهو ما تُغطّى به أفواه الإبل.

و[لا في] غير ذلك لا تقول: تالرّحمن ولا تالرّحيم انتهى. أما قوله: والتاء في «تالله» بدل من واو فهو قول أكثر النحويين.

وقال السهيلي إنها أصل بنفسها وليست بدلاً من واو. وأما قوله: وفي التوراة، فعلى مذهب البصريين إذ زعموا أن الأصل: ووراه، مِن ورى الزّند[1].

ومن النحويين من زعم أن التاء زائدة وذلك مذكور في النحو.

وأما قوله: ولا تدخل إلى آخره، فقد حُكي عن العرب دخولها على الرّب وعلى الرحمن وعلى حياتك، قالوا: تَرَبِّ[2] الكعبة وتالرّحمن وتَحَياتك.

والظاهر اتّحاد الضمائر في قوله ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ﴾ إذ التقدير إذ ذاك: قالوا جزاء الصّاع، أي: سرقته، مَن وُجد الصّاع في رحله.

وقولهم: «جزاؤه من وُجد في رحله» كلام مَنْ لم يشكّ أنهم بُرَآء ممّا رُموا به، ولاعتقادهم البراءة علّقوا الحكم على وجدان الصّاع لا على سرقته. و«جزاؤه» مبتدأ، و«من» مبتدأ؛ فإن كانت شرطية «فوجد في رحله» [الخبر، وجواب الشرط «فهو جزاؤه». وإن كانت موصولة «فوجد في رحله»] صلتها، و«فهو جزاؤه» في [٢٩٠/أ] موضع خبرها.

قال ابن عطيّة: والضمير في «قالوا جزاؤه» للسارق. وهذا لا يصحّ لخلوّ الجملة الواقعة خبر «جزاؤه» من رابط.

---

(١) ق: ووراه من روى الزند.

(٢) ق: أترب.

وقال الزمخشري[1]: المعنى: قالوا: جزاء سرقته. ويكون «جزاؤه» مبتدأ، والجملة الشرطية كما هي خبره، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمر، والأصل: جزاؤه من وجد[2] في رحله فهو هو، فوضع الجزاء موضع هو كما تقول لصاحبك: مَن أخو زيد[3]؟ فيقول: أخوه من يقعد إلى جنبه، فهو هو، يرجع الضمير الأول إلى مَن والثاني إلى الأخ. ثم تقول: فهو أخوه، مقيماً للمظهر مقام المضمر [انتهى].

ووضع الظاهر موضع المضمر للربط إنما هو فصيح في مواضع التفخيم والتهويل وغير فصيح فيما سوى ذلك نحو: زيد قام زيد، وينزّه القرآن عنه.

وقال الزمخشري أيضاً[4]: «جزاؤه» خبر مبتدأ محذوف أي: المسؤول عنه جزاؤه، ثم أفتوا بقولهم «مَن وُجد في رحله فهو جزاؤه» كما تقول من يستفتى في جزاء صيد الحرم: جزاء صيد الحرم، ثم تقول ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة].

وهو متكلَّف إذ تصير الجملة من قوله: المسؤول عنه جزاؤه، على[5] هذا التقدير ليس فيه كبير فائدة؛ إذ قد علم من قوله «فما جزاؤه» أن الشيء المسؤول عنه جزاء سرقته، فأي فائدة في نطقهم بذلك؟. وكذلك القول في المثال الذي مثّل به من قول المستفتي. ومعنى «فهو جزاؤه» أي: استعباده،

(١) الكشاف ٢: ٣٣٤.
(٢) ق: وضع.
(٣) عبارة ق: فهو هو موضع الجزاء هو كما تقول لصاحبك: من أحقّ بزيد.
(٤) الكشاف ٢: ٣٣٤.
(٥) ق: وعلى.

إذ كانت عادتهم استعباد[١] السارق.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء وهو الاسترقاق.

﴿نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بالسّرقة وهو ديننا وسنّتنا في أهل السّرقة.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ قيل: قال لهم من وكّل بهم: لا بدّ من تفتيش أوعيتكم. فانطلق بهم إلى يوسف عليه الصلاة والسلام، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة وتمكين الحيلة واتّقاء ظهورها حتى بلغ وعاءه فقال: والله ما أظنّ هذا[٢] أخذ شيئاً. فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا. فاستخرجها[٣] منه.

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ يعني علّمناه إياه وأوحينا به إليه.

وقولهم ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ لا يدلّ على الجزم بأنه سرق، بل أخرجوا ذلك مخرج الشرط أي: إن كان وقع منه سرقة فهو يتأسّى بمن سرق قبله، فقد سرق أخٌ له من قبل. والتعليق على الشرط على أن السرقة[٤] في [حقّ بنيامين وأخيه ليست مجزوماً بها، كأنهم قالوا: إن كان هذا الذي رُمي به] بنيامين حقًّا فالذي رُمي به يوسف من قبل حقّ[٥]. لكنه قوّى الظنّ عندهم في حقّ يوسف بما ظهر لهم أنه جرى من بنيامين، ولذلك قالوا: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴿٨١﴾﴾ [يوسف]. وقيل: حقّقوا السّرقة في جانب

(١) ق في الموضعين: استبعاد.
(٢) ق: هو.
(٣) ق: فاستخرجوه.
(٤) ق: من.
(٥) ق: حقًّا.

بنيامين وأخيه بحسب ظاهر الأمر، فكأنهم قالوا: إن كان سرق فغير بدعٍ من ابني راحيل لأن أخاه يوسف كان قد سرق. فعلى هذا القول يكون قولهم إنحاءً على يوسف وبنيامين، وقولهم هذا هو بحسب الظاهر والإخبار بأمرٍ جرى، لتزول المعرّة عنهم وتختصّ بالشقيقين. وتنكير «أخ» في قولهم «فقد سرق أخ له من قبل» لأن الحاضرين لا علم لهم به، وقالوا [«له»] لأنه كان شقيقه. والجمهور على أن السرقة التي نُسبت إلى يوسف عليه السلام هي أن عمّته ربَّتْه وشبّ عندها. وأراد يعقوب أخذه فأشفقت من فراقه، فأخذت منطقة[1] إسحاق، وكانت متوارثة [عندهم فنطقته بها من تحت ثيابه، ثم صاحت وقالت: فقدت المنطقة] ففتّشت فوُجدت عند يوسف فاسْتَرَقَّتْه حسبما كان عندهم في شرعهم، وبقي عندها حتى ماتت فصار عند أبيه.

والضمير في «فأسرّها» يفسّره سياق الكلام، أي: الحزازة[2] التي حدثت في نفسه [٢٩٠/ب] من قولهم.

والظاهر من قوله ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ خطابهم بهذا القول في الوجه، فكأنه أسرّ كراهية مقالتهم ثم وبّخهم بقوله «أنتم شرٌّ مكاناً»، وفيه إشارة إلى تكذيبهم. ومعنى ﴿أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ يعني هو أعلم بما تصفون منكم، لأنه عالم بحقائق الأمور وكيف كانت سرقة أخيه التي أَحَلْتُم سرقته عليه.

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ الآية، استعطفوا يوسف إذ كان قد أخذ عليهم الميثاق.

ومعنى «كبيراً» في السّن أو القَدْر. وكانوا أعلموا يوسف بأنه كان له ابن

(١) المنطقة: ما ينتطق به، أي: يُشدّ به الوسط.

(٢) ق: أي أن الحزازة.

هلك، وهذا شقيقه يستأنس به. وخاطبوه «بالعزيز» إذ كان في تلك الخطّة، بعزل قطفير وموته على ما سبق.

ومعنى «مكانه» أي: بدله على جهة الاسترقاق والاستعباد[1].

وقوله ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وصفوه بما شاهدوه من إحسانه لهم ولغيرهم، أو من المحسنين إلينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا.

و﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ تقدّم الكلام عليه في[2] ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف].

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ استفعل هنا بمعنى المجرد، يئس واستيأس بمعنى واحد نحو: سخروا واستسخر وعجب واستعجب.

ومعنى ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ انفردوا من غيرهم يناجي بعضهم بعضاً. والنّجي: الفعيل بمعنى مُفاعل كالخليط والعشير، وبمعنى المصدر الذي هو التّناجي كما قيل: النّجوى بمعنى التّناجي. وهو لفظ يوصف به من له نجوى، واحداً[3] كان أو جماعة مؤنثاً أو مذكّراً.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السنّ وهو روبيل، ذكّرهم الميثاق في قول يعقوب ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف].

و«ما» زائدة[4] أي: ومن قبل هذا فرّطتم في يوسف. و«من قبل»

(١) ق: والاستبعاد.

(٢) ق: الكلام على.

(٣) ق: واحد.

(٤) ق: زائد.

متعلق[1] بـ«فرّطتم». وقد جوّزوا في إعرابه وجوهاً أحدها: أن تكون «ما» مصدرية أي: ومن قبلُ تفريطكُم.

قال الزمخشري[2]: على أنّ محلّ المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف وهو «من قبلُ»، ومعناه: ووقع من قبلُ تفريطُكم في يوسف.

وقال ابن عطية: ولا يجوز أن يكون قوله «من قبل» متعلقاً بـ«فرّطتم» وإنما تكون «ما» على هذا مصدرية، التقدير: من قبلُ تفريطكُم في يوسف واقع ومستقر، وبهذا المقدَّر يتعلق قوله «من قبل» انتهى.

وهذا وقول الزمخشري راجع إلى معنى واحد وهو أنّ «ما فرّطتم» يقدَّر بمصدر مرفوع بالابتداء و«من قبل» في موضع الخبر، وذهلا عن قاعدة عربية، وحقّ لهما أن يذهلا، وهو أن هذه الظروف التي هي غايات، إذا بُنيت لا تقع أخباراً للمبتدأ، جُرَّت أولم تُجَرَّ. تقول: يوم السبت مبارك والسفر بعده، ولا يجوز: والسّفر بعد. وعمروٌ [جاء] وزيد خلفه، ولا يجوز أن يقال: وزيد خلف. وعلى ما ذكراه يكون: تفريطكم مبتدأ و«من قبل» خبر، وهو مبني وذلك لا يجوز، وهذا مقرر في علم العربية.

ولهذا ذهب أبو علي إلى أن المصدر مرفوع بالابتداء و«في يوسف» هو الخبر أي: كائن أو مستقر في يوسف.

والظاهر أنّ قوله «في يوسف» معمول لقوله «فرّطتم» لا أنه في موضع خبر.

(١) ق: متعلقاً.

(٢) الكشاف ٢: ٣٣٧.

وأجاز الزمخشري[١] وابن عطية أن تكون «ما» مصدرية والمصدر المسبوك في موضع نصب، التقدير: ألم تعلموا أَخْذَ أبيكم عليكم موثقاً ومن قبلُ تفريطَكُم في يوسف.

وقدّره الزمخشري[٢]: وتفريطكم من قبل في يوسف.

وهذا الذي ذهبا إليه ليس بجيد، لأنّ فيه الفصل بالجار والمجرور بين حرف العطف[٣] الذي هو على حرف واحد وبين المعطوف، فصار نظير: ضربت زيداً وبسيفٍ عَمْراً.

وقد زعم أبو علي الفارسي أنه لا يجوز ذلك إلا في ضرورة الشعر.

وأما تقدير الزمخشري: وتفريطكم من قبل في يوسف، فلا يجوز لأن فيه تقديم معمول المصدر [٢٩١/أ] المنحلّ لحرف مصدري والفعل عليه، وهو لا يجوز.

وأجاز أيضاً أن تكون موصولة بمعنى الذي، قال الزمخشري[٤]: ومحلّه الرفع أو النصب على الوجهين انتهى.

يعني بالرفع أن يرتفع على الابتداء و«من قبل» الخبر، وقد ذكرنا أنّ ذلك لا يجوز. ويعني بالنصب أن يكون عطفاً على المصدر المنسبك من قوله «أن أباكم قد أخذ عليكم» وفيه الفصل بين حرف العطف الذي هو الواو وبين

---

(١) انظر الكشاف ٢: ٣٣٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عبارة ق: الفصل بين الجار والمجرور الذي بين حرف العطف.

(٤) الكشاف ٢: ٣٣٧.

المعطوف.

فأحسن هذه الأوجه ما بدأنا به من كون «ما» زائدة، وبرح التّامة تكون بمعنى ذهب وبمعنى ظهر ومنه: برح الخفاء أي: ظهر، وذهب، لا ينتصب الظرف المكاني المختصّ بها، إنما يصل إليه بوساطة في، فاحتيج إلى اعتقاد تضمين برح معنى فارق.

وعنى بـ«الأرض» أرض مصر التي فيها الواقعة، ثم غيّا ذلك بغايتين: إحداهما خاصة وهي قوله «حتى يأذن لي أبي» في الانصراف إليه، والثانية عامّة وهي قوله «أو يحكم الله لي» لأنّ إذن أبيه له هو من حكم الله تعالى [له] في مفارقة أرض مصر.

وكأنه لمّا علّق الأمر بالغاية الخاصة رجع إلى نفسه فأتى بغاية عامة تفويضاً لحكم الله ورجوعاً إلى من له الحكم حقيقة، ومقصوده التضييق على نفسه كأنه سجنها في القطر الذي أدّاه إلى سخط أبيه.

وفي الكلام حذف تقديره: فرجعوا إلى أبيهم وأخبروه بالقصّة وقول من قال: ارجعوا ثم استشهدوا بأهل القرية التي كانوا فيها وهي مصر قاله ابن عباس.

و﴿بَلْ﴾ للإضراب فتقتضي كلام محذوفاً قبلها حتى يصحّ الإضراب فيها وتقديره: ليس الأمر حقيقة كما أخبرتم بل سوّلت. وتقدّم شرح ﴿سَوَّلَتْ﴾ وإعراب ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف]. ثم ترجّى من الله تعالى أن يأتيه بهم وهم يوسف وبنيامين وكبيرهم على الخلاف الذي فيه. وترجّى يعقوب للرؤيا

التي رآها يوسف فكان ينتظرها[١] ويحسن ظنّه بالله في كل حال، ولما أُخبر به عن ملك مصر أنه يدعو له برؤيه ابنه. ووَصْفُه الله تعالى بهاتين الصّفتين[٢] لائق بما يؤخّره تعالى من لقاء بنيه، وتسليم لحكم الله فيما جرى عليه.

والضمير في «بهم» عائد على يوسف وأخيه وعلى كبيرهم الذي امتنع أن يسير معهم إلى أبيهم، وباقي الإخوة كانوا عند يعقوب عليه السلام.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ الآية، «وتولى» أي: أعرض عنهم كراهة لما جاؤوا به، وأنه ساء ظنّه بهم، ولم يصدّق قولهم، وجعل يتفجع ويتأسّف. ونادى يعقوب الأسف على سبيل المجاز على معنى: هذا زمانك فاحضر!. والظاهر أنه مضاف إلى ياء المتكلم قلبت الياء ألفاً كما قالوا في: يا غلامي، يا غُلاماً. وكرّر يعقوب ما دهاه من أمر يوسف[٣] فتأسّف عليه وحده ولم يتأسف عليهما لأنه هو الذي لا يعلم أحيٌّ هو أم ميت، بخلاف أخويه، ولأنه كان أصل الرزايا عنده إذ ترتّبت عليه، وكان أحب أولاده إليه وكان

(١) ق: ينظرها.

(٢) ق: الصفات.

(٣) عبارة ق: من أمر بنيامين والقائل: فلن أبرح الأرض بعد فقدانه يوسف، فتأسّف.

دائماً يذكره ولا ينساه. وابيضاض عينيه[١] من توالي العَبرة عليهما فينقلب سواد العين إلى بياض كدر.

والظاهر أنه كان عَمِيَ لقوله تعالى ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۝٩٦﴾ [يوسف]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩﴾ [فاطر] فقابل البصير بالأعمى. وعلّل الابيضاض بالحزن، وإنما هو من البكاء المتوالي وهو ثمرة الحزن، فعلّل بالأصل الذي نشأ منه البكاء وهو الحزن. والكظيم: إمّا للمبالغة وهو الظاهر اللائق بحال يعقوب أي: شديد الكظم كما قال ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ۝١٣٤﴾ [آل عمران]. ولم يَشْكُ يعقوب إلى أحد وإنما كان يكتمه في نفسه، ويمسك همّه في صدره، فكان يكظمه أي: يردّه [٢٩١/ب] إلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب والضجر. وإمّا أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول، وهو لا ينقاس وقاله قوم كما قال تعالى ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨﴾ [القلم].

وجواب القسم «تفتأ» حذفت منه لا، وحذفُها جائز والمعنى: لا تزال، واسمها ضمير الخطاب و«تذكر» خبر «تفتأ». و«حتى» للغاية بمعنى إلى أن، فكأنهم قالوا له ذلك على جهة تفنيد[٢] الرأي أي: لا تزال تذكر يوسف إلى حال القرب من الهلاك أو إلى أن تهلك. فقال هو:

﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا أشكو لأحدٍ منكم ولا غيركم.

وقال أبو عبيدة وغيره: البثّ: أشدّ الحزن، سُمّي بذلك لأنه من صعوبته لا يطيق حَمْله فيبثّه أي: ينشره.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظنّي

(١) ق: عينه.
(٢) ق: تقييد.

به أنه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب.

﴿ٱذْهَبُوا﴾ أَمَر بالذّهاب إلى الأرض التي جاؤوا منها وتركوا بها أَخَوَيْهم بنيامين والمقيم بها. وأَمَرَهم بالتّحسس وهو الاستقصاء والطلب بالحواس، ويستعمل في الخير والشّر. وقرىء بالجيم [والمعنى]: فتجسّسوا شيئاً من أَمْر يوسف وأخيه. وإنّما خصهما لأن الذي أقام وقال ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف] إنما أقام مختاراً. و«روح الله» رحمته وفرجه وتنفيسه.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ ﴾ الآية، في الكلام حذف تقديره: فذهبوا من الشام إلى مصر فلما دخلوا عليه. والضمير في «عليه» عائد على يوسف. وكان آكَدَ ما حدّثوه فيه شكوى ما أصابهم من الجهد قبل ما وصّاهم به من تجسّس نبأ يوسف وأخيه.

و«الضّر» الهزال من الشّدة والجوع. والبضاعة كانت زيوفاً قاله ابن عباس. ثم التمسوا منه إيفاء الكيل، وقد استُدِلّ بهذا على أن الكيل على البائع، ولا دليل فيه.

﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ أي: بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة، أو زِدْنا على حقّنا. فَسَمَّوْا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقةً.

﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ الآية، نَسَبهم إمّا إلى جهل المعصية وإمّا إلى جهل الشباب وقلّة الحنكة. وقيل: أتاهم من جهة الدّين، وكان عليه السلام حليماً موفقاً، فكلّمهم مستفهماً عن معرفة وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب فقال «هل علمتم» أي: قُبْحَ ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون، لا تعلمون قُبْحَه فلذلك أقدمتم عليه؟. يعني: هل علمتم قبحه فتُبْتُم إلى الله منه؟ لأنّ عِلْمَ القبيح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يجرّ التوبة. فكان كلامه شفقة عليهم وتنصّحاً لهم في الدّين وإيثاراً لحقّ الله تعالى على حقّ نفسه في ذلك المقام الذي يتنفّس فيه المكروب وينفث[1] فيه المصدور ويستشفي المغيظ المحنق[2] ويدرك ثأرَه الموتور.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾ لمّا خاطبهم بقوله «هل علمتم» أدركوا أنه لا يستفهم ملك لم[3] ينشأ عندهم ولا تتبّع أحوالهم، وليس منهم فيما يظهر إلا وعنده منهم علم بحالهم[4]. فيقال إنه كان يكلّمهم من وراء حجاب، فرفعه ووضع التاج وتبسّم، وكان يضيء ما حوله من نور تبسُّمه. ورأوا لمعةً بيضاء كالشّامة في فَرْقه حين وضع التاج، وكان مثلها لأبيه وجدّه وسارة، فتوسّموا أنه يوسف واستفهموا استفهام إخبار وقيل استفهام تقرير، لأنهم كانوا عرفوه بتلك العلامات التي سبق ذكرها. ولمّا

(١) ق: وينفس.
(٢) ق: المحتف.
(٣) ق: ولم.
(٤) ق: إلا وعندهم منه علم وبحالهم.

استفهموه أجابهم فقال «أنا يوسف» كاشفاً لهم أمره، وزادهم في الجواب قوله «وهذا أخي» لأنه سبق قوله «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه». وكان في ذكر أخيه بيان لما سألوا عنه وإن كان معلوماً عندهم، وتوطئة لما ذكر بعدُ من قوله «قد منّ الله علينا» [٢٩٢/أ] أي: بالاجتماع بعد الفرقة والأنس بعد الوحشة. ثم ذكر أنّ سبب مَنِّ الله تعالى هو التقوى والصبر.

والأحسن أن لا يُخَصَّ التقوى بحالةٍ[١] ولا الصبر. وقد قرأ قنبل: يتّقي[٢]، فقيل: هو مجزوم بحذف الياء التي هي لام الكلمة، وقيل[٣]: جزمه بحذف الحركة على لغة من يقول: لم يرمي زيد، وقد حكوا ذلك لغة. وقيل: هو مرفوع و«مَن» موصول بمعنى الذي، وعطف عليه مجزوم وهو «يصبر» وذلك على التّوهم، كأنه توهّم أنّ «مَن» شرطية و«يتقي» مجزوم.

و«المحسنين» عامّ يندرج فيه من تقدّم، أو وضع موضع الضمير لاشتماله على المتّقين والصابرين فكأنه قيل: لا يضيع أجرك.

و﴿ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ ﴾ فضّلك بالمُلْك أو بالصبر والعلم قالهما ابن عباس.

﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ﴾ التثريب: التأنيب والعتب. وعبّر بعضهم عنه بالتعيير.

---

(١) ق: بحالِهِ.
(٢) ق: ويتّقي.
(٣) ق: وهي.

ومنه[١] «إذا زنت أَمَةُ أحدكم فَلْيَجْلِدْها[٢] ولا يُثَرِّبْ عليها» أي: لا يعيّرها. وأصله من الثّرب وهو الشّحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه إزالة الثّرب، كما أن التجليد والتقريع إزالة الجلد، فضرب مثلاً للتقريع الذي يمزّق العرض ويذهب بماء الوجه.

و«تثريب» اسم «لا»، و«عليكم» الخبر، و«اليوم» منصوب بالعامل في الخبر أي: لا تثريب مستقرّ عليكم اليوم.

وقال الزمخشري[٣]: فإن قلت: بِمَ تعلّق «اليوم»؟ قلت: بالتثريب[٤] أو المقدّر [في] عليكم من معنى الاستقرار أو «بيغفر». والمعنى: لا أثرّبكم اليوم وهو اليوم الذي هو مظنّة التثريب فما ظنّكم بغيره من الأيام؟. ثم ابتدأ فقال «يغفر الله لكم» فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم، يقال: غفر الله لك ويغفر الله لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعاً. ومنه قول المشمّت[٥]: يغفر الله لكم ويصلح بالكم. أو: «اليوم يغفر الله لكم» بشارة بعاجل الغفران لما تجدّد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم.انتهى.

أمّا قوله: إن «اليوم» متعلق بالتثريب فهذا لا يجوز لأن التثريب مصدر وقد فُصل بينه وبين معموله بقوله «عليكم».

---

(١) أخرجه مسلم ٣: ١٣٢٨ من حديث أبي هريرة. وانظر صحيح الجامع الصغير ١: ٢٢٠.

(٢) ق: فليجدها.

(٣) الكشاف ٢: ٣٤٢.

(٤) ق: بالتقريب.

(٥) تشميت العاطس: الدّعاء له.

و«عليكم» إمّا أن يكون خبراً أو صفة «لتثريب»[١]، ولا يجوز الفصل بينهما لأن معمول المصدر من تمامه. وأيضاً لو كان «اليوم» متعلّقا «بتثريب» لم يَجُزْ بناؤه وكان يكون من قبيل المشبّه بالمضاف، وهو الذي يسمّى بالممطول[٢] ويسمّى المطّول، وكان [يكون] معرباً منوّناً.

وأما تقديره الثاني فتقدير حسن، ولذلك وقف على قوله «اليوم» أكثر القرّاء وابتدؤوا «بيغفر الله لكم» على جهة الدّعاء، وهو تأويل ابن إسحاق والطبري.

وأما تقديره الثالث وهو أن يكون «اليوم» متعلّقاً «بيغفر» فمقول، وقد وقف بعض القراء على «عليكم» وابتدأ «اليوم يغفر الله لكم». ولمّا دعا لهم بالمغفرة، أخبر عن الله تعالى بالصفة التي هي سبب الغفران، وهو أنه تعالى أرحم الراحمين، فهو يرجو منه قبول دعائه لهم بالمغفرة.

والباء في «بقميصي» الظاهر أنها للحال أي: مصحوبين أو مُلْتَبسين به. والظاهر أنه قميص من ملبوس يوسف عليه السلام بمنزلة قميص كلّ أحد.

قال ابن عطية: هكذا تبين الغرابة في أن وجد يعقوب ريحه من بُعْد، ولو كان من قُمص الجنّة، كما قيل، ما كان في ذلك غرابة ولوجده كلُّ أحدٍ. وقوله: «فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا» يدلّ على أنه [عَلِمَ أنه] عَمِيَ من الحزن إمّا بإعلامهم وإما بوحيٍ من الله تعالى. وقوله «يأت بصيراً» يظهر أنه بوحيٍ من الله تعالى.

وأهلوه الذين أَمَر أن يُؤتى بهم سبعون، وقيل غير ذلك. وفي نحوٍ من

---

(١) ق: لتقريب.

(٢) اسم ممطول: طال بإضافةٍ أو صلةٍ، انظر اللسان «مطل».

هذا العدد حلّوا بمصر وَنَمَوْا حتى خرج من ذرّيتهم مع موسى ستّ مئة ألف [مع قرب المدّة] آية عظيمة للمعتبرين.

ومعنى «يأت» يأتيني. وانتصب «بصيراً» على الحال.

ثم أمرهم بأمرين: أحدهما الذهاب بقميصه إذ كان [٢٩٢/ب] أُسِرَّ إليه ارتدادُ بصر أبيه بإلقاء قميصه على وجهه، والأمر الثاني إتيانه بأهلهم جميعاً لتكمل مسرّتهم بذلك.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ الآية، يقال: فَصَل من البلد يَفْصِل فصولاً: انفصل منه وجاوز حيطانه، وهو لازم. وفصّل الشيء فصلاً: فرّق، وهو متعدٍّ. ومعنى «فصلت العير» انفصلت من عريش مصر قاصدة مكان يعقوب عليه السلام، وكان قريباً من بيت المقدس وهو الصحيح، لأن آثارهم وقبورهم هناك إلى الآن.

وقرأ ابن عبّاس: ولمّا انفصلت العير. قال ابن عباس: وجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام، وهاجت ريح فحملت عَرْفه. وقيل غير ذلك.

ومعنى «لأجد» لأشمّ، فهو وجود حاسّة الشّم، وقال الشاعر[1]: [من الطويل]

(١) لم أجده، وانظر البحر ٥: ٣٤٥.

وإنـي لأستشفـي بكـلّ غمـامـةٍ يهبّ بها من نحو أرضك ريح

ومعنى «تفنّدون» قال ابن عباس: تسفّهون وتجهّلون.

وقال القاضي منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله: يقال: شيخ مفنّد أي: فسد رأيه، ولا يقال: عجوز مفنّدة، لأن المرأة لم يكن لها قطّ رأي أصيل فيدخله[1] التّفنيد. و«لولا» هنا حرف امتناع لوجود، و«أن تفنّدون» في موضع الابتداء تقديره: لولا تفنيدكم، وجوابها محذوف.

قال الزمخشري[2]: المعنى: لولا تفنيدكم إياي، لصدقتموني انتهى.

وقد يقال: تقديره: لولا أن تفنّدون لأخبرتكم بكونه حيًّا لم يمت، لأنّ وجدان ريحه دالّ على حياته.

والمخاطب بقوله «تفنّدون» الظاهر من تناسق الضمائر أنه عائد على من كان عنده من أولاده غير الذين راحوا يمتارون، إذ كان أولاده جماعة. وقيل: المخاطب ولد ولده ومن كان بحضرته من قرابته.

والضلال هنا لا يُراد به ضد الهدى والرشاد، قال ابن عباس: المعنى: إنك لفي خطئك. وكان حزن يعقوب قد تجدّد بقصّة بنيامين.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ «أن» زائدة للتأكيد، وزيادتها بعد لمّا قياس مطّرد. قال ابن عباس: «البشير» كان يهوذا، لأنه كان جاء بقميص الدم. والضمير المستكن في «ألقاه» عائد على «البشير».

---

(١) ق: فيدخل.

(٢) الكشاف ٢: ٣٤٣.

وقوله ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا. ولمّا رجع إليه بصره وقرّت عينه بالمسير إلى ابنه يوسف وقرّرهم[1] على قوله «ألم أقل لكم» طلبوا منه أن يستغفر لهم الله تعالى لذنوبهم، واعترفوا بالخطأ السابق منهم.

و﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ﴾ عِدَةٌ لهم بالاستغفار بسوف، وهي أبلغ في التنفيس من السين، فعن ابن مسعود أنه أخّر الاستغفار لهم إلى السَّحَر، وعن ابن عباس: إلى ليلة الجمعة، وعنه: إلى سَحَرها. ولمّا وعدهم بالاستغفار رجّاهم بحصول الغفران بقوله «إنه هو الغفور الرحيم». وفي الكلام حذف تقديره: فامتثلوا ما أمرهم به يوسف من الذهاب والإتيان بأهلهم.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠ ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ الآية، ذكروا أن يوسف جهّز إلى أبيه جهازاً ومئتي راحلة ليتجهّز إليه بمن معه. فخرج يوسف - قيل: والملك - في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم، فتلقّوا يعقوب عليه السلام، وهو يمشي يتوكأ على يهوذا، فنظر إلى الخيل والناس فقال:

---

(١) ق: وقرّر.

يا يهوذا أهذا فرعون مصر؟ قال: [لا] ولكن هذا ولدك. فلمّا لقيه يعقوب عليه الصلاة السلام قال: السلام عليك يا مُذهب الأحزان.

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أي: ضمّهما إليه وعانقهما. والظاهر [٢٩٣/أ] أنّهما أبوه وأمّه راحيل. وقال الحسن وابن إسحاق: كانت أمّه بالحياة.

وظاهر قوله ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ أنه أمرٌ بإنشاء دخول مصر. قال السّدي: قال لهم ذلك وهم في الطريق حين تلقّاهم.انتهى.

فيبقى قوله «فلّما دخلوا على يوسف» كأنه ضُرب لهم مضرب أو بيتٌ حالةَ التلقّي في الطريق، فدخلوا فيه عليه. ومعنى «ادخلوا» أي: تمكّنوا واستقرّوا فيها. والظاهر تعليق الدخول على مشيئة الله تعالى، لمّا أمرهم بالدخول، علّق ذلك على مشيئة الله تعالى لأن جميع الكائنات إنما تكون بمشيئته تعالى، وما لم يشأ لم يكن.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ و«العرش» سرير الملك. ولمّا دخل يوسف مصر وجلس في مجلسه على سريره، واجتمعوا إليه، أكرم أبويه فرفعهما على السرير، وخصّهما بذلك تكرمةً لهما دون إخوته.

والضمير في «وخرُّوا» عائد على أبويه وإخوته. وظاهر قوله «وخرّوا له سُجّداً» أنه السجود المعهود وأنّ الضمير في «له» عائد على يوسف لمطابقة الرؤيا في قوله ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا ﴿٤﴾﴾ الآية [يوسف]. وكان السجود إذ ذاك جائزاً من باب التكريم بالمصافحة وتقبيل اليد والقيام، ممّا شُهر بين الناس من باب التعظيم والتوقير.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ أي: سجودكم هذا تأويل أي: عاقبة رؤياي أنّ تلك الكواكب والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين. و«مِن»

متعلق «برؤياي» والمحذوف في «من قبل» تقديره: من قبل هذه الكوائن والحوادث التي جرت بعد رؤياي.

ثم ابتدأ يوسف بتعديد نعم الله تعالى عليه فقال «قد جعلها ربي حقًّا» أي: صادقة، رأيت ما وقع لي في المنام يقظة، حقيقة لا باطل فيها ولا لغو. وفي المدّة التي كانت بين رؤياه وسجودهم خلاف متناقض.

و«أحسنَ» أصله أن يتعدّى بإلى، قال الله تعالى ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۝٧٧﴾ [القصص] وقد تتعدى [بالباء] قال تعالى ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ۝٨٣﴾ [البقرة]. وقد يكون ضمّن «أحسن» معنى لَطَفَ، فعدّاه بالباء. وذكر إخراجه من السجن، وعدل عن إخراجه من الجبّ صفحاً عن ذكر ما تعلَّقَ بفعل إخوته وتناسياً لما جرى منهم إذ قال ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۝٩٢﴾ [يوسف] وتنبيهاً على طهارة نفسه وبراءتها ممّا نُسبت إليه من المراودة، وعلى ما تنقّل إليه من الرئاسة في الدنيا بعد خروجه من السجن، بخلاف ما تنقّل إليه بالخروج من الجبّ إلى أن بِيْعَ بَيْعَ العبيد.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ من البادية. وكان منزل يعقوب بأطراف الشام بالبادية بادية فلسطين، وكان ربّ إبل وغنم وبادية. وقابل يوسف نعمة إخراجه من السجن بمجيئهم من البدو، والإشارة بذلك إلى الاجتماع بأبيه وإخوته وزوال الحزن عن أبيه. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ[1] «من يُرِدِ الله به خيراً ينقله من البادية إلى الحاضرة».

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: أفسد، وتقدم الكلام على «نزغ»[2]،

(١) لم أجده فيما رجعت إليه وانظر البحر ٥: ٣٤٩.

(٢) انظر تفسير الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف.

وأسند النَّزْغ إلى الشيطان، لأنه هو الموسوس كما قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة]. وذكر هذا القدر من أَمْر إخوته لأنّ النعمة إذا جاءت إثّر بلاء وشدّة كانت أحسن موقعاً. «إنّ ربي لطيف» أي: لطيف التدبير «لما يشاء» من الأمور رفيق.

و«مِن» في قوله ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾، وفي ﴿مِن تَأْوِيلِ﴾ للتّبعيض لأنه لم يؤته إلا بعض مُلْك الدنيا ولا علم إلا بعض التأويل.

وانتصب «فاطر» على الصّفة أو على النّداء.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ تتولاّني بالنعمة في الدّارين، وتوصل الملك الفاني بالملك الباقي.

وذكر كثير من المفسّرين أنه لمّا عدّد نعم الله تعالى عليه، تشوّق إلى لقاء ربّه ولحاقه بصالحي سلفه، ورأى أنّ الدنيا كلّها فانية فتمنّى الموت. والذي يظهر أنه [٢٩٣/ب] ليس في الآية تمنّي الموت، وإنّما عدّد نعمه تعالى عليه، ثم دعا أن يُتمّ عليه النعم في باقي أمره، أي: توفّني إذا حان أجلي على الإسلام، واجعل لحاقي بالصالحين، وإنما تمنّى الوفاة على الإسلام لا الموت. و«الصالحين» أهل الجنة وقيل غير ذلك.

وعلماء التاريخ يزعمون أن يوسف عليه السلام عاش مئة عام وسبعة أعوام وله من الولد أفرايم ومنشا ورحمة زوجة أيوب عليه السلام.

قال الزهري: ولد لأفرايم نون ولنون يوشع وهو فتى موسى. وولد لمنشا موسى وهو قبل موسى بن عمران، ويزعم أهل التوراة أنه صاحب الخضر،

وكان ابن عباس ينكر ذلك. وثبت في الحديث الصحيح[١] أن صاحب الخضر موسى بن عمران.

وتوارثت الفراعنة ملك مصر، ولم تزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على دين يوسف عليه السلام وأبيه إلى أن بعث الله محمداً ﷺ.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ[٢] إِلَيْكَ ﴾ الآية، قال ابن الأنباري: سألت قريش واليهود رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فنزلت مشروحة شرحاً شافياً، وأمّل عليه السلام أن يكون ذلك سبباً لإسلامهم، فخالفوا تأميله، فعزّاه الله تعالى بقوله ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ ﴾ الآيات.

والإشارة «بذلك» إلى ما قصّه الله تعالى من قصّة يوسف عليه السلام وإخوته.

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي: [عند] بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم على أن يجعلوه في الجبّ، ولا حين ألقوه فيه، ولا حين التقطته السيارة، ولا حين بيع.

---

(١) انظر مثلاً البخاري ١: ٥٦.

(٢) ق: نوحيها.

﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أي: يبغون الفوائل ليوسف، ويتشاورون فيما يفعلون [به] أو يمكرون بيعقوب حين أَتَوا بالقميص ملطّخاً بالدّم. وفي هذا تصريح لقريش بصدق[1] رسول الله ﷺ.

وهذا النوع في علم البيان يسمّى بالاحتجاج النّظري وبعضهم يسمّيه المذهب الكلامي، وهو أن يلزم الخصم ما هو لازم لهذا الاحتجاج. وتقدّم نظير ذلك في آل عمران وفي هود[2]؛ وهذا تهكّم بقريش وبمن كذّبه، لأنه لا يخفى على أحد أنه لم يكن من حملة[3] هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً يُعْلِمه بشيء من ذلك، ولمْ يسمع [منه] ولم يكن من علم قومه. فإذا أخبر به وقصّه هذا القصص الذي أعجز حملته ورواته، لم يقع شبهة في أنّه ليس منه وأنه من جهة الوحي[4]، فإذا أنكروه تهكّم بهم وقيل لهم: قد علمتم أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية؛ ونحوه ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴿٤٤﴾﴾ [القصص]. وقوله «وما كنت» هنا على جهة التهكّم [بهم] لأنه قد علم كل أحد أن محمداً ﷺ ما كان معهم.

و﴿أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: عزموا على إلقاء يوسف في الجبّ.

﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ جملة حالية. والمكر أن يدبّر[5] على الإنسان تدبيراً يضرّه ويؤذيه.

---

(١) ق: تصريح تقديس يصدق.

(٢) انظر ٣: ٤٤، ١١: ٤٩.

(٣) ق: جملة.

(٤) ق: الوجه.

(٥) ق: يريد.

و«الناس» الظاهر العموم، كقوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٧﴾ [هود]. وعن ابن عباس أنهم أهل مكة.

﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ [ولو] بالغت في طلب إيمانهم لا يؤمنون لفرط عنادهم وتصميمهم على الكفر. وجواب «لو» محذوف أي: ولو حرصت لم يؤمنوا، إنما يؤمن من يشاء الله إيمانه.

والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على ما تُحدّثهم به وتذكّرهم[1] أن ينيلوك منفعة وجدوى، كما يعطى حملة الأحاديث والأخبار، إن هو إلّا عظة وذكر[2] من الله للعالمين عامّة، وحثٌّ على طلب النجاة على لسان رسول الله ﷺ.

ثم أخبر تعالى أنهم لفرط كفرهم يمرّون على الآيات التي تكون سبباً [٢٩٤/أ] للإيمان، فيعرضون عنها، ولا تفيد عندهم شيئاً، ولا تؤثر فيهم، وأن تلك الآيات هي في العالم العلوي وفي العالم السفلي.

ومعنى ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أي: يمشون عليها، والمراد ما يرون من آثار الأمم الهالكة وغير ذلك من العبر.

﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ جملة حالية أي: إيمانهم متلبّس بالشّرك. قال ابن عباس: هم أهل الكتاب، أشركوا بالله تعالى من حيث كفروا بنبيّه عليه السّلام.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ استفهام إنكار فيه معنى التوبيخ والتهديد.

﴿غَٰشِيَةٌ﴾ نقمة، تغشاهم أي تغطيهم كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۝٥٥﴾ [العنكبوت] وقال الضحّاك: يعني الصواعق

---

(١) ق: يحدّثهم به ويذكرهم.

(٢) ق: وذكرى.

والقوارع انتهى.

وإتيان الغاشية يعني في الدنيا، وذلك لمقابلته بقوله «أوتأتيهم الساعة» أي: يوم القيامة.

﴿بَغْتَةً﴾ فجأة في الزّمان ومن حيث لا يُتوقَّع.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تأكيد لقوله «بغتة». قال الكرماني: لا يشعرون بإتيانها أي: وهم غير مستعدّين لها.

قال ابن عباس: تأخذهم الصيحة وهم على أسواقهم ومواضعهم.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ لمّا تقدّم من قول يوسف عليه السلام ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف] وكان قوله تعالى ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف] دالاًّ على أنه حارص على إيمانهم مجتهد في ذلك داعٍ إليه مثابر عليه، وذَكَرَ ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ ﴿١٠٤﴾﴾ [يوسف] أشار إلى ما فهم من ذلك وهو شريعة الإسلام والإيمان وتوحيد الله تعالى فقال: [قل] يا محمد هذه الطريقة والدعوة طريقي التي سلكتُها وأنا عليها. ثم فسّر

تلك السبيل فقال «أدعو إلى الله» يعني لا إلى غيره من ملك أو إنسان أو كوكب أو صنم، إنما دعائي إلى الله تعالى وحده. قال الجمهور: «سبيلي» ديني. ومفعول «أدعو» هو محذوف تقديره: أدعو الناس. والظاهر تعلّق «على بصيرة» «بأدعو». و«أنا» توكيد للضمير المستكن في «أدعو». و«مَن» معطوف على ذلك الضمير والمعنى: أدعو أنا إليها ويدعو إليها من اتّبعني.

ويجوز أن يكون «على بصيرة» خبراً مقدّماً و«أنا» مبتدأ و«مَن» معطوف عليه.

ويجوز أن يكون «على بصيرة» حالاً من ضمير «أدعو» فيتعلّق بمحذوف، ويكون «أنا» فاعلاً بالجار والمجرور النائب عن ذلك المحذوف، «ومن اتّبعني» معطوف على «أنا».

وأجاز أبو البقاء[١] أن يكون «ومن اتّبعني» مبتدأ خبره محذوف تقديره: كذلك أي: داعٍ إلى الله على بصيرة. ومعنى «بصيرة» حجّة واضحة وبرهان متيقّن، من قوله ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنعام][٢]. و«سبحان الله» داخل تحت قوله «قل» أي: قل وتنزيه الله من الشركاء أي: براءة من الله من أن يكون له شريك.

ولمّا أُمر بأن يخبر عن نفسه عليه السّلام أنه[٣] يدعو هو ومن اتّبعه إلى الله تعالى، وأُمر أن يخبر أنه ينزّه الله تعالى عن الشركاء، أُمر أيضاً أن يخبر أنه في خاصة نفسه مُنْتَفٍ عن الشّرك وأنه ليس ممّن أشرك. وهو نفي عامّ في

---

(١) انظر إملاء ٢ : ٥٩.

(٢) ق : جاءتكم.

(٣) ق : أن.

الأزمان لم يكن منهم[1] ولا في وقت من الأوقات.

﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ حصرٌ في المرسَل دعاةً إلى الله تعالى فلا يكون مَلَكاً. قال ابن عباس: «رجالاً» يعني لا نساءً، فلا رسول امرأة. و«القرى» المدن.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الضمير في «أفلم يسيروا» عائد على من أنكر إرسال الرّسل من البشر، ومن عاند الرسول وأنكر رسالته وكفر. أي: هلاّ يسيرون[2] في الأرض، فيعلمون بالتواتر أخبار الرسل السابقة، ويرون مصارع الأمم المكذِّبة، فيعتبرون بذلك.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ هو حضٌّ على العمل لدار الآخرة والاستعداد [لها] واتّقاء المهلكات، وفي هذه الإضافة [٢٩٤/ب] تخريجان: أحدهما أنها من إضافة الموصوف إلى صفته وأصله: وللدّارُ الآخرةُ خير، وهو تخريج كوفيّ. والثاني أن يكون من حذف الموصوف وإقامة صفته مقامه وأصله: ولَدارُ المدّة الآخرة أو النّشأة الآخرة خير، وهو تخريج بصري.

و﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لما قبلها، وليس في اللفظ ما يكون له غاية، فاحتيج إلى تقدير، فقدّره الزمخشري[3]: وما أرسلنا من قبلك إلاّ رجالاً فتراخى نصرهم حتى إذا استيأس الرّسل عن النّصر.

وقال ابن عطية: ويتضمّن قوله «أفلم يسيروا» إلى قوله «من قبلهم» أن الرّسل الذين بعثهم الله من أهل القرى دَعَوْهم، فلم يؤمنوا بهم حتى نزلت بهم المثلات، فصاروا في حيّز من يُعتبَر بعاقبته. فلهذا المضمَّن حَسُن أن

(١) ق: منه.
(٢) ق: يسيروا.
(٣) الكشاف ٢: ٣٤٧.

تدخل «حتى» في قوله «حتى إذا استيأس الرسل» انتهى.

لم يتلخّص لنا من كلامه شيء يكون ما بعد «حتى» غاية له، لأنه علّق الغاية بما ادّعى أنه فهم ذلك من قوله «أفلم يسيروا» الآية. قال أبو الفرج بن الجوزي[1]: المعنى متعلّق بالآية الأولى فتقديره: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، فَدَعَوْا قومهم، فكذّبوهم، وصبروا، وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم حتى إذا استيأس الرسل. وهو نوع من كلام الزمخشري.

وقال القرطبي في تفسيره[2]: المعنى: وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً، ثم لم نعاقب أممهم بالعقاب، حتى إذا استيأس الرّسل. وقرىء: كذّبوا، بالتشديد مبنيًّا للمفعول. والضمير في «وظنّوا» وفي «أنهم» عائد على الرّسل. والظّن بمعنى اليقين والمعنى: وأيقنت الرّسل أنهم قد كذّبهم قومهم. وقرىء: كُذِبوا، بالتخفيف في الذّال مبنيًّا للمفعول أيضاً، والضمائر في «ظنّوا» وفي «أنهم» عائدة على المرسل إليهم والمعنى: وظنّ المُرسَل إليهم أن الرسل قد كَذَبهم من جاءهم بالوحي. وقرىء: فنُنْجي، بنونين مضارع أنجى. ونُجِّيَ، بنون واحدة وشدّ الجيم وفتح الياء مبنيًّا للمفعول. وقرأت فرقة: فنُنْجيَ، بنونين مضارع أنجى وفتح الياء، قال ابن عطية رواها هبيرة عن حفص عن عاصم وهي غلط من هبيرة انتهى.

ليست غلطاً، ولها وجه من العربية وهو أن الشرط والجزاء يجوز أن يأتي بعدهما المضارع منصوباً بإضمار أَنْ بعد الفاء، كقراءة من قرأ ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا

---

(١) زاد المسير ٤ : ٢٩٦.

(٢) ٩ : ٢٧٥. ووصل المصنف قوله: «حتى إذا استيأس الرسل» بما قبله. وليست هي كذلك في القرطبي.

﴿فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ ﴿٢٨٤﴾ [البقرة] بنصب «فيغفر» بإضمار أنّ بعد الفاء. ولا فرق في ذلك بين أن تكون أداة الشرط جازمة أو غير جازمة.

ومفعول «نشاء» محذوف تقديره: نشاء تنجيته[1].

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والبأس هنا الهلاك. وهذه الجملة فيها وعيد وتهديد لمعاصري رسول الله ﷺ.

﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى[2] ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الضمير في «قصصهم» عائد على الرسل والمرسل إليهم، واندرجت فيه قصّة يوسف وغيره.

وقرأ في قِصصهم، بكسر القاف أحمد بن جبير الأنطاكي عن الكسائي والقصبي[3] عن عبد الوارث عن أبي عمرو، جمع قصّة. والعبرة: الدلالة التي يُعبر بها إلى العلم، والعبرة: الاتّعاظ.

والظاهر أنّ اسم «كان» مضمر يعود على القصص أي: ما كان القصص حديثاً مختلقاً بل هو حديث صدق ناطق بالحق جاء به من لم يقرأ الكتب ولا تتلمذ لأحد ولا خالط العلماء.

وانتصب «تصديق» على أنه خبر كان المحذوفة تقديره: ولكنْ [كان] - أي الحديث المشتمل على قصص الأنبياء - تصديقَ الذي بين يديه [أي: بين يدي الحديث. ومعنى «بين يديه»] أي: الكتب المنزلة الإلهيّة.

---

(١) ق: يشاء - في الموضعين - تنجيه.

(٢) ق: للأولي.

(٣) ق: والعصي. وانظر غاية النهاية ٢: ٢١٦.

«وتفصيل كل شيء» مَا يُحتاج إليه في الشريعة.

وقرأ حُمران بن أعين وعيسى الكوفي: تصديقُ وتفصيلُ وهدى [٢٩٥/أ] ورحمةٌ، برفع الأربعة، أي: ولكنْ [هو] تصديق. والجمهور بنصب الأربعة.

وقال ذو الرّمة[١]: [من الطويل]

وما كان عندي من تراثٍ[٢] ورثته ... ولا ديـةٍ كـلاّ ولا كسـبِ مـأثـمِ
ولكـن عطـاء الله مـن كـلّ رحلـةٍ ... إلى كل محجوب السُّرادق خِضْرِمِ

برفع عطاء على إضمار: هو، ونصبه على إضمار: كان.

و«هدى» أي: سبب هداية في الدنيا. «ورحمةً» أي: سبباً[٣] لحصول الرحمة في الآخرة.

وخُصّ المؤمنون بذلك لأنهم هم الذين ينتفعون بذلك كما قال تعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة]. وتقدّم أول السورة قوله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ۝٢﴾ [يوسف] وقوله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ۝٣﴾ [يوسف] وفي آخرها «ما كان حديثاً يفترى» فلذلك احتمل أن يعود الضمير على القرآن وأن يعود على القصص.

---

(١) ديوانه ص٦٣٣ مع اختلاف في رواية البيت الأول.

(٢) ق: تراب.

(٣) ق: سبب.

سورة الرعد(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤ ﴾.

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

هذة السورة مكية في قول، وقيل مدنية، واستثني في كل قول آيات ذكرت في البحر(٢). وتقدم الكلامُ في الحروف المقطّعة في أوائل السور في أول البقرة(٣) فيطالَعُ هناك.

---

(١) مدنية وهي ثلاث وأربعون آية.

(٢) انظر ٥ : ٣٥٨.

(٣) انظر تفسير الآية الأولى من البقرة.

قال الزمخشري[1]: «تلك» إشارة إلى آيات السورة. والمراد بالكتاب السورة، أي تلك آيات السّورة الكاملة العجيبة في بابها [انتهى].

وقيل: «تلك» إشارة إلى جميع كتب الله المنزلة، ويكون المعنى: تلك الآيات التي قصصتُ عليك خبرها هي آيات الكتاب الذي أنزلتُه قبل هذا الكتاب الذي أنزلتُه إليك.

والظاهر أن قوله «والذي» مبتدأ و«الحق» خبره. و«من ربك» متعلق «بأُنزل». و«أكثر الناس» عام في كفّار مكة وغيرهم.

ولمّا ذكر انتفاء الإيمان عن أكثر الناس، ذكر عقيبه ما يدلّ على صحة التوحيد[2] والمعاد وما يجذبهم إلى الإيمان ممّا يفكّر فيه العاقل ويشاهده من عظيم القدرة وبديع الصّنع.

والجلالة مبتدأ و«الذي» هو الخبر.

والضمير في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ عائد على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: تشاهدون السماوات خالية عن عمد. واحتمل هذا الوجه أن يكون «ترونها» كلاماً مستأنفاً، واحتمل أن يكون جملة حاليّة، أي: رفعها مرئيّةً لكم بغير عمد، وهي حال مقدّرة لأنه حين رفعها لم نكن مخلوقين. وقيل: ضمير النصب في «ترونها» عائد على «عمد» أي: بغير عمد مرئيّةٍ، «فترونها» صفة للعمد. وتقدّم[3] تفسير «ثم استوى على العرش».

---

(١) الكشاف ٢: ٣٤٨.

(٢) ق: التوكيد.

(٣) ق: وتقديم. وانظر شرح الآية ٥٤ من الأعراف.

﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ قال ابن عباس: منازل الشمس والقمر وهي الحدود التي لا يتعدّاها، قدّر لكلٍّ منهما سيراً خاصًّا [إلى جهة خاصّة] بمقدار خاص من السرعة والبطء انتهى.

والأجل المسمّى هو يوم القيامة، فعند مجيئه ينقطع ذلك الجريان والتسيير كما قال تعالى ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير] وقال تعالى ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.[القيامة]. ومعنى تدبير الأمر إنفاذه وإبرامه، وعبّر بالتدبير تقريباً للأفهام إذ التدبير إنما هو النظر في أدبار الأمور وعواقبها، وذلك من صفات البشر.

و«الأمر» أمر ملكوته وربوبيّته وهو عامٌّ في جميع الأمور من إيجاد وإعدام وإحياء وإماتة وإنزالِ وحيٍ وبَعْث رسلٍ وتكليف وغير ذلك.

وتفصيل الآيات: جعلها فصولاً مبيّنة مميّزاً بعضها عن بعض.

و«الآيات» دلالاته وعلاماته في سماواته [٢٩٥/ب] على[1] وحدانيّته.

وهاتان الجملتان استئناف إخبار عن الله تعالى.

والخطاب في «لعلّكم» للكفرة. و«توقنون» بالجزاء وبأن هذا المدبّر والمفصّل لا بدّ لكم من الرجوع إليه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾: الآية، [لمّا قرّر الدلائل السماوية، أردفها بتقرير الدلائل الأرضية. وقوله «مدّ الأرض» يقتضي أنها بسيطة لا كروية] وهذا هو ظاهر الشريعة.

---

(١) ق: وعلى.

قال أبو عبد الله الرازي[1]: ثبت بالدليل أن الأرض كرة، ولا ينافي ذلك قوله «مدّ الأرض» وذلك أن الأرض جسم عظيم، والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح، والتفاوت بينه وبين السطح لا يحصل إلاّ في علم الله تعالى، ألا ترى أنه قال ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ] مع أن العالم والناس عليها يستقرّون، فكذلك هنا. وأيضاً إنما ذكر «مدّ الأرض» ليستدلّ[2] به على وجود الصانع. وكونُها مجتمعة تحت البيت على ما قيل أمرٌ غير مشاهد ولا محسوس، فلا يمكن الاستدلال به على وجود الصانع. فتأويل «مدّ الأرض» أنه جعلها مختصّة بمقدار معين، وكونها تقبل الزيادة والنقص أمرٌ جائز ممكن في نفسه، فالاختصاص بذلك المقدار المعيّن لا بدّ أن يكون بتخصيص مخصّص وتقدير مقدّر، وبهذا يحصل الاستدلال على وجود الصانع انتهى ملخّصاً.

والرواسي: الثوابت، والمعنى: جبالاً رواسي. وأيضاً فقد غلب على الجبال وصفها بالرواسي، وصارت الصفة تغني عن الموصوف، فجُمع جَمْع الاسم كحائط وحوائط وكاهل وكواهل. وكانت الأرض مضطربةً فثقّلها الله تعالى بالجبال في أحيازها[3] [فزال اضطرابها].

والاستدلال بوجود الجبال على وجود الصانع القادر الحكيم قيل: من جهة أنّ طبيعة الأرض واحدة، فحصول الجبال في بعض جوانبها دون بعض لا بدّ أن يكون بتخليق قادر حكيم، ومن جهة ما يحصل منها من المعادن الجوهرية والرخامية وغيرها كالنّفط والكبريت يكون الجبل واحداً في الطبع

(١) انظر تفسيره ١٩: ٣.
(٢) ق: يستدلّ.
(٣) وفي إجبارها.

بتقدير قادر قاهر متعالٍ عن مشابهة الممكنات، ومن جهة تَوَلُّد الأنهار منها قيل: وذلك لأن الجبل جسم صلب وتتصاعد أبخرة من[1] قعر الأرض إليه ثم تحتبس هناك، فلا تتكامل فيه، فيحصل بسببه مياه كثيرة، فلقوّتها تشقّ الأرض وتخرج وتسيل على وجه الأرض، فلهذا ففي أكثر الأمر إذا[2] ذكر الله تعالى الجبال ذكر الأنهار كهذه الآية، وكقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات]، ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا ﴿١٥﴾﴾ [النحل].

والأنهار: قال المفسرون: المياه الجارية في الأرض، وتقدّم الكلام في الأنهار في أوائل البقرة[3].

«ومن كل الثمرات» متعلّق «بجعل»، ولمّا ذكر الأنهار ذكر[4] ما ينشأ عنها وهو الثمرات.

والزّوج هنا الصنف الواحد الذي هو نقيض الاثنين، يعني أنه حين مدّ الأرض، جعل ذلك، ثم تكثّرت وتنوّعت.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ الآية، «قطع» جمع قطعة وهي الجزء. و«متجاورات» متلاصقة متدانية قريب بعضها من بعض. وقال ابن عباس: أرض طيبة وأرض سبخة تنبت هذه وهذه إلى جنبها لا تنبت.

وقرىء: وزرع ونخيل صنوان، برفع الأربعة عطفاً على «جنات». وبالجرّ

---

(١) ق: في. و«قعر» غير مقروءة.

(٢) ق: فلهذا في الأمر أكثر إذا.

(٣) انظر تفسير الآية ٢٥ من البقرة.

(٤) ق: وذكر.

عطفاً على «من أعناب». والصّنو: الفرع يجمعه وآخر أصلٌ واحد، وأصله المِثْل، ومنه قيل للعمّ صنو وجمعه في لغة الحجاز صنوان، بكسر الصاد كقِنو وقِنوان، وبضمّها في لغة تميم وقيس كذئب وذُؤبان. ويقال: صَنوان بفتح الصاد وهو اسم جمع لا جمع تكسير لأنه ليس من أبنيته.

﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ ماء مطر أو ماء بحر أو ماء نهر أو ماء عين أو ماء نبع لا يسيل على وجه الأرض. وخصّ [٢٩٦/أ] التفضيل في الأكل وإن كانت متفاضلة في غيره لأنه غالب وجوه الانتفاع من الثمرات، ألا ترى إلى تفاوتها في الأشكال والألوان والروائح والمنافع وما يجري مجرى ذلك؟. قد نبّه تعالى في هذه الآية على قدرته وحكمته، وأنه المدبر للأشياء كلها، وذلك أن الشجر يخرج أغصانها وثمراتها في وقت معلوم، لا يتأخر عنه ولا يتقدّم، ثم يتصعّد الماء في ذلك الوقت علوًّا وليس من طبعه إلا التسفّل، ثم يتفرق ذلك الماء في الورق والأغصان والثمر كلٌّ بقسطه وبقدر ما فيه صلاحه، ثم يختلف طعوم الثمار والماء واحد والشجر جنس واحد، وكل ذلك دليل على مدبّر دبّره وأحكمه لا يشبه المخلوقات.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ قال ابن عباس: في اختلاف الألوان والروائح والطعوم.

﴿لَأَيَـٰتٍ﴾ لحُججاً ودلالاتٍ.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يعلمون الأدلّة، فيستدلّون بها على وحدانيّة الصانع القادر.

ولما كان الاستدلال في هذه الآية بأشياء في غاية الوضوح من مشاهدة تجاور القطع والجنات وسقيها وتفضيلها، جاء ختمها بقوله «لقوم يعقلون» بخلاف الآية التي قبلها، فإن الاستدلال بها يحتاج إلى تأمّل وتزيّد نظر، جاء

ختمها بقوله «لقوم يتفكرون».

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ الآية، لمّا أقام الدليل على عظيم قدرته بما أودعه من الغرائب في ملكوته التي لا يقدر عليها سواه، عجب رسول الله ﷺ من إنكار المشركين وحدانيته وتوهينهم قدرته لضعف عقولهم، فنزل «وإن تعجب». قال ابن عباس: وإن تعجب من تكذيبهم إياك بعدما كانوا حكموا عليك أنك من الصادقين، فهذا أعجب.

وقال الزمخشري[1]: «وإن تعجب» يا محمد من قولهم في إنكار البعث، فقولهم عجيب حقيق بأن يُتعجّب منه، لأنّ من قدر على إنشاء ما عدّد عليك من الفِطَر العظيمة ولم يَعْيَ بخلقهن، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب انتهى.

وليس مدلول [اللفظ] ما ذكر، لأنّه جعل متعلّق عجبه صلى الله عليه وسلم هو قولهم في إنكار البعث [فاتّحد الشرط والجزاء، إذ صار التقدير: وإن تعجب من قولهم في إنكار البعث، فأعجب من قولهم في إنكار البعث]. وإنما مدلول اللفظ أن يقع منك عجب، فليكن من قولهم «أئذا

(١) الكشاف ٢: ٣٤٩.

كنّا[١]» الآية، وكان المعنى الذي ينبغي أن يتعجب منه هو إنكار البعث لأنه تعالى هو المخترع للأشياء، ومن كان قادراً على إبرازها من العدم الصرف، كان قادراً على الإعادة كما قال تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم]. وقوله «فعجب» خبر مقدّم واجب التقديم.

واختلف القرّاء في الاستفهامين إذا اجتمعا، في أحد عشر موضعاً، منها هذا الموضع. والظاهر أنّ «أئذا» معمول «لقولهم» محكيّ به.

قال الزمخشري[٢]: «أئذا كنّا[٣]» إلى آخر قولهم، يجوز أن يكون في محلّ الرفع بدلاً من «قولهم» انتهى.

وهذا إعراب متكلّف وعدول عن الظاهر. وإذا متمحّضة للظرف، وليس فيها معنى الشرط فالعامل [فيها] محذوف يفسّره ما تدلّ عليه الجملة الثانية، وتقديره: أَنُبْعَثُ أو أَنُحْشَر.

«أولئك» إشارة إلى قائلي تلك المقالة، وهي تقرير مصمّم على إنكار البعث، فلذلك حكم عليهم بالكفر إذ عجّزوا قدرته عن إعادة ما أنشأ واخترع ابتداءً. ولمّا حكم عليهم بالكفر في الدنيا، ذكر ما يؤولون[٤] [إليه] في الآخرة على سبيل الوعيد، وأبرز ذلك في جملة مستقلّة مشاراً إليهم.

والظاهر أن الأغلال تكون في أعناقهم حقيقة في الآخرة كما قال تعالى ﴿ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [غافر].

(١) ق: متنا.

(٢) الكشاف ٢: ٣٤٩.

(٣) ق: متنا.

(٤) ق: يؤول.

ولمّا كانوا متوعَّدين[١] بالعذاب إن أصرّوا على الكفر وكانوا مكذّبين بما أُنذروا [به] من العذاب، سألوا واستعجلوا في الطلب أن يأتيهم العذاب، وذلك على سبيل [٢٩٦/ب] الاستهزاء، كما قالوا ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال] وقالوا ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء].

قال ابن عباس: السيئة: العذاب، والحسنة: العافية.

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي: يستعجلونك بالسيئة مع علمهم بما حلّ بغيرهم من مكذّبي الرّسل. في الأمم السّالفة، وهذا يدلّ على سخف عقولهم، إذ يستعجلون بالعذاب والحالة هذه؛ فلو أنه لم يسبق تعذيب أمثالهم لكانوا ربما يكون لهم عذر، ولكنهم لا يعتبرون فيستهزئون.

قال ابن عباس: «المثلات» العقوبات المستأصلات كَمثُلة قطع الأنفِ والأذنِ ونحوهما.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ ترجية للغفران.

و﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ في موضع الحال، والمعنى أنه يغفر لهم مع ظلمهم أنفسهم باكتساب الذنوب، أي: ظالمين أنفسهم.

قال ابن عباس: ليس في القرآن آية أرجى من هذه.

و«لشديد العقاب» تخويف وإرهاب بعد ترجية.

وقال سعيد بن المسيّب: لمّا نزلت هذه الآية قال عليه السلام[٢] «لولا

---

(١) ق: وكانوا متنوّعين.

(٢) لم أجده فيما رجعت إليه، وانظر البحر ٥: ٣٦٧.

عفو الله ومغفرته لما هَنَأَ لأحد عيش[١]، ولولا عقابه لاتّكل كلّ أحد».

وفي حديث آخر[٢] «إن العبد لو علم قدر عفو الله تعالى لما أمسك عن ذنب، ولو علم قدر عقوبته لقمع نفسه في عبادة الله تعالى».

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ عن ابن عباس[٣]: «لمّا نزلت، وضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: أنا المنذر. وأومأ بيده إلى منكب علي رضي الله عنه وقال: أنت الهادي يا علي بك يُهتدى مِن بعدي».

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لمّا تقدّم إنكارهم البعث لتفرُّق الأجزاء واختلاط بعضها ببعض بحيث لا يتهيأ الامتياز[٤] بينها، نبّه على إحاطة علمه تعالى، وأنّ من كان عالماً بجميع المعلومات هو قادر على إعادة ما أنشأ أولاً.

«الله يعلم» كلام مستأنف مبتدأ وخبر. و«ما» موصولة، والعائد عليها

---

(١) ق: لما هنأ أحداً عيش.

(٢) لم أجده، وانظر البحر أيضاً ٥: ٣٦٧.

(٣) انظر الطبري ١٣: ٧٢.

(٤) ق: الامتيان.

محذوف تقديره: تحمله، وهو هنا من حمل البطن لا من حمل الظهر.

﴿وَمَا تَغِيضُ﴾ قال ابن عباس: تنقص من الخلقة. و«تزداد» تتمّ.

وظاهر عموم قوله ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بحدٍّ لا يتجاوزه، ولا يقصّر عنه. والمراد من العنديّة العلم، أي: هو عالم بكميّة كل شيء وكيفيّته على الوجه المفصّل المبيّن، فامتنع وقوع [اللبس] في تلك المعلومات.

ولمّا ذكر تعالى أنه عالم بأشياء خفيّة لا يعلمها إلاّ هو وكانت أشياء جزئيّة من خفايا علمه، ذكر أن علمه محيط بجميع الأشياء. فعِلْمُه تعالى متعلّق بما يشاهده العالم تعلّقه بما يغيب عنهم.

و«الكبير»: العظيم الشأن الذي كل شيء دونه. «المتعال»: المستعلي على كل شيء بقدرته، أو الذي كَبُر عن صفات المُحْدثين وتعالى عنها.

ولمّا ذكر تعالى أنه عالم الغيب والشهادة على العموم، ذكر تعالى تعلُّق علمه بشيء خاص من أحوال المكلّفين فقال «سواء منكم» الآية. والمعنى: سواء في علمه المسرّ بالقول والجاهر به، لا يخفى عليه شيء من أقواله. و«سواء» تقدّم الكلام فيه وفي معانيه[1]، وهو هنا بمعنى مستوٍ.

وأعربوا «سواء» خبراً [مقدّماً و«من أسرّ» والمعطوف عليه مبتدأ مؤخراً. ويجوز أن يكون «سواء»] مبتدأ لأنه موصوف بقوله «منكم»، و«مَن» والمعطوف عليه الخبر.

قال ابن عباس: «مستخفٍ» مستتر، و«سارب» ظاهر.

---

(١) انظر تفسير الآية ٦ من البقرة.

و«سارب» معطوف على مستخفٍ، و«مَن» موصول[١] يراد به التثنية، وحُمل على المعنى في تقسيم خبر المبتدأ الذي هو «هو»، وعلى لفظ «مَن» في إفراد «هو».

والمعنى: سواء اللذان هما مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار.

وانظروا إلى حسن هذه المقابلات في قوله تعالى: تفيض وتزداد، والغيب والشهادة، وأسرّ وجهر، ومستخفٍ [٢٩٧/أ] وسارب، والليل والنهار.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ الضمير في «له» عائد على الله تعالى، أي: لله معقّبات: ملائكة من بين يدي العبد ومن خلفه، والمعقّبات على هذا: الملائكة الحفظة على العباد أعمالهم والحفظة لهم أيضاً، قاله الحسن. وروي فيه حديث عن عثمان عن النبي ﷺ[٢].

قال الزمخشري[٣]: والأصل: معتقبات، فأُدغمت التاء في القاف كقوله ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ ۝٩٠﴾ [التوبة] يعني المعتذرون. ويجوز: مِعقّبات، بكسر العين ولم يُقرأ به.انتهى.

هذا وهم فاحش! لا تدغم [التّاء في القاف ولا القاف في التاء لا من كلمتين ولا من كلمة. وقد نصّ التّصريفيون] على أن القاف والكاف كلٌّ منهما يُدغَم في الآخر ولا يدغمان في غيرهما، ولا يُدغم غيرهما فيهما. وأما تشبيهه بقوله «وجاء المعذّرون» فلا يتعيّن أن يكون أصله: المعتذرون. وأما قوله: ويجوز: مُعِقّبات [بكسر العين، فهذا لا يجوز، لأنه بناه على أنّ

(١) ق: موصولة.
(٢) انظر الطبري ١٣ : ٧٧.
(٣) الكشاف ٢ : ٣٥٢.

أصله: معتقبات] فأُدغمت التاء في القاف، وقد ذكرنا أن ذلك وهم فاحش.

ولمّا ذكر تعالى إحاطة علمه بخفايا الأشياء وجلاياها، وأن الملائكة تعتقب على المكلّفين لضبط ما يصدر منهم، كان الصادر منهم خيراً أو شرًّا[1]، ذكر تعالى أن ما خوّلهم فيه من النعم، وأسبغ عليهم من الإحسان، لا يزيله عنهم إلى الانتقام منهم إلاّ بكفر تلك النعمة وإهمال أمره بالطاعة واستبدالها بالمعصية، فكان في ذكر ذلك تنبيه على لزوم الطاعة، وتحذير من وبال المعصية.

والظاهر أنه لا يقع تغيير النعم بقومٍ حتى يقع تغيير منهم بالمعاصي.

والسُّوء يجمع كل ما يسوء من مرض وفقر وعذاب وغير ذلك من البلاء.

و﴿مِن وَالٍ﴾ أي: من ملجأ.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ لمّا خوّف تعالى العباد بقوله «وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له» أتبعه بما يشتمل على

(١) ق: وكان.. وشرًّا.

أمور دالّةٍ على قدرة الله تعالى وحكمته، تشبه النّعم من وجه والنّقم من وجه.

وتقدّم الكلام في البرق والرّعد والصواعق والسّحاب في البقرة[١].

قال ابن عباس: «خوفاً» من الصواعق «وطمعاً» في الغيث.

وقال أبو عبد الله الرازي[٢]: اعلَمْ أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتمّ بقوى روحانية فلكية. وللسّحاب روح معيّن من الأرواح الفلكية يدبّره، وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار العلوية. وهذا عين ما قلناه إن الرّعد اسم لملك من الملائكة يسبّح الله تعالى. فهذا الذي قاله المفسّرون بهذه العبارة هو عين ما ذكره المحقّقون من الحكماء فكيف [يليق] بالعاقل الإنكار؟ انتهى.

وهذا الرجل غرضه جريان ما تنتحله الفلاسفة على مناهج الشريعة، ولن[٣] يكون ذلك أبداً. وقد تقدّمت أقوال المفسرين في الرّعد في البقرة[٤]، فلم يُجمعوا على أن الرعد اسم لملك. وعلى تقدير أن يكون اسماً لملك، لا يلزم أن يكون ذلك الملك يدبّر السّحاب ولا غيره؛ إذ لا يُستفاد مثل هذا إلاّ من النبي المشهود له بالعصمة لا من الفلاسفة الضُّلاّل. والظاهر عَوْد الضمير في قوله «من خيفته» على الله تعالى، كما دلّ عليه في قوله «بحمده». ومعنى «من خيفته» من هيبته وإجلاله.

(١) انظر تفسير الآية ١٩ من البقرة.

(٢) تفسيره ١٩ : ٢٨.

(٣) ق: وأن.

(٤) انظر ما سبق قبل حاشيتين.

و«مَن» مفعول «بيصيب» وهو من باب الإعمال أعمل فيه الثاني؛ إذ «يرسل» يطلب «مَن» و«فيصيب» يطلبه، ولو أعمل الأول، لكان التركيب في غير القرآن: ويرسل الصواعق فيصيبه بها على من يشاء. لكن جاء على الكثير في لسان العرب المختار عند البصريين وهو إعمال الثاني.

ومفعول «يشاء» محذوف تقديره: من يشاء إصابته.

والضمير في «وهم» عائد على الكفّار المكذّبين الرسول المنكرين الآيات. «يجادلون» في قدرة الله [٢٩٧/ب] تعالى على البعث وإعادة الخلق بقولهم ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨﴾ [يس]، وفي وحدانيّته باتّخاذ الشركاء والأنداد ونسبة التوالد إليه بقولهم: الملائكة بنات الله.

و«المحال» بكسر الميم: العداوة يعني لمن جادل في الله تعالى، قاله ابن عباس.

[والضمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائد على الله و﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ قال ابن عباس]: دعوة الحق: لا إله إلا الله وما كان من الشريعة في معناها.

قال الزمخشري[١]: «له دعوة الحق» فيه وجهان: أحدهما أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل، كما تضاف الكلمة إليه في قولك[٢]: كلمة الحق للدّلالة على أنّ الدعوة ملابسة للحق مختصّة به، وأنها بمعزل من الباطل. والمعنى أن الله سبحانه يُدعى، فيستجيب الدعوة، ويعطي الداعي سؤاله إن[٣] كان مصلحة له، فكانت «دعوة» ملابسة للحقّ،

(١) الكشاف ٢: ٣٥٤.

(٢) ق: قوله.

(٣) ق: وإن.

لكونه حقيقياً بأن يوجّه إليه الدعاء لما في دعوته من الجدوى والنفع بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه. والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله تعالى على معنى: دعوة المدعوّ الحق الذي يسمع فيجيب. وعن الحسن: الحقّ هو الله تعالى وكل دعاء إليه دعوة الحق انتهى.

وهذا الوجه الثاني الذي ذكره الزمخشري لا يظهر، والظاهر أن هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى الصفة كقوله تعالى ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف] على أحد الوجهين، والتقدير: لله الدعوة الحق بخلاف غيره فإن دعوتهم باطلة. والمعنى أن الله تعالى، الدعوة له هي الدعوة [الحق]. ولمّا ذكر تعالى جدال الكفار لله تعالى، وكان جدالهم في إثبات آلهة معه، ذكر تعالى أنه له دعوة الحق، أي: من يدعو له، فدعوته هي الحق، بخلاف أصنامهم التي جادلوا في الله لأجلها، فإن دعاءها باطل لا يتحصّل منه شيء فقال «والذين يدعون».

والضمير في «يدعون» عائد على الكفار، والعائد على «الذين» محذوف أي: يدعونهم.

﴿مِن دُونِهِۦ﴾ الضمير عائد [على] الله سبحانه.

﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾ شُبّهوا في قلّة جدوى دعائهم لآلهتهم بمن أراد أن يغرف الماء بيديه، ليشربه، فبسطهما ناشراً أصابعه، فلم تُبْقِ[1] كفّاه منه شيئاً، ولم يبلغ طَلِبته من شربه. وهذا مبالغة عظيمة في الخيبة لدعائهم لآلهتهم.

(١) ق: أن يغرفه.. فبسطها.. فلم يلق.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ آلهتهم ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ أي: في حيرة واضمحلال لأنه لا يجدي شيئاً ولا يفيد، فقد ضلّ ذلك الدعاء عنهم كما ضلّ المدعوون، قال تعالى ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف].

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية، إن كان السجود بمعنى الخضوع والانقياد «فمَن» على عمومها ينقاد كلّهم لما أراده تعالى بهم شاؤوا أو أَبَوْا، وينقاد له تعالى ظلالهم حيث هي على مشيئته من الامتداد والتّقلص والفيء والزّوال. وإن كان السجود عبارة عن الهيئة المخصوصة وهو وضع الجبهة بالمكان الذي يكون فيه الواضع، فيكون عامًّا مخصوصاً، إذ يخرج منه من لا يسجد، ويكون قد عبّر بالطّوع عن سجود الملائكة والمؤمنين، وبالكره عن سجود من ضمّه السيف إلى الإسلام. والذي يظهر أن مساق هذه الآية إنما هو العالم كلّه مقهور لله تعالى خاضع له، ولما أراد منه مقصور على مشيئته، لا يكون منه إلا ما قدّر تعالى، فالذين يعبدونهم كائناً ما كانوا داخلون تحت القهر، ويدل على هذا المعنى تشريك الظّلال في السجود، والظلال ليست أشخاصاً يُتصور منها السجود بالهيئة المخصوصة، ولكنها داخلة تحت مشيئته تعالى، يصرّفها على ما أراد، إذ هي من العالم، والعالم جواهره وأعراضه داخلة تحت إرادته كما قال تعالى ﴿أَوَلَمْ[٢٩٨/ أ] يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ ﴿٤٨﴾﴾ [النحل].

قال الفراء: الظّل مصدر، يعني في الأصل. ثم أطلق على الخيال الذي يظهر للجرم، رطوله بحسب انحطاط الشمس وقصره بسبب ارتفاعها، فهو منقاد لله تعالى في طوله وقصره وميله من جانب إلى جانب. وخُصّ هذان الوقتان بالذكر لأنّ الظّلال إنما تكثر وتعظم فيهما.

وتقدّم شرح الغدوّ والآصال في آخر الأعراف[1].

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ
نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ
شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى
ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ
جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ
ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا
وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الآية، أي: قل يا محمد للكفّار «من رب السماوات والأرض» استفهام تقرير واستنطاق فإنهم يقولون الله. فإذا قالوها، قل: الله، أي: هو كما قلتم. وروي أنه لمّا قال هذا للمشركين، عطفوا عليه، فقالوا: أجب أنت. فأمره الله تعالى فقال «قل الله» انتهى.

واستفهم بقوله «قل أفاتّخذتم» على سبيل التّوبيخ والإنكار، أي: بعد أن علمتم أنه تعالى هو رب السماوات والأرض تتّخذون من دونه أولياء، وتتركونه، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبباً للتوحيد، من علمكم وإقراركم، سبباً للإشراك. ثم وصف تلك الأولياء بصفة العجز، وهي كونها لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضرًّا، ومَن بهذه المثابة فكيف يملك لكم نفعاً وضرًّا؟. ثم مثّل ذلك بحالة الكافر والمؤمن ثم حالة الكفر والإيمان، وأبرز

(١) انظر تفسير الآية ٢٠٥ من الأعراف.

ذلك في صورة الاستفهام الذي يبادر المخاطَب[١] إلى الجواب فيه من غير فكر ولا رويّة بقوله «قل هل يستوي الأعمى والبصير» ثم انتقل إلى الاستفهام عن الوصفين القائمين بالكافر وهو الظلمات، وبالمؤمن وهو النور.

وتقدّم الكلام في جمع الظلمات وإفراد النّور في البقرة[٢].

و«أم» في قوله «أم هل» منقطعة تتقدّر بـبل والهمزة على المختار، والتقدير: بلْ أَهَلْ تستوي. وهل وإن نابت عن همزة الاستفهام في كثير من المواضع فقد جامعتها في قول الشاعر[٣]: [من البسيط]

[سائل فوارس يربوعٍ بشدّتنا] أهل رأونا بوادي القفّ ذي الأكمِ

ومثال قوله تعالى «أم هل» في الجمع بين أم وهل قول علقمة[٤]:

أم هل كبير بكى لم يَقْضِ عبرته [إثْرَ الأحبّة يوم البين مشكوم]

ثم انتقل إلى الإخبار عنهم غائباً من خطابهم، إعراضاً عنهم وتنبيهاً على توبيخهم في جعلهم شركاء[٥]، وتعجيباً منهم وإنكاراً عليهم. وتضمّن هذا الاستفهام التهكّم بهم لأنه معلوم بالضرورة أن هذه الأصنام وما اتخذوا من دون الله أولياء وجعلوهم شركاء، لا تقدر على خلق ذرّة ولا إيجاد شيء البتّة.

(١) ق: إلى المخاطب.

(٢) لم يتقدم الكلام في ذلك في أي موضع.

(٣) البيت لزيد الخيل في المقتضب ١: ٤٤، والخصائص ٢: ٤٦٣.

(٤) البيت في المفضليات ص٣٩٧.

(٥) ق: شركائهم.

والمعنى أن هؤلاء الشركاء هم خالقون شيئاً حتى يستحقوا العبادة وجَعْلَهم شركاء لله تعالى، أي: جعلوا لله شركاء موصوفين بالخلق مثل خلق الله تعالى، فيتشابه ذلك عليهم فيعبدونهم. ومعلوم أنهم لا يخلقون شيئاً، وهم يُخلقون فكيف يُشرَكون في العبادة ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴿١٧﴾﴾ [النحل].

ثم أمره تعالى فقال «قل الله خالق كل شيء» أي: موجد الأشياء كلها معبوداتهم وغيرها، وهم أيضاً مقرّون بذلك ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان].

واحتمل أن يكون قوله «وهو الواحد القهّار» داخلاً تحت الأمر «بقل»، فيكون قد أُمر أن يخبر بأنه تعالى الواحد المنفرد بالإلهيّة، القهار الذي جميع الأشياء تحت قدرته وقهره. واحتمل أن يكون استئناف إخبار منه تعالى بهذين الوصفين: الوحدانية والقهر، فهو تعالى لا يُغالَب وما سواه مقهور له.

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الآية، هذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب [٢٩٨/ب] والحق والباطل؛ فالماء مثل القرآن لما فيه من(١) حياة القلوب وبقاء الشرع والدين، والأودية مثل القلوب.

ومعنى «بقدرها» على سعة القلوب وضيقها، فمنها ما انتفع به فحفظه ووعاه، فتدبّر فيه، فظهرت ثمرته وأدرك تأويله ومعناه، ومنها دون ذلك بطبقة ومنها دونه بطبقات.

والزبد: مثل الشكوك والشُّبَه وإنكار الكافرين أنه كلام الله تعالى ودَفْعهم

---

(١) ق: ملء.

إياه. والماء الصافي المنتفع به مثل الحق، وفي الحديث الصحيح ما يؤيد هذا التأويل وهو قوله عليه الصلاة والسلام[١] «مثل ما بُعثت به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً وكانت منها طائفة [طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها طائفة] أجادب فأمسكت الماء فانتفع الناس به، وسَقَوْا ورَعَوْا، وكانت منها قيعان[٢]، لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً. فذلك مثل ما جئت[٣] به من العلم والهدى، ومثل من لم يقبل هدى الله تعالى الذي أُرسلتُ به».

والماء: المطر. ونكّر «أودية»[٤] لأن المطر إنما ينزل على طريق المناوبة فيسيل بعض الأودية دون بعض. و«أودية» جمع قلّة كقولهم: نادٍ وأندية.

والزبد: قال الرّماني: وَضَرُ[٥] الغليان وخبثه، وقال [الشاعر][٦]:

فما الفرات إذا هبّ الرّياح له ترمي غواربُه العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ

ومعنى «بقدرها» أي: على قدر صغرها وكبرها أو بما قُدّر لها من السماء بسبب نفع الممطور عليهم لا ضرّهم، ألا ترى إلى قوله تعالى «وأمّا ما ينفع الناس». فالمطر [مثل] للحق فهو نافع خالٍ من الضرر.

وعرّف «السيل» لأنه عنى به ما فهم من الفعل، والذي يتضمنه الفعل من

---

(١) أخرجه مسلم ٤: ١٧٨٧ من حديث أبي موسى، مع اختلاف في الرواية.

(٢) ق: قيعاً. والقيع والقاع بمعنى. والقيعان جمع القاع.

(٣) ق: جلت.

(٤) ق: وأودية.

(٥) وضر الغليان: وسخه.

(٦) البيت للنابغة في ديوانه ص٢٢. وهو من البسيط

المصدر[1] هو نكرة، فإذا عاد عليه الظاهر كان معرفة كما كان لو صرّح به نكرة، ولذلك يُضمر إذا عاد على ما دلّ عليه الفعلِ من المصدر نحو: من كذب كان شرًّا له، أي: كان الكذب. ولو جاء هنا مضمراً لكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من «فسالت».

و«احتمل» بمعنى حمل جاء فيه افتعل بمعنى المجرد كاقتدر وقدر.

و﴿رَّابِيًاۚ﴾ منتفخاً عالياً على وجه السيل ومنه[2] الرّبوة.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ[3]﴾ أي: ومن الأشياء التي توقدون عليها وهي الذهب والفضّة والحديد والنحاس والرصاص والقصدير ونحوها مما يوقد عليه وله زبد. وانتصب «ابتغاء» على أنه مفعول من أجله.

والحلية: ما يُعمل للنساء ممّا يتزيّنّ [به] من الذهب والفضة.

والمتاع: ما يُتخذ من الحديد والنحاس وما أشبههما من الآلات التي هي قوام العيش كالأواني والمساحي[4] وآلات الحرث وقطاعات الأشجار والسكك وغير ذلك. و«زبد» مرفوع بالابتداء وخبره في قوله «ومما يوقدون[5]». و«مِن» الظاهر أنها للتبعيض لأن الزّبد هو بعض ما يوقد عليه من تلك المعادن. و«من» أيضاً تكون لابتداء الغاية أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء. والمماثلة في كونهما يتولّدان من الأوساخ والأكدار.

---

(١) من المصدر: مكررة في ق.

(٢) ق: وفيه.

(٣) ق: توقدون.

(٤) المساحي: جمع مسحاة وهي ما يُسحى به (أي يُجرف) كالمجرفة.

(٥) ق: توقدون.

و«الحق والباطل» على حذف مضاف أي: مَثَل الحق والباطل؛ شبّه الحق بما يخلص من جرم هذه المعادن من الأقذار والخبث ودوام الانتفاع بها، وشبّه الباطل بالزّبد المجتمع من الخبث والأقذار، ولا بقاء له ولا قيمة. وفصّل ما سبق ذكره ممّا ينتفع [به] ومن الزبد، فبدأ بالزّبد إذ هو المتأخّر في قوله «زبداً رابياً» وفي قوله «زبد مثله» ولكون الباطل كناية عنه وهو متأخر. وهي طريقة فصيحة: يبدأ في التقسيم بما ذكر آخراً كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ[٢٩٩/ أ]وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [آل عمران] والبداءة بالسابق فصيحة كقوله تعالى ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴿١٠٦﴾ ﴾ [هود] وكأنه - والله أعلم - يبدأ في التفصيل بما هو أهمّ في الذكر.

وانتصب «جفاء» على الحال أي: مضمحلاً متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له. والجُفاء: اسم لما يجفَؤُه السيل أي: يرمي به، يقال: جَفَأَت القدر بزبدها وجفأ السيل بزبده وأجفأ وأجفل.

وقال ابن الأنباري: «جفاء» متفرقاً من جفأت الريح الغيم إذا قطّعته، وجفأت الرجل: صرعته.

ويقال: جفأ الوادي وأجفأ إذا نشف.

و«الزبد» يراد به ما سبق ممّا[1] احتمله السيل وما خرج من خبث المعادن. وأُفرد الزّبد ولم يُثَنَّ وإن تقدّم زَبَدان لاشتراكهما في مطلق الزبدية فهما واحد باعتبار القدر المشترك.

﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ ﴾ أي: من الماء الخالص من الغثاء ومن الجوهر

(١) ق: من ماء.

المعدني الخالص من الخبث.

﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لانتفاع الناس به. والكاف في موضع نصب أي: مَثَل ذلك الضرب كمثل الحق والباطل يضرب الله الأمثال.

والظاهر أنه لمّا ضرب هذا المثل للحق والباطل، انتقل إلى ما لأهل الحق من الثواب وأهل الباطل من العقاب فقال ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: للذين دعاهم الله تعالى على لسان رسوله ﷺ فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من اتّباع دينه الحالة الحسنى، وذلك هو النّصر في الدنيا وما اختصّوا به من نعمه تعالى ودخول الجنة في الآخرة. «فالحسنى» مبتدأ وخبره في قوله «للذين».

قال الزمخشري[1]: «للذين استجابوا» متعلق «بيضرب» أي: كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين الذين استجابوا وللكافرين الذين لم يستجيبوا، أي: هما مَثَلا الفريقين[2]. و«الحسنى» صفة لمصدر «استجابوا» أي: استجابوا الاستجابة. وقوله «لو أن لهم» كلام مبتدأ [في] ذكر ما أعدّ لغير المستجيبين انتهى.

التفسير الأول أولى لأنّ فيه ضرب الأمثال غير مقيّد بمثل هذين، والله تعالى قد ضرب أمثالاً كثيرة في هذين وفي غيرهما، ولأنه فيه ذكر ثواب المستجيبين، بخلاف قول الزمخشري. فلما ذكر ما أعدّ لغير المستجيبين من العقاب ذكر ما للمستجيبين من الثواب، ولأن تقديره الاستجابة الحسنى مشعر بتقييد الاستجابة، ومقابلها ليس نفي الاستجابة مطلقاً إنما مقابلها نفي الاستجابة بالحسنى، والله تعالى قد نفى الاستجابة مطلقاً، ولأنه على قوله

(١) الكشاف ٢: ٣٥٦.

(٢) ق: للفريقين.

يكون قوله «لو أنّ لهم ما في الأرض» كلاماً مفلتاً ممّا قبله أو كالمفلت إذ يصير المعنى: كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين والكافرين لو أنّ لهم ما في الأرض، فلو كان التركيب بحرفٍ رابطٍ «لو» بما قبلها زال التّفلت. وأيضاً فيوهم الاشتراك في الضمير وإن كان تخصيص ذلك بالكافرين معلوماً لهم. و«الذين لم يستجيبوا» مبتدأ خبره ما بعده. وغاير بين جملتي الابتداء لما يدلّ عليه تقديم الجارّ والمجرور من الاعتناء والاهتمام.

«لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً» و«سوء الحساب» قال ابن عباس: أن لا تقبل حسناتهم ولا تغفر سيئاتهم. وتقدم تفسير مثل «ومأواهم جهنم»(١).

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ الآية، قال ابن عباس: نزلت في حمزة وأبي جهل. ولمّا ذكر تعالى مثل المؤمن والكافر وذكر ما للمؤمن من الثواب وما للكافر من العقاب، ذكر استبعاد من يجعلهما سواء وأنكر ذلك فقال «أفمن يعلم أنّما أنزل [٢٩٩/ب] إليك من ربك الحق كمن هو أعمى» أي: ليسا مشتبهين لأنّ العالم بالشيء بصير به، والجاهل به كالأعمى. والمراد عمى البصيرة ولذلك قابله بالعلم. والهمزة للاستفهام

(١) انظر مثلاً تفسير الآية ١٩٧ من آل عمران.

والمراد به إنكار أن تقع شبهة بعدما ضرب من المثل في أن حال من علم أنّما أنزل إليك من ربك الحق، فاستجاب، بمعزلٍ من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب كبُعد ما بين الزبد والماء، والخبث والإبريز. ثم ذكر أنه لا يتذكر بالموعظة وضرب الأمثال إلاّ أصحاب العقول. والفاء للعطف، وقدّمت همزة الاستفهام لأنّ له صدر الكلام والتقدير: فَأَمَنْ[1] يَعلم.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من «أولو» أو صفة له أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم الذين. والظاهر إضافة «عهد» إلى الفاعل أي: بما عهد الله. والظاهر أن قوله «ولا ينقضون الميثاق» جملة توكيدية لقوله «يوفون بعهد الله» لأن العهد هو الميثاق، ويلزم من إيفاء العهد انتفاء نقضه.

و﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهره العموم في كلّ ما أمر به في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: وعيده كلّه.

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: استقصاءه فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا.

و﴿صَبَرُوا۟﴾ مطلق فيما يُصبَر عليه من المصائب في النفوس والأموال وميثاق التكليف. وجاءت الصلة هنا بلفظ الماضي وفي الموصولَيْن قبلُ بلفظ المضارع في قوله «الذين يوفون» و«الذين يصلون» وما عطف عليهما، على سبيل التفنّن في الفصاحة. ويظهر أيضاً أن اختصاص هذه الصّلة بالماضي وتَيْنك بالمضارع، أنّ تينك الصّلتين قُصد بهما الاستصحاب والالتباس

(١) ق: أفمن.

دائماً، وهذه الصّلة قُصد بها تقدّمها على تينك الصّلتين وما عُطف عليهما؛ لأنّ حصول تلك الصّلات إنما هي مرتّبة على حصول الصبر وتقدّمه عليها، ولذلك لم تأت صلة في القرآن بالصبر إلا بصيغة الماضي، إذ هو شرط في حصول التكاليف وإيقاعها.

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ يدفعون، أي: يدفعون الشّر بالخير.

و﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ عاقبة الدنيا، وهي الجنة[1]، لأنها التي أراد الله تعالى أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها.

و﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدل من «عقبى الدار». ويحتمل أن يُراد: عقبى دار الآخرة لدار الدنيا، أي: العقبى الحسنة في الدار الآخرة هي لهم. ويحتمل أن يكون «جنات» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي جنّات.

والظاهر أنّ «ومَن» معطوف على الضمير في «يدخلونها» وقد فصل بينهما بالمفعول.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي: بالتحف والهدايا من الله تعالى تكرمةً لهم.

وارتفع «سلام» على الابتداء. و«عليكم» الخبر. والجملة محكيّة بقول محذوف تقديره: يقولون سلام عليكم. والمخصوص بالمدح محذوف أي: فنعم عقبى الدار الجنة، أو[2] فنعم عقبى الدار الصبر.

و﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلّق بذلك المحذوف الذي هو: يقولون سلام عليكم

(١) ق: الجمعة.

(٢) ق: وفنعم.

بسبب صبركم، أي: تحيّة الملائكة لهم ودخولهم عليهم من كل باب بالتحف والهدايا هو بسبب صبرهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ
فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ
بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ ﴾ الآية، لما ذكر حال السعداء وما ترتّب لهم من الأمور السّنية الشريفة، ذكر حال الأشقياء وما ترتّب لهم من الأمور المخزية. وتقدم تفسير ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة] في أوائل البقرة. وترتّب هناك للسعداء التصريح بعقبى الدار وهي الجنة وإكرام الملائكة لهم بالسّلام وذلك غاية القرب والتّأنيس، وهنا ترتّب للأشقياء الإبعاد من رحمة الله تعالى.

و﴿ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ أي: الدار السّوء وهي النار، أو سوء [٣٠٠/أ] عاقبة الدار، وتكون دار الدنيا.

ولمّا كان كثير من الأشقياء فتحت عليهم نعم الدنيا ولذّاتها أخبر تعالى أنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. والكفر والإيمان لا تعلّق لهما بالرزق، قد يُقْدَر على المؤمن ليعظم أجره، ويبسط للكافر إملاءً لازدياد آثامه.

و﴿وَيَقۡدِرُ﴾ مقابل ﴿يَبۡسُطُ﴾ وهو التضييق.

والضمير في «وفرحوا» عائد على «الذين ينقضون» وهو استئناف إخبار عن جهلهم بما أوتوا من بسطة الدنيا عليهم، وفرحهم هو فرح بطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى وإنعامه عليهم.

و«متاع» معناه ذاهب مضمحلّ يستمتع به قليلاً ثم يفنى كما قال الشاعر[1]: [من الخفيف]

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أنْ لا بقاء للإنسان

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ[2] ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [نزلت] هذه الآية في مشركي مكّة طلبوا مثل آيات الأنبياء، والملتمس ذلك هو عبد الله بن أبي أمية وأصحابه. ردّ تعالى على مقترحي الآيات من كفّار قريش أن الأمر بيد الله تعالى، يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء. ومفعول «يشاء» محذوف تقديره: من يشاء إضلاله. و«إليه» متعلق «بيهدي» أي: إلى طاعته.

و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل مِن «مَن أناب». واطمئنان القلوب: سكونها بعد الاضطراب من خشيته. وذِكْر الله تعالى: ذكر رحمته ومغفرته.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من «الذين» أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم الذين، أو مبتدأ خبره ما بعده. و«طوبى» فُعلى من الطّيب، قلبت ياؤه واواً لضمّة ما قبلها كما قلبت في موسر.

و«طوبى» مبتدأ خبره «لهم»، و«حسن مآب» معطوف عليه. و«طوبى»

---

(١) البيت في القرطبي ٦: ٤١٤، ورد على لسان جارية لسليمان بن عبد الملك.

(٢) ق: إليه.

تأنيث الأطيب وكان القياس أن يكون بالألف واللام، وقد جاء نظيره بغير ألف ولام كقولهم[1]: [من الرجز]

[مـــن نـــزلٍ إذا الأمـــور غبّــتِ] في سعي دنيا طال ما قد مُدَّتِ[2]

وقول الآخر[3]: [من البسيط]

وإن دعوتِ إلى جُلّى ومكرمةٍ يوماً إليك كرام الناس فادْعِينا

وتأنيث الأفعل ممّا عينه ياء أن يأتي على فُعلى، فتارة تبدل ياؤه واواً، قالوا: الحوراء، وتارة يقروّنها ياء، قالوا: الحيرى، فطوبى جاءت على أحد الوجهين.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ﴾ الكاف للتشبيه. و«ذلك» إشارة لإرسال من تقدّم من الرسل، أي: مِثْل إرسالهم إرسالك. ويدلّ على ذلك قوله «قد خلت من قبلها أمم» [أي: «رُسُل أمم»]. و«لتتلو» متعلق بقوله «أرسلناك».

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ جملة حالية، أي: أرسلناك في أمة رحمة لها مني وهم يكفرون بي، أي: وحال هؤلاء أنهم «يكفرون بالرحمن» بالبليغ الرحمة. والظاهر أن الضمير من قوله «وهم» عائد على أمّة المرسل إليهم الرسول عليه السّلام، أعاد على المعنى إذ لو أعاد على اللفظ لكان التركيب: وهي تكفر. والمعنى: أرسلناك إليهم وهم يدينون دين الكفر، فهدى الله تعالى بك من أراد هدايته. والمعنى الإخبار بأن الأمم السالفة المرسل إليهم

(١) البيت للعجّاج في ديوانه ص٢٦٧.
(٢) ق: قدمت.
(٣) البيت لبشامة بن حزن النهشلي في شرح ديوان الحماسة ١: ١٠١.

الرسل والأمة التي أُرسلتَ إليها جميعهم جاءتهم الرسل وهم يدينون دين الكفر، فيكون في ذلك تسلية لرسول الله ﷺ، إذ أمّته مثل الأمم السّالفة. ونبّه على الوصف الموجب لإرسال الرسول عليه السلام وهو الرحمة الموجبة(١) لشكر الله تعالى على إنعامه ببعثة الرسول عليه [٣٠٠/ب] السلام والإيمان به.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ﴾ الآية، قال ابن عباس وغيره إن الكفار قالوا للنبي ﷺ: سَيِّرْ جبلي مكة فقد ضيّقا علينا واجعل لنا أرضاً قطعاً غراسة، وأَحْي لنا آباءنا وأجدادنا وفلاناً، فنزلت(٢) مُعْلمة أنهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كله. ولمّا ذكر تعالى علّة إرساله وهي تلاوته ما أوحاه إليه ذكر تعظيم هذا الموحى وأنه لو كان قرآناً تسيّر به الجبال عن مقارّها أو تقطّع به الأرض

---

(١) ق: الرّجبة.

(٢) انظر أسباب النزول ص١٨٥، ولباب النقول ص١٣٠.

حتى تتزايل[1] قطعاً قطعاً أو تكلّم به الموتى فتسمع وتجيب لكان هذا القرآن، لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف كما قال تعالى ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر]. فجواب «لو» محذوف وهو ما قدّرناه. ويجوز أن يكون جواب «لو»: ما آمنوا.

﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ «بل» هنا للانتقال أي: أن الإيمان والكفر بيد الله تعالى يخلقهما فيمن يشاء، واليأس: القنوط من الشيء وهو هنا في قول الأكثرين بمعنى العلم كأنه قيل: أفلم يعلم الذين آمنوا.

قال القاسم بن معن: هي لغة هوازن.

وقال ابن الكلبي: هي لغة حيّ من النّخع. وأنشدوا لسحيم بن وثيل الرياحي[2]: [من الطويل]

أقول لهم بالشَّعب إذ يشترونني ألم تيأسوا أني ابنُ فارسِ زَهْدَمِ

و«أن لو يشاء» [قبله] قسم محذوف تقديره: وأقسم أن لو يشاء الله، وقد صرّح بالقسم قبل «أن، ولو» في قول الشاعر[3]: [من الطويل]

وأقسم أنْ لو التقينا وأنتمُ لكان لكم[4] يوم من الشّر مظلم

---

(١) أي: تتباين.

(٢) ق: بن وهل. والبيت في اللسان «يأس» منسوب لسحيم، وفي القرطبي ٩: ٣٢٠ لمالك بن عوف.

(٣) هو المسيب بن علس، والبيت من شواهد الكتاب ٣: ١٠٧.

(٤) ق: لنا.

و«أنْ» زائدة في هذا التركيب نص على ذلك سيبويه[١]. ومفعول «يشاء» محذوف تقديره: الهداية. وجواب «لو»: «لَهَدى الناس».

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾ من كفرهم وسوء أعمالهم.

﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تقرعهم بما يُحلّ الله تعالى بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم، أو تحلّ القارعة قريباً منهم فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شرارها، ويتعدّى إليهم شرورها. «حتى يأتي وعد الله» وهو موتهم أو القيامة.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ تقدم الكلام [عليه][٢]. «فكيف كان عقاب» استفهام[٣] معناه التعجب ممّا حلّ بهم والتقرير[٤]، وفي ضمنه وعيد معاصري الرسول عليه السلام من الكفار.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الآية، «من» موصولة صلتها ما بعدها. وهي مبتدأ والخبر محذوف تقديره: كمن ليس كذلك من شركائهم التي لا تضرّ ولا تنفع، كما حُذف من قوله ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر] تقديره: كالقاسي قلبه الذي هو في ظلمة. ودلّ عليه قوله «وجعلوا لله شركاء» كما دلّ على: كالقاسي قوله «فويل للقاسية قلوبهم». ويُحسّن حذف هذا الخبر كون المبتدأ يكون مقابله [الخبر] المحذوف. وقد جاء مثبتاً كثيراً كقوله تعالى ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴿١٧﴾﴾ [النحل] «أفمن يعلم» ثم قال

(١) الموضع السابق ٣: ١٠٧.
(٢) انظر تفسير الآية ١٠ من الأنعام.
(٣) ق: استفام.
(٤) ق: والتقدير.

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴿١٩﴾ ﴾ [الرعد].

والظاهر أن قوله ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ استئناف إخبار عن سوء صنيعهم وكونهم أشركوا مع الله ما لا يصلح للألوهية، نعى عليهم هذا الفعل القبيح. هذا والباري تعالى محيط بأحوال النفوس جليّها وخفيّها، ونبّه على بعض حالاتها وهو الكسب ليتفكر الإنسان فيما يكسب من خير وشرّ، وما يترتّب على الكسب من الجزاء.

وعبّر «بقائم» عن الإحاطة والمراقبة التي لا يغفل عنها.

[٣٠١/أ] [ثم] أمره تعالى أن يقول لهم «سمّوهم» أي: اذكروهم بأسمائهم.

والمعنى أنهم ليسوا ممّن يذكر ولا يسمّى، إنما يُذكر ويُسمّى من هو ينفع ويضر.

و«أم» في قوله «أم تنبّئونه» منقطعة فتقدّر ببل والهمزة، تقديره: بل أتنبّئونه. والضمير في: أتنبّئونه عائد علىٰ الله تعالى. و«ما» في «بما» موصولة والعائد محذوف تقديره: يعلمه. والضمير في «يعلم» عائد على الله تعالى.

والمعنى: أتنبّئون الله بشركة الأصنام التي لا تتصف بعلمٍ البتّة.

وذكر نفي العلم في الأرض، إذ الأرض هي مقرّ تلك الأصنام، فإذا انتفى علمها في المقرّ التي هي فيه فانتفاؤه في السماوات أحرى. وعلى هذا التأويل يكون الفاعل «بيعلم» ضميراً يعود على «ما»، وعلى الأول ذكرنا أنه عائد على الله تعالى.

والمعنى على هذا استفهام التوبيخ على أنه عندهم لا يكون علمه في السماوات ولا في الأرض بل علمه تعالى محيط [بجميع الأشياء].

والظاهر في «أم» من قوله «أم بظاهر» أنها منقطعة أيضاً، أي: بل أتسمّونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك[1] حقيقة، أي: أنكم تنطقون بتلك الأسماء وتسمّونها[2] آلهة ولا حقيقة لها إذ أنتم تعلمون أنها لا تتّضف بشيء من أوصاف الإلٰه لقوله تعالى ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف] والظاهر أن قوله «أم بظاهر» معطوف على قوله «بما لا يعلم».

والعذاب في الدنيا هو ما يصيبهم بسبب كفرهم من القتل والأسر والنّهب والذّلة[3] والجدوب والبلايا في أجسامهم وغير ذلك ممّا يمتحن به الكافر، وكان عذاب الآخرة أشقّ على النفوس لأنه إحراق بالنّار دائماً ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]. و«من واق» من ساتر يحفظهم عن العذاب ويحميهم[4].

ولمّا ذكر ما أعدّ للكفّار في الآخرة ذكر ما أعدّ للمؤمنين فقال ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي: صفتها التي هي [في] غرابة المثل. وارتفع «مثل» على الابتداء في مذهب سيبويه، والخبر محذوف أي: فيما قصصنا عليكم مثل الجنة.

و﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ تفسير لذلك المثل، وتقول: مثّلت الشيء إذا

(١) ق: كذلك.
(٢) ق: وتسميتها.
(٣) والذلّة: مكررة في ق.
(٤) ق: ويجمعهم.

وصفته وقرّبته للفهم، وليس هنا ضرب مثل فهو كقوله ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم] أي: الصفة العليا.

والأُكُل: ما يؤكل فيها. ومعنى دوامه أنه لا ينقطع أبداً كما قال تعالى ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الواقعة]. «تلك» أي: تلك الجنة عاقبة الذين اتّقوا الشرك.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية، نزلت في مؤمني أهل الكتابيّن من أسلم من اليهود كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران واثنان وثلاثون بأرض الحبشة.

﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ يعني: ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة نحو كعب بن الأشرف وأصحابه والسّيد والعاقب أسقفي نجران وأشياعهما.

﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأقاصيص وبعض الأحكام والمعاني ممّا هو ثابت في كتبهم غير محرّف. وكانوا ينكرون ما هو نعت

الإسلام ونعت[١] رسول الله ﷺ وغير ذلك ممّا حرّفوه وبدّلوه.

﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ أي: إلى شرعه ودينه، وإليه مرجعي [عند البعث يوم القيامة أو إليه مرجعي] في جميع الأحوال في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك إنزالنا الكتاب على الأنبياء قبلك، لأن قوله «والذين آتيناهم الكتاب» يتضمن إنزاله تعالى الكتاب. وهذا الذي أنزلناه هو بلسان العرب [كما أنّ الكتب السابقة] بلسان من نزلت عليه. وأراد بالحكم أنه يفصل بين الحق والباطل [٣٠١/ب] ويحكم. وانتصب «حكماً» على الحال من ضمير النصب في «أنزلناه» والضمير عائد على القرآن. والحكم: ما تضمّنه القرآن من المعاني. ولمّا كانت العبارة عنه بلسان العرب نُسب إليها.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ الخطاب لغير الرسول لأن الرسول عليه السلام [معصوم] من اتباع أهوائهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية، قال الكلبي: عيّرت اليهود الرسول عليه السلام وقالوا: ما نرى لهذا الرجل مهمّة[٢] إلا النكاح والنساء، ولو كان نبيًّا كما زعم لشغله أمر النبوّة عن النساء فنزلت هذه الآية[٣]. قيل: وكانوا يقترحون عليه الآيات وينكرون النَّسْخ فردّ الله تعالى عليهم بأن الرّسل قبله كانوا مثله ذوي أزواج وذرّية، وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم، ولا يأتون بما يُقترح عليهم. والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات،

(١) ق: وبعث.
(٢) ق: همّة.
(٣) انظر أسباب النزول ص١٨٥.

فلكلّ وقت حكم يحكم فيه على العباد، أي: يفرض عليهم ما يريده تعالى.

وقوله ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في الأشياء التي لها آجال لأنه ليس منها شيء إلاّ وله أجل في بداءته وفي خاتمته، وذلك الأجل مكتوب ومحصور.

والظاهر أن المحو عبارة عمّا نُسخ من الشرائع والأحكام، والإثبات عبارة عن دوامها وتقرّرها وبقائها، أي: يمحو ما يشاء محوه ويثبت ما يشاء إثباته.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو ديوان الأمور المحدثة التي قد سبق في القضاء أن تبدّل وتمحى وتثبت.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ تقدم الكلام عليه في يونس[1].

و«إما» هنا فقال الحوفي وغيره: «فإنما عليك» جواب الشرط. والذي تقدّم شرطان لأن المعطوف على الشرط شرط. أما كونه جواباً للشرط [الأول] فليس بظاهر لأنه لا يترتب عليه إذ يصير المعنى: وإما نرينّك بعض[2] ما نعدهم من العذاب فإنما عليك البلاغ. وأما كونه جواباً للشرط الثاني وهو «أو نتوفّينك» فكذلك[3]، لأنه يصير التقدير: إنْ ما نتوفّينك فإنما عليك البلاغ، ولا[4] يترتب وجوب التبليغ عليه أي على وفاته عليه السلام لأن التكليف ينقطع بعد الوفاة. فيحتاج إلى تأويل، وهو أن يتقدّر لكل شرط منهما ما يناسب أن يكون جزاءً مرتّباً عليه، وذلك أن يكون التقدير والله أعلم: وإما نرينّك بعض الذي نعدهم به من العذاب فذلك شافيك من

(١) انظر تفسير الآية ٤٦ من يونس.

(٢) ق: يعني.

(٣) ق: فلذلك.

(٤) ق: لا.

أعدائك ودليل على صدقك إذ أَخبرتَ بما يحلّ بهم ولم يعيّن زمان حلوله بهم، واحتمل أن يقع ذلك في حياتك، واحتمل أن يقع بهم بعد وفاتك. أو إن نتوفّينك قبل حلوله بهم، فلا لوم عليك ولا عتب إذ قد حلّ بهم بعض ما وعدك الله تعالى به على لسانك من عذابهم، فإنما عليك البلاغ لا حلول العذاب بهم، إذ ذاك راجع إلينا وعلينا جزاؤهم في تكذيبهم إياك وكفرهم بما جئت به.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ الضمير في «أولم يروا» عائد على الذين وعدوا، وفي ذلك اتّعاظ لمن اتعظ. نُبّهوا على أن ينظروا نقص الأرض من أطرافها.

و«نأتي» يعني بالأمر والقدرة كقوله تعالى ﴿ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل].

و«الأرض» أرض الكفار المذكورين. ومعنى «ننقصها من أطرافها» نفتحها للمسلمين من جوانبها.

كان المسلمون يغزون من حوالي أرض الكفار ممّا يلي المدينة ويغلبون على جوانب أرض مكة. والأطراف: الجوانب.

و﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ المعقّب: الذي يكرّ على الشيء فيبطله، وحقيقته

الذي يعقّبه أي: بالردّ والإبطال. ومنه قيل لصاحب الحق معقّب، لأنه يقضي غريمه بالاقتضاء والطلب. والمعنى أنه حكم للإسلام بالغلبة [٣٠٢/أ] والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس. والجملة من قوله «لا معقّب لحكمه» في موضع الحال أي: نافذاً حكمه.

«وهو سريع الحساب» تقدّم الكلام عليه[١].

ثم أخبر تعالى أن الأمم السابقة كان يصدر منهم المكر بأنبيائهم كما فعلت قريش، وأن ذلك عادة المكذّبين للرسل: مكر بإبراهيم نمرود، وبموسى فرعون، وبعيسى اليهود. وجعل تعالى مكرهم كَلَا مكر، إذ أضاف المكر كله له تعالى. ومعنى مكره تعالى عقوبته إياهم، سمّاها مكراً إذ كانت ناشئة عن المكر وذلك على سبيل المقابلة كقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة].

ثم فسّر قوله «فلله المكر جميعاً» بقوله «يعلم ما تكسب كل نفس» والمعنى: يجازي كل نفس بما كسبت.

ثم هدّد الكافر بقوله «وسيعلم الكفار[٢] لمن عقبى الدار» [إذ] يأتيه العذاب من حيث هو في غفلة عنه، فحينئذ يعلم لمن هي العاقبة المحمودة.

ولمّا قال الكفار ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: إنما أنت مدّعٍ ما ليس لك، أمره تعالى أن يكتفي بشهادة الله تعالى بينهم، إذ قد ظهر على يديه من الأدلّة على

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٠٢ من البقرة، والآية ١٩، ١٩٩ من آل عمران، والآية ٤ من المائدة.

(٢) ق: الكافر.

رسالته ما في بعضها كفاية[١] لمن وفّق. ثم أردف شهادة الله تعالى [بشهادة مَن عنده علم الكتاب.

وقرأ ورش[٢]: ومِن عنده، بِمِن الجارّة، ذكره الأهوازي في الموجز[٣].

و«الكتاب» هنا القرآن، والمعنى أنّ من عرف ما أُلّف فيه من المعاني الصحيحة والنظم المعجز الفائت لقدرة البشر يشهد بذلك.

(١) ق: كتابة.

(٢) ق: روس.

(٣) هو الحسن بن علي بن إبراهيم، مقرىء الشام في عصره. وكتابه المشار إليه هو «الموجز في القراءات». توفي سنة ٤٤٦هـ. انظر الأعلام ٢: ٢٤٥.

سورة إبراهيم[1]

عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾.

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ هذه السورة مكّية كلّها في قول الجمهور. وعن ابن عباس وقتادة: هي مكّية إلاّ من قوله «ألم تر إلى الذين بدّلوا» إلى «النار»[2].

وارتباط هذه السورة بالتي قبلها واضح جدًّا لأنه ذكر فيها ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا ۝٣١﴾ [الرعد] ثم [قال] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ ۝٣٧﴾ [الرعد] ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ۝٤٣﴾ [الرعد] فناسب قوله «الٓر كتاب أنزلناه إليك».

---

(١) مكّية وآياتها ثنتان وخمسون.

(٢) الآيات ٢٨ - ٣٠.

وأيضاً فإنهم لمّا قالوا على سبيل الاقتراح ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الرعد] وقيل له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد] أنزل «آلر كتاب أنزلناه إليك» كأنه قيل: أولم يكفهم من الآيات كتاب أنزلناه إليك.

﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وهي الضلال «إلى النور» وهو الهدى.

«كتاب» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذا كتاب «أنزلناه» جملة في موضع الصفة. «لتخرج» متعلّق «بأنزلناه» وهي لام العلّة. «من الظلمات» متعلق «بتخرج» [«إلى النور» متعلق «بتخرج»] أيضاً. «إلى صراط العزيز الحميد» بدل من قوله «إلى النور» وأعيد معه حرف الجرّ وهو «إلى» كما تقول: مررت بزيد بأخيك.

وقرىء: الله، بالجرّ على البدل أو عطف بيان. وقرىء بالرفع على أنه مبتدأ، أو خبر مبتدأ أي: هو الله. «وويل» مبتدأ خبره «للكافرين». و«من عذاب» في موضع الصفة «لويل».

ولا يضرّ الفصل بالخبر بين الصفة والموصوف، ولا يجوز أن يكون متعلّقاً «بويل» لأنه مصدر، ولا يجوز الفصل بين المصدر وما يتعلق به بالخبر.

ويظهر من كلام الزمخشري أنه ليس في موضع الصفة، قال(١): فإن قلت: ما وجه اتصال قوله «من عذاب شديد» بالويل؟ قلت: لأن المعنى: يُوَلوِلُون من عذاب شديد ويضجّون منه ويقولون: يا ويلاه [٣٠٢/ب] كقوله(٢) تعالى ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان] انتهى.

---

(١) الكشاف ٢: ٣٦٥.

(٢) ق: لقوله.

فظاهره على تقدير عامل يتعلّق به «من عذاب شديد». ويحتمل هذا العذاب أن يكون واقعاً بهم في الدنيا أو واقعاً بهم في الآخرة.

والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبّة، لأن المُؤْثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحبّ إليها وأفضل عندها من الآخر. ويجوز أن يكون استفعل بمعنى أفعل كاستجاب وأجاب. ولمّا ضُمّن معنى الإيثار عُدّي بعلى.

وجوّزوا في إعراب «الذين» أن يكون مبتدأ خبره «أولئك في ضلال بعيد» وأن يكون مقطوعاً على الذّم إمّا خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين، وإمّا منصوباً بإضمار فعلٍ تقديره: أذمّ.

وأن يكون صفة «للكافرين». ونصّ على هذا الوجه الأخير الحوفي والزمخشري وأبو البقاء[1].

وهو لا يجوز، لأنّ فيه الفصل بين الصفة والموصوف بأجنبي منهما وهو قوله «من عذاب شديد» سواء أكان «من عذاب شديد» في موضع الصفة «لويل» أم متعلقاً بفعل محذوف أي: يضجّون ويُوَلوِلُون من عذاب شديد.

وتقدم الكلام على «ويبغونها عوجاً» في آل عمران[2] وعلى وصف الضلال بالبعد.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ الآية، سبب نزولها أن قريشاً قالوا: ما بال الكتب كلّها أعجمية وهذا عربي فنزلت.

---

(١) الكشاف ٢: ٣٦٦، والإملاء ٢: ٦٦.

(٢) انظر تفسير الآية ٩٩ من آل عمران.

والظاهر أن قوله «وما أرسلنا من رسول» العموم، فيندرج فيه الرسول عليه السلام. فإن كانت الدعوة عامّة للناس كلّهم أو اندرج في اتباع ذلك الرسول [من] ليس من قومه [كان] من لم تكن لغته لغة ذلك الرسول موقوفاً على تعلّم تلك اللغة حتى يفهمها أو يرجع في تفسيرها إلى من يعلمها.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.

و﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ يحتمل أن تكون «أنْ» مفسّرة بمعنى أي، وأن تكون مصدرية.

وفي قوله: «قومك» خصوص لرسالته إلى قومه بخلاف قوله ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴿١﴾﴾ [إبراهيم]. والظاهر أن قومه هم بنو إسرائيل. «وذكّرهم» معطوفة على قوله «أخرِجْ قومك».

والإشارة بقوله «إنّ في ذلك» إلى التذكير بأيّام الله.

و«صبّار شكور» صيغتا[1] مبالغة وهما مشعرتان بأن أيام الله تعالى المراد بها بلاؤه ونعماؤه، أي: صبّار على بلائه شكور لنعمائه.

---

(١) ق: صفتا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، لمّا تقدم أمره تعالى لموسى عليه السلام بالتذكير بأيّام الله ذكّرهم بما أنعم تعالى عليهم من نجاتهم من آل فرعون، وفي ضمنها تعداد شيء ممّا جرى عليهم من نقمات الله تعالى. وتقدم إعراب «إذ» في نحو هذا التركيب في قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]. وتقدّم تفسير نظير هذه الآية[1]، إلاّ أنّ هنا «ويذبّحون» بالواو، وفي البقرة بغير واو، وفي الأعراف «يقتّلون». فحيث لم يُؤت بالواو جُعل الفعل[2] تفسيراً لقوله «يسومونكم» وحيث أُوتي بها دلّ على المغايرة، وأنّ سوء العذاب كان بالتذبيح وبغيره. وحيث جاء «يقتّلون» جاء باللفظ المطلق المحتمل للتذبيح ولغيره من أنواع القتل.

وتقدّم شرح «تأذن» وتلقّيه بالقسم في قوله في الأعراف ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف]. واحتمل «إذ» أن يكون منصوباً باذكروا، وأن يكون معطوفاً على «إذ نجّاكم» لأنّ هذا الإعلام بالمزيد على الشكر من نعمه تعالى.

والظاهر أن متعلّق الشكر هو الإنعام أي: لئن شكرتم إنعامي لأزيدنّكم.

«ولئن كفرتم» أي: نعمتي فلم [٣٠٣/أ] تشكروها رتّب العذاب الشديد على كفر نعمه تعالى. ولم يبيّن محلّ الزيادة فاحتمل أن يكون في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما.

---

(١) في قوله تعالى ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة]، وقوله ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف].

(٢) ق: العقل.

وجاء التركيب على ما عُهد في القرآن من أنه إذا ذكر الخير أسنده إليه تعالى وإذا ذكر العذاب بعده عدل عن نسبته إليه فقال «لأزيدنكم» ونسب الزيادة إليه تعالى وقال «إن عذابي لشديد» ولم يأت التركيب: لأعذبنّكم وصرّح في «لأزيدنكم» بالمفعول، وهنا لم يُذكر وإن كان المعنى عليه أي: إن عذابي لكم لشديد.

وجواب «إن تكفروا» محذوف لدلالة المعنى عليه، التقدير: فإنما ضرر كفركم لاحقٌ بكم والله تعالى متّصف بالغنى المطلق والحمد سواء أكفروا أم شكروا. وفي خطابه لهم تحقير لشأنهم وتعظيم لله تعالى في ذكر هاتين الصفتين.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ
مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ
أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ
مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ
لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ
مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ
مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ

جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية، الظاهر أنّ هذا خطاب من موسى عليه السلام لقومه، وقيل ابتداء خطاب من الله تعالى لهذه الأمة. وخبر قوم نوح وعاد وثمود قد قصّه الله تعالى في كتابه وتقدّم في الأعراف وهود[١]. والهمزة في «ألم» للتقرير والتوبيخ. والظاهر أن «والذين» في موضع خفض عطفاً على ما قبله، إما على «الذين» وإما على «قوم نوح وعاد وثمود».

قال الزمخشري[٢]: والجملة من قوله «لا يعلمهم إلا الله» اعتراض، والمعنى أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله تعالى انتهى.

وليست جملة اعتراض، لأن جملة الاعتراض تكون بين جزأين أحدهما الآخر.

وقال أبو البقاء[٣]: تكون هذه الجملة حالاً من الضمير في «من بعدهم».

فإن عنى من الضمير المجرور في «من بعدهم» فلا يجوز لأنه حال مما جرّ بالإضافة، وليس له محلّ إعراب من رفع أو نصب. وإن عنى من الضمير المستقرّ في الجار والمجرور النائب عن العامل أمكن.

---

(١) انظر على التوالي الآيات ٥٩، ٦٥، ٧٣ من الأعراف وما يلي كلاًّ منها، والآيات ٢٥، ٥٠، ٦١ من هود وما يلي كلاًّ منها.

(٢) الكشاف ٢: ٣٦٨.

(٣) الإملاء ٢: ٦٦.

وقال أبو البقاء أيضاً[١]: ويجوز أن يكون مستأنفاً، وكذلك «جاءتهم».

وأجاز الزمخشري وتبعه أبو البقاء[٢] أن يكون «والذين» مبتدأ [والخبر «لا يعلمهم إلا الله». وقال الزمخشري[٣]: والجملة من المبتدأ] والخبر وقعت اعتراضاً انتهى.

وليست باعتراض، لأنها لم تقع بين جزأين أحدهما يطلب الآخر.

والضمير في «جاءتهم» عائد على «الذين من قبلكم»، والجملة تفسيرية للنّبأ.

والظاهر أن الأيدي هي الجوارح، وأن الضميرين في «أيديهم» و«أفواههم» عائدان على الذين جاءتهم الرسل.

«وقالوا إنّا كفرنا» بادروا أولاً إلى الكفر وهو التكذيب المحض، ثم أخبروا أنهم في شكّ وهو التردّد، كأنهم نظروا بعض نظر، اقتضى أن انتقلوا من التكذيب المحض إلى التردّد، أو هما قولان من طائفتين: طائفة بادرت بالتكذيب والكفر، وطائفة شكّت، والشكّ في مثل ما جاءت به الرسل عليهم السلام كفر. و«مريب» صفة توكيدية.

ودخلت همزة الاستفهام الذي معناه الإنكار على الظرف على الجار الذي هو خبر عن المبتدأ، لأن الكلام ليس في الشكّ، إنّما هو في المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشكّ لظهور الأدلّة وشهادتها عليه. وقدّر مضاف فقيل: أفي

---

(١) الموضع نفسه.

(٢) الكشاف ٢: ٣٦٨. ولا يظهر في الإملاء تبعيّة أبي البقاء للزمخشري.

(٣) الكشاف ٢: ٣٦٨.

إلٰهيّته أو في وحدانيّته. ثم نبّههم على الوصف الذي يقتضي ألاّ يقع فيه شكّ البتّة وهو كونه منشىء العالم وموجده فقال: «فاطر السماوات والأرض». و«فاطر» صفة لله تعالى، ولا يضرّ الفصل بين الموصوف وصفته بمثل هذا المبتدأ فيجوز أن تقول: في الدار زيدٌ الحسنةِ، وإن كان أصل التركيب: في الدّار الحسنة زيد. ولمّا ذكر تعالى أنه موجد العالم، ونبّه على الوصف الذي لا يناسب [٣٠٣/ب] أن يكون معه فيه شكّ، ذكر ما هو عليه من اللطف بهم والإحسان إليهم فقال «يدعوكم ليغفر لكم» أي: يدعوكم إلى الإيمان كما قال ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴿١٠﴾﴾ [غافر] أو يدعوكم لأجل المغفرة نحو: دعوته لينصرني. وتقدّم الكلام في طرفٍ من هذا في الأعراف في قوله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف]. وقيل هنا «ويؤخركم إلى أجل مسمّى» قبل الموت ولا يعاجلكم بالعذاب.

ومعنى «مسمّى» أي: قد سمّاه وبيّن مقداره.

«إن أنتم» أي: ما أنتم. «إلا بشر مثلنا» لا فضل بيننا وبينكم ولا فضل لكم علينا، فلِمَ تُخَصُّون بالنبوّة دوننا. والظاهر أن طلبهم السلطان المبين، وقد أتتهم الرسل بالبيّنات، إنما هو على سبيل التعنّت والاقتراح، وإلاّ فما أَتَوْا به من الدلائل والآيات كافٍ لمن استبصر، ولكنّهم قلّدوا آباءهم فيما كانوا عليه من الضلال. ألا ترى أنهم لمّا ذكروا أنهم مماثلوهم قالوا «تريدون أن تصدّونا عمّا كان يعبد آباؤنا» أي: ليس مقصودكم إلاّ أن نكون لكم تبعاً، ونترك ما نشأنا عليه من دين آبائنا.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآية، سلّموا لهم في أنهم مماثلوهم في البشريّة وحدها، وأمّا ما سوى ذلك من الأوصاف التي اختصّوا بها، فلم يكونوا مثلهم، ولم يذكروا ما هم عليه من الوصف الذي تميّزوا به

تواضعاً منهم ونسبة ذلك إلى الله تعالى. ولم يصرّحوا بمنّ الله عليهم وحدهم، لكن أبرزوا ذلك في عموم «من يشاء من عباده» والمعنى: يمنّ بالنبُوّة على[1] من يشاء تَنْبِئَتَه.

ومعنى «بإذن الله» بتسويغه[2] وإرادته، أي: الآية التي اقترحوها ليس لنا الإتيان بها ولا [هي] في استطاعتنا، ولذلك كان التركيب «وما كان لنا» وإنما ذلك أمر متعلّق [بالمشيئة].

و«فليتوكل» أمرٌ منهم للمؤمنين بالتوكّل وقصدوا به أنفسهم قصداً أوّلياً، وأمروها به كأنهم قالوا: ومن حقّنا أن نتوكّل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم. ألا ترى إلى قولهم «وما لنا ألاّ نتوكل على الله» ومعناه: وأيّ عذرٍ لنا في ألاّ نتوكل[3] على الله «وقد هدانا» فعل بنا ما يوجب توكّلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كلّ واحد منّا سبيله الذي يجب سلوكه في الدين.

والأمر الأول وهو قوله «فليتوكّل المؤمنون» لاستحداث التوكّل، والثاني للثبات على ما استحدثوا من توكّلهم.

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ جواب قسم، ويدلّ على ما سبق ما يجب فيه الصبر وهو الأذى.

و«ما» مصدرية. وجوّزوا أن تكون بمعنى الذي والضمير محذوف أي: ما آذيتموناه وكان أصله: به، فهل حذف به أو الباء فوصل الفعل إلى

---

(١) ق: وعلى.

(٢) ق: بتسويفه.

(٣) ق: ومعناه: في أي عذر لنا ألاّ نتوكل.

الضمير؟ قولان.

﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ أقسموا على أنه لا بدّ من إخراجهم أو عودهم في ملّتهم كأنهم قالوا: ليكونن[١] أحد هذين. ولمّا أقسموا هم على إخراج الرّسل أو العودة في ملّتهم، أقسم تعالى على إهلاكهم - وأي: إخراجٍ أعظم من الإهلاك بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً؟ - وعلى إسكان الرسل ومن آمن[٢] بهم وذرّياتهم أرض أولئك المُقْسِمين على إخراج الرسل عليهم السلام.

والإشارة «بذلك» إلى توريث الأرض الأنبياء ومن آمن بهم بعد إهلاك الظالمين كقوله تعالى ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف] ومقام: يحتمل المصدر أي: قيامي عليه بالحفظ لأعماله ومراقبتي إياه كقوله تعالى ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ ٣٣﴾ [الرعد].

والظاهر أن الضمير في «واستفتحوا» عائد على الأنبياء أي: استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ ١٩﴾ [الأنفال]. ويجوز أن يكون من الفتاحة وهي الحكومة، أي: استحكموا الله: طلبوا منه القضاء بينهم. واستنصار الرسل في القرآن كثير.

«وخاب» معطوف على محذوف [٣٠٤/أ] تقديره: فنصروا وظفروا. «وخاب كلّ جبّار عنيد» وهم قوم الرّسل، وتقدّم شرح جبار عنيد[٣]. والعنيد: المعاند كالخليط بمعنى المخالط.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ ذكر ما يؤول إليه حال الجبار العنيد في الآخرة. ووراء: من

---

(١) ق: لنكونن.

(٢) ق: وآمن.

(٣) انظر تفسير الآية ٥٩ من هود، ولم يُذكر فيه شيء.

الأضداد ينطبق[١] على خلف وعلى أمام كأنه قيل: من أمامه وبين يديه جهنم.

«ويُسقى» معطوف على محذوف تقديره: يدخلها ويُسقى. والظاهر إرادة حقيقة الماء.

و«صديد» قال مجاهد وغيره: هو ما يسيل من أجساد أهل النار.

وقال الزمخشري[٢]: «صديد» عطف بيان لما قال «ويُسقى من ماء» فأبهمه إبهاماً ثم بيّنه بقوله «صديد» انتهى.

والبصريون لا يجيزون عطف البيان في النكرات، وأجازه الكوفيون، وتبعهم الفارسي فأعرب «زيتونة» عطف بيان لـ﴿شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۝٣٥﴾ [النور].

فعلى رأي البصريين لا يجوز أن يكون قوله «صديد» عطف بيان.

وتجرّع: تفعّل، والظاهر أنها للتكلّف نحو تحلّم[٣]، أي: يأخذه شيئاً فشيئاً. والظاهر انتفاء مقاربة[٤] إساغته، وإذا انتفت [انتفت] الإساغة، فيكون كقوله ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۝٤٠﴾ [النور] أي: يقرب من رؤيتها فكيف يراها. والحديث جاء بأنه يشربه[٥]، فإن صحّ الحديث كان المعنى: ولا يكاد يسيغه قبل أن يشربه ثم شربه، كما جاء ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧١﴾ [البقرة]

---

(١) ق: ينطلق.
(٢) الكشاف ٢: ٣٧١.
(٣) ق: تحكّم.
(٤) ق: مقارنة.
(٥) انظر مثلاً المستدرك ٢: ٣٥١.

أي: وما كادوا يفعلون [قبل] الذبح.

«ويأتيه الموت» أي: أسبابه. والظاهر أن قوله «من كل مكان» معناه من الجهات السّت وذلك تفظيع لما يصيبه من الآلام.

«وما هو بميّت» لتطاول شدائد الموت وامتداد سكرته.

«ومن ورائه» الخلاف في «من ورائه» [هنا] كالخلاف في «من ورائه جهنم».

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ
عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا
كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
لَهَدَيْنَٰكُمْۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ
ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ
وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ
أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ
أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْۖ
تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ الآية، ارتفاع «مثل» على الابتداء، وخبره محذوف تقديره عند سيبويه: فيما يُتلى عليكم أو يُقصّ.

قال ابن عطية: وقيل هو مبتدأ و«أعمالهم» ابتداء ثانٍ و«كرماد» خبر

الثاني، والجملة خبر الأول، وهذا عندي أرجح الأقوال، وكأنك قلت: المتحصّل مثالاً في النفس للذين كفروا هذه الجملة المذكورة وهي أعمالهم في فسادها وقت الحاجة، وتلاشيها كالرماد الذي تذروه الرياح، وتفرّقه بشدّتها حتى لا يبقى له أثر ولا يجتمع منه شيء انتهى.

هذا القول الذي رجّحه ابن عطية قاله الحوفي، وهو لا يجوز، لأن الجملة الواقعة خبراً عن المبتدأ [الأول الذي] هو «مثل» عارية من رابط يعود على المثل، وليست نفس المبتدأ في المعنى، فلا تحتاج إلى رابط. والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة.

و«أعمالهم كرماد» جملة مستأنفة على تقدير سؤال، كأنه قيل: كيف مَثَلهم؟ فقيل: أعمالهم كرماد، كما تقول: صفة زيد عِرْضُه مصون وماله مبذول.

ووصف اليوم بقوله «عاصف» وإن كان من صفة الريح على سبيل التجوّز كما قالوا: يوم ماطر وليل نائم.

«لا يقدرون» يوم القيامة. «مما كسبوا» من أعمالهم. «على شيء» أي: لا يرون له أثراً من ثواب، كما لا يُقْدَر من الرّماد المطيّر بالرياح على شيء.

«ذلك» إشارة إلى كونهم بهذه الحال، وعلى مثل هذا الغرر البعيد[1] الذي تعمّق فيه صاحبه، وأبعد عن طريق النجاة، أو البعيد عن الحق أو الثواب. وفي البقرة ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة] وهنا «لا يقدرون مما كسبوا على شيء» من التفنّن في الفصاحة والتغاير في التقديم

(١) ق: الغدر والبعيد.

والتأخير والمعنى واحد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية، الظاهر أن قوله «يذهبكم» خطاب عام للناس. وعن ابن عباس: خطاب للكفار.

«ويأت بخلق جديد» الظاهر أن يكون المعنى: إن يشأ يذهبكم[١] أيها الناس ويأت بناسٍ آخرين من جنسكم آدميين.

﴿وَبَرَزُوا۟﴾ أي: ظهروا من قبورهم [٣٠٤/ب] إلى جزاء الله وحسابه. والذين استكبروا: هم رؤساؤهم وقادتهم استتبعوا[٢] الضعفاء واستغووهم.

«واستكبروا» تكبّروا وأظهروا تعظيم أنفسهم واستكبروا عن اتباع الرسل وعبادة الله تعالى.

و«تبعاً» يحتمل أن يكون اسم جمعٍ لتابع كخادم وخَدَم وخائب وخَيَب، ويحتمل أن يكون مصدراً كقوم عدل ورضى.

و«هل أنتم مغنون عنا» استفهام، معناه توبيخهم إياهم وتقريعهم، وقد علموا أنهم لن يغنوا شيئاً. والمعنى: إنا تبعناكم فيما كنتم فيه من الضلال كما أمرتمونا، وما أغنيتم عنا شيئاً، ولذلك جاء جوابهم «لو هدانا الله لهديناكم» فأجابوا بذلك على سبيل الاعتذار والخجل وردّ[٣] الهداية إلى الله تعالى، وهو كلام حق في نفسه.

---

(١) ق: يذهبكم يعذبكم.
(٢) ق: استعتبوا.
(٣) ق: وردًّا.

قال الزمخشري[1]: «مِن» الأولى للتّبيين والثانية للتبعيض، كأنه قيل: هل أنتم مغنون عنّا بعض الشيء الذي هو عذاب الله. ويجوز أن يكونا للتبعيض معاً، بمعنى: هل أنتم مغنون عنّا بعض شيء هو بعض عذاب الله انتهى.

هذان التوجيهان اللذان وجّههما الزمخشري في المكانين يقتضي أولهما التقديم في قوله «من شيء» على قوله «من عذاب الله» لأنه جعل «من شيء» هو المبيّن بقوله «من عذاب الله»، ومِن التّبيينيّة يتقدّم عليها ما تبيّنه ولا يتأخر. والتوجيه الثاني وهو بعض شيء هو بعض العذاب يقتضي أن يكون بدلاً، فيكون بدل عام من خاص لأن «من شيء» أعمّ من قوله «من عذاب الله».

وإن عنى «بشيء» شيئاً من العذاب، فيؤول المعنى إلى ما قدّر وهو بعض بعض عذاب الله، وهذا لا يقال، لأن بعضيّة الشيء مطلقة، فلا يكون لها بعض. والظاهر أن قوله «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا» إلى آخره داخل تحت قول المستكبرين، وجاءت جُملاً بلا واو عطف كأنّ كلّ جملة أنشئت مستقلّة غير معطوفة وإن كانت مرتبطاً بعضها ببعض من جهة المعنى، لأن سؤالهم «هل أنتم مغنون عنّا» إنما كان لجزعهم ممّا هم فيه فقالوا لهم ذلك، سوّوا بينهم وبينهم في ذلك لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها، يقولون ما هذا الجزع والتوبيخ، فلا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر.

ولمّا قالوا «لو هدانا الله» أتبعوا ذلك بالإقناط من النجاة فقالوا «ما لنا من محيص» أي: منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا. وتقدم الكلام في مثل هذه

(١) الكشاف ٢: ٣٧٣.

التسوية في البقرة[1].

والظاهر أن هذه المحاورة بين الضعفاء والرؤساء هي في موضع العرض وقت البروز بين يدي الله تعالى.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لمّا ذكر محاورة الأتباع لرؤسائهم الكفرة، ذكر محاورة الشيطان وأتباعه من الإنس، وذلك لاشتراك الرؤساء والشيطان في التلبس بالإضلال. والشيطان هنا إبليس وهو رأس الشياطين.

ومعنى «قضي الأمر» تعيّن قوم للجنّة وقوم للنار،وذلك كله في الموقف.

و«وعد الحق» يحتمل أن يكون من إضافة الموصوف إلى صفته أي: الوعد الحق، وأن يكون «الحق» صفة الله أي: وعده، وأن يكون «الحق» الشيء الثابت وهو البعث والجزاء على الأعمال، أي: يوفّي لكم بما وعدكم ووعدتُكم خلاف ذلك فأخلفتُكم.

و«إلاّ أن دَعَوْتُكم» الظاهر أنه استثناء منقطع لأن دعاءه إياهم إلى الضلال ووسوته ليس من جنس السلطان وهو الحجة البيّنة.

«ما أنا بمصرخكم» أي: مغيثكم. «وما أنتم بمصرخيّ» أي: بمغيثيّ. وقرأ الجمهور: بمُصرخيَّ، بفتح الياء.

وقرأ يحيى [٣٠٥/أ] بن وثّاب والأعمش وحمزة بكسر الياء.

وقد طعن ناس في هذه القراءة، وما ذهبوا إليه لا يُلتفت إليه لأن هذه

---

(١) انظر تفسير الآية ٦ من البقرة.

قراءة متواترة نقلها [السلف] واقتفى آثارهم فيها الخلف. وقد نقل جماعة من أهل اللغة أنها لغة، لكنّه قلّ استعمالها، ونصّ قطرب على أنها لغة في بني يربوع وأنشدوا للأغلب العجلي[١]: [من الرجز]

قال لها هل لك يا تافيِّ قالت له ما أنت بالمرضيِّ

و«ما» في «بما أشركتموني» مصدرية. و«من قبل» متعلق بـ«أشركتموني» أي: كفرت اليوم بإشراككم إياي من قبل هذا اليوم أي: في الدنيا.

«إن الظالمين لهم عذاب أليم» الظاهر أنه من تمام كلام إبليس، حكى الله عنه ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكون تنبيهاً للسامعين على النظر في عاقبتهم والاستعداد لما لا بدّ منه. وأن يتصوّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول، فيخافوا ويعملوا [ما يخصّلهم] منه وينجيهم.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ الآية، لمّا جمع الفريقين في قوله ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم] وذكر شيئاً من أحوال الكفّار، ذكر ما آل إليه حال المؤمنين من إدخالهم الجنة.

قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: فبم يتعلّق - يعني «بإذن ربهم» - في القراءة الأخرى[٣] وقولك فأُدخِلُهم أنا بإذن ربهم كلام غير ملتئم؟ قلت: الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله «بإذن ربهم» بما بعده، أي: تحيّتهم فيها

(١) الرجز للأغلب العجلي في معاني القرآن ٢: ٧٦، والخزانة ٢: ٢٥٧. وتا: منادى وهو اسم إشارة يشار به إلى المؤنث.
(٢) الكشاف ٢: ٣٧٦.
(٣) يعني بها قراءة: أُدْخِلُ، على فعل المتكلّم.

سلام بإذن ربّهم، يعني أن الملائكة يحيّونهم[(١)] بإذن ربهم انتهى.

ظاهر كلامه أنّ «بإذن ربهم» معمول لقوله «تحيّتهم» ولذلك قال: يعني أنّ الملائكة يحيّونهم بإذن ربهم. وهذا لا يجوز، لأن تقديم معمول المصدر المنحلّ لحرف مصدري والفعل عليه هو[(٢)] غير جائز.

وتقدّم تفسير «تحيّتهم فيها سلام» في أوائل يونس[(٣)].

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ الآية، تقدم الكلام في «ضرب» مع المثل في أوائل البقرة[(٤)] فأغنى عن إعادته.

والكلمة الطيبة هي لا إله إلا الله، قاله ابن عباس.

---

(١) ق: يجيئونهم.

(٢) ق: وهو.

(٣) انظر تفسير الآية ١٠ من يونس.

(٤) انظر تفسير الآية ٢٦ من البقرة.

«أصلها ثابت وفرعها في السماء» يريد بالفرع أعلاها ورأسها، وإن كان المشبّه به ذا فروع فيكون من باب الاكتفاء بلفظ الجنس. ومعنى «في السماء» في جهة العلو والصّعود [لا] المظلّة. ولمّا شبّهت الكلمة الطّيبة بالشجرة، كانت الكلمة أصلها ثابت في قلوب[١] أهل الإيمان، وما يصدر عنها من الأعمال الزكيّة والأعمال الصالحة هو فرعها يصعد إلى السماء إلى الله تعالى كما قال ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ۝١٠﴾ [فاطر] الآية، [وما يترتب على ذلك العمل - وهو ثواب الله تعالى - هو جناها].

ووصف هذه الشجرة بأوصاف: الأول قوله «طيّبة» أي: كريمة المنبت، والأصل في الشجرة [أن تكون] لذيذة في الطعم. الثاني: رسوخ أصلها وذلك يدلّ على تمكّنها وأنّ[٢] الرياح لا تقصفها فهي بطيئة الفناء. الثالث: علوّ فرعها وذلك يدلّ على تمكّن الشجرة ورسوخ عروقها وعلى بعدها عن عفونات الأرض وعلى صفائها من الشوائب. الرابع: ديمومة[٣] وجود ثمرتها وحضورها في كل الأوقات. والحين في اللغة: قطعة من الزمان.

والكلمة الخبيثة: هي كلمة الكفر. والظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معيّنة إذا وجدت منها هذه الأوصاف.

ومعنى ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: اقتطعت جثّتها بنزع الأصول وبقيت في غاية الوهي والضعف فيقلبها[٤] أقل ريح، فالكافر يرى أن بيده شيئاً، ولا يستقر، ولا يغني عنه شيئاً. «ما لها من قرار» أي: استقرار، يقال:

---

(١) ق: قول.

(٢) ق: فأن.

(٣) ق: ديموميّة.

(٤) ق: فيقبلها.

قرّ[١] الشيء [٣٠٥/ب] قراراً: ثبت ثباتاً. وهذا النوع من المجاز هو من تشبيه المعقول بالمحسوس.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ بدأ بحال المؤمن، وتثبيتُه في الدنيا كونه لو فُتن عن دينه في الدنيا لثبت[٢] عليه وما زال، كما جرى لأصحاب الأخدود.

ثم ذكر حال الكافر بقوله «ويضلّ الله الظالمين».

ولمّا ذكر تعالى ما فعل بكل واحد من القسمين، ذكر أنه لا يمكن اعتراض [عليه] فيما خصّ به كلّ واحد منهما، إذ ذاك راجع إلى مشيئته تعالى فقال «ويفعل الله ما يشاء» لا يُسأل عمّا يفعل.

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾. «الذين بدّلوا» ظاهره أنه عامّ في جميع المشركين. وسأل ابن عباس عمر بن الخطاب رضي الله عنهم فقال: هما الأفجران[٣] من قريش أخوالي - أي: بني مخزوم، فاستُؤصلوا ببدر - وأعمامك، أي: بني أميّة. وبدّل: يتعدى إلى اثنين أحدهما بالباء أو ما جرى مجراها. وقد تُحذف الباء، وهي هنا محذوفة تقديره: بنعمة الله، أي: بشكر نعمة الله، وتقدّم الكلام على مثل ذلك في قوله ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ١٠٨﴾ [البقرة].

«وأحلّوا قومهم دار البوار» أي: دار الهلاك.

و«جهنم» بدل من قوله «دار البوار». والمخصوص بالذّم محذوف

---

(١) ق: قرا.

(٢) ق: أثبت.

(٣) ق: الأبجران.

تقديره: وبئس القرار هي، أي: جهنم.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: زادوا إلى كفر نعمته أن[1] صيّروا له أنداداً، وهي الأصنام التي اتّخذوها آلهة من دون الله تعالى. والظاهر أنّ اللام لام الصيرورة والمآل، لما كانت نتيجة جَعْل الأنداد آلهة آل إلى الضلال. والأمر بالتّمتع أَمْرُ تهديد ووعيد.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى حال الكفار وكُفْرهم نعمته وجَعْلَهم له أنداداً وتهدّدهم، أَمَرَ المؤمنين بلزوم الطاعة والتّيقظ لأنفسهم، والتزام عمودي الإسلام الصلاة والزكاة قبل مجيء يوم القيامة. ومعمول «قل» محذوف تقديره: أقيموا الصلاة، و«يقيموا» جواب لهذا الأمر المحذوف، وعلامة الجزم فيه حذف النون.

قال ابن عطية: ويظهر أن المقول[2] هو الآية التي بعدُ، أي: قوله «الله الذي خلق السماوات والأرض» انتهى.

وهذا الذي ذهب إليه من كون معمول القول هو «الله الذي خلق» الآية،

(١) ق: أي.
(٢) ق: القول.

تفكيك للكلام يخالفه ترتيب التركيب، ويكون قوله «يقيموا الصلاة» كلاماً مفلتاً من القول ومعموله، [أو يكون جواباً فُصل به بين القول ومعموله]. ولا يترتب أن يكون جواباً لأن قوله تعالى «الله الذي خلق السماوات والأرض» لا يستدعي إقامة الصلاة والإنفاق إلا بعد تقدير بعيد جدًّا. وتقدّم الكلام على قوله «لا بيع فيه» في البقرة[1].

ولمّا أطال الكلام في وصف أحوال السّعداء والأشقياء، ختم وصفه بالدلائل الدالّة على وجود الصانع فقال «الله الذي خلق السماوات» الآية، وذكر أنواعاً من الدلائل فذكر أولاً إبداعه وإنشاءه السماوات والأرض، ثم أعقب بباقي الدلائل وأبرزها في جملة مستقلّة ليدلّ وينبّه على أنّ كل جملة منها مستقلّة في الدّلالة، ولم يجعل متعلّقاتها معطوفات عطف المفرد على المفرد. و«الله» مرفوع على الابتداء و«الذي» خبره.

قال ابن عطية: ويجوز أن تكون [«مِن»] لبيان الجنس، كأنه قال: فأخرج به رزقاً لكم هو الثمرات.

وهذا ليس بجيّد، لأنّ مِن التي لبيان الجنس إنما تأتي بعد المبهم الذي بيّنَتْه.

قال الزمخشري[2]: ويجوز أن يكون «من الثّمرات» مفعول «أخرج»، و«رزقاً» حالاً من المفعول أو نصباً على المصدر من «أخرج» لأنه في معنى رزق. وقيل «مِن» زائدة انتهى.

هذا لا يجوز عند جمهور البصريين، لأن ما قبلها واجب وبعدها معرفة،

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٥٤ من البقرة.

(٢) الكشاف ٢: ٣٧٩.

ويجوز عند الأخفش.

[٣٠٦/أ] وانتصب «دائبين» على الحال، والمعنى: يدأبان في سيرهما وإنارتهما وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات.

والضمير [المنصوب] في «سألتموه» عائد على «ما» وهي موصولة بمعنى الذي. والذي يظهر أن النّعمة هو المنعَم به وأنه هو اسم جنس لا يُراد به الواحد بل يراد به الجمع كأنه قيل: وإن تعدّوا نعم الله.

ومعنى «لا تحصوها» لا تحصروها ولا تطيقوا عدّها.

والمراد بالإنسان هنا الجنس أي: توجد فيه هذه الخلال وهي الظّلم والكفر؛ يظلم النعمة بإغفال شكرها، ويكفرها بجحدها. وجاء في النحل ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ وجاءت مختتمة بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾ [النحل] وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٣٨ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر التعجّب من الذين بدّلوا نعمة الله كفراً، وجعلوا لله أنداداً وهم قريش ومن تابعهم من

العرب الذين اتخذوا من دون الله آلهة، وكان من نعمه تعالى عليهم إسكانهم حرمه - أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم وأنّه صلوات الله وسلامه عليه دعا الله تعالى أن يجعل مكّة آمنة، ودعا بأن يجنّب بنيه عبادة الأصنام[١].

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ كقوم نوح. «فمن تبعني» أي: على ديني وما أنا عليه. «فإنه مني» جعله بعضَه لفرط الاختصاص به وملابسته له. «ومن عصاني» هذا فيه طباق معنوي لأن التبعيّة طاعة. «فإنك غفور رحيم» معناه لمن عصاه لغير الشرك.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ الآية، كرّر النداء رغبة في الإجابة وإظهار التذلّل والالتجاء إلى الله تعالى. وأتى بضمير جماعة المتكلّمين، لأنه تقدّم ذكره وذكر بنيه في قوله ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ ٣٥﴾ [إبراهيم].

و«من ذريتي» هو إسماعيل ومن ولد منه. وذلك أن هاجر لمّا ولدت إسماعيل، غارت منها سارة، فروي أنه ركب البُراق هو وهاجر والطفل، فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكّة، فنزل وأنزل ابنه وأَمَتَه هنالك، وركب منصرفاً من يومه ذلك، وكان هذا كلّه بوحي من الله تعالى. فلما ولّى دعا بما في ضمن هذه الآية. و«مِن» للتبعيض لأن إسحاق كان بالشام. والوادي: ما بين الجبلين وليس من شرطه أن يكون فيه ماء، وإنما قال «غير ذي زرع» لأنه كان علم أنّ الله لا يضيّع هاجر وابنها في ذلك الوادي، وأنه يرزقهما الماء.

«ليقيموا» متعلق بـ«أسكنت». و«ربّنا» دعاء معترض. والمعنى أنه لا يخلو

---

(١) ق: الأرض.

هذا البيت المعظم من العبادة، و«مِن» للتبعيض.

قال الزمخشري[1]: «بواد» هو وادي مكة. «غير ذي زرع» لا يكون فيه شيء من زرع قطّ كقوله ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ۝٢٨﴾ [الزمر] بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج ما فيه إلا استقامة لا غير انتهى.

استعمل قطّ وهو ظرف لا يستعمل إلا مع الماضي معمولاً لقوله: لا يكون، وهو ليس ماضياً. وهو مكانَ: أبداً الذي يستعمل فيه مع غير الماضي من المستقبلات.

و«أفئدة» هو على حذف مضاف تقديره: ذوي أفئدة من الناس. [وأصل الهُوِيّ أن يكون من علوّ.

قال الزمخشري[2]: ويجوز أن تكون «مِن» للابتداء كقولك: القلب مني سليم، تريد: قلبي، فكأنه قيل: أفئدة ناس. وإنّما نكّرت المضاف إليه في هذا التمثيل لتنكير أفئدة، لأنها في الآية نكرة ليتناول[3] بعض الأفئدة انتهى.

لا يظهر كونها لابتداء الغاية، لأنه ليس لها فعل يُبتدأ به لغاية ينتهي إليها؛ إذ لا يصحّ ابتداءَ جَعْلُ الأفئدة من الناس].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ﴾ الآية، كرّر النداء للتضرّع والالتجاء، ولا يظهر تفاوت بين إضافة «ربّ» إلى ياء المتكلم وبين إضافته إلى جمع المتكلّم.

---

(١) الكشاف ٢: ٣٨٠.

(٢) الكشاف ٢: ٣٨٠.

(٣) ق: لتناول.

و«ما نخفي وما نعلن» عامّ فيما يخفونه ويعلنونه، ثم أتى بأعمّ منه وهو قوله تعالى «وما يخفى على الله من شيء».

والظاهر أن هذه الجمل التي تكلّم بها إبراهيم عليه السلام لم تقع منه في زمان واحد، وإنّما [٣٠٦/ب] حكى الله تعالى عنه ما وقع منه في أزمان مختلفة، يدلّ على ذلك أن إسحاق لم يكن موجوداً حالة دعائه إذ ترك هاجر والطفل بمكة. والظاهر أن حَمْده الله تعالى على هبة ولديه كان بعد وجود إسحاق. و«على الكبر» يدلّ على مطلق الكبر، ولم يتعيّن لتُعَيَّن المدةُ التي وُهب له فيها ولداه. وروي أنه وُلد [له] إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو ابن مئة واثنتي عشرة سنة.

قال الزمخشري[1]: ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله، ويجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي والمراد سماع الله، انتهى. هذا بعيد لاستلزامه أن يكون من باب الصفة المشبّهة، والصفة متعدّية، ولا يجوز ذلك إلا عند أبي علي الفارسي حيث لا يكون لبس، وأمّا هنا فاللبس حاصل؛ إذ الظاهر أنه من إضافة المثال للمفعول لا من إضافته إلى الفاعل. وإنما أجاز ذلك الفارسي في مثل: زيد ظالم العبيد، إذا علم أن له عبيداً ظالمين.

والظاهر أن إبراهيم عليه السلام سأل[2] المغفرة لأبويه القريبين وكانت أمّه مؤمنة وكان والده لم ييأس من إيمانه، ولم يتبين له عداوة الله تعالى.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ

(١) الكشاف ٢: ٣٨١.
(٢) ق: سأل.

هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا
لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ
لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ
وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ
ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ
ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ
فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ
كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ
وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا ﴾ الآية، الخطاب بقوله «ولا تحسبنّ» للسامع الذي يمكن منه حسبان مثل هذا، لجهله بصفات الله تعالى، لا للرسول عليه السلام، لأنه مستحيل ذلك في حقّه. وفي هذه الآية وعيد عظيم للظالمين.

ومعنى «مهطعين» مسرعين. ومعنى «مقنعي رؤوسهم» وجوه الناس يومئذ إلى السماء، لا ينظر أحد إلى أحد.

ومعنى «أفئدتهم هواء» أي: اضطراب أفئدتهم وجيشانها في الصدور، وأنها تجيء وتذهب وتبلغ على ما رُوي حناجرهم، فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبداً في اضطراب. وحصول هذه الصفات الخمس للظالمين قيل عند المحاسبة، بدليل ذكرها عقيب قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم].

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ الآية، هذا خطاب لرسول الله ﷺ. و«يوم» منصوب على أنه مفعول ثانٍ «لأنذر» ولا يصحّ أن يكون ظرفاً، لأن

ذلك اليوم ليس بزمان الإنذار وهذا اليوم هو يوم القيامة.

«وأنذر الناس» الظالمين، وبيّن ذلك قوله «فيقول الذين ظلموا» لأن المؤمنين يُبشَّرون ولا يُنذَرون.

«أوَلم تكونوا» هو على إضمار القول، والظاهر أن التقدير: فيقال لهم، والقائل الملائكة أو الباري تعالى. يُوبَّخون ويُذكَّرون بذلك مقالتهم في إنكار البعث وإقسامهم على ذلك كما قال تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۝٣٨﴾ [النحل].

قال الزمخشري[1]: «أولم تكونوا أقسمتم» على إرادة القول وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطراً وأشراً ولِمَا استولى عليهم من عادة الجهل والسّفه، وأن يقولوه[2] بلسان الحال حيث بَنَوْا شديداً وأمّلوا بعيداً. و«ما لكم» جواب القسم، وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله «أقسمتم» ولو حكى لفظ المُقْسِمين لقال: ما لنا من زوال. والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لا تزولون بالموت والفناء، وقيل: لا تنتقلون إلى دار أخرى انتهى.

جَعْلُ الزمخشري «أوَ لم تكونوا» محكيًّا بقولهم مخالف لما قدّمناه. وقوله: لا تزولون بالموت والفناء ليس بجيد؛ لأنهم مُقرّون بالموت والفناء، وقيل: هو قول مجاهد. ومعنى «ما لكم من زوال» من الأرض بعد الموت أي: لا نُبعث من القبور.

«وسكنتم» إن كان من السكون فالمعنى أنهم قَرُّوا فيها واطمأنّوا طيّبي النفوس سائرين سيرة مَن [٣٠٧/أ] قَبْلَهم في الظلم والفساد، لا يحدثونها

(١) الكشاف ٢: ٣٨٣.

(٢) ق: يقولوا.

بما لقي الظالمون قبلهم.

«وتبيّن لكم» بالخبر والمشاهدة ما فعلنا بهم من الهلاك والانتقام.

«وضربنا لكم الأمثال» أي: صفات ما فعلوا وما فُعل بهم وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم.

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ الآية، الظاهر أن الضمير في «مكروا» عائد على المخاطَبين في قوله ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم]، أي: مكروا بالشرك بالله تعالى وتكذيب الرسل. ومعنى «مكرهم» المكر العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم. والظاهر أن هذا إخبار من الله تعالى لنبيّه بما صدر منهم[1] في الدنيا وأنه[2] ليس مقولاً في الآخرة. والظاهر إضافة «مكرهم» وهو المصدر إلى الفاعل كما هو مضاف في الأول [إليه] كأنه قيل: وعند الله [ما] مكروا، أي: مكرهم.

وقال الزمخشري[3]: أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى: وعند الله مكرهم الذي يمكرهم [به] وهو عذابهم الذي يستحقّونه، يأتيهم من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون انتهى.

هذا لا يصح إلا إن كان «مَكَرَ» يتعدّى بنفسه كما قدّر هو: يمكرهم به. والمحفوظ أنّ مكر[4] [لا] يتعدّى إلى مفعول بنفسه، قال تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال] ولا يُحفظ: زيد ممكور، وإنما يقال:

(١) ق: منه.

(٢) ق: ولأنه.

(٣) الكشاف ٢: ٣٨٣.

(٤) ق: مكره.

ممكور[١] به.

وقرىء: لَتزولُ، بفتح اللام الأولى وضمّ الثانية، ولِتزولَ، بكسر اللام الأولى وفتح الثانية.

والذي [يظهر أنّ] زوال الجبال مجاز، ضُرب مثلاً لمكر قريش وعِظَمه، والجبال لا تزول. وهذا من باب الغلوّ والإيغال والمبالغة في ذمّ مكرهم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ هذا الوعد هو قوله تعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴿٥١﴾﴾ [غافر]. «إن الله عزيز» لا يمتنع عليه شيء ولا يُغالَب. «ذو انتقام» من الكفرة لا يعفو عنهم.

والتبديل يكون في الذات أي: تزول ذات وتجيء أخرى، ومنه ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء]، ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ]. ويكون في الصفات كقولك: بدّلت الحلقة خاتماً، فالذات لم تفقد لكنها انتقلت من شكل إلى شكل. واختلفوا في التبديل هنا أهو في الذات أو هو في الصفات وقال ابن عباس: تُمَدّ كما يُمَدّ الأديم وتُزال عنها جبالها وآكامها وشجرها وجميع ما فيها حتى تصير مستوية ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه]. وتُبدّل[٢] السماوات بتكوير شمسها وانتثار[٣] كواكبها وانشقاقها وخسوف قمرها.

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ «مقرنين» مشدودين في القرن أي: مقرون بعضهم مع بعض في القيود والأغلال. والظاهر تعلّق «في

(١) ق: منكور، في الموضعين.
(٢) ق: وينذر.
(٣) ق: انتشار.

الأصفاد» بقوله[1] «مقرّنين» [أي]: يقرّنون في الأصفاد.

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ السرابيل: القمص، فيجمع عليهم الأربع: لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوَحِش[2]، ونتن الرّيح.

﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ﴾ متعلق بقوله ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم]، و«ترى المجرمين» جملة معترضة بينهما.

و«كل نفس» عامٌّ في الطائعة والعاصية.

«ما[3] كسبت» في حياتها من طاعة ومعصية فيثيب الطائعة ويعاقب العاصية.

«إن الله سريع الحساب» [تقدم شرحه[4]].

والإشارة «بهذا» إلى ما ذكره تعالى من قوله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا ﴾ إلى قوله ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[5]]. ومعنى «بلاغ» كفاية في الوعظ والتذكير. فالإشارة «بهذا» إلى إعلام الله تعالى بما يجزي في الآخرة.

«ولينذَروا» وما بعده متعلق بمحذوف يدلّ عليه ما تقدّم، تقديره: فأعلَمْنا

---

(١) ق: لقوله.
(٢) ق: والوحش.
(٣) ق: بما.
(٤) انظر تفسير الآية ٢٠٢ من البقرة، والآية ١٩، ١٩٩ من آل عمران، والآية ٤ من المائدة.
(٥) الآيات ٤٢ - ٥١ المتقدمة.

به لِيُنذَروا به. «وليعلموا أنما هو» الضمير في «هو» عائد على الله تعالى، هو المتصرّف في ذلك اليوم وغيره وهو المتوحّد بالألوهية.

[٣٠٧/ب] «وليذّكر أولو الألباب» هم أرباب العقول.

سورة الحجر(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ هذه السورة مكية بلا خلاف. ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر في آخر السورة قبلها أشياء من أحوال القيامة، من تبديل السماوات والأرض وأحوال الكفار في ذلك اليوم، وأنّ ما أتى به على حسب التبليغ والإنذار - ابتدأ في هذه السورة بذكر القرآن الذي [هو] بلاغ للناس وأحوال الكفرة ووداداتهم.

و«تلك» إشارة إلى ما تضمّنته السورة من الآيات.

والكتاب والقرآن المبين: السورة. وتنكير القرآن للتفخيم والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وأي قرآن مبين، كأنه قيل: الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان.

والظاهر أن «ما» في «ربما» مهيّئة، وذلك أنها من حيث هي حرف جر

(1) مكية وهي تسع وتسعون آية.

على خلاف فيه، لا يليها إلا الأسماء، فجيء «بما» مهيّئة لمجيء الفعل بعدها. وفي ربّ لغات وأحكام ذكرت في النحو، وعلى كثرة مجيء ربّ في كلام العرب، لم تجىء في القرآن إلا في هذا الموضع. وقد اختلفوا أتفيد التقليل أم التكثير، والذي يظهر أن ذلك يفهم من سياق الكلام لا من وضعها. ومثال هذا التركيب القرآني قوله[1]: [من الخفيف]

ربّما تكره النفوس من الأمـ ـــر له فرجة كحلّ العقال

و«ما» مهيئة لمجيء الفعل بعدها ودعوى أنها نكرة موصوفة بَعيدٌ كتأويل من قال: ربّ شيء تودّه، وحذف الضمير العائد على شيء. وأكثر ما يأتي الفعل بعدها ماضياً كقول الشاعر[2]: [من المديد]

ربّما أوفيتُ في عَلَمٍ تَرْفَعَنْ ثوبي شَمالاتُ

وقد جاء مستقبلاً فقال سليم القشيري[3]: [من الطويل]

ومعتصمٍ بالحيّ من خشية الرّدى سيردى وغازٍ مشفقٍ سيؤوبُ

«فيودّ» مستقبل لا يحتاج إلى تأويله بمعنى ودّ. وكثر مجيء «لو» بعد ودّ ينسبك منها مصدر تقديره: [أن] لو كانوا مسلمين [أي: كونَهم مسلمين. ومن لم يثبت أنّ لو حرف مصدري يتأوّل مفعولاً محذوفاً لودّ وجواباً للو، فيقدّر: يودّ الذين كفروا الإسلام لو كانوا مسلمين] لينجوا بذلك.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟﴾ أَمْرُ تهديد لهم ووعيد، أي: ليسوا ممّن يرعوي عما

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص٣٦٠.

(٢) البيت لجَذيمة الأبرص، وهو من شواهد الكتاب ٣: ٥١٨.

(٣) البيت في شرح أبيات المغني ٣: ٢٠٤.

هو فيه من الكفر والتكذيب، ولا ممّن تنفعه النّصيحة والتذكير، فهم إنّما حظّهم حظّ البهائم من الأكل والتّمتع بالحياة الدنيا، والأمل في تحصيلها هو الذي يلهيهم[١] ويشغلهم عن الإيمان بالله تعالى وبرسوله.

وفي قوله «يأكلوا ويتمتّعوا» إشارة إلى أن التلذّذ والتنعم وعدم الاستعداد للموت والتأهب له ليس من أخلاق من يطلب النجاة من عذاب الله تعالى.

«فسوف يعلمون» تهديد ووعيد أي: فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وما يؤولون إليه في الدنيا من الذلّ والقتل والسّبي، وفي الآخرة من العذاب السّرمدي.

ولمّا توعّدهم بما يحلّ بهم أردف ذلك بما يُشعر بهلاكهم، وأنه لا يُستبطأ، فإنّ له أجلاً لا يتعدّاه. والمعنى: من أهل قرية كافرين. والظاهر أن المراد بالهلاك هلاك الاستئصال مكذّبي الرسل وهو أبلغ في الزّجر.

و«من قرية» مفعول «أهلكنا» و«مِن» لاستغراق الجنس. «ولها كتاب معلوم» جملة حاليّة.

و«من» زائدة تفيد استغراق الجنس أي: ما تسبق أمّة. وأنّث «أجلها» على لفظ «أمة»، وجمع وذكّر في «وما [٣٠٨/أ] يستأخرون» حملاً على المعنى، وحذف: عنه، لدلالة الكلام عليه.

قال الزمخشري[٢]: الجملة واقعة صفة «لقرية» والقياس أن لا تتوسّط الواو بينهما كما في قوله تعالى ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا

---

(١) ق: يليهم.

(٢) الكشاف ٢: ٣٨٧.

﴿مُنذِرُونَ ۝٢٠٨﴾ [الشعراء] وإنما توسّطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب، وجاءني زيد وعليه ثوب انتهى.

ووافقه على ذلك أبو البقاء فقال[١]: الجملة نعت «لقرية» كقولك: ما لقيت رجلاً إلاّ عالماً، وقد ذكرنا حال الواو في مثل هذا في البقرة في قوله ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۝٢١٦﴾ [انتهى].

وهذا الذي قاله الزمخشري وتبعه فيه أبو البقاء لا نعلم أحداً قاله من النحويين، وهو مبني على أنّ ما بعد «إلاّ» يجوز أن يكون صفة، وقد منعوا ذلك.

قال الأخفش: لا يُفصل بين الصفة والموصوف بإلاّ[٢]. ثم قال: ونحو: ما جاءني رجل إلاّ راكب، تقديره: إلاّ رجل راكب، وفيه قبح لجعل الصفة كالاسم.

وقال أبو علي الفارسي: تقول: ما مررت بأحدٍ إلاّ قائماً، قائماً: حال من أحد، ولا يجوز، إلاّ قائمٍ، لأنّ إلاّ لا تعترض بين الصفة والموصوف.

وقال ابن مالك - وقد ذكر ما ذهب إليه الزمخشري من قوله في نحو: ما مررت بأحدٍ إلاّ زيد خير منه: إن الجملة بعد إلاّ صفة لأحد - إنه مذهب لم يُعرف لبصري ولا كوفي فلا يُلتفت إليه. وأبطل ابن مالك قول الزمخشري: إنّ الواو توسّطت لتأكيد لصوق الصفة [بالموصوف].

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

(١) إملاء ٢: ٧٢.

(٢) ق: بالاسم.

إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ الآية، قال مقاتل: نزلت في عبد الله بن أمية والنضر بن الحارث ونوفل بن خويلد والوليد بن المغيرة. وهذا الوصف بأنه الذي نُزّل عليه الذّكر قالوه على جهة الاستهزاء والاستخفاف، لأنهم لا يقرّون بتنزيل الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، وهذا كقول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء] إذ لو كان مؤمناً برسالة موسى عليه السلام ما أخبر عنه بالجنون.

ثم اقترحوا عليه أن يأتيهم بالملائكة شاهدين بصدقك وبصحة دعواك وإنذارك كما قال ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان]، أو معاقبين على تكذيبك كما كانت باقي الأمم المكذّبة. و«لوما» حرف تحضيض بمعنى هلاّ.

وقرىء: ما تَنَزَّلُ، بشدّ التاء، أصله تتنزّل فأدغم التاء في التاء.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الظاهر أن معناها كما يجب وبحقٍّ[١] من الوحي والمنافع التي أراها الله تعالى لعباده، لا على اقتراح كافر ولا باختيار معترض. ثم ذكر

(١) ق: كما تحبّ ويحقّ.

عادة الله تعالى في الأمم من أنه لم يأتهم[1] بآية اقتراح إلاّ ومعها العذاب في إثرها إن لم يؤمنوا، فكأنّ الكلام: ما تنزّل الملائكة إلا بحقّ لا باقتراحكم، وأيضاً فلو نزّلت لم تُنْظَروا بعد ذلك [بالعذاب] أي: تُؤخَّروا، المعنى. وهذا لا يكون إذ كان في علم الله تعالى أنّ منهم من يؤمن ويلد من يؤمن.

﴿وَإِنَّا[لَهُۥ] لَحَـٰفِظُونَ﴾ أي: حافظون له من الشياطين وفي كل وقت تكفّل تعالى بحفظه فلا تعتريه زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تبديل، بخلاف غيره من الكتب المتقدمة فإنه تعالى لم يتكفّل بحفظها[2]، بل قال تعالى إن الرّبانيين والأحبار استحفظوها ولذلك وقع فيها الاختلاف. وحفظه إياه دليل على أنه من عنده تعالى؛ إذ لو كان من قول البشر لتطرّق إليه ما تطرّق لكلام البشر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى استهزاء الكفار [به] ونسبته إلى الجنون واقتراح نزول الملائكة، سلاّه تعالى بأن من أُرسل من قبلك كان ديدن المُرسل إليهم مثل ديدن هؤلاء معك. وتقدم تفسير [٣٠٨/ب] الشّيع في أواخر الأنعام[3]. ومفعول «أرسلنا» محذوف أي: أرسلنا من قبلك رسلاً.

قال الزمخشري[4]: «وما يأتيهم» حكاية حال ماضية لأنّ «ما» لا تدخل على مضارع إلا وهو في موضع الحال، ولا على ماضٍ إلا وهو قريب من الحال انتهى.

---

(١) ق: يأتيهم.

(٢) ق: حفظها.

(٣) انظر تفسير الآية ١٥٩ من الأنعام.

(٤) الكشاف ٢: ٣٨٨.

هذا الذي ذكره هو قول الأكثرين أنّ[1] «ما» تخلص المضارع للحال وتعيّنه. وذهب غيره إلى أنّ «ما» يكثر دخولها على المضارع مراداً به الحال، وتدخل عليه مراداً به الاستقبال، وأنشد شاهداً على ذلك قول أبي ذؤيب[2]: [من الكامل]

أودى بَنِيَّ وأودعوني حسرةً عند الرّقاد وعَبْرَةً ما تُقْلِعُ

وقال الأعشى يمدح رسول الله ﷺ[3]: [من الطويل]

له نافلات ما يغبّ نوالها وليس عطاء اليوم مانعه غدا

وقال تعالى ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴿١٥﴾﴾ [يونس].

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الظاهر عود الضمير على الاستهزاء المفهوم من قوله «يستهزئون». والباء في «به» للسبب. والمجرمون هنا كفار قريش ومن دعاهم الرسول إلى الإيمان.

و﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إن كان إخباراً مستأنفاً فهو من العامّ المراد به الخصوص فيمن حتم عليه، إذ قد آمن من عالم ممّن كذّب الرسول عليه السلام، فقد خلت سنة الأولين في تكذيبهم رسلهم أو في إهلاكهم حين كذبوا رسلهم واستهزؤوا بهم، وهو تهديد لمشركي قريش.

والضمير في «عليهم» عائد على المشركين وذلك لفرط تكذيبهم وبُعدهم

---

(١) ق: أي.

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٢.

(٣) ديوانه ص١٧٣.

عن الإيمان حتى ينكروا ما هو مشاهد بالأعين محسوس مماسّ بالأجساد بالحركة والانتقال. وهذا بحسب المبالغة التامة في إنكار الحق.

والظاهر أن الضمير في «فظلّوا» عائد على من عاد عليه في قوله «عليهم»، أي: لو فُتح عليهم باب من السماء وجُعل لهم معراج يصعدون فيه لقالوا هو شيء نتخيّله لا حقيقة له وقد سُحرنا بذلك. وقد جاء لفظ «فظلّوا» مشعراً بحصول ذلك في النهار ليكونوا مستوضحين لما عاينوا.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ لمّا ذكر تعالى حال منكري النبوّة، وكانت مفرّعة على التوحيد، ذكر دلائله السماوية وبدأ بها ثم أتبعها بالدلائل الأرضية.

والبروج: جمع برج. وقال ابن عيسى الرّماني: البروج اثنا عشر برجاً: الحَمَل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، وهي منازل الشمس والقمر. والظاهر أن الضمير في «وزيّناها» عائد على البروج لأنها المحدَّث عنها والأقرب في اللفظ، وقيل على «السماء» وهو قول الجمهور. وخص بالناظرين لأنها من المحسوس التي لا تُدرَك إلا بنظر العين، ويجوز أن يكون من نظر القلب لما

فيها من الزّينة المعنوية وهو ما فيها من حسن[1] الحكم وبدائع الصنع وغرائب القدرة.

والضمير في «وحفظناها» عائد على [السماء] ولذلك قال الجمهور إنّ الضمير في «وزيّنّاها» عائد على «السماء» حتى لا تختلف الضمائر. وحِفْظ السماء هو بالرّجم بالشهب على ما تضمّنَتْه الأحاديث الصحاح.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ الآية، ومعنى «مددناها» بسطناها ليحصل بها الانتفاع لمن حلّها. ولمّا كانت هذه الجملة تقدّمها جملة فعلية كان النصب على الاشتغال أرجح من الرفع على الابتداء، فلذلك نصب «الأرض». والرواسي: الجبال، والظاهر أن الضمير في «فيها» عائد على الأرض الممدودة. وقال [٣٠٩/أ] ابن عباس: «موزون» مقدور بقدر.

وتقدّم تفسير المعايش في الأعراف[2]. والظاهر أنّ «مَن» لمن يعقل[3] ويراد به العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإن الله هو الرازق يرزقهم وإياكم. «ومن» مجرور معطوف على الضمير في «لكم»، وحسّن العطف الفصل بينهما بقوله «فيها معايش». أو يدخل معهم ما لا يعقل بحكم التغليب كالأنعام والدّواب وما بتلك المثابة ممّا الله تعالى رازقه وقد سبق إلى ظنّهم أنهم هم الرازقون لهم.

وتقدم شرح الخزائن[4]، و«وإن» نافية و«مِن» زائدة. والظاهر أن

(١) ق: جنس.

(٢) انظر تفسير الآية ١٠ من الأعراف.

(٣) ق: لمن لا يعقل.

(٤) انظر تفسير الآية ٥٠ من الأنعام.

المعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، فيكون الخزائن وهي ما تحفظ فيه الأشياء مستعارة من المحسوس الذي هو الجسم إلى المعقول.

و«لواقح» جمع لاقح، يقال: ريح لاقح جائيات بخير من إنشاء سحاب ماطر كما قيل للتي لا تأتي بخير بل بشرّ: ريح عقيم.

و«المستقدمين» قال ابن عباس: الأموات. و«المستأخرين» الأحياء.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ فيه التفات وخروج من ضمير العظمة للواحد إلى الاسم الظاهر تنبيهاً على أن المتّصف بتلك الأفعال السابقة هو ربك المالك لك والناظر في مصلحتك، وهو توكيد للفظ الربّ.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ
ٱلسَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ
كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ (٣١) قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ
أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٣٥)
قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ
ٱلْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا
عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ
لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا
سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)
ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ
مُّتَقَـٰبِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ

أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ الآية، لمّا نبّه تعالى على منتهى الخلق وهو الحشر يوم القيامة إلى ما يستقرون فيه - نبّههم على مبدأ أصلهم وهو آدم عليه السلام وما جرى لعدوّه إبليس من المحاورة مع الله تعالى. وتقدّم شيء من هذه القصة في أوائل البقرة[١] عقب ذكر الإماتة والإحياء والرجوع إليه تعالى، وفي الأعراف[٢] بعد ذكر يوم القيامة وذكر الموازين فيه، وفي الكهف[٣] بعد ذكر الحشر، وكذا في سورة ص[٤] بعد ذكر ما أعدّ من الجنّة والنار لخلقه. فحيث ذكر منتهى هذا الخلق ذكر مبدأهم وقصته[٥] مع إبليس ليحذّرهم من كيده ولينظروا ما جرى له معه حتى أخرجه من الجنّة التي هي مقرّ السعادة والراحة إلى الأرض التي هي مقرّ التكليف والتعب[٦] فيحترزوا من كيده.

والصلصال: قال أبو عبيدة: الطين إذا خُلط بالرمل وجفّ. والحمأ: طين أسود منتن واحده حَمَأة بتحريك الميم.

وقال ابن عباس: المسنون: الرطب ومعناه المصبوب، لأنه لا يكون

(١) انظر تفسير الآية ٣٤ وما بعدها من البقرة.
(٢) انظر تفسير الآية ١١ وما بعدها من الأعراف.
(٣) انظر تفسير الآية ٥٠ من الكهف.
(٤) انظر تفسير الآية ٧١ وما بعدها من ص.
(٥) ق: وقضيته.
(٦) ق: والبعث.

مصبوباً إلا وهو رطب فكنّى عن المصبوب بوصفه لأنه[١] موضوع [له].

و«السموم» قال ابن عباس: الريح الحارّة التي تقتل. وعنه: نار لا دخان لها ومنها تكون الصواعق.

ومعنى ﴿ سَوَّيْتُهُۥ ﴾ أكملت خَلْقَهُ. والتسوية عبارة عن الإتقان وجعل أجزائه مستوية فيما خلقت له.

«ونفخت فيه من روحي» أي: خلقت الحياة فيه. ولا نفخ هناك ولا منفوخ حقيقة وإنّما تمثيل لتحصيل ما يجيء به فيه. وإضافة الروح إليه تعالى على سبيل التشريف نحو: بيت الله وناقة الله، أو المُلْك إذ هو المتصرّف في الإنشاء للرّوح والمُوْدِعُها حيث يشاء.

«فقعوا له ساجدين» أي: اسقطوا على الأرض.

وحرف الجر محذوف من «أن» أي: مالك في أن لا تكون وأي داعٍ دعا بك إلى إبائك السجود؟.

و«لأسجد» اللام[٢] لام الجحود. والمعنى: لا يناسب حالي السجود له. وفي البقرة[٣] نبّه على العلّة المانعة له وهي الاستكبار أي: رأى نفسه أكبر من أن يسجد. وفي الأعراف[٤] صرّح بجهة الاستكبار وهي ادّعاء الخيريّة والأفضلية، بادّعاء المادة المخلوق منها كلّ منهما . . وهنا نبّه على مادّة آدم

---

(١) ق: لا أنه.

(٢) ق: واللام.

(٣) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة].

(٤) ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعراف]. وانظر تفسير الآيتين.

[٣٠٩/ب] وحده. وهنا «فاخرج منها» وفي الأعراف «فاهبط منها». وتقدّم ذكر الخلاف فيما يعود [عليه] ضمير «منها».

و﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ «ما» مصدرية. وهنا أقسم بالإغواء وفي مكان آخر قال ﴿فَبِعِزَّتِكَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص] فيكون ذلك في محاورتين. و«لأزيّنن» جواب القسم. و«لهم» ضمير يعود على ما يُفهم من الكلام وهم ذرية آدم عليه السلام.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ الإشارة بهذا إلى ما تضمّنه «المخلَصين» من المصدر أي: الإخلاص الذي يكون في عبادي هو صراط مستقيم لا يسلكه أحد فيضلّ أو يزلّ، لأنّ من اصطفيته أو أخلص لي بالعمل لا سبيل لك عليه. ولمّا قسم إبليس ذرّية آدم إلى غاوٍ ومخلص قال تعالى: هذا أمر مصيره إلي. ووصفه بالاستقامة إذ هو حقّ، وصيرورتهم إلى هذين القسمين ليس لك. والعرب تقول: طريقك في هذا الأمر على فلان، أي: إليه يصير النظر في أمرك. وقرأ الجمهور: عليَّ، جارّاً ومجروراً ويتعلق بقوله «مستقيم» أي: [مستقيم] على إرادتي وحكمي. وقرأ يعقوب على وزن فَعِيل[1]، وهو صفة لقوله «صراط».

والإضافة في قوله «إن عبادي» إضافة تشريف أي: إن المختصّين بعبادتي. وعلى هذا لا يكون قوله «إلاّ من اتّبعك» استثناءً متصلاً، بل يكون منقطعاً بمعنى: لكن من اتّبعه لم يندرج في قوله «إنّ عبادي». وإن كان أريد «بعبادي» عموم الخلق فيكون «إلا من اتّبعك[2]» استثناءً متّصلاً لاندراجه في عموم العباد. و«مِن» في قوله «من الغاوين» لبيان الجنس أي: الذين هم الغاوون.

---

(١) أي: صراط عَلِيٌّ، بمعنى عالٍ.

(٢) ق: تبعك.

و﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ مكان وعد اجتماعهم، والضمير للغاوين.

قال ابن عطية: و«أجمعين» تأكيد وفيه معنى الحال.انتهى.

هذا جنوح لمذهب من يزعم أن «أجمعين» يدل على اتّحاد الوقت، والصحيح أن مدلوله مدلول: كلّهم.

والظاهر أن جهنم هي واحدة و«لها سبعة أبواب» قيل: أعلاها للموحّدين والثاني لليهود والثالث للنصارى والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى ما أعدّ لأهل النار، ذكر ما أعدّ لأهل الجنة، ليظهر تباين ما بين الفريقين.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم﴾ تقدم شرحه في الأعراف[1]. وانتصب «إخواناً» على الحال، وهي حال من الضمير المجرور في «صدورهم» والحال من المضاف نادرة.

وقد تأوّل [أبو البقاء] نصبه على غير الحال من الضمير المجرور[2].

«على سرر» جمع سرير. و«على سرر» و«متقابلين» حالان. والقعود على السرير دليل على الرفعة والكرامة التامة. وعن ابن عباس: على سرر مكلّلة بالياقوت والزّبرجد والدّر. «متقابلين» متساوين في التواصل والتوادد.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب مما يقاسونه في الدنيا، وإذا انتفى

(١) انظر تفسير الآية ٤٣ من الأعراف.

(٢) انظر الإملاء ٢: ٧٥، والبحر ٥: ٤٥٧.

المسّ انتفت الديمومة. واكّد انتفاء الإخراج بدخول الباء في «بمخرجين». و«منها» متعلق «بمخرجين».

ولمّا تقدم ذكر ما في النار وذكر ما في الجنة أكّد تعالى تَنْبئَةَ الناس وتقرير ذلك وتمكينه في النفوس بقوله ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾. وناسب ذكر الغفران والرحمة اتصال ذلك بقوله ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر]، وتقديماً لهذين الوصفين العظيمين اللذين وصف بهما نفسه تعالى.

وجاء قوله ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ في غاية اللطف إذ[1] لم يقل على وجه المقابلة: وأني المعذب المؤلم، كل ذلك ترجيح لجهة[2] العفو والرحمة. وسدّت «أنّ» مسدّ مفعولي «نبّيء» إن قلنا إنها تعدّت إلى ثلاثة، ومسدّ واحد إن قلنا إنها تعدّت إلى [٣١٠/أ] اثنين.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ
وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ
ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ
وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ
بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ
مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ

(١) ق: إن.

(٢) ق: لجملة.

مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا
تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ
هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ
مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآية، لما ذكر تعالى ما أعدّ للعاصين من النار وللطائعين من الجنّة، ذكّر العرب بأحوال من يعرفونه ممّن عصى وكذّب الرسل، فحلّ به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، ليزدجروا عن كفرهم، وليعتبروا بما حلّ بغيرهم، فبدأ بذكر جدّهم الأعلى إبراهيم عليه السلام وما جرى لقوم ابن أخيه لوط، ثم بذكر أصحاب الحجر وهم قوم صالح ثم بأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب[1].

و«ضيف إبراهيم» هم الملائكة الذين بشّروه بالولد وبهلاك قوم لوط. وتقدّم الكلام عليه في سورة هود[2]. «ونبّئهم» عدّى «نبّئهم» بحرف الجر وهو عن، ولم يذكر لها مفعولاً ولا مفعولين.

و«سلاماً» مقتطع من جملة محكيّة «بقالوا» فليس منصوباً به والتقدير: سَلِمْتَ سلاماً من السلامة، أو سلّمنا سلاماً من التّحية.

وقيل «سلاماً» نعت لمصدر محذوف تقديره: فقالوا قولاً سلاماً.

وتصريحه هنا بأنه وَجِلٌ منهم كان بعد تقريبه إليهم ما أضافهم به وهو

(١) جرى ذكر أصحاب الأيكة في الآيات قبل أصحاب الحجر.
(٢) انظر تفسير الآية ٦٩ من هود.

العجل الحنيذ[١]، وامتناعهم من الأكل. وفي هود ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۝٧٠﴾ [هود][٢] فيمكن أن هذا التصريح كان بعد إيجاس الخيفة. ويحتمل أن يكون القول هنا مجازاً بأنه ظهرت عليه مخايل الخوف حتى صار كالمصرِّح به القائل.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنّهي عن الوجل، فبشّروه بأمرين أحدهما أنه ذَكَر والثاني وَصْفُه بالعلم على سبيل المبالغة.

واستنكر إبراهيم عليه السلام أن يولد [له] مع الكبر.

و﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ تأكيد استبعاد وتعجّب، وكأنه لم يعلم أنهم ملائكةٌ رسلُ الله تعالى إليه، فلذلك استفهم واستنكر أن يولد له. ولو علم أنهم رسل الله ما تعجّب ولا استنكر ولا سيما وقد رأى من آيات الله عياناً كيف أحيا الموتى.

و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: باليقين الذي لا لبس فيه.

وقولهم له ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ نهي، والنهي عن شيء لا يدلّ على تلبّس المنهيّ عنه به ولا بمقاربته.

وقوله ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ ردٌّ عليهم وأن المحاورة في البشارة لا تدلّ على القنوط بل ذلك على سبيل الاستبعاد لما جرت به العادة. وفي ذلك إشارة إلى أن هبة الولد على الكبر من رحمة الله تعالى إذ يشدّ عضد والده به، ويؤازره حالة كونه لا يستقلّ ويرث منه علمه ودينه.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ الآية، لمّا بشّروه بالولد وراجعوه في ذلك علم أنهم ملائكة الله ورسله، فاستفهم بقوله «فما خطبكم». والخطب لا يكاد يقال إلا

---

(١) ق: الحنيبذ.

(٢) وفي ق: «فأوجس في نفسه خيفةً» طه ٢٠: ٦٧.

في الأمر الشديد، فأضافه إليهم من حيث أنهم هم حاملوه إلى أولئك القوم المعذَّبين.

وذكر «إلى قوم مجرمين» فأبرزه في صورة النكرة وإن كان أريد به[١] معيّنون، يدلّ على ذلك قولهم في سورة هود ﴿ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود] فعيّنهم. وإنّما نكّر ها هنا على سبيل الاستهانة بهم وإن كانوا معيّنين من جهة المعنى.

فقوله ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ﴾ استثناء نكرة في الظاهر ولكنهم معيّنون في المعنى. وكثيراً ما تأتي النكرة يُراد بها التعيين كقول من صحب رجلاً عالماً معيّناً فيقول: لقد صحبت رجلاً عالماً.

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ استثناء من الضمير المنصوب في «منجوهم».

قال الزمخشري[٢]: فإن قلت: فقوله «إلا امرأته» ممّ استثني، وهل هو استثناء من استثناء؟ قلت: استثني[٣] من الضمير المجرور في قوله «لمنجوّهم» وليس من الاستثناء في شيء، لأن الاستثناء من الا، تثناء إنما يكون فيما اتّحد الحكم فيه وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط إلا امرأته، كما اتّحد الحكم في قول المطلّق [٣١٠/ ب] ثلاثاً: إلا اثنتين إلا واحدة، وفي قول المقرّ لفلان على عشرة دراهم: إلا ثلاثة إلا درهماً. فأمّا في الآية فقد اختلف الحكمان لأن «آل لوط» متعلق بـ«أرسلنا» أو بـ«مجرمين»، و«إلاّ امرأته» قد تعلّق «بمنجّوهم» فأنى [يكون] استثناء من استثناء؟ انتهى.

---

(١) ق: بهم.
(٢) الكشاف ٢: ٣٩٣.
(٣) ق: استثنا، في الموضعين.

لمّا استسلف الزمخشري أن «إلا امرأته» مستثنى من الضمير المجرور، لم[1] يجوّز أن يكون استثناء من استثناء. ومن قال إنه استثناء من استثناء[2] فيمكن تصحيح كلامه بأحد وجهين: أحدهما أنه [لمّا] كان الضمير في «لمنجّوهم» عائداً[3] على «آل لوط» وقد استثنى منه المرأة فصار كأنه مستثنى من «آل لوط» لأن المضمر هو الظاهر في المعنى.

والوجه الآخر أن قوله «إلاّ آل لوط» لما حكم عليهم بغير الحكم على «قوم مجرمين» اقتضى ذلك نجاتهم في قوله «إنّا لمنجّوهم أجمعين» تأكيداً لمعنى الاستثناء إذ المعنى: إلا آل لوط، فلم يرسل عليهم بالعذاب، ونجاتهم مترتّبة على عدم الإرسال إليهم بالعذاب، فصار نظير قولك: قام القوم إلا زيداً فإنه لم يقم [أو: إلا زيداً لم يقم]. فهذه الجملة تأكيد لما تضمّنه الاستثناء من الحكم على ما بعد إلاّ بضدّ الحكم السابق على المستثنى منه. «فإلا امرأته» على هذا التقرير الذي قرّرناه استثناء من «آل لوط» لأن الاستثناء ممّا جيء به للتأسيس أولى من الاستثناء ممّا جيء به للتأكيد.

وجاء الضمير في «أرسلنا» وفي «إنا» وفي «قدّرنا» مسنداً إلى الملائكة لأنهم هم المأمورون بإهلاكهم.

ووصف «قوم» «بمنكرون» لأنه نَكِرَتْهم نفسه، ونفرت منهم وخاف أن يطرقوه بشرّ.

و﴿بَلْ﴾ إضرابٌ عن قولٍ محذوف، أي: ما جئناك لشيء تخافه، بل

---

(١) ق: ولم.

(٢) ومن قال إنه استثناء من استثناء: مكررة في ق.

(٣) ق: عائد.

جئناك بالعذاب لقومك، إذ كانوا يمترون فيه، أي: يشكّون في وقوعه، أو يجادلون فيه تكذيباً لك بما وعدتهم به عن الله تعالى.

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ نهاهم أولاً عن الالتفات وأمره باتّباع أدبارهم، ويكون ذلك أحفظ لهم من أن يترك[1] ساقةً خلفه.

و«حيث تؤمرون» قال ابن عباس: هي الشام.

ولمّا ضمّن «قَضَيْنَا» معنى أوحينا تعدّت تعدّيها بإلى، أي: وأوحينا إلى لوط منقضياً مبتوتاً[2].

والإشارة «بذلك» إلى ما وعده تعالى من إهلاك قومه. و«أنّ دابر» تفخيم للأمر وتعظيم له، وهو في موضع نصب على البدل من «ذلك».

و«مصبحين» داخلين في الصباح.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الآية، استبشارهم فرحهم بالأضياف الذين وردوا على لوط عليه السلام. والظاهر أن هذا المجيء ومحاورةَ لوط مع قومه في حق أضيافه وعَرْضَه بناتِه عليهم، كان ذلك كله قبل إعلامه بهلاك قومه وعلمه بأنهم رسل الله تعالى، ولذلك سمّاهم ضيفاً، وخاف الفضيحة منهم لأجل تعاطيهم ما لا يجوز من الفعل القبيح. وقد جاء ذلك مرتّباً هكذا في سورة هود[3] والواو لا ترتّب.

﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ من الخزي وهو الإذلال، أو من الخزاية وهي الاستحياء.

---

(١) ق: ينزل. والسّاقة المؤخّرة وهي نقيض المقدمة.

(٢) ق: مبثوثاً.

(٣) في قوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۝٧٨﴾ [هود].

وفي قوله ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ دليل على تقدّم نهيهم إياه عن أن يضيف أو يجير أحداً أو يدفع عنه أو يمنع بينهم وبينه، فإنهم كانوا يتعرّضون لكلّ أحد وكان هو عليه السلام يقوم بالنهي عن المنكر والحجز بينه وبين من تعرّض له. فأوعدوه بأنه إن لم ينته أخرجوه(١).

وتقدّم الكلام في قوله «بناتي» ومعنى الإضافة في هود(٢).

و«إن كنتم فاعلين» شكّ في قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون. وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحلّ الله تعالى دون ما حرّم.

واللام في ﴿لَعَمْرُكَ﴾ لام الابتداء، و«عمرك» مبتدأ خبره محذوف تقديره: لعمرك قسمي. وإذا كان في القسم كانت العين مفتوحة ومعناها البقاء [٣١١/أ] وجواب القَسَم فقيل: القَسَم من الملائكة خطاباً للوط عليه السلام، وقيل: خطاباً لرسول الله ﷺ. وكنّى عن الضّلالة والغفلة بالسّكر، أي: تحيُّرهم في غفلتهم وضلالتهم منعهم عن إدراك الصواب الذي تشير به.

و﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحة الهلاك. و﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس. وقيل: أول العذاب كان عند الصبح وامتدّ إلى شروق الشمس فكان تمام الهلاك.

والضمير في «عَالِيَها سَافِلَها» عائد على «المدينة» المتقدمة الذكر(٣).

---

(١) انظر مثلاً الآية ١٦٧ من الشعراء، والآية ٥٦ من النمل.

(٢) انظر تفسير الآية ٧٨ في هود.

(٣) في الآية ٦٧.

﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للمتفرسين. وعن ابن عباس: هم أهل الصلاح والخير.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ﴾ أي: ممرّ ثابت وهي بحيث يراها الناس ويعتبرون بها، لم تندرس، وهو تنبيه لقريش.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في صنعنا بقوم لوط لعلامةً ودليلاً لمن آمن بالله تعالى.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ الآية، هم قوم شعيب. والأيكة التي أضيفوا إليها كانت شجر الدّوم وقيل غير ذلك. كفروا فسلّط الله عليهم الحرّ، وأُهلكوا بعذاب الظُّلة، ويأتي [ذلك] مستوفى في سورة الشعراء[1].

﴿وَإِنَّهُمَا﴾[2] الضمير يعود على أصحاب الأيكة [ومدين] لأنه مرسل إليهما، فدلّ ذكر أحدهما على الآخر، فعاد الضمير إليهما.

﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بطريق من الحق واضح. والإمام: الطريق.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآية، «أصحاب الحجر» ثمود قوم صالح عليه السلام.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٧٦ وما بعدها من الشعراء.

(٢) ق: وإنها.

و«الحجر» أرض[1] بين الحجاز والشام، وتقدمت قصته في الأعراف مستوفاة[2].

و«المرسلين» يعني بتكذيبهم صالحاً، لأنّ من كذّب واحداً منهم فكأنما كذّبهم جميعاً. وتقدم ذكر قصتهم في الأعراف ويأتي أيضاً بعض خبرهم[3].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: خلقاً[4] ملتبساً بالحق، لم يُخلق شيء من ذلك عبثاً ولا هملاً بل ليطيع من أطاع بالتفكر في ذلك الخلق، وليتذكر النشأة الآخرة بهذه النشأة الأولى. ولذلك نبّه من تنبّه بقوله «وإن الساعة لآتية» فيجازي من أطاع وعصى.

---

(١) ق: أيضاً. وانظر الروض المعطار ص١٨٩.

(٢) انظر تفسير الآية ٧٣ وما بعدها من الأعراف.

(٣) انظر تفسير الآية ٧٣ من الأعراف، وانظر مثلاً تفسير الآية ١٤١ وما بعدها من الشعراء، والآية ٤٥ من النمل.

(٤) ق: خلقنا.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ جمع مثناة، والمثناة كل شيء يُثْنى أي: يُجعل اثنين، من قولك: ثَنَيْت الشيء ثَنْياً أي: عطفته وضممت إليه آخر. وهذا مجمل لا سبيل إلى تعيينه إلا بدليل منفصل؛ جوّز الزّجاج أن تكون أم القرآن سمّيت السبع المثاني، لأنها يُثنى بها على الله تعالى.

قال ابن عطية: وفي هذا القول من جهة التصريف نظر.انتهى.

لا نظر في ذلك، لأنها جمع مُثنى بضم الميم، مُفعل، من: أثنى، رباعيًّا، أي: مقرّ ثناء على الله تعالى، أي: فيها ثناء على الله تعالى. وقال عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس وغيرهم: السبع هنا آيات الحمد. قال ابن عباس: هي سبع ببسم الله الرحمن الرحيم. وقال غيره: هي سبع بدون البسملة. وقال أبو العالية: لقد نزلت هذه السورة وما نزل من السبع الطوال شيء.

﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ ظاهره أنه خطاب لرسول الله ﷺ، والمعنى نهي أمّته عن ذلك لأن من أوتي القرآن شغله النظر فيه وامتثال تكاليفه وفهم معانيه عن الاشتغال بزهرة الدنيا، ومدّ العين للشيء، إنما هو لاستحسانه وإيثاره.

﴿أَزْوَاجًا﴾ أي: أصنافاً.

ونهاه تعالى عن الحزن عليهم إن لم يؤمنوا - وكان كثير الشفقة على من بُعث إليه - وأَمَره بخفض الجناح لمن آمن، وهي كناية عن التلطّف والرفق. وأصلُه أن الطائر إذا ضمّ الفرخ إليه بسط جناحه له ثم قبضه على [٣١١/ب] [فرخه]. والجناحان من ابن آدم جانباه.

ثم أمره بأن يبلّغ أنه هو النذير الكاشف لكم ما جئت به إليكم من تعذيبكم إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون متعلقاً بقوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر] أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على المقتسمين القرآن فنسبوه إلى سحر وكذب وافتراء.

ومعنى ﴿عِضِينَ﴾ أي: فرقاً.

والثاني أن يكون متعلّقاً بقوله ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: إنذاراً مثل إنذار المقتسمين.

قال الزمخشري[1]: فيه وجهان: أحدهما أن يتعلق بقوله «ولقد آتيناك» أي: أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب، وهم المقتسمون[2] الذين جعلوا القرآن عضين حيث قالوا بعنادهم وعداوتهم: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقتسموه إلى حقّ وباطل وعضوه. وقيل: كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لي، ويقول آخر: سورة آل عمران لي. ويجوز أن يُراد بالقرآن ما يقرؤونه من كتبهم وقد اقتسموه بتحريفهم، وبأن اليهود أقرّت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرّت ببعض الإنجيل وكذّبت ببعض. وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم وقولهم سحر وشعر وأساطير الأولين، بأنّ غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم.

والثاني أن يتعلق بقوله «وقل إني أنا النذير المبين» [أي]: وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين، يعني اليهود، وهو ما جرى على قريظة والنضير. جعل المتوقّع بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز لأنه إخبار بما

---

(١) الكشاف ٢: ٣٩٨.

(٢) ق: المقتسمين.

سيكون وقد كان. ويجوز أن يكون «الذين جعلوا القرآن عضين» منصوباً «بالنذير» أي: أنذر العضين الذين يجزّئون القرآن إلى شعر وسحر وأساطير، مثلما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكّة أيام الموسم فقعدوا في كل مدخل متفرقين لينفّروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ، يقول بعضهم: لا تغترّوا بالخارج منّا فإنه ساحر، ويقول الآخر: كذّاب، ويقول الآخر: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر وقتلهم بآفات كالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطّلب وغيرهم. أو مثلما أنزلنا على الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا[١] صالحاً عليه السلام، والاقتسام بمعنى التقاسم. فإن قلت: إذا علّقت قوله «كما أنزلنا» بقوله «ولقد آتيناك» فما معنى توسّط «لا تمدّن» إلى آخره [بينهما]؟ قلت: لمّا كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله [عليه وسلم] عن تكذيبهم وعداوتهم، اعترض بما هو مدد لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم[٢] ومن الأمر بأن يُقْبل بمجامعه على المؤمنين انتهى.

أما الوجه الأول وهو تعلّق «كما» «بآتينا» فذكره أبو البقاء[٣] على تقدير، وهو أن يكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف تقديره: آتيناك سبعاً من المثاني إيتاءً كما أنزلنا، أو إنزالاً كما أنزلنا، لأن «آتيناك» بمعنى: أنزلنا عليك.

وأمّا قوله: إن المقتسمين هم أهل الكتاب فهو قول الحسن ومجاهد [ورواه الحوفي عن ابن عباس.

---

(١) أي أن يوقعوا به ليلاً.

(٢) ق: كونهم.

(٣) انظر الإملاء ٢: ٧٧.

وأما قوله: اقتسموا القرآن، فهو قول ابن عباس] فيما رواه عنه سعيد بن جبير.

وأمّا قوله: اقتسموه فقال بعضهم: سورة البقرة إلى آخره فقاله عكرمة. وقال السّدي: هم الأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث والوليد والعاص والحارث بن قيس، ذكروا القرآن فمن قائل: البعوض لي، ومن قائل: النّمل لي، وقائل [٣١٢/أ] الذباب لي[١]، وآخر: العنكبوت لي، استهزاءً، فأهلكهم الله جميعهم.

وأما قوله: إن القرآن عبارة عما يقرؤونه من كتبهم إلى آخره، فقاله[٢] مجاهد.

وأما قوله: ويجوز أن يكون قوله «الذين جعلوا القرآن عضين» منصوباً «بالنذير» أي: أنذر العضين، فلا يجوز أن يكون منصوباً «بالنذير» كما ذكر، لأنه موصوف «بالمبين» ولا يجوز أن يعمل إذا وصف قبل ذكر المعمول على مذهب البصريين، لا يجوز: هذا عليمٌ شجاعٌ عِلْمَ النحو، فتفصل بين عليم وعلم بقولك شجاع. وأجاز ذلك الكوفيون وهي مسألة خلافية، ذكرت دلائلها في علم النحو.

وأما قوله: الذين يجزّئون[٣] القرآن إلى شعر وسحر وأساطير فمرويّ عن قتادة، إلا أنه قال بدل سحر: كهانة.

وأما قوله: الذين اقتسموا مداخل مكة، فهو قول السائب، وفيه أن

---

(١) وقائل الذباب لي: مكررة في ق.

(٢) ق: فقال.

(٣) ق: وأما قولك: الذين يجرّون.

الوليدبن المغيرة قال: ليقل بعضكم: كاهن، وبعضكم: شاعر، وبعضكم: غاوٍ. وهم حنظلة بن أبي سفيان وعتبة وشيبة أبناء ربيعة والوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاص بن هشام وأبو قيس بن الوليد وقيس بن الفاكه[1] وزهيربن أمية وهلال بن عبد الأسود والسائب[2] بن صيفي والنضر بن الحارث وأبو البحتري بن هشام وزمعة بن الحجاج وأمية بن خلف وأوس بن المغيرة، تقاسموا على تكذيب رسول الله ﷺ فأهلكوا جميعاً[3].

وأما قوله[4]: الذين اقتسموا على أن يبيتوا صالحاً، فقول عبدالله بن زيد. قال ابن عطية: والكاف من قوله «كما» متعلّقة بفعل محذوف تقديره: وقل إني أنا النذير عذاباً كالذي أنزلنا على المقتسمين، فالكاف اسم في موضع نصب، هذا قول المفسّرين. وهذا عندي غير صحيح لأن «كما» ليس مما يقوله محمد ﷺ بل هو من قول الله تعالى فينفصل الكلام. وإنما يترتّب هذا القول بأن يقدّر بأن الله تعالى قال له: أنذر عذاباً كما. والذي أقول في هذا المعنى: وقل إني أنا النذير المبين كما قال قبلك رسلنا وأنزلنا عليهم كما أنزلنا عليك.

ويحتمل أن يكون المعنى: وقل إني أنا النذير المبين، كما قد أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً، وهذا على أن المقتسمين أهل الكتاب انتهى.

أما قوله: وهو عندي غير صحيح إلى آخره فقد اعتذر بعضهم عن ذلك وقال: الكاف متعلقة بمحذوف دلّ عليه المعنى تقديره: أنا النذير بعذاب مثل

---

(١) ق: الفاكهه.

(٢) ق: وهلال.

(٣) انظر تفسير الطبري ١٤: ٤٨.

(٤) وأما قوله: مكررة في ق.

ما أنزلنا، وإن كان المنزل الله، كما يقول بعض خواصّ الملك: أمَرْنا بكذا، وإن كان الملك هو الآمر.

وأما قوله: والذي أقول في هذا المعنى إلى آخره فهو كلام مُثَبَّج[١] ولعلّه أن يكون من الناسخ ولعله أن يكون: وأنزلنا عليك كما أنزلنا عليهم.

«عضين» جمع عضة، وهو لا ينقاس، جُمع بالواو رفعاً وبالياء نصباً وجرًّا، ولامه أصلها واو أو هاء يقال: عضيت تعضية أي: فرقت، وكل فرقة عِضَة؛ يقولون للساحر عاضه وللساحرة عاضهة.

والضمير في «لنسألنّهم» يظهر عوده على «المقتسمين» وهو وعيد وسؤال تقريع.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ الصدع: الشّق. وتصدّع القوم: تفرقوا. وصدعته فانصدع أي: شققته فانشق. وقال مؤرج: اصدع: افصل. وقال ابن الأعرابي: اقصد.

و«ما» في «بما تؤمر» موصولة بمعنى الذي، والعائد عليها محذوف تقديره: أُمِرْتَه أي: به. وأمر يتعدى إلى اثنين أحدهما بنفسه والآخر بحرف جر، ويجوز [حذفه] وقد جمع الشاعر بينهما قال[٢]: **[من البسيط]**

أَمرتُك الخيرَ فافعلْ ما أُمرتَ به ... فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

[٣١٢/ب] والمفعول الأول في الآية هو ضمير المخاطب المستكن في «تؤمر» والثاني الهاء المحذوفة العائدة على «ما» الموصولة.

---

(١) ثبّج الكلام: إذا لم يبيّنه.

(٢) البيت لعمرو بن معد يكرب، وهو من شواهد الكتاب ١: ٣٧.

قال الزمخشري[1]: يجوز أن تكون «ما» مصدرية اي: بأمرك، مصدر من المبني للمفعول.انتهى.

هذا ينبني على مذهب من يجوّز أن يكون المصدر يراد به أن والفعل المبني للمفعول، والصحيح أن ذلك لا يجوز.

ثم أخبره تعالى أنه كفاه المستهزئين بمصائب أصابتهم لم يَسْعَ فيها رسول الله ﷺ ولا تكلّف لها مشقّة.

قال عروة وابن جبير: هم خمسة: الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب أبو زمعة والأسود بن عبد يغوث، ومن بني خزاعة الحارث بن الطلاطلة[2].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بالمجازاة على استهزائهم وجعلهم إلٰهاً مع الله تعالى في الآخرة كما جوزوا في الدنيا.

وكنّى بالصدر عن القلب لأنه محلّه، وجعل سبب الضيق ما ينطقون به من الاستهزاء والطعن فيما جاء به.

ثم أمره تعالى بتنزيهه عما نسبوا إليه من اتّخاذ الشريك معه، مصحوباً بحمده والثناء [عليه] على ما أهدى إليه من نعمة النبوة والرسالة والتوحيد وغيرها من النّعم، فهذا في المعتقد والفعل القلبي.

وأمره بكونه من الساجدين والمراد أنه من المصلّين، فكنّى بالسجود عن الصلاة، وهي أشرف أفعال الجسد «وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو

(١) الكشاف ٢: ٣٩٩.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٤: ٤٨، ودلائل النبوّة ص٢٦٨.

ساجد»[١].

ثم أمره تعالى بالعبادة التي هي شاملة لجميع أنواع ما يتقرّب إليه تعالى. وهذه الأوامر معناها: دُمْ على كذا؛ لأنه عليه السلام ما زال متلبّساً بها، أي: دم على التسبيح والسجود والعبادة.

والجمهور على أن المراد باليقين الموت، أي: ما دمت حيًّا فلا تُخِلَّ بالعبادة.

وقيل: ليس اليقين من أسماء الموت، وإنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل، فسمّي يقيناً تجوّزاً أي: يأتيك الأمر اليقين علمه ووقوعه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١ : ٣٥٠، من حديث أبي هريرة.

سورة النحل(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ
بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن
نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ
وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ
أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ
رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨
وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩﴾ .

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ الآية، هذه السورة مكية كلها، وقيل مكية إلا ثلاث آيات، فإنها مدنية(٢): ووجه ارتباطها بما قبلها أنه تعالى لما قال ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر] كان ذلك تنبيهاً على حشرهم يوم القيامة وسؤالهم عمّا اجترموه في دار الدنيا فقيل «أتى أمر الله» وهو يوم القيامة على قول الجمهور. وقال ابن عباس: المراد بالأمر نصر رسول الله ﷺ وظهوره على الكفار. و«أتى» قيل: باقٍ على معناه من المضيّ، والمعنى: أتى أمر الله وعداً، فلا تستعجلوه وقوعاً.

---

(١) مكية وهي مئة وثمان وعشرون آية.

(٢) وهي الآيات ٩٥ - ٩٧، انظر البحر ٥ : ٤٧٢.

قال ابن عباس: «الروح» الوحي ينزّل به الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ونظيره قوله ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴿١٥﴾﴾ [غافر].

و«أن» مصدرية وهي التي من شأنها أن تنصب[1] المضارع، وُصلت في قولهم: كتبتُ إليه بأن قم. وهو بدل من «الروح» أي: بإنذاره. وقيل: «أن» تفسيرية بمعنى أي، فلا موضع لها من الإعراب.

وقال الزمخشري: و«أن أنذروا» بدل من «الروح» أي: ننزّلهم بأن أنذروا، وتقديره: بأنه أنذروا أي: بأن الشأن أقول لكم أنذروا أنه لا إله إلا أنا انتهى.

جعلها المخفّفة من الثقيلة، وأضمر اسمها وهو ضمير الشأن، وقدّر إضمار القول حتى يكون الخبر جملة خبرية وهي أقول. ولا حاجة إلى هذا التكلّف مع [٣١٣/أ] سهولة كونها الشأنيّة التي من شأنها نصب المضارع. وقوله[2] «إلا أنا» انتقل من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله «إلا أنا».

و«إذا» هنا للمفاجأة. وبعد خلقه من النطفة لم تقع المفاجأة بالمخاصمة إلا بعد أحوال تطوّر فيها[3]، فتلك الأحوال محذوفة وتقع المفاجأة بعدها.

و«خصيم مبين» يحتمل وجهين:

---

(١) ق: انتصب.

(٢) ق: وهو قوله.

(٣) ق: تطوّرها.

أحدهما أن يراد به الذّم، وهو مخاصمته لأنبياء الله تعالى وأوليائه بالحجج الداحضة. وأكثر ما ذُكر الإنسان في القرآن في معرض الذمّ أو مردوفاً بالذّم.

والوجه الثاني أن يراد به المدح لأنه تعالى قوّاه على منازعة الخصوم، وجعله مبيّن الحق من الباطل، ونقله من تلك الحالة الجماديّة وهو كونه نطفة إلى الحالة الشريفة وهي حالة النطق والإبانة.

ولمّا ذكر تعالى خلق الإنسان، ذكر ما امتنّ عليه به في قوام معيشته، فذكر أولاً أكثرها منافع وألْزَمَ، لمن نزل القرآن بلغتهم وذلك ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ﴾. وتقدم شرح «الأنعام» في الأنعام[1]. والذي يظهر أن يكون «لكم فيها دفء» [استئنافاً لذكر ما يُنتفع به من جهتها، ولذلك قابله بقوله «ولكم فيها جمال». و«دفء»] مبتدأ. و«لكم» خبره. ويتعلق «فيها» بما في «لكم» من معنى الاستقرار.

وجوّز أبو البقاء[2] أن يكون «فيها» حالاً من «دفء» [إذ لو تأخّر كان صفة. وجوّز أيضاً أن يكون «لكم» حالاً من «دفء»] و«فيها» الخبر.

وهذا لا يجوز، لأن الحال إذا كان العامل فيها معنى، فلا يجوز تقديمها على الجملة بأسرها، لا يجوز: قائماً في الدار زيد، فإن تأخّرت الحال عن الجملة، جازت بلا خلاف. والدفء: اسم لما يُدفّأ به أي: يسخّن، وتقول العرب: دفىء يومنا فهو دفيء إذا حصلت فيه سخونه تزيل البرد.

وقال الزمخشري[3]: فإن قلت: تقدُّمُ الظرف في قوله «ومنها تأكلون»

(١) انظر تفسير الآية ١٣٨ من الأنعام.
(٢) إملاء ٢: ٧٨.
(٣) الكشاف ٢: ٤٠١.

مؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها؟ قلت: الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبطّ وصيد البرّ والبحر فكغير المعتدّ به وكالجاري مجرى التفكّه.انتهى.

وما قاله بناء منه على أن تقديم الظرف أو المفعول دالٌّ على الاختصاص، وقد رددنا عليه ذلك في قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ۝ ﴾ [الفاتحة].

﴿جَمَالٌ﴾ مصدر جَمُل بضم الميم.

﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ يقال: أراح الماشية: ردّها بالعشي من المرعى، وسَرَحها يَسْرَحُها سَرْحاً وسُروحاً: أخرجها غدوة إلى المرعى. وسَرَحَتْ هي، يكون متعدّياً ولازماً. وأكثر ما يكون ذلك أيام الربيع، إذا سقط الغيث وكثر الكلأ، وخرجوا للنّجعة. وقدّم الإراحة على السرح، لان الجمال فيها أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر بخلاف[1] وقت سرحها، وإن كانت في الوقتين تزيّن الأفنية وتجالب[2] فيها الرّغاء والثّغاء فيأنس أهلها، ويفرح أربابها، وتجلّهم في أعين الناظرين إليها، وتكسبهم الجاه والحرمة.

والأثقال: الأمتعة واحدها ثِقْل.

وقوله ﴿ إِلَىٰ بَلَدٍ ﴾ لا يراد به معيّن، أي: إلى بلد بعيد، توجّهتُم إليه لأغراضكم. و«بالغيه» صفة للبلد.

﴿ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ﴾ أي: إلا بمشقتها.

وناسب الامتنان بهذه النعمة من حملها الأثقال الختم بصفة الرأفة والرحمة

---

(١) ق: بخلا.

(٢) من الجلبة وهي اختلاط الأصوات.

لأن من رأفته تيسير هذه المصالح وتسخير الأنعام لكم.

ولمّا ذكر تعالى منّته بالأنعام ومنافعها الضرورية، ذكر الامتنان بمنافع الحيوان التي ليست بضرورية، ولمّا كان الركوب أعظم منافعها اقتصر عليه، ولا يدلّ ذلك على أنه لا يجوز أكل الخيل خلافاً لمن استدلّ بذلك.

وانتصب «وزينة» ولم يكن باللام [ووصل الفعل إلى الركوب بواسطة الحرف وكلاهما مفعول من أجله لأن التقدير: خلقها. والركوب من صفات المخلوق لهم ذلك، فانتفى شرط النصب، وهو اتحاد الفاعل، فعدّي باللام]. والزّينة من وصف الخالق فاتّحد الفاعل، فوصل الفعل [٣١٣/ب] إليه بنفسه.

ولمّا ذكر الحيوان الذي ينتفع به انتفاعاً ضرورياً وغير ضروري أعقب بذكر الحيوان الذي لا ينتفع به غالباً على سبيل الإجمال إذ تفاصيله خارجة[١] عن الإحصاء والعدّ.

والقصد مصدر يوصف به، يقال: سبيل قَصْد وقاصد إذا كان مستقيماً، كأنه يقصد الوجه الذي يؤمه السّالك لا يعدل عنه.

و«السبيل» هنا مفرد اللفظ. والجائر: العادل عن الاستقامة والهداية كما قال طرفة[٢]: **[من الطويل]**

[عدوليّة أو من سفين ابن يامنٍ] يجور بها[٣] الملاّح طوراً ويهتدي

﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ مفعول «شاء» محذوف تقديره: هدايتكم.

---

(١) ق: خارج.
(٢) شرح القصائد السبع ص١٣٧.
(٣) ق: عليها.

قال الزّجاج: لفرض[١] لكم آية تضطركم إلى الاهتداء والإيمان انتهى. [قال ابن عطية]: وهذا قول سوء لأهل البدع الذين يرون أن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد، لم يحصله الزّجاج، ووقع فيه رحمه الله من غير قصد انتهى.

لم يعرف ابن عطية أن الزّجاج معتزلي، فلذلك تأوّل عليه أنه لم يحصله[٢]، وأنه وقع فيه من غير قصد.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا امتنّ عليهم بإيجادهم بعد العدم الصّرف وإيجاد ما ينتفعون به من الأنعام

(١) ق: قال ابن عطية قال الزجاج: يعرض.

(٢) ق: يحصل.

وغيرها من المركوب، ذكر ما امتنّ به عليهم من إنزال الماء الذي هو قوام حياتهم وحياة الحيوان، وما يتولّد عنه من أقواتهم وأقواتها من الزرع وما عطف عليه، فذكر منها الأغلب ثم عمّم بقوله «ومن كل الثمرات» ثم أتبع ذلك بخلق الليل الذي هو سكن لهم، والنهار الذي هو معاشهم فيه، ثم بالنيّرين اللّذين جعلهما الله مؤثّرين بإرادته في إصلاح ما يحتاجون إليه، ثم بما ذرأ في الأرض. والظاهر أنّ «لكم» في موضع الصفة لما يتعلق بمحذوف. ويرتفع «شراب» به، أي: ماءً كائناً لكم منه شراب، ويجوز أن يتعلق «بأنزل»، ويجوز أن يكون استئنافاً و«شراب» مبتدأ.

لمّا ذكر إنزال الماء، أخذ في تقسيمه والشراب هو المشروب. والتبعيض في «منه [شراب]» ظاهر، وأمّا في «منه شجر» فمجاز: لمّا كان الشجر إنباته على سقيه بالماء جعل الشجر من الماء.

و﴿فِيهِ[1] تُسِيمُونَ﴾ يقال: أسام الماشية وسوّمها جعلها ترعى، وسامت بنفسها فهي سائمة وسوام: رعت حيث شاءت.

﴿بِهِ ٱلزَّرْعَ﴾ بدأ بالزرع لأنه قوت أكثر العالم، ثم بالزيتون لما فيه من فائدة الاستصباح بدهنه، وهي ضرورية مع منفعة أكله والائتدام به وبدهنه والاطّلاء بدهنه، ثم بالنخيل لأن ثمرته من أطيب الفواكه وقوتٌ في بعض البلاد، ثم بالأعناب لأنها فاكهة محضة، ثم قال «ومن كل الثمرات» أتى[2] بلفظ «مِن» التي للتبعيض لأن كلّ الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنّ ما أنبت في الأرض بعض من كلّها للتذكرة. وختم ذلك بقوله تعالى «يتفكرون»

(١) ق: منه.

(٢) ق: التي.

لأن النّظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمّل واستعمال فكر. ألا ترى أن الحبّة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومضى[(١)] عليها مقدار من الزمان معيّن لحقها[(٢)] من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيشقّ أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار والأكمام والأثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والطعوم والألوان والروائح والأشكال والمنافع، وذلك [٣١٤/أ] بتقدير قادر مختار وهو الله تعالى. وأفرد في قوله «لآيةً» استدلالاً بإنبات الماء وهو واحد وإن كثرت أنواع النبات.

وقرأ الجمهور: والشمس، وما بعده منصوباً، وانتصب «مسخراتٍ» على أنها حال مؤكدة. وقرىء: والشمسُ، وما بعده بالرفع على الابتداء والخبر.

وقرأ حفص: والنجومُ مسخراتٌ، برفعهما على الابتداء والخبر.

وجمع الآيات عند ذكر العقل لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء والعظمة.

﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ معطوف على «الليل والنهار» يعني ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك.

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ من البياض والسّواد وغير ذلك. وختم هذا بقوله «يذّكّرون» ومعناه الاعتبار والاتعاظ، كأنّ علمهم بذلك سابق طرأ عليه النسيان فقيل «يذكّرون» أي: يتذكرون ما نسوا من تسخير هذه المكوّنات في الأرض. وأفرد الآية هنا لأن الذي ذكره مفرد في قوله «ما ذرأ» ووصفه

(١) ق: ومعنى.

(٢) ق: لحتمها.

بمفرد وهو قوله «مختلفاً».

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى الاستدلال بما ذرأ في الأرض، ذكر ما امتنّ به من تسخير البحر. ومعنى تسخيره كونه يتمكن الناس من الانتفاع به للركوب في المصالح والغوص في استخراج ما فيه وللاصطياد لما فيه. و«البحر» جنس يشمل الملح والعذب. وبدأ أولاً من منافعه بما هو الأهم وهو الأكل. و«منه» على حذف مضاف أي: لتأكلوا من حيوانه لحماً طرياً. ثم ثنّى بما يُتزيّن به وهو الحلية من اللؤلؤ والمرجان، ونبّه على غاية الحلية وهي اللبس. وفيه منافع غير اللبس؛ فاللحم الطّري من الملح والعذب، والحلية من الملح. ولمّا ذكر تعالى نعمة الأكل منه ونعمة الاستخراج للحلية، ذكر نعمة تصرّف الفلك فيه «مواخر» أي: شاقّة فيه، أو ذات صوت لشقّ الماء[1] بحمل الأمتعة والأقوات للتجارة وغيرها.

وأسند الرؤية إلى المخاطب المفرد فقال «وترى» وجعلها جملة معترضة بين التعليلين: تعليل الاستخراج وتعليل الابتغاء، [فلذلك عدل عن جمع المخاطب.

والظاهر عطف «ولتبتغوا» على التعليل قبله] كما أشرنا إليه. والفضل هنا الأرباح بالتجارة والوصول إلى البلاد الشاسعة. وهذا دليل على جواز ركوب البحر.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما منحكم من هذه النعم.

---

(١) ق: لشق الأنفس.

والسبل: الطرق. قال ابن عطية: قوله «وأنهاراً» منصوب بفعل مضمر تقديره: وجعل أو خلق أنهاراً. وإجماعهم على إضمار هذا الفعل دليل على خصوص «ألقى»، ولو كانت «ألقى» بمعنى خلق لم يُحْتَج إلى هذا الإضمار انتهى.

وأيّ إجماع في هذا، وقد حكى هو عن المتأوّلين أنّ «ألقى» بمعنى خلق وجعل[١]؟

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الآية، ذكر التباين بين من يخلق وهو الباري وبين من لا يخلق وهي الأصنام، وجيء «بمَن» في الثاني لاشتمال المعبود غير الله على من يعقل وما لا يعقل، أو لاعتقاد الكفار أن لها تأثيراً وأفعالاً فعوملت معاملة أولي [العلم]، أو المشاكلة[٢] بينه وبين من يخلق.

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ تقدّم الكلام عليه[٣].

وأخبر تعالى أنه يعلم ما يسرّون، وضمّنه الوعيد لهم والإخبار[٤] بعلمه تعالى. وفيه التنبيه على نفي هذه الصفة الشريفة عن آلهتهم.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا

(١) ق: أي جعل.

(٢) ق: فالمشاكلة.

(٣) انظر تفسير الآية ٣٤ من إبراهيم.

(٤) ويصح توجيه العبارة كذا: والإخبار بعلمه تعالى فيه التنبيه على...

يُعۡلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ ۙ قَالُوٓاْ
أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةً يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ
يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ
ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ
شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ
ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ ۖ فَأَلۡقَوُاْ
ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ
أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ولمّا أظهر تعالى التباين بين الخالق وغيره نصّ على أنّ آلهتهم لا تَخلق وعلى أنها مخلوقة. وأخبر أنهم أموات، وأكّد ذلك بقوله «غير أحياء» ثم نفى عنهم الشعور [٣١٤/ب] الذي يكون للبهائم فضلاً عن العلم الذي يتصف به العقلاء. وعبّر «والذين» وهو للعاقل، عومل غيره معاملته لكونها عُبدت واعتُقد فيها الألوهية. و﴿أَيَّانَ﴾ ظرف زمان. وعن ابن عباس أن الله تعالى يبعث الأصنام لها أرواح ومعها شياطينها فيُؤمر بكلّهم إلى النار.

وتقدم الكلام في ﴿لَا جَرَمَ﴾ في هود(١).

و﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ عامّ في الكافرين والمؤمنين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾ الآية، قيل: سبب نزولها أن النضر بن الحارث سافر عن مكّة إلى الحيرة، وكان قد اتّخذ كتب التواريخ والأمثال ككليلة ودمنة وأخبار اسفنديار ورستم، فجاء إلى مكّة فكان يقول: إنما

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٢ من هود.

يحدّث محمد بأساطير الأولين وحديثي أجمل من حديثه، فنزلت.

و«ماذا» كلمة استفهام مفعول «بأنزل» أو «ما» مبتدأ خبره «ذا» بمعنى الذي، وعائده في «أنزل» محذوف أي: أيّ شيء الذي أنزله؟.

وأجاز الزمخشري أن يكون «ماذا» مرفوعاً بالابتداء، قال[١]: يعني أي شيء أنزله ربكم.

وهذا لا يجوز عند البصريين إلا في ضرورة الشعر. والضمير في «لهم» عائد على كفار قريش. و«ماذا أنزل» ليس معمولاً «لقيل» على مذهب البصريين لأنه جملة، والجملة لا تقع موقع المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، كما لا تقع[٢] موقع الفاعل. فالمفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله قيل: هو ضمير المصدر المفهوم من «قيل» تقديره: قيل[٣] هو، أي: القول والجملة بعده تفسير لذلك الضمير لا أنها هي المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله.

واللام في «ليحملوا» لام الأمر على معنى الحتم عليهم والصَّغار الموجب لهم.

و﴿كَامِلَةً﴾ حال أي: لا ينقص منها شيء.

و«مِنْ» في «[مِنْ] أوزارِ» للتبعيض، فالمعنى أنه يحمل مِن وِزْرِ كلٍّ من أضلّ، أي: بعض وزر من ضلّ بإضلالهم.

وقال الواحدي ليست «مِن» للتبعيض لأنه يستلزم تخفيف الأوزار عن الأتباع وذلك غير جائز لقوله عليه السلام «من غير أن ينقص من أوزارهم

(١) الكشاف ٢: ٤٠٦.
(٢) ق: يقع.
(٣) ق: فقيل.

شيء»[١] لكنها للجنس أي: ليحملوا من جنس أوزار الأتباع.انتهى.

ولا تتقدر «مِن» التي لبيان الجنس هذا [التقدير] الذي قدّره الواحدي، وإنّما تقدّر الأوزار التي هي أوزار الذين يضلّونهم، فيؤول من حيث المعنى إلى قول الأخفش[٢]، وإن اختلفا في التقدير.

قال الزمخشري[٣]: «بغير علم» حال من المفعول، أي: يضلّون من لا يَعلم أنهم ضُلاّل.انتهى.

وقال غيره: حال من الفاعل وهو أولى، إذ هو المحدَّث عنه والمسند إليه الإضلال على جهة الفاعلية، والمعنى أنهم يقدمون على هذا الإضلال جهلاً منهم بما يستحقّونه من العذاب الشديد على ذلك الإضلال. ثم أخبر تعالى عن سوء ما يتحمّلونه للآخرة. وتقدم الكلام على نظير إعراب ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام].

﴿فَأَتَى اللَّهُ﴾ أي: أَمْرُه وعذابه. والبنيان: قيل: حقيقة، قال ابن عباس: «الذين من قبلهم» منهم نمرود، بنى صرحاً ليصعد بزعمه إلى السماء وأفرط في علوّه وطوله في السماء فرسخين.

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ قال ابن الأعرابي: العرب تقول: خرّ علينا سقفٌ ووقع علينا حائطٌ، إذا كان يملكه وإن لم يملكه وقع عليه. فجاء بقوله «من فوقهم» ليخرج هذا الذي من كلام العرب فقال «من فوقهم» أي:

(١) من حديث أخرجه مسلم في صحيحه ٢: ٧٠٤، عن المنذر بن جرير عن أبيه.
(٢) جماع قوله «مِن» زائدة أي: وأوزار الذين يضلّونهم، والمعنى: ومثل أوزار الذين يضلّونهم. انظر البحر ٥: ٤٨٤.
(٣) الكشاف ٢: ٤٠٦.

عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ قال ابن عباس: هي في قصة النمرود.

و﴿يُخْزِيهِمْ﴾ يعمّ جميع المكاره التي تحلّ بهم، ويقتضي ذلك إدخالهم النار لقوله تعالى ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران] أي: [٣١٥/أ] أهنته كل الإهانة. وجمع بين الإهانة بالفعل والإهانة بالقول بالتقريع والتوبيخ في قوله «يخزيهم».

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أضاف تعالى الشركاء إليه، والإضافة تكون بأدنى ملابسة، والمعنى: شركائي في زعمكم، إذ[1] أضاف على جهة الاستهزاء بهم[2].

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّـٰهُمُ﴾ صفة للكافرين فيكون داخلاً تحت القول.

قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون «الذين» مرتفعاً بالابتداء منقطعاً ممّا قبله، وخبره في قوله «فألقَوُا السَّلَم» فزيدت الفاء في الخبر، وقد يجيء مثل هذا.انتهى.

هذا لا يجوز إلا على مذهب الأخفش فإنه يجيز: زيد فقام [أي: قام] ولا يتوهم أن الفاء هي الداخلة في خبر المبتدأ إذا[3] [كان موصولاً وضمّن معنى الشرط، لأنه لا يجوز دخولها في مثل هذا الفعل مع صريح] الشرط فلا

---

(١) ق: أو.

(٢) بعده في ق: ومفعولا تزعمون محذوفان، التقدير: تزعمونهم شركاء. وهو وهم من المصنف وضع فيه تزعمون مكان تشاقّون.

(٣) ق: أداة.

يجوز فيما ضمّن معناه.

«ظالمي أنفسهم» تقدّم الكلام عليه في سورة النساء[١].

و«السلم» هنا الاستسلام.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ هو على إضمار القول، ويكون ذلك كذباً منهم ولذلك ردّ عليهم بقوله «بلى» أي: كنتم تعملون السوء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لمّا كذّبوهم في دعواهم أخبروا أنه تعالى هو العالم بأعمالهم فهو المجازي عليها.

ثم أمرهم بالدخول. واللام في «فلبئس» لام التوكيد، ولا تدخل على الماضي المتصرف ودخلت على الجامد لبعده عن الأفعال وقربه من الأسماء. والمخصوص بالذم محذوف تقديره: فلبئس مثوى المتكبرين هي، أي: جهنم. ووصف التكبّر دليل على استحقاق صاحبه النار.

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ
ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا
عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا
عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ

(١) انظر تفسيرالآية ٩٧ من النساء، ولم يتكلّم عليه ثمّ.

فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًاۗ ﴾ الآية، أي: أنزل خيراً. ودلّ هذا النصب على [أنّ] «ماذا أنزل» مفعول «بأنزل» وطابق الجواب السؤال في النصب. والظاهر أن قوله «للذين» مندرج تحت القول وهو تفسير للخير الذي أنزل الله تعالى في الوحي أن من أحسن في الدنيا بالطاعة فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة بدخول الجنّة. والظاهر أن المخصوص بالمدح هو «جنات عدن».

والكاف[1] في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف أي: جزاء مثل جزاء الذين أحسنوا نجزي المتقين.

و«طيبين» حال من مفعول «تتوفاهم». والمعنى أنهم صالحو الأعمال مستعدّون للموت. والطّيب الذي لا خبث فيه.

﴿ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ﴾ الظاهر أن هذا القول في الآخرة، ولذلك جاء بعده «ادخلوا الجنة» فهو من قول خَزَنَة الجنة.

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: بالعمل الصالح.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ الآية، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر طعن الكفار في القرآن بقولهم ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل] ثم أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم، ثم توعّد من وصف القرآن بالخيرية - بيّن أن أولئك الكفرة لا يرتدعون عن حالهم إلاّ أن تأتيهم

(١) أي كاف «كذلك».

الملائكة بالتهديد أو أمر الله بعذاب الاستئصال. والكاف[1] في موضع نصب أي: مِثْلَ فِعْلِهم في انتظار الملائكة أو أَمْرِ الله تعالى فَعَلَ الكفار الذين تقدّموهم.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بكفرهم وتكذيبهم الذي أوجب لهم العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله ﴿فَأَصَابَهُمۡ﴾ معطوف على «فَعَل» «وما ظَلَمهم» اعتراض. وستأتي عقوبات[2] كفرهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: أحاط [بهم] جزاء استهزائهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ تقدم الكلام عليه في آخر الأنعام[3].

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

(١) المراد كاف «كذلك».

(٢) ق: مقولات.

(٣) انظر تفسير الآية ١٤٨ من الأنعام.

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ الآية، ذكر تعالى بعثه[1] الرّسل في الأمم السالفة، فلا يستنكر بعثه محمداً[2] ﷺ في هذه [٣١٥/ب] الأمة.

و«أن» يجوز أن تكون تفسيرية بمعنى أي، وأن تكون مصدرية.

وتقدم مدلول «الطاغوت» في البقرة[3].

﴿مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: فمنهم من اعتبر، فهداه الله تعالى، ومنهم من أعرض وكفر. ثم أحالهم في معرفة ذلك على المسير في الأرض. «عاقبة المكذبين» لرسلهم بما جاؤوا به عن الله تعالى.

ثم خاطب نبيّه عليه السلام، وأعلمه أن مَن حتّم تعالى عليه بالضلالة، لا يجدي فيه الحرص على هدايته. وقرىء: لا يُهدى، مبنيًّا للمفعول، و«مَن» مفعول ما لم يُسَمَّ [فاعله]، والفاعل في «يضلّ» ضمير الله تعالى. والعائد على «مَن» محذوف تقديره: من يضلّه الله. وقرىء: يهدي، مبنيًّا للفاعل، والظاهر أن في «يهدي» ضميراً[4] يعود على الله تعالى و«مَن» مفعول.

وقرأت فرقة: يُهدي، بضم الياء وكسر الدّال [قال ابن عطية]: وهي ضعيفة انتهى. حكى الفرّاء أن هدى بمعنى اهتدى لازماً. وإذا ثبت أن هدى لازم بمعنى اهتدى كما حكاه الفراء، لم تكن ضعيفة، لأنه أدخل على اللازم همزة التعدية، والمعنى: لا يجعل[5] مهتدياً من أضلّه. والضمير في «لهم»

(١) ق: بعثة.
(٢) ق: تستنكر بعثة محمد.
(٣) انظر تفسير الآية ٢٥٦ من البقرة.
(٤) ق: ضمير.
(٥) ق: يحصل.

عائد على معنى «مَن» والضمير في «وأقسموا» عائد على كفار قريش.

﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ تقدّم الكلام عليه في الأنعام[١]. وانتصب «وعداً» و«حقًّا» على أنهما مصدران مؤكدان لما دلّ عليه «بلى» من تقدير المحذوف الذي هو: يبعثه.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ اللام في «ليبيّن» متعلقة بالفعل المقدّر بعد «بلى» أي: يبعثهم ليبيّن لهم، كما يقول الرجل: ما ضربتُ أحداً، فيقول[٢]: بلى زيداً، أي: ضربتُ زيداً. ويعود الضمير في: يبعثهم المقدّر، وفي «لهم» على معنى مَن في قوله «مَن يموت» وهو شامل للمؤمنين والكفّار.

والذي اختلفوا فيه: هو الحق.

و﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾ فيما اعتقدوا من جعل آلهة مع الله تعالى وإنكار النبوّات وإنكار البعث وغير ذلك ممّا أُمروا به وبيّن لهم أنه دين الله تعالى فكذبوا به وكذبوا في نسبة أشياء إليه تعالى.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ﴾ الآية، لمّا تقدّم إنكارهم البعث وأكّدوا ذلك بالحلف بالله تعالى الذي أوجدهم وردّ عليهم تعالى بقوله «بلى»[٣] وذكر حقيقة وعده [بذلك - أوضح أنه تعالى متى تعلّقت إرادته بوجود شيء أوجده]. وقد أقرّوا بأنه تعالى خالق كلّ هذا العالم سمائه وأرضه، وأن إيجاده لذلك لم يتوقّف على سبق مادّة ولا آلة، فكما قدر على الإيجاد ابتداءً، وجب أن يكون قادراً على الإعادة.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٠٩ من الأنعام.
(٢) ق: كما تقول لرجل.. فتقول.
(٣) الآية ٣٨ المتقدمة.

وتقدم الكلام [في قوله ﴿ كُن﴾ في البقرة[1].

والظاهر أن اللام] في «لشيء» وفي «له» هي للتبليغ، كقولك: قلت لزيد قم.

قال ابن عطية: «إذا أردناه» تنزّل منزلة: مراد، ولكنّه أتى بهذه الألفاظ المستأنفة بحسب أن الموجودات تجيء وتظهر شيئاً بعد شيء فكأنه قال: إذا ظهر المراد فيه. وعلى هذا الوجه يخرّج قوله ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة] وقوله ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [آل عمران][2] ونحو هذا معناه: يقع منكم بإرادة الله تعالى في الأزل وعلمه. وقوله: «أن نقول» تنزّل منزلة المصدر، كأنه قال قولنا. ولكن أن مع الفعل تعطي استئنافاً ليس في المصدر في أغلب أمرها. وقد تجيء في مواضع لا يُلحظ فيها الزمن كهذه الآية وكقوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الروم] وغير ذلك انتهى.

قوله: ولكن أن مع الفعل، أي: المضارع.

وقوله: في أغلب أمرها، ليس بجيّد بل تدلّ على المستقبل في جميع أمورها.

وأما قوله: وقد تجيء.. إلى آخره، فلم يفهم ذلك من دلالة أنْ، وإنما ذلك من نسبة قيام السماء والأرض بأمر الله، لأن هذا لا يختصّ بالمستقبل دون الماضي في حقّه تعالى، ونظيره ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

(١) انظر تفسير الآية ١١٧ من البقرة.

(٢) ق: ليعلم.. آمنوا منكم.

قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب][1] فكان تدلّ على اقتران الجملة بالزمن الماضي وهو تعالى [٣١٦/أ] متّصف بهذا الوصف ماضياً وحالاً ومستقبلاً. وتقييد الفعل بالزمن لا يدلّ على نفيه بغير ذلك الزمن.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ عامٌّ في المهاجرين كائناً ما كانوا، فيشمل أولهم وآخرهم.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ كخبّاب بن الأرتّ والمُخْرَجين إلى أرض الحبشة.

والظاهر انتصاب «حسنة» على أنه نعت لمصدر محذوف، يدلّ عليه الفعل، أي: تَبْوِئَةً حسنة. وقيل: انتصاب «حسنة» على المصدر على غير الصدر[2] لأنّ معنى «لنبوّئنّهم في الدنيا» أي: لنحسننّ إليهم، «فحسنةً» في معنى: إحساناً.

والضمير في «يعلمون» عائد على المؤمنين، أي: لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم.

و﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على تقدير: هم الذين أو أعني الذين صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن لا سيّما حرم الله تعالى المحبوب لكل قلب مؤمن، فكيف لمن كان مسقط رأسه؟ وعلى بذل الرّوح في ذات الله تعالى واحتمال الغربة في دار لم ينشأ بها، وناس لم يألفهم أجانب في النّسب.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

(١) ق: إن الله كان.

(٢) ق: المصدر.

وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَمَآ [أَرۡسَلۡنَا] مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ الآية، نزلت[1] في مشركي مكة، أنكروا نبوّة رسول الله ﷺ وقالوا: الله أعظم [من] أن يكون رسوله بشراً، فهلاّ بعث إلينا ملكاً. وتقدّم تفسير هذه الجملة في آخر يوسف[2]. والمعنى: يوحي إليهم على ألسنة الملائكة.

والأجود أن يتعلّق قوله «بالبينات» بمضمر يدلّ عليه ما قبله، كأنه قيل: بِمَ أُرسلوا؟ قال: أرسلناهم بالبينات والزّبر، فيكون على كلامين.

قال الزمخشري[3]: يتعلق «بما أرسلنا» قوله «بالبيّنات» داخلاً تحت حكم الاستثناء مع «رجالاً» أي: وما أرسلنا إلا رجالاً بالبيّنات، كقولك: ما ضربت إلا زيداً بالسوط [لأنّ أصله: ضربت زيداً بالسوط] انتهى.

هذا قاله الحوفي أيضاً. وقال أبو البقاء[4]: وفيه ضعف، لأنّ ما قبل إلاّ لا يعمل فيما بعدها إذا تمّ الكلام على إلاّ وما يليها، إلا أنه قد جاء في الشعر قوله[5]: **[من البسيط]**

نُبِّئْتُهم عَذّبوا بالنّار جارهمُ ولا يعــذّب إلا اللهُ بــالنّــار

(١) ق: نزلت ما يؤمرون في. وانظر أسباب النزول ص١٨٨.
(٢) انظر تفسير الآية ١٠٩ من يوسف.
(٣) الكشاف ٢: ٤١١.
(٤) إملاء ٢: ٨١.
(٥) البيت بلا نسبة في معاني القرآن ٢: ١٠١.

انتهى.

وهذا الذي أجازه الحوفي والزمخشري لا يجوز على مذهب جمهور البصريين، لأنهم لا يجيزون أن يقع بعد «إلاّ» إلاّ مستثنى أو مستثنى منه أو تابع، وما ظُنّ من غير الثلاثة معمولاً لما قبل إلاّ قدّر له[1] عامل.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ هو القرآن، وقيل له ذِكْر لأنه موعظة وتنبيه للغافلين. ويحتمل أن يريد: لتبيّن بتفسيرك المجمل وشرحك ما أشكل فيدخل في [هذا] ما بيّنته السّنة من أمر الشريعة.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيتنبّهوا ويتأمّلوا.

و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ نعت لمصدر محذوف أي: المَكْرَات السيئات.

و﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟﴾ في قول الأكثرين هم أهل مكة، مكروا برسول الله ﷺ. والخسف: بلع الأرض المخسوف به وقعودها به إلى أسفل، وذكر النقاش أنه وقع الخسف في هذه الأمة.

﴿بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما فُعِلَ بقارون. وذكر لنا أن «أخلاط»[2] [من بلاد الروم] خُسف بها، وحين أحسّ أهلها بذلك فرّ أكثرهم، وأن[3] بعض التّجار ممّن كان يرد إليها رأى ذلك من بعيد فرجع بتجارته. «من حيث لا يشعرون» من الجهة التي لا شعور لهم بمجيء العذاب منها كما فعل بقوم لوط.

---

(١) له: كررت في ق.

(٢) ويقال فيها أيضاً خِلاط، من مدن أرمينيا. انظر معجم البلدان والروض المعطار «خلاط».

(٣) ق: فأن.

﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في أسفارهم. والأخذ هنا الإهلاك كقوله[1] تعالى ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۝٤٠﴾ [العنكبوت].

و﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ على نقص، قاله ابن عباس. وقال ابن بحر: ضدّ البغتة، أي: على حدوث حالات [٣١٦/ب] يُخاف منها كالرياح والزلازل والصواعق، ولهذا ختم بقوله تعالى «إنّ ربكم لرؤوف رحيم» لأن في ذلك مهلة وامتداد وقت، فيمكن فيه التلافي.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى قدرته على تعذيب الماكرين وإهلاكهم بأنواع من الأخذ، ذكر تعالى طواعية ما خلق من غيرهم وخضوعهم[2] ضد حال الماكرين، لينبّههم على أنه ينبغي بل يجب عليهم أن يكونوا طائعين منقادين لأمره تعالى. والاستفهام هنا معناه التوبيخ.

والجملة من قوله «يتفيأ» في موضع الصفة «الشيء». و«ما» موصولة والعائد محذوف تقديره: خَلَقه[3]. و«من شيء» تبيين لما انبهم في لفظ «ما».

و«يتفيأ» يتفعل[4] من الفيء وهو الرجوع، يقال: فاء الظلّ يفيء فيئاً:

---

(١) ق: لقوله.

(٢) ق: وخضوعه.

(٣) ق: خلق.

(٤) ق: تتفيأ: تتفعّل.

رجع وعاد بعدما نسخه ضياء الشمس. وفاء إذا عُدّي، فبالهمزة كقوله تعالى ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۝٧﴾ [الحشر] أو بالتضعيف نحو: فيّأ الله الظّل فتفيّأ. وتفيّأ من باب المطاوعة فهو لازم،. وقد استعمله أبو تمام متعدّياً قال[(١)]:

طلبتْ ربيعَ ربيعةَ المُمْهِيْ لها وتفيّأت ظلاًّ له ممدودا

ويحتاج ذلك إلى نقله من كلام العرب متعدّياً.

ويمين الفَلَك: هو المشرق وشماله هو المغرب، وخُصّ هذان الاسمان بهذين الجانبين.

وقال شيخنا الأستاذ أبو الحسن علي بن محمد بن يوسف الكتامي المعروف بابن الصائغ: أفرد، وجمع بالنظر إلى الغايتين، لأن ظل الغداة يضمحلّ حتى لا يبقى منه إلا اليسير، فكأنه في جهة واحدة، وهو بالعشي على العكس لاستيلائه على جميع الجهات، فلحظت[(٢)] الغايتان في الآية، هذا من جهة المعنى.

وفيه من جهة اللفظ المطابقة، لأن «سجّداً» جمع، فطابقه جمع «الشمائل» لاتصاله به، فحصل في الآية مطابقة اللفظ للمعنى ولحظهما معاً وتلك الغاية في الإعجاز انتهى.

والظاهر حمل الظلال على حقيقتها، وعلى ذلك وقع كلام أكثر المفسرين وقالوا: إذا طلعت الشمس وأنت متوجّهٌ إلى القبلة، كان الظلّ قدّامك، فإذا ارتفعت، كان على يمينك، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك. فإذا أردت

---

(١) ديوانه ١ : ٤١١ . وهو من الخفيف

(٢) ق: فلخصت.

الغروب كان عن يسارك.

قال الزمخشري[1]: «سجّداً» حال من الظلال. «وهم داخرون» حال من الضمير في «ظلاله».

[وما أجازه الزمخشري من أن «وهم داخرون» حال من الضمير في «ظلاله»] فعلى مذهب جمهور البصريين لا يجوز، وهي مسألة: جاءني غلام هندٍ ضاحكةً، فلا يجوز: جاءني ضاحكةً غلام هند.

ولمّا كان سجود الظّلال في غاية الظّهور انتقل إلى سجود ما في السماوات والأرض.

قال الزمخشري[2]: [فإن قلت]: فهلاّ جيء بمَن دون «ما» تغليباً للعقلاء من الدوابّ على غيرهم؟ قلت: [لأنه] لو جيء بمن لم[3] يكن فيه دليل على التغليب فكان متناولاً للعقلاء [خاصة]، فجيء بما[4] هو صالح للعقلاء وغيرهم إرادة العموم انتهى.

ظاهره[5] تسليم أن مَن قد تشمل العقلاء وغيرهم على جهة التغليب، وظاهر الجواب تخصيص مَن بالعقلاء، [وأن الصالح للعقلاء] وغيرهم: ما دونَ مَن. وهذا ليس بجواب، لأنه أورد السؤال على التسليم ثم ذكر الجواب على غير التسليم، فصار المعنى أنّ مَنْ يغلّب بها. والجواب لا يغلّب بها،

(١) الكشاف ٢: ٤١٢.
(٢) الكشاف ٢: ٤١٢.
(٣) ق: ولم.
(٤) ق: بمن.
(٥) أي ظاهر السؤال.

وهذا في الحقيقة ليس بجواب.

و«من دابة» يجوز أن يكون بياناً لما في الطّرفين، ويكون في السماوات خلق يدبّون. ويجوز أن يكون بياناً لما في الأرض، ولهذا قال ابن عباس: يريد: كلّ ما دبّ على الأرض.

وعطف «والملائكة» على «ما في السماوات وما في الأرض» وهم [٣١٧/أ] مندرجون في عموم «ما» تشريفاً لهم وتكريماً.

والظاهر أن الضمير في قوله «يخافون» عائد على المنسوب إليهم السجود في «ولله يسجد». والفوقية المكانية مستحيلة بالنسبة إليه تعالى، فإن علّقته «بيخافون» كان على حذف مضاف، أي: يخافون عذابه كائناً من فوقهم، لأن العذاب إنّما ينزل من فوق. وإن علّقته «بربهم» كان حالاً منه أي: يخافون ربهم غالباً قاهراً كقوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام]. والجملة من «يخافون» يجوز أن تكون حالاً من الضمير في «لا يستكبرون». «ويفعلون ما يؤمرون» أما المؤمنون فبحسب الشرع والظّاهر، وأما غيرهم من الحيوان فبالتسخير والقدر الذي يسوقهم إلى ما نفذ من أمر الله تعالى.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ

ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الآية، ولمّا كان الاسم الموضوع للإفراد والتثنية قد يُتجوّز فيه، فيراد به الجنس نحو: نعم الرجل زيد ونعم الرجلان الزيدان وقول [الشاعر][1]: [من الوافر]

فإن النار بالعُوْدَين تُذكى وإن الحـرب أوَّلُهـا الكـلامُ

أكّد الموضوع لهما بالوصف فقال «إلٰهين اثنين». ولمّا نهى عن اتّخاذ إلٰهين، واستلزم النّهي عن اتخاذ آلهة، أخبر تعالى أنه إلٰه واحد كما قال تعالى ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة]، بأداة الحصر وبالتأكيد بالوحدة. ثم أمرهم بأن يرهبوه، والتفت من الغيبة إلى الحضور لأنه أبلغ في الرهبة. وانتصب «إياي» بفعل محذوف مقدّرٍ أُخّر[2] عنه، يدلّ عليه «فارهبون» وتقديره: وإياي ارهبوا. وتقدّم نظيره في البقرة[3].

وقال ابن عطية: «وإياي» منصوب بفعل مضمر تقديره: فارهبوا إياي فارهبون انتهى.

هذا ذهول عن القاعدة النحوية أنه إذا كان المفعول ضميراً منفصلاً، والفعل متعدٍّ إلى واحد وهو الضمير، وجب تأخير الفعل كقوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة] ولا يجوز أن يتقدّم إلاّ في ضرورة نحو

---

(١) ق: وقال. والبيت لنصر بن سيار كتب به إلى يزيد بن هبيرة، انظر البيان والتبيين ١٥٨:١.

(٢) ق: التأخير عنه.

(٣) انظر تفسير الآية ٤٠ من البقرة.

قوله[1]: [من الرجز]

[أَتَتْك عنسٌ تقطع الأراكا] إليـك حتـى بلغَـتْ إيّـاكـا

ثم التفت من التكلّم إلى ضمير الغيبة، فأخبر تعالى أنّ له ما في السماوات والأرض.

«وله الدين» أي: الطاعة والملك. «واصباً» أي: دائماً، يقال: وصب الشيء: دام. قال أبو الأسود الدؤلي[2]: [من الكامل]

لا أبتغـي الحمـد القليـل بقـاؤه يـومـاً بـذمّ الـدهـر أجمـع واصبـا

«أفغير الله» استفهام تضمّن التوبيخ والتعجب، أي: بعدما عرفتم وحدانيّته وأنّ ما سواه له ومحتاج إليه، كيف تتّقون وتخافون غيره ولا نفع ولا ضرر يقدر عليه؟.

و«ما» موصولة، وصلتها «بكم» والعامل فعل الاستقرار، أي: وما استقرّ بكم.

و«من نعمة» تفسير «لما». والخبر «فمن الله» على إضمار مبتدأ محذوف تقديره: فهي من الله. ودخلت الفاء في جملة الخبر لتَضَمُّن الموصول معنى اسم الشرط. ولمّا ذكر تعالى أن جميع النّعم منه ذكر حالة افتقار العبد إليه وحده حيث لا يدعو ولا يتضرّع لسواه وهي حالة الضّر.

و«الضرّ» عامٌّ في جميع ما يتضرّر به.

---

(١) البيت لحميد الأرقط، من شواهد الكتاب ٢ : ٣٦٢.

(٢) ديوانه ص١٠١.

و«إليه» متعلق «بتجأرون». والجؤار: رفع الصوت بالدعاء، قال الأعشى يصف راهباً[1]: [من المتقارب]

يـداوم[2] مـن صلـوات المليـ ـك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا

و«إذا» الثانية للفجاءة، وفي ذلك دليل على أن إذا الشرطية ليس العامل فيها الجواب لأنه [٣١٧/ب] لا يعمل ما بعد إذا الفجائية فيما قبلها.

و«منكم» خطاب للذين خوطبوا بقوله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ [النحل] إذ «بكم» خطاب عام.

و«فريق» مبتدأ و«منكم» في موضع الصفة، وخبره «يشركون»، و«بربّهم» متعلق به. والفريق هنا هم المشكون المعتقدون حالة الرجاء أنّ آلهتهم تنفع وتضرّ وتشقي [وتسعد].

واللام في «ليكفروا» إن كانت للتعليل كان المعنى أن إشراكهم بالله شبيه كُفْرِهم به أي: جحودِهم أو كفرانِ نعمته. و«بما آتيناهم» من النّعم أو من كشف الضّر أو من القرآن المنزّل إليهم.

وإن كانت للصيرورة فالمعنى: صار أمرهم ليكفروا وهم لم يقصدوا بأفعالهم تلك أن يكفروا، بل آل أمرِ ذلك الجؤار والرغبة إلى الكفر بما أنعم عليهم، أو إلى الكفر الذي هو جحوده والشّرك به.

وإن كانت للأمر فمعناه التهديد والوعيد. «فسوف تعلمون» مبالغة في التهديد.

---

(١) ديوانه ص٨٩.

(٢) ق: يدوام.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ الآية، الضمير في «يجعلون» عائد على الكفار، وفي «لا يعلمون» عائد على «ما» التي هي الأصنام، إذ هي جماد لا علم لها ولا شعور. والنصيب: هو ما جعلوه لها من الحرث والأنعام. قبّح تعالى فعلهم ذلك أن يجعلوا ممّا رزقهم نصيباً للأصنام، ثم أقسم تعالى على أنه يسألهم عن افترائهم واختلاقهم[1] في إشراكهم مع الله آلهة، وأنها أهل للتقرّب إليها بجعل النصيب لها.

ولمّا ذكر تعالى أنه يسألهم عن افترائهم ذكر أنهم مع اتّخاذهم آلهة نسبوا إلى الله تعالى التوالد وهو مستحيل، ونسبوا ذلك إليه فيما لم يرتضوه لأنفسهم، وتربّد وجوههم من نسبته إليهم، ويكرهونه أشد الكراهة، وكانت خزاعة وكنانة تقول: الملائكة بنات الله.

«سبحانه» تنزيه له سبحانه وتعالى عن نسبة الولد إليه.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ وهم الذكور. وهي جملة من مبتدأ وخبر.

وأجاز الزمخشري[2] - وتبع فيه الفرّاء والحوفي - أن يكون «ولهم ما يشتهون» معطوفاً على قوله «لله البنات».

وذهلوا عن قاعدة في النحو، وهي أن الفعل إذا رفع ضميراً، وجاء بعده ضمير منصوب، لا يجوز أن ينصبه الفعل إلا إذا كان من باب ظن أو فقد وعدم؛ فلو قلت: زيد ظنّه قائماً - تريد: ظنّ نفسه - جاز. ولو قلت: زيد

---

(١) ق: واختلافهم.

(٢) الكشاف ٢: ٤١٤.

ضربه - فتجعل في ضرب ضمير رفع عائداً[1] على زيد وقد تعدى للضمير المنصوب - لم يَجُزْ. والمجرور يجري مجرى المنصوب؛ فلو قلت: زيد غضب عليه، لم يجز، كما لم يجز: زيد ضربه. فلذلك امتنع أن يكون قوله «لهم» متعلقاً «بيجعلون».

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ المشهور أنّ البشارة أول خبر يسرّ، وهنا قد يراد به مطلق الإخبار، أو تغيّر البشرة، وهو القَدْر المشترك بينهما. «بالأنثى» بولادة الأنثى.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ بمعنى صار. وأصل [ظلّ] اتّصاف اسمها بالخبر الذي يجيء بعدها.

﴿مُسْوَدًّا﴾ خبر «ظلّ» واسوداد الوجه كناية عن العبوس والغمّ والتكرّه[2] والنّفرة التي لحقته.

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: ممتلىء القلب حزناً وغمًّا. و«كظيم» يحتمل أن يكون للمبالغة من كاظم، ويحتمل أن يكون بمعنى مفعول كما قال تعالى ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم]. ويقال: سقاء مكظوم أي: مملوء مسدود الفم.

«يتوارى»: يختفي. «من القوم» متعلقٌ به. «من سوء» مِن للتعليل أي: لسوء ما بُشّر به. وقوله «به» ذكره حملاً على لفظ «ما» وإن كان أريد به الأنثى، ولذلك ذكّره في قوله «أيمسكه على هون» أي: على هوان.

و«أيمسكه» قبله حال محذوفة، التقدير: مفكّراً أيمسكه.

---

(١) ق: عائد.

(٢) ق: والنكرة.

«أم يدسّه» معطوف [٣١٨/أ] على «أيمسكه»، وكنّى به عن الوأد[١] وهو دفن البنت بالحياة. والجملة من قوله «أيمسكه» إلى آخرها في موضع نصب بتلك الحال المحذوفة، كما تقول: فكّرت أزيد في الدّار أم عمرو.

والظاهر من قوله «ألا ساء[٢] ما يحكمون» رجوعه إلى قوله ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ۝٥٧﴾ [النحل]، أي: ساء ما يحكمون في نسبتهم إلى الله تعالى ما هو مستكره عندهم نافر عنهنّ طبعهم بحيث لا يحتملون نسبتهنّ إليهم.

و«ما» في قوله «ما يحكمون» مصدرية تقديره: ساء حكمهم.

﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي: صفة السّوء من الكفر بالله تعالى وإشراكهم معه أصناماً ونسبة الولد إليه تعالى وإنكارهم البعث.

«ولله المثل الأعلى» أي: الصفة العليا من تنزيهه تعالى عن الولد والصّاحبة وجميع ما ينسب الكفرة إليه ممّا لا يليق به تعالى كالتشبيه والانتقال وظهوره تعالى في صورة.

وناسب الختم «بالعزيز» وهو الذي لا يوجد نظيره، «الحكيم» الذي يضع الأشياء مواضعها.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ
مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ
وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ۝٦٢ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ

---

(١) ق: وكنّى بعض الوأد.

(٢) ق: أساء.

فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ الآية، لمّا حكى تعالى عن الكفار عظيم ما ارتكبوه من الكفر ونسبة التوالد إليه، بيّن أنه تعالى يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة إظهاراً لفضله ورحمته.

و«يؤاخذ» مضارع آخذ[1]، والظاهر أنه بمعنى المجرّد الذي هو أخذ. والضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ عائد على غير مذكور ودلّ على أنه الأرض قوله ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ لأنّ الدبيب من الناس لا يكون إلاّ في الأرض.

والظاهر عموم «من دابّة» فيهلك الصالح بالطالح، فكان يهلك جميع ما يدبّ على الأرض حتى الجِعلان[2] في جحورها.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ الآية، تقدّم نظيره في الأعراف[3].

و«ما» في «يكرهون» لمن يعقل وأُريدَ بها النّوع كقوله تعالى ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم ﴿٣﴾﴾ [النساء].

ومعنى ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ يصفونه بذلك، ويحكمون به.

و﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بدل من الكذب أو على إسقاط الحرف أي: بأنّ لهم. وتقدّم الكلام في «لا جرم»[4].

(١) ق: وأخذ.
(٢) الجِعلان: ضرب من الخنافس.
(٣) انظر تفسير الآية ٣٤ من الأعراف.
(٤) انظر تفسير الآية ٢٢ من هود.

﴿مُّفْرَطُونَ﴾ قال الفرّاء[١]: تقول: العرب: أفرطت منهم ناساً أي: خلّفتهم ونَسِيتُهم. وقيل: مخلّفون متركون في النار.

ثم أخبر تعالى بإرسال الرسل إلى الأمم من قبل أمتك مقسماً على ذلك، ومؤكّداً بالقسم وبقد التي تقتضي تحقيق الأمر على سبيل التسلية لرسول الله [صلى الله] عليه وسلم، لما كان يناله بسبب جهالات قومه ونسبتهم إلى الله تعالى ما لا يجوز.

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ من تماديهم على الكفر.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ حكاية حالٍ ماضية، أي: لا ناصر لهم في حياتهم إلاّ هو.

أو عبّر باليوم عن وقت الإرسال ومحاورة الرسل لهم، أو حكاية حال آتية وهو يوم القيامة. وأل في «اليوم» للعهد وهو اليوم المشهور، فهو وليّهم في ذلك اليوم أي: قرينهم وبئس القرين. والظاهر عود الضمير في «وليّهم» إلى «أمم».

[قيل][٢]: ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش وأنه زيّن للكفار قبلهم أعمالهم فهو وليّ هؤلاء لأنّهم منهم. ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي: فهو وليّهم: أي: وليّ أمثالهم اليوم انتهى.

وهذا فيه بُعد، لاختلاف الضمائر من غير ضرورة تدعو إلى ذلك، ولا إلى حذف المضاف، بل الضمير في الظاهر عائد إلى «أمم»[٣].

---

(١) معاني القرآن ٢ : ١٠٧.
(٢) هذا كلام الزمخشري، انظر الكشاف ٢ : ٤١٦.
(٣) ق: الأمم.

واللام في «لتبين» لام التعليل. و«الكتاب» القرآن. و«الذي[1] اختلفوا فيه» من الشّرك والتوحيد والجبر والقَدَر وإثبات المعاد ونفيه وغير ذلك ممّا يعتقدون من الأحكام كتحريم البَحيرة وتحليل الميتة والدّم وغير ذلك من الأحكام.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ في موضع نصب [٣١٨/ب] على أنهما مفعول من أجله، وانتصبا لاتّحاد الفاعل في الفعل وفيهما، لأن المنزل هو الله تعالى [وهو الهادي والراحم.

ودخلت اللام في «لتبيّن» لاختلاف الفاعل، لأن المنزل هو الله تعالى] والتبيين مسند للمخاطَب وهو رسول الله ﷺ.

قال الزمخشري[2]: معطوفان على محلّ «لتبيّن».انتهى.

ليس بصحيح، لأن محلّه ليس نصباً فيعطف منصوباً عليه؛ ألا ترى أنه لو نصبه لم يَجُزْ لاختلاف الفاعل؟.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا
سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ
ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ
بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

(١) ق: والذين.

(٢) الكشاف ٢: ٤١٦.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لمّا ذكر تعالى إنزال الكتاب للتّبيين كان القرآن حياة الأرواح وشفاءً لما في الصدور من علل العقائد، ولذلك ختم بقوله «يؤمنون» أي: يصدّقون، والتصديق محلّه القلب - ذكر إنزال المطر الذي هو حياة الأجسام وسبب لبقائها، ثم أشار بإحياء الأرض بعد موتها إلى إحياء القلوب بالقرآن كما قال تعالى ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام]. فكما تصير الأرض خَضِرةً بالنبات نَضِرةً بعد همودها، كذلك القلب يحيا بالقرآن بعد أن كان ميتاً بالجهل، ولذلك ختم تعالى بقوله «يسمعون» أي: هذا التشبيه المشار إليه، والمعنى سماع إنصاف وتدبّر. ولملاحظة هذا المعنى - والله أعلم - لم يختم بـ: قوم يبصرون، وإن كان إنزال المطر مما يُبْصَر ويشاهد.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى إحياء الأرض بعد موتها، ذكر ما ينشأ عن المطر وهو حياة الأنعام التي هي مألوف العرب بما تتناوله من النبات الناشىء عن المطر.

ونبّه على العبرة العظيمة وهو خروج اللبن من بين فرث ودم. والفرث: كثيف ما يبقى من المأكول في الكرش أو المِعاء. وذكّر في قوله ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ ولا ضعف في ذلك من هذه الجهة، لأن التذكير والتأنيث باعتبار وجهين. وأعاد الضمير مذكّراً مراعاة للجنس، لأنه إذا صحّ وقوع المفرد الدالّ على الجنس مقام جمعه، جاز عَوْده عليه مذكّراً كقولهم: هو أحسن الفتيان وأنبله. لأنه يصحّ: هو أحسن فتى، وإن كان هذا لا ينقاس عند سيبويه، إنما يُقتصر فيه على ما قالته العرب.

قال الزمخشري[١]: ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة [الواردة] على أفعال كقولهم: ثوب أكياس. ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً انتهى.

قال سيبويه[٢]: وأما أفعال فقد يقع للواحد.

فقول سيبويه: فقد يقع للواحد، دليل على أنه ليس ذلك بالوضع. وقول الزمخشري إنه ذكره في الأسماء المفردة على أفعال، تحريف في اللفظ وفهم عن سيبويه ما لم يُرِدْهُ. ويدلّ على ما قلناه أن سيبويه حين ذكر أبنية الأسماء المفردة نصّ على أنّ أفعالاً ليس من أبنيتها؛

قال سيبويه[٣] في باب ما لحقته الزوائد من بنات الثلاثة: وليس في الكلام أَفْعَوْل ولا أَفْعِيل ولا أفعال إلاّ أن تكسّر عليه اسماً للجمع.انتهى.

فهذا نصّ منه على أن أفعالاً لا يكون في الأبنيه المفردة.

ولمّا ذكر تعالى ما منّ به من بعض منافع الحيوان، ذكر ما منّ به من بعض منافع النبات. «ومن ثمرات» متعلق «بتتّخذون». و«منه» بدل من قوله «من ثمرات» لأنه جمع يقع مكانه المفرد، كأنه قيل: ومن ثمر النخل، كما ذكرنا في إفراد الضمير في قوله «مما في بطونه» لوقوع النعم مكان الأنعام. والسَّكَر في اللغة: الخمر، قال الشاعر[٤]: [من البسيط]

---

(١) الكشاف ٢: ٤١٦.

(٢) انظر الكتاب ٣: ٢٢٩.

(٣) الكتاب ٤: ٢٤٧.

(٤) البيت للأخطل في ديوانه ١: ٢٠٨.

بئس الصحاة وبئس الشَّرب شربهمُ إذا جرى منهم المزّاء والسَّكَرُ

[ولما كان مفتتح الكلام] «وإن لكم في الأنعام لعبرة» ناسب الختم بقوله «يعقلون» لأنه لا يعتبر إلاّ ذوو[1] العقول كما قال [٣١٩/أ] تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران][2]. وانظر إلى الإخبار عن نعمة اللبن ونعمة السَّكَر والرّزق الحسن؛ لمّا كان اللبن لا يحتاج إلى معالجة من الناس أخبر عن نفسه تعالى بقوله «نسقيكم»، ولمّا كان السَّكَر والرّزق الحسن يحتاج إلى معالجة قال «تتّخذون» فأخبر عنهم باتّخاذهم منه السّكر والرزق الحسن. ولأمرٍ ما عجزت العرب العرباء عن معارضته!.

ولمّا ذكر تعالى المنّة باللبن المشروب[3] وغيره، أتمّ النعمة بذكر العسل. ولمّا كانت المشروبات من اللبن وغيره هو الغالب في الناس أكثر من العسل، قدّم اللبن وغيره عليه، وقدّم اللبن على ما بعده لأنه المحتاج إليه كثيراً، وهو الدليل على الفطرة ولذلك اختاره رسول الله ﷺ حين أُسري به وعُرض عليه اللبن والخمر والعسل. وجاء ترتيبها في الجنة كهذه الآية[4]؛ ففي إخراج اللبن من النَّعم والسَّكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، والعسل من النحل دلائل باهرة على الألوهية والقدرة والاختيار.

والإيحاء هنا الإلهام والإلقاء في روعها وتعليمها على وجه هو تعالى أعلم بكنهه لا سبيل إلى الوقوف عليه. و«النحل» جنس واحده نحلة، ويؤنث في لغة الحجاز ولذلك قال «أن اتخذي». و«أن» تفسيرية لأنه تقدّم معنى القول

---

(١) ق: ذو.

(٢) ق: الألباب. وفي يوسف ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

(٣) ق: بالمشروب اللبن.

(٤) انظر الآية ١٥ من محمد.

وهو «وأوحى»، أو مصدرية أي: باتّخاذ. و«مِن» للتبعيض لأنها لا تبني في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش ولا في كل مكان. والظاهر أن البيوت هنا عبارة عن الكوى التي تكون في الجبال وفي متجوّف الأشجار. وأمّا ممّا يعرش ابن آدم فالخلايا التي يصنعها للنحل ابن آدم، والكوى التي تكون في الحيطان. ولمّا كان النحل نوعين، منها ما مقرّه الجبال والغياض ولا يتعهده أحد، ومنها ما يكون في بيوت الناس ويُتَعَهَّد في الخلايا ونحوها - شمل الأمر باتّخاذ البيوت النوعين[1].

وظاهر العطف بالفاء في «فاسلكي» أنه يعتقب[2] الأكل، أي: فإذا أكلت فاسلكي سبل ربّك، أي: طرق ربك إلى بيوتك راجعةً. والسّبل إذ ذاك مسالكها في الطيران، وربما أجدب مكانها فانتجعت المكان البعيد ثم عادت إلى مكانها الاول. وأضاف السبل إلى ربّ النحل من حيث إنه تعالى هو خالقها ومالكها والناظر في تهيئة مصالحها ومعاشها.

﴿ذُلُلًاۚ﴾ أي: غير متوعّرة عليها سبيل تسلكه، فعلى هذا «ذللاً» حال من «سبل ربك» كقوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الملك]، أو حال من الضمير في «فاسلكي» متذلّلة.

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ وهو العسل، وسمّاه شراباً لأنه ممّا يُشرب. وقوله «من بطونها» لا يدلّ على تعيين المكان الذي يخرج منه أمن الفم أو من المخرج.

﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ بالحمرة والبياض والسّمرة.

---

(١) ق: نوعين.

(٢) ق: يتعقب.

ونكّر «شفاء» إمّا للتعظيم فيكون المعنى: فيه شفاء أيّ شفاء، وإما لدلالته على مطلق الشفاء أي: فيه بعض شفاء للناس ليس على عمومه، لأن بعض الأمراض لا يصلح فيه العسل.

ولمّا كان أمر [النّحل] عجيباً(١) في بنائها تلك البيوت المسدّسة وفي أكلها من أنواع الأزهار والأوراق الحامض والمرّ والضّارّ، وفي طواعيتها لأميرها ولمن يملكها في نقلها معه، وكان النظر في ذلك يحتاج إلى تأمّل وزيادة تدبّر، ختم بقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ نبّه تعالى على قدرته التامّة في [٣١٩/ب] إنشائنا من العدم وإماتتنا وتنقّلنا في حال الحياة من حال الجهل إلى حالة العلم، وذلك كلّه دليل على القدرة التّامة والعلم الواسع، ولذلك ختم تعالى بقوله ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

و«أرذل العمر» آخره الذي تفسد فيه الحواسّ ويختلّ النطق والفكر. وخُصّ بالرذيلة لأنها حالة لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد.

---

(١) ق: أمراً عجيباً.

واللام في «لكي» لتعليل الرّد إلى أرذل العمر، وهي حرف جرّ. و«كي» هنا ناصبة[١] بنفسها بمعنى أنْ، فينسبك منها [مع] ما بعدها مصدر فالتقدير: لا يبقى علمه شيئاً بعد أن كان عَلِمَه.

ولمّا ذكر تعالى خَلْقنا ثم إماتتنا وتفاوتنا في السنّ، ذكر تفاوتنا في الرزق وأنّ رِزْقنا أفضل من رزق المماليك وهم بشرٌ مثلنا، والتفاضل بالرزق يكون بالكثرة والقلّة. ثم نفى تعالى أن يكون مَن فُضّل في الرزق رادًّا رزقه على مملوكه؛ إذ ذاك الرزق الذي يطعمه مملوكه هو رزق الله تعالى والكلّ مرزوقون لله تعالى بالرّزق الذي قدّره للمالك والمملوك، ولذلك قال تعالى «فهم فيه سواء» أي: المُلاّك والمملوكون في الرزق سواء، ولذلك قال بعض الأدباء[٢]: **[من البسيط]**

ولا تقولنّ لي فضلٌ على أحدِ ... الفضل لله ما للناس أفضال

ثم استفهم عن جحودهم نِعَمَهُ استفهام[٣] إنكار. وأتى بالنعمة الشاملة للرزق وغيره من النعم التي لا تحصى، أي: أنّ من تَفَضّل عليكم بالنشأة أولاً ثم بما فيه قوام حياتكم جدير بأن تُشكر نعمه ولا تُكفر.

ولمّا ذكر تعالى امتنانه بالإيجاد ثم بالرّزق المفضّل فيه، ذكر امتنانه بما يقوم بمصالح الإنسان ممّا[٤] يأنس به ويستنصر به ويخدمه.

واحتمل «من أنفسكم» أن يكون المراد: من جنسكم ونوعكم، واحتمل

(١) ق: ناقصة.
(٢) لم أجده.
(٣) ق: استفام.
(٤) ق: من.

أن يكون ذلك باعتبار خَلْق حوّاء من ضلعٍ من أضلاع آدم عليه السلام فنسب ذلك إلى بني آدم، وكلا الاحتمالين مجاز.

والظاهر [أنّ] عطف «حفدة» على «بنين» يفيد[١] كون الجميع من الأزواج وأنهم غير البنين، وقال الحسن: الحَفَدة هم بنو الابن، والحفدة: الأعوان والخَدم ومن يسارع في الطاعة؛ يقال: حَفَد يَحْفِد حَفْداً وحُفوداً وحَفَداناً، ومنه «وإليك نسعى ونحفِد»[٢] أي: نسرع في الطاعة، وقال الشاعر[٣]:

حَفَد الولائد حولهنّ وأسلمتْ ... بأكفّهنّ أزمّة الأجمالِ

وقال الأزهري: الحفدة: أولاد الأولاد. ولمّا ذكر تعالى ما امتنّ به من جَعْل الأزواج وما ينتفع [به] من جهتهنّ[٤]، ذكر تعالى منّته بالرّزق. والطّيبات عامّ في النبات والثمار والحبوب والأشربة.

﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ استئناف إخبار عن حالهم في عبادة الأصنام، وفي ذلك تبيين لقوله تعالى ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾. نعى عليهم فساد نظرهم في عبادة ما لا يمكن أن يقع منه ما يسعى عابده في تحصيله منه وهو الرزق ولا هو في استطاعته، فنفى أولاً أن يكون شيء من الرزق في ملكهم، ونفى ثانياً قدرتها على أن تحاول ذلك.

و﴿مَا[لَا] يَمۡلِكُ﴾ عامّ في جميع مَنْ عُبدَ من دون الله من مَلَك أو آدمي أو غير ذلك. وأجازوا في «شيئا» انتصابه بقوله «رزقاً».

(١) ق: بقيد.

(٢) انظر النهاية ١: ٤٠٦.

(٣) البيت في اللسان «حفد» غير منسوب. وهو من الكامل

(٤) ق: جهتين.

قال ابن عطية: والمصدر يعمل مضافاً باتّفاق، لأنه في تقدير الانفصال، ولا يعمل إذا دخله الألف واللام لأنه قد توغّل في حال الأسماء وبَعُد عن الفعلية، وتقدير الانفصال في الإضافة حسن عمله [٣٢٠/أ] وقد جاء عاملاً مع الألف واللام في قوله[١]: [من المتقارب]

ضعيف النكاية أعداءه [يخال الفرارَ يراخي الأجَلْ]

البيت، وقوله[٢]: [من الطويل]

[لقد علمتْ أُولى المغيرة أنني] لحقتُ فلم أُنكِلْ عن الضربِ مِسْمعا

انتهى.

أما قوله: يعمل مضافاً باتفاق، إن عنى من البصريين فصحيح، وإن عنى من النحويين فغير صحيح؛ لأن بعض النحويين ذهب إلى أنه وإن أضيف لا يعمل، وإن نَصَب ما بعده أو رَفَعه، إنما هو على إضمار الفعل المدلول عليه بالمصدر.

وأما قوله: لأنه في تقدير الانفصال فليس كذلك لأنه لو كان في تقدير الانفصال لكانت الإضافة غير محضة. وقد قال بذلك أبو القاسم بن برهان وأبو الحسين بن الطّراوة، ومذهبهما فاسد لنعت هذا المصدر المضاف وتوكيده بالمعرفة.

وأما قوله: ولا يعمل إلى آخره، فقد ناقض في قوله آخراً: وقد جاء عاملاً مع الألف واللام.

(١) البيت من شواهد الكتاب ١: ١٩٢، وانظر شرح ابن عقيل ٢: ٩٥.
(٢) البيت للمرّار الأسدي، وهو من شواهد الكتاب ١: ١٩٣.

وأما كونه لا يعمل مع الألف واللام فهو مذهب منقول عن الكوفيين.

ومذهب سيبويه جواز إعماله، قال سيبويه[1]: وتقول: عجبت من الضرب زيداً، كما تقول: عجبت من الضارب زيداً، تكون الألف واللام بمنزلة التنوين.

والظاهر عَوْد الضمير في «يستطيعون» على «ما» على معناها، لأنه يراد بها آلهتهم، بعدما أعاد على اللفظ في قوله «لا يملك» فأفرد. وجاز أن يكون داخلاً في صلة «ما» وجاز أن لا يكون داخلاً بل إخبار عنهم بانتفاء الاستطاعة أصلاً لأنهم أموات.

وأما قول الزمخشري[2] إنه يراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة التوكيد، فليس كما ذكر لأنّ نفي الملك مغاير لنفي الاستطاعة.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ قال ابن عباس: لا تشبّهوه بخَلْقه.

وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أثبت العلم لنفسه، والمعنى أنه يعلم ما تفعلون من عبادة غيره والإشراك به. [وعبّر] عن الجزاء بالعلم.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ كُنْهَ ما أقدمتم عليه ولا وبالَ عاقبته.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ

(١) الكتاب ١ : ١٩٢.
(٢) الكشاف ٢ : ٤٢٠.

﴿بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٦ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٧٧﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ الآية، مناسبة ضرب هذا المثل أنّه لمّا بيّن تعالى ضلالهم في إشراكهم بالله غيره، وهو لا يجلب نفعاً ولا ضرًّا لا لنفسه ولا لعابده، ضرب لهم مثلاً قصّة عبد في ملك غيره عاجز عن التصرّف، وحرٍّ غني متصرف فيما آتاه الله تعالى. فإذا كان هذان لا يستويان عندكم مع كونهما من جنس واحد ومشتركَيْن في الإنسانية، فكيف تشركون بالله تعالى وتسوّون به من هو مخلوق له مقهور بقدرته من آدميّ وغيره مع تباين الأوصاف؟! وإنّ واجب الوجود لا يمكن أن يُشْبهه شيء من خلقه، ولا يمكن لعاقل أن يُشبِّه به غيرَه.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ أي: قصة رجلين. وهذا[1] مثل ثانٍ[2] ضربه تعالى لنفسه ولما يُفيض على عباده ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية، والأصنامِ التي هي أموات لا تضرّ ولا تنفع.

والأبكم: الذي ولد أخرس، فلا يَفهم ولا يُفهم.

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أي: ثقل وعيال على من يلي[3] أمره ويعوله.

﴿أَيْنَمَا[4] يُوَجِّههُّ﴾ حيثما يرسله ويصرفه في مطلبِ حاجةٍ أو كفايةِ مهمٍّ[5]

---

(١) هذا كلام الزمخشري، من هنا حتى نهاية تفسير الآية. انظر الكشاف ٢: ٤٢١.

(٢) ق: ثاني.

(٣) ق: يعي.

(٤) ق: أينما ما.

(٥) ق: بهم.

لم ينفع ولم يأت بنُجْح.

﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن﴾ هو سليم الحواس نفّاع ذو كفاية مع رشد وديانة، فهو يأمر الناس بالعدل وهو في نفسه على صراط مستقيم: على سيرة صالحة ودين قويم.

ثم ذكر تعالى أنّ له غيب السماوات والأرض وهو ما غاب عن العباد وخفي فيها عنهم عامّة.

والظاهر اتّصاله بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل]. أخبر باستئثاره بعلم الغيب في السماوات والأرض ثم بكمال قدرته على [٣٢٠/ب] الإتيان بالساعة التي ينكرونها في لمحة البصر أو أقرب.

والمعنى بهذا الإخبار أن الآلهة التي يعبدونها منتفٍ عنها هذان الوصفان اللذان للإلٰه وهما العلم المحيط بالمغيّبات، والقدرة البالغة التّامة. ومن ذكر أنّ قوله «ومن يأمر بالعدل» هو الله تعالى، ذكر ارتباط هذه الجملة بما قبلها بأنّ من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم هو الكامل في العلم والقدرة، فبيّن ذلك بهذه الجملة.

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ
وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ
فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ
حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا
وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ

﴿نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾
يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

ولمّا ذكر تعالى أمر الساعة، وأنها كائنة لا محالة، فكان في ذلك دلالة على النشأة الآخرة وتقدم وصفهم بانتفاء العلم - ذكر النشأة الأولى وهي[١] إخراجهم من بطون أمهاتهم غير عالمين شيئاً تنبيهاً على وقوع النشأة الآخرة. ثم ذكر تعالى امتنانه عليهم بجعل الحواس التي هي سبب لإدراك الأشياء والعلم.

قال الزمخشري[٢]: «والأفئدة» من جموع القلّة التي جرت مجرى جموع الكثرة [والقلّة]، إذ لم يَرِدْ في السماع غيرها كما قالوا: شسُوع في جمع شِسْع لا غير فجرت ذلك المجرى انتهى.

ودعوى الزمخشري أنه لم يجيء في جمع شسع إلا شسوع لا غير، ليس بصحيح، بل جاء فيه جمع القلّة قالوا: أشساع[٣]، وما ذكره الزمخشري[٤] هنا ليس بشيء.

ولمّا كانت النشأة الأولى وجعل ما يعلمون به لهم من أعظم النعم عليهم قال «لعلكم تشكرون». وتقدم الكلام في «أمّهات» في النساء[٥]. و«لا تعلمون» جملة حالية أي: غير عالمين.

---

(١) ق: وفي.
(٢) الكشاف ٢: ٤٢٢.
(٣) ق: شساع.
(٤) ق: ابن الخطيب.
(٥) انظر تفسير الآية ٢٣ من النساء.

ولمّا ذكر تعالى مدارك العلم الثلاثة: السمع والبصر والعقل، والأول مدرك المحسوس والثاني مدرك المعقول، اكتفى من ذكر مدرك المحسوس بذكر النظر فإنه أغرب، لما يشاهَد به من عظيم المخلوقات على بُعْدها[1] المتفاوت كمشاهدته للنّيرات في الأفلاك. وجعل هنا موضع الاعتبار والتعجّب الحيوان الطائر فإن طيرانه في الهواء مع ثقل جسمه مما يُتعجّب منه ويُعتبر به. وتضمّنت الآية ذكر مدرك العقل في كونه لا يسقط [إذ] ليس تحته ما يدعمه، ولا فوقه ما يتعلّق به، فيعلم بالعقل أنه له ممسك قادر على إمساكه وهو الله تعالى. فانتظم في الآية ذكر مُدرَك الحسّ ومُدرَك العقل.

ومعنى «مسخرات» مذلّلات، وبُني للمفعول دلالة على أنّ له مسخِّراً وهو الله تعالى. والجو: مسافة ما بين السّماء والأرض.

﴿لَآيَـٰتٍ﴾ جمع ولم يفرد لما في ذلك من الآيات: خفة[2] الطائر التي جعلها الله تعالى فيه لأن يرتفع بها، وثقله الذي جعله الله تعالى فيه لأن ينزل، والفضاء الذي بين السماء والأرض، والإمساك الذي لله تعالى. أو جمع باعتبار ما في هذه الآية والتي قبلها.

وقال ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم هم الذين ينتفعون بالاعتبار، ولتضمّن الآية أنّ المسخِّر والمُمْسِك لها هو الله تعالى فهو إخبار منه تعالى ما يصدّق به إلا المؤمن.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ الآيـة، والسَّكَـن فَعَـل بمعنى مفعـول

---

(١) ق: ما بعدها.

(٢) ق: خفطة.

كالقَنَص وأنشد الفرّاء[١]: [من البسيط]

جـاء الشتـاء ولـمـا أتّخـذْ سكنـاً   يا ويح قلبيَ من حَفْرِ القراميصِ

وليس السّكن بمصدر كما ذهب إليه ابن عطية. والظاهر أنه يندرج في البيوت التي من جلود الأنعام: بيوت الشَّعر وبيوت الصوف وبيوت الوبر.

«يوم ظعنكم» يوم ترحلون خفّ عليكم حملها وثقلها، ويوم تنزلون وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها.

والظاهر أن «أثاثاً» مفعول والتقدير: وجعل من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً.

﴿مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [٣٢١/أ] لمّا كانت بلاد العرب الغالب عليها الحرّ، امتنّ عليهم بذكر ما يكنّهم منه كالظّلال فيما له ظلّ. والأكنان[٢] من الجبال: الغِيْران والكهوف والبيوت المنحوتة منها. والسّربال: ما لُبس على البدن من قميص وغيره. وثَمَّ محذوف تقديره: الحرّ والبرد، لأنّ ما وقى الحرّ جدير بأن يقي البرد.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم﴾ كناية عن الدروع والمِغْفَر[٣] وغير ذلك.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ يحتمل أن يكون ماضياً أي: فإن أعرضوا عن الإسلام، ويحتمل أن يكون مضارعاً أي: فإن يتولّوا، وحذفت الياء. ويكون جارياً على الخطاب السابق والماضي على الالتفات. والفاء وما بعدها جواب

---

(١) البيت في اللسان «قرمص» غير منسوب.

(٢) ق: والأكنا.

(٣) المغفر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يُلبس تحت القلنسوة.

الشرط صورة، والجواب حقيقة محذوف أي: فأنت معذور إذ أدّيت ما وجب عليك، فأُقيم سبب العذر وهو «البلاغ» مقام المسبّب لدلالته عليه.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾
وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا
نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ
يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ
اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ لمّا ذكر إنكارهم لنعمة الله تعالى، ذكر حال يوم القيامة حيث لا ينفع فيه الإنكار، على سبيل الوعيد لهم بذلك اليوم. وانتصب «يوم» بإضمار: اذكر، على أنه مفعول به. ومتعلق الإذن محذوف فقيل: في الرجوع إلى دار الدنيا أو في الكلام والاعتذار.

﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي: لا يُزال عنهم العتب.

والظّاهر أن قوله «شركاءهم» عامّ في كل من اتخذوه شريكاً لله تعالى من صنم وغيره. والظّاهر أن القول منسوب إليهم حقيقة، وقيل منسوب إلى جوارحهم، لأنهم لمّا أنكروا الإشراك بقولهم ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام] أصمت الله ألسنتهم، وأنطق جوارحهم.

ومعنى ﴿ نَدْعُوا ﴾ نعبد، قالوا ذلك [رجاء] أن يُشْرَكوا معهم في العذاب إذ يحصل التأسّي بهم.

والضمير في «فألقوا»[١] عائد على «الذين أشركوا»، و«إليهم» عائد على الشركاء.

﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ خطاب العابدين للمعبودين، واجهوا من كانوا يعبدونهم بأنهم كاذبون.

و«السلم» الاستسلام والانقياد لحكم الله تعالى بعد الإباء والاستكبار في الدنيا.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: بطل عنهم. ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من أن لله شركاء.

و﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ. و﴿زِدْنَٰهُمْ﴾ الخبر. صدر منهم شيئان: الكفر والصدّ عن سبيل الله، فعوقبوا بعذابين: عذاب على الصدّ فوق العذاب الذي لهم على الكفر.

و﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ نبعث فيها: منها، حذف في السابق[٢] ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وأثبته هنا، وحذف هناك «في» وأثبته هنا. والمعنى في كليهما أنه يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم.

والخطاب في «بك» لرسول الله ﷺ. والإشارة «بهؤلاء» إلى أمّته.

﴿وَنَزَّلْنَا﴾ استئناف إخبار، وليس داخلاً مع ما قبله لاختلاف الزّمانين.

لمّا ذكر ما شرّفه الله تعالى به من الشهادة على أمّته، ذكر ما أنزل عليه مما فيه بيان كل شيء من أمور الدين، ليزيح بذلك علّتهم فيما كلّفوا، فلا حجّة

---

(١) ق: قالوا.

(٢) في الآية ٨٤ المتقدمة.

لهم ولا معذرة.

والظاهر أن «تبياناً» مصدر جاء على تِفعال، وإن كان باب المصادر أن يجيء على تَفعال بالفتح كالتَّرداد والتَّطواف[1]، فنظير «تِبيان» في كسر تائه: تِلقاء. ونصبوا «تبياناً» على الحال، ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله.

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: كيف كان القرآن تبياناً لكل شيء؟ قلت: المعنى أنه بينّ كل شيء من أمور الدين حيث كان نصًّا على بعضها وإحالةً على السّنة حيث أمر فيه باتّباع رسول الله ﷺ وطاعته وقيل ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم] وحثًّا على الإجماع في[3] قوله ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٥﴾ [النساء]. وقد رضي رسول الله صلى [٣٢١/ب] الله عليه وسلم اتّباع أصحابه والاقتداء بآثارهم في قوله «أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم»[4]. وقد اجتهدوا وقاسوا ووطّؤوا طرق القياس والاجتهاد[5]، فكانت السنّة والاجتهاد والإجماع والقياس مستندةً إلى تبيين الكتاب، فمن ثَمّ كان تبياناً لكلّ شيء.انتهى.

قوله: وقد رضي [رسول] الله ﷺ إلى قوله: اهتديتم؛ لم يقل ذلك، رسول الله ﷺ، وهو حديث موضوع، لا يصح بوجهٍ عن رسول الله ﷺ.

---

(١) ق: والطواف.
(٢) الكشاف ٢: ٤٢٤.
(٣) ق: من.
(٤) موضوع، انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ١: ٧٨. وانظر أيضاً تعليق المصنف الآتي عليه.
(٥) ق: واجتهاد.

قال الحافظ الوزير أبو محمد علي بن أحمد بن حزم في رسالته في إبطال القياس والرأي والاستحسان والتعليل والتقليد ما نصّه: وهذا خبر مكذوب موضوع باطل لم يصحّ قطّ، وذكر إسناده[١] إلى البزّار صاحب المسند. قال: سألتم عمّا روي عن النبي ﷺ ممّا في أيدي العامة ترويه عن رسول الله ﷺ أنه قال: إنما مَثَل أصحابي كمثل النجوم أو كالنجوم بأيها اقتدوا اهتدوا. فهذا كلام لم يصحّ عن النبي ﷺ، رواه عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبي ﷺ ولم يثبت. والنبي ﷺ لا يصحّ[٢] الاختلاف بعده من أصحابه. هذا نصّ كلام البزّار.

قال[٣] ابن معين: عبد الرحيم بن زيد كذاب خبيث ليس بشيء. وقال البخاري: هو متروك. ورواه أيضاً حمزة الجزري، وحمزة هذا ساقط متروك.

و«للمسلمين» متعلق «ببشرى». ومن حيث المعنى متعلق «بهدى ورحمة».

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ

(١) ق: ذكر بإسناده.
(٢) في المطبوع: لا يبيح.
(٣) ق: وقد.

عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ
بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا
عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً
طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية، عن ابن عباس في حديث فيه طول[1]، منه أنّ عثمان بن مظعون كان جليس النبيّ ﷺ وقتاً، فقال له عثمان: ما رأيتُك تفعل فَعْلَتَك الغداة. قال: وما رأيتَني فعلت؟ قال: شَخَص بصرك إلى السماء ثم وضعتَه على يمينك فتحرّفتَ عنّي إليه وتركتَني، فأخذتَ تنغض رأسك كأنك تستَفْقه شيئاً يقال لك. قال: أَوَفطنتَ لذلك؟ أتاني رسول الله آنفاً وأنت جالس. قال: فماذا قال لك؟ قال: قال لي: «إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان» وذكر الآية. قال: فذلك حين استقرّ الإيمان في قلبي فأحببتُ محمداً ﷺ.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لمّا ذكر «ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء» وصل[2] به ما يقتضي التكاليف فرضاً ونفلاً وأخلاقاً وآداباً.

والعدل: فعل فروض من عقائد وشرائع وسير مع الناس في أداء الأمانات وترك الظّلم والإنصاف وإعطاء الحقّ.

«والإحسان» فِعْلُ كل مندُوب إليه.

(١) انظر أسباب النزول ص١٨٩.

(٢) ق: ووصل.

﴿ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ هو صلة الرّحم وهو مندرج تحت الإحسان لكنّه نبّه عليه اهتماماً به وحضًّا على الإحسان إليه.

و«الفحشاء» الزّنى. «والمنكر» الشرك. «والبغي» التّطاول بالظّلم والسعاية فيه. وهو داخل في المنكر، ونبّه عليه اهتماماً باجتنابه.

﴿ يَعِظُكُمْ ﴾[1] أي: بالأمر والنهي.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتنبّهون لما أُمرتم به ونُهيتم عنه.

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ عهد الله عَلَمٌ لما عقده الإنسان والتزمه.

﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ ﴾ أي: العهود الموثّقة بالإيمان. نهى عن نقضها تهمّماً بها ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ أي: توثيقها باسم الله تعالى.

وكفالة الله تعالى: شهادته ومراقبته. والجملة من قوله «وقد جعلتم» في موضع الحال.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ ﴾ أي: في نقض العهد بعد توكيده وتوثيقه بالله تعالى كالمرأة الورهاء[2] [٣٢٢/أ] تبرم فَتْل غَزْلها ثم تنقضه نكثاً، وهو ما يحلّ فتله. والتشبيه لا يقتضي تعيين المشبّه به. وعن الكلبي ومقاتل: الورهاء هي من قريش، خرقاء، اسمها ريطة بنت سعد[3]، من تيم، تلقّب بجفراء، اتخذت مغزلاً قدر ذراع وصِنّارة مثل أصبع وفَلْكة[4] عظيمة على قدرها كانت تغزل

(١) ق: يعظكم به.

(٢) الورهاء: الحمقاء.

(٣) في القرطبي ١٠ : ١٧١ : ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد.

(٤) فلكة المغزل: القطعة من الخشب ونحوه تجعل في أعلاه وتثبت الصّنارة من فوقها =

هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهنّ فينقضن ما غزلن.

والظاهر أن قوله ﴿مِنۢ بَعۡدِ[١] قُوَّةٍ﴾ أي: شدّة حدثت من تركيب قوى الغزل. والنّكث في اللغة الحبل إذا انتقضت قواه.

والدَّخَل: الفساد والدّغل[٢]. جعلوا الأيمان ذريعة إلى الخدع والغدر، وذلك أن المحلوف له مطمئن فيمكن للحالف ضرّه بما يريده. قالوا: نزلت في العرب، كانوا إذا حالفوا قبيلة فجاء أكثر منها عدداً حالفوه[٣] وغدروا بالتي كانت أقلّ.

﴿هِيَ أَرۡبَىٰ﴾ أي: أزيد وأكثر. والضمير في «به» عائد على المصدر المنسبك من «أن تكون» أي: بسبب كونه أمّة هي أربى من أمّة.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآية، هذه المشيئة [مشيئة] اختيار على مذهب أهل السنّة، ابتلى الناس بالأمر والنّهي ليذهب كلٌّ إلى ما يُسِّرَ له.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ كرّر النّهي عن اتّخاذ الأيمان دَخَلاً تهمّماً بذلك، مبالغة في النّهي عنه لعظم موقعه من الدين.

قال ابن عطية: وتردّده في معاملات الناس.

وقال الزمخشري[٤]: تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظم ما يُرتكب منه انتهى.

= وعود المغزل من تحتها.

(١) ق: أي بعد.

(٢) ق: والرّغل. والدّغل: عيب في الأمر يفسده.

(٣) ق: خالفوه.

(٤) الكشاف ٢: ٤٢٧.

وقيل إنما كرّر لاختلاف المعنيين؛ لأن الأول نهي عن الدخول في الحلف ونقص العهد بالقلّة والكثرة، وهنا نهي عن الدَّخَل في الأيمان التي يراد[١] بها اقتطاع حقوق فكأنه قال: دَخَلاً بينكم لتتوصّلوا بها إلى قطع أموال الناس.

وأقول: لم يتكرر النّهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً، وإنما سبق إخبار بأنهم اتخذوا أيمانهم دخلاً معلَّلاً بشيء خاص، وهو أن تكون أمة هي أربى من أمّة، وجاء النهي بقوله «ولا تتخذوا» استئناف إنشاء عن اتّخاذ الأيمان دخلاً على العموم، فيشمل جميع الصور من الحَلْف في المبايعة وقطع الحقوق المالية وغير ذلك.

وانتصب «فنزل» على جواب النّهي، وهو استعارة لمن كان مستقيماً ووقع في أمر عظيم وسقط، لأن القدم إذا زلّت، نقلت[٢] الإنسان من حال خير إلى حال شرّ.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذه الآية نهي عن الرُّشا وأخذ الأموال على ترك ما يجب على الآخذ فِعْلُه أو فِعْلِ ما يجب عليه[٣] تَرْكُه، فإنّ هذه هي التي عهد الله تعالى إلى عباده فيها. وبيّن تعالى الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفذ وتنقضي[٤] عن الإنسان، وينقضي عنها، والتي في الآخره باقية دائمة.

ودلّ قوله تعالى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ على [أنَّ] نعيم الجنّة لا ينقطع أبداً.

---

(١) ق: يريد.

(٢) في المطبوع: تقلب، وهو وجه.

(٣) عليه: مكررة في ق.

(٤) ق: وتقتضي.

و«ما» موصولة وهي اسم «إنّ» و«عند الله» صلة الموصول.

و﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ جملة في موضع خبر «إنّ». و«ما» في الجملتين موصولة بمعنى الذي. و«ينفذ» خبر الأولى. و«باقٍ» خبر الثانية.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ جملة حالية.

والظاهر من قوله ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ﴾ أنّ ذلك في الدنيا، ويدلّ عليه قوله تعالى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ يعني في الآخرة.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ
وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ
ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى
يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ الآية، لمّا ذكر ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل] وذكر أشياء ممّا بيّن في الكتاب[1]، فإن كان الخطاب لرسول الله ﷺ لفظاً فالمراد أمّته.

ونفى تعالى سلطان الشيطان عن المؤمنين. والسلطان هنا [٣٢٢/ب]

(١) كذا أورده المصنف. وفي عبارة البحر ٥: ٥٣٥ جواب لمّا: ذكر ما يصون به القارىء قراءته من وسوسة الشيطان ونزغه فخاطب السامع بالاستعاذة منه إذا أخذ في القراءة.

التسلّط والولاية، والمعنى أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتّباع خطواته. وظاهر الإخبار انتفاء سلطته عن المؤمنين مطلقاً.

ولمّا ذكر تعالى إنزال الكتاب تبياناً لكلّ شيء، وأمر بالاستعاذة عند[1] قراءته، ذكر تعالى نتيجة ولاية الشيطان لأوليائه المشركين وما يلقيه إليهم من الأباطيل، فألقى إليهم إنكار النَّسْخ لمّا رأوا تبديل آية مكان آية. وتقدّم الكلام في النّسخ في البقرة[2]. والظاهر أن هذا التبديل رَفْع آيةٍ لفظاً ومعنى، ويجوز أن يكون التّبديل بحكم المعنى وإبقاء اللفظ، ووجد الكفار بذلك طعناً في الدين وما علموا أن المصالح تختلف بحسب الأوقات والأشخاص، وكما وقع نسخ شريعة بشريعة يقع في شريعة واحدة. وأخبر تعالى أنه العالم بما ينزّل لا أنتم، وما تنزّل ممّا يقرّه ويرفعه فمرجع علم ذلك إليه.

و«روح القدس» هنا هو جبريل عليه السلام. وأضاف الربّ إلى كاف الخطاب تشريفاً لرسول الله ﷺ باختصاص الإضافة.

و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال أي: ملتبساً بالحقّ سواء كان ناسخاً أو منسوخاً.

و﴿لِيُثَبِّتَ﴾ معناه أنهم لا يضطربون في شيء منه لكونه نسخاً، بل النسخ مثبّت لهم[3] لهم على إيمانهم. ودلّ اختصاص التعليل بالمسلمين على اتّصاف الكفّار بضدّه من لحاق الاضطراب لهم.

قال الزمخشري[4]: «وهدى وبشرى» مفعول لهما معطوفان على محل

---

(١) ق: ضد.

(٢) انظر تفسير الآية ١٠٦ من البقرة.

(٣) ق: مثبتاً.

(٤) الكشاف ٢: ٤٢٩.

«ليثبّت» انتهى.

تقدّم الرّدّ عليه في نحو هذا وهو قوله ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴿٦٤﴾﴾ [النحل] في هذه السورة. ولا يمتنع عطفه على المصدر المنسبك من أنْ والفعل لأنه مجرور، فيكون «وهدى وبشرى» مجرورين كما تقول: جئت لأحسن إلى زيد وإكرامٍ[1] لخالد، إذ التقدير: لإحسانٍ إلى زيد.

وجاء إسناد التعليم إلى مبهم لم يُعيَّن. وقال ابن عبّاس: كان في مكّة غلام أعجمي لبعض قريش يقال له بلعام، فكان رسول الله ﷺ يعلّمه الإسلام ويرومه عليه، فقالت قريش: هذا يعلّم محمداً[2] من جهة الأعاجم، وقد ذكروا أسماء ناسٍ أُخَر غير بلعام لا يصحّ شيء منها.

قال الزمخشري[3]: فإن قلت: الجملة التي في قوله «لسان الذي يلحدون إليه أعجمي» ما محلّها؟ قلت: لا محلّ لها لأنها مستأنفة، جواب لقولهم. ومثله قوله ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ[4] ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام] بعد قوله ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام] انتهى.

يجوز عندي أن تكون جملة حالية، فموضعها نصب، وذلك أبلغ في الإنكار عليهم؛ أي: يقولون ذلك والحال هذه، أي: عِلْمهم بأعجمية هذا البشر وإبانة عربية[5] هذا القرآن كان يمنعهم من تلك المقالة، كما تقول:

---

(١) ق: وأكرم.

(٢) ق: محمد.

(٣) الكشاف ٢: ٤٢٩.

(٤) ق: رسالاته.

(٥) ق: وآياته غريبة.

تشتم فلاناً وهو قد أحسن إليك، أي: عِلْمُكَ[١] بإحسانه لك كان يقتضي مَنْعك من شتمه.

وإنما ذهب الزمخشري إلى الاستئناف، ولم يذهب إلى الحال، لأنّ مذهبه أنّ مجيء الجملة الحالية الاسمية بغير واوٍ شاذّ، وهو مذهب مرجوح جدًّا. ومجيء ذلك بغير واوٍ لا يكاد ينحصر كثرةً في كلام العرب، وهو مذهب تبع فيه الفرّاء.

وأما «الله أعلم» فظاهر قوله فيها لأنها جملة خالية[٢] من ضمير يعود على ذي الحال، لأن ذا الحال هو ضمير [«وقالوا»] وفي هذه الآية ذو الحال ضمير «يقولون». والضمير الذي في جملة الحال هو ضمير الحال في «يلحدون»، فالجملة وإن عريت عن الواو[٣] ففيها ضمير ذي الحال.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾
إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ
مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى
ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ

(١) ق: أعلمك.
(٢) ق: حالية.
(٣) ق: عن الحال.

مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾
۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا
رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ
بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ
ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿إِنَّ [٣٢٣/ أ] ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية، أخبر تعالى عنهم أنهم لا يهديهم الله أبداً إذ كانوا جاحدين آيات الله وهو ما أتى به رسول الله ﷺ من المعجزات وخصوصاً القرآن، فمن بالغ في جحد آيات الله سدّ الله باب الهداية عنهم، وذكر تعالى وعيده بالعذاب الأليم لهم.

ومعنى «لا يهديهم» لا يخلق الإيمان في قلوبهم، وهذا عام مخصوص، فقد اهتدى قوم كفروا بآيات الله تعالى.

﴿مَن كَفَرَ﴾: «مَن» شرطية وجوابه محذوف تقديره: فهو مؤاخذ بكفره. و«إلّا» باستثناء منقطع تقديره: لكن من أُكره على الكفر ولَفَظَ به وقلبه مطمئن بالإيمان فلا يؤاخذ به.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ﴾: «مَن» شرطية جوابه «فعليهم غضب».

وقال ابن عطية: وقيل: «فعليهم» خبر عن «مَن» الأولى والثانية إذ هو واحد بالمعنى؛ لأن الإخبار في قوله «من كفر» إنما قصد الصنف الشّارح بالكفر صدراً انتهى.

هذا وإن كان كما ذكر فهاتان جملتان شرطيتان، وقد فصل بينهما بأداة الاستدراك، فلا بدّ لكل واحدة منهنّ من جواب على انفراده، لا يشتركان

فيه، فتقدير الحذف أُجري على صناعة الإعراب. وعلى كون «مَن» في موضع رفع على الابتداء يجوز أن تكون شرطية كما ذكرنا، وأن تكون موصولة وما بعدها صلتها، والخبر محذوف لدلالة ما بعده عليه، كما ذكرنا في حذف جواب الشرط. إلاّ أنّ «مَن» الثانية لا يجوز أن تكون شرطاً حتى يقدّر قبلها مبتدأ، لأنّ «مَن» وَلِيَتْ «لكنْ» فتعيّن إذ ذاك أن تكون «مَن» موصولة. فإن قدّر مبتدأٌ بعد «لكنْ» جاز أن تكون شرطية في موضع [خبر] ذلك المبتدأ المقدّر كقوله[1]: **[من الطويل]**

[ولست بحلاّل التّلاع مخافةً] ولكن متى يَسترفدِ[2] القومُ أَرْفِدِ

أي: ولكنْ أنا، فكذلك هنا أي: ولكن هم من شرح بالكفر صدراً أي: منهم.

وأجاز الحوفي والزّمخشري[3] أن تكون «مَن» بدلاً من «الذين لا يؤمنون» ومن «الكاذبون».

ولم يُجز الزّجاج إلا أن يكون بدلاً من «الكاذبون» لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام، فعلّقه بما قبله.

وأجاز الزمخشري[4] أيضاً أن يكون بدلاً من «أولئك».

فإن كان بدلاً من «الذين لا يؤمنون» فيكون قوله «وأولئك هم الكاذبون» جملة اعتراض بين البدل والمبدل منه، والمعنى: إنما يفتري الكذب من كفر

---

(١) البيت لطرفة في شرح القصائد السبع ص١٨٦.

(٢) ق: تسترفد.

(٣) الكشاف ٢: ٤٣٠.

(٤) الكشاف ٢: ٤٣٠.

بالله من بعد إيمانه، واستثني منه المكره، فلم يدخل تحت حكم الافتراء. وإذا كان بدلاً من «الكاذبون» فالتقدير: وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه. وإذا كان بدلاً من «أولئك» فالتقدير: من كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون.

وهذه الأوجه الثلاثة عندي ضعيفة؛ لأن الأول يقتضي أنه لا يفتري الكذب إلاّ من كفر بالله من بعد إيمانه، والوجود يقتضي أنّ من يفتري الكذب هو الذي لا يؤمن، وسواء أكان[1] ممّن كفر بعد الإيمان أم كان ممّن لم يؤمن قطّ، بل من لم يؤمن قطّ هم الأكثرون المفترون الكذب!.

وأما الثاني فيؤول المعنى إلى ذلك؛ إذ التقدير: وأولئك - أي: الذين لا يؤمنون - هم من كفر بالله من بعد إيمانه، والذين لا يؤمنون هم المفترون.

وأما الثالث فكذلك، إذا التقدير أن المشار إليهم هم من كفر بالله من بعد إيمانه مخبرٌ عنهم بأنهم الكاذبون.

وقال الزمخشري[2]: ويجوز أن ينتصب على الذّم.

هذا أيضاً بعيد، والذي تقتضيه فصاحة الكلام جَعْل الجمل كلّها مستقلّة لا ترتبط بما قبلها من حيث الأعراب بل من حيث المعنى [٣٢٣/ب] والمناسبة.

والظاهر أن «ذلك» إشارة إلى ما استحقّوه من الغضب والعذاب، أي: كائن لهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ [فيه] دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك

(١) ق: كان.

(٢) الكشاف ٢: ٤٣٠.

وهم عمّار وأصحابه رضي الله عنهم.

﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ الآية، «يوم» ظرف وهو منصوب باذكر على أنه مفعول به. والظاهر عموم «كل نفس» فتجادل المؤمن والكافر وجداله بالكذب والجحد، فتشهد[1] عليهم الرسل والجوارح فحينئذ لا ينطقون.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ أي: من قرى الأوّلين، جُعل مثلاً لمكّة على معنى التحذير لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة.

قال الزمخشري[2]: يجوز أن يراد: قرية مقدّرة على هذه الصفة، وأن تكون في قرى الأوّلين قرية كانت هذه حالها، فضربها الله مثلاً لمكّة إنذاراً من مثل عاقبتها انتهى.

لا يجوز أن يراد قرية مقدّرة على هذه الصفة، بل لا بدّ من وجودها لقوله ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾.

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ ابتدأ بصفة الأمن لأنّه[3] لا نعيم لخائف. والاطمئنان زيادة في الأمن فلا يزعجها خوف.

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾ أقواتها واسعة من جميع جهاتها لا تتعذر منها جهة. وأنعمُ: جمع نعمة كشدّة[4] وأشُدّ. والإذاقة واللباس كناية عن وصول الخوف والجوع إليهم.

---

(١) ق: فتشهم.
(٢) الكشاف ٢: ٤٣١.
(٣) ق: لأن.
(٤) ق: كأشده.

ولمّا تقدّم ذكر الأمن وإيتاء الرزق قابلهما بالجوع الناشىء عن انقطاع الرزق وبالخوف، وقدّم الجوع لِيَلِيَ المتأخّر وهو إتيان الرزق كقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران].

والظاهر أن الضمير في ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ عائد على ما عاد عليه في قوله ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾.

ولمّا تقدّم «فكفرت بأنعم الله» جاء هنا ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ وفي البقرة جاء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة] لم يذكر من كفر نعمته فقال ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة].

ولمّا أمرهم بالأكل ممّا رزقهم، عدّد عليهم محرّماته تعالى، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم دون اتّباع ما شرع الله تعالى على لسان أنبيائه. وكذا جاء في البقرة ذِكْرُ ما حرّم إثر قوله «كلوا من طيّبات ما رزقناكم»[1].

(١) ق: كلوا ممّا رزقكم.

وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ تقدّم تفسير مثلها في البقرة[١].

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ الآية، لمّا بيّن تعالى ما حرّم بالغ في تأكيد ذلك بالنّهي عن الزيادة فيما حرّم. و«ما» مصدرية. و«الكذب» مفعول «بتصف» أي: لوصف[٢] ألسنتكم الكذب.

و«هذا حلال وهذا حرام» تفسير للكذب. [ويجوز] أن تكون «ما» موصولة بمعنى الذي و«تصف» صلته والضمير العائد على «ما» محذوف تقديره: تصفه، و«الكذب» بدل من هذا الضمير المحذوف. ويجوز أن ينتصب «الكذب» على أنه نعت لمصدر محذوف منصوب «بتقولوا» أي: ولا تقولوا القول الكذب لما تصف. واللام للتعليل أي: لما تصف.

وقال الزمخشري[٣]: يجوز أن يكون «الكذب» بالجرّ صفة «لما» المصدرية كأنه قيل: لوَصْفِها الكذبِ، بمعنى الكاذب، كقوله تعالى ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ﴿١٨﴾﴾ [يوسف]، والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحلّ والحرمة انتهى.

هذا عندي لا يجوز، وذلك أنّهم[٤] نصّوا على أنّ أنْ المصدرية [٣٢٤/أ] لا يُنعت المصدر المنسبك منها ومن الفعل، فلا يوجد في كلامهم: يعجبني أنْ قمت السريعُ، تريد: قيامُك السريعُ. ولا: عجبتُ من أن تخرج السريعِ، أي: من خروجِك السريعِ. وحكم باقي الحروف المصدرية حكم أنْ، فلا يوجد في كلامهم وصف المصدر المنسبك من أنْ ولا من [ما] ولا من كي،

---

(١) انظر تفسير الآية ١٧٣ من البقرة.

(٢) ق: بوصف.

(٣) الكشاف ٢: ٤٣٣.

(٤) ق: على أنهم.

بخلاف صريح المصدر فإنه يجوز أن يُنعت. وليس لكلّ[١] مصدر حكم المنطوق به، وإنما يتّبع في ذلك ما تكلّمت به العرب.

وارتفع «متاعٌ» على أنه خبر مبتدأ محذوفٍ تقديره: عَيْشُهم في الدنيا متاع قليل.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا﴾ تقدّم ما حرّم عليهم في آخر الأنعام[٢]. ويتعلّق ﴿مِن قَبْلُ﴾ «بقصصنا» وهو الظاهر، وقيل «بحرّمنا» والمحذوف الذي في «من [قبل»] تقديره: من قبل تحريمنا على أهل ملّتك.

و«السوء» ما يسوء صاحبه من كفر ومعصية وغيره. والكلام في الذين تابوا[٣] وما يتعلق [به] تقدّم نظيره[٤].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ الآية، مناسبة هذه الآية للآيات قبلها أنّه لمّا أبطل تعالى مذاهب المشركين في هذه السورة، في[٥] الطعن في نبوّة رسول الله

---

(١) ق: كل.

(٢) انظر تفسير الآية ١٤٦ من الأنعام.

(٣) ق: آمنوا.

(٤) انظر تفسير الآية ١٦٠ من البقرة.

(٥) ق: والطعن عن نبوّة.

ﷺ، وتحليل ما حرّم وتحريم ما أحلّ[١]، وكانوا مفتخرين بجدّهم إبراهيم صلوات الله على نبيّنا وعليه - ذكره في آخر السّورة، وأوضح منهاجه وما كان عليه من طاعة الله تعالى ورفض الأصنام، ليكون ذلك حاملاً لهم على تركها والاقتداء به.

قال ابن عطية: قال مكي[٢]: ولا يكون - يعني «حنيفاً» - حالاً من «إبراهيم» لأنه مضاف إليه. وليس كما قال، لأن الحال قد تعمل فيها حروف الخفض إذا عملت في ذي الحال، كقولك: مررت بزيد قائماً.انتهى.

أمّا ما حكى عن مكّي وتعليله امتناع ذلك بكونه مضافاً إليه، فليس على إطلاق هذا التعليل؛ لأنه إذا كان المضاف إليه في محلّ رفع أو نصب، جازت الحال منه نحو: يعجبني قيامُ زيدٍ مسرعاً، وشُرْبُ السّويقِ ملتوتاً.

وقال بعض النّحاة: ويجوز أيضاً ذلك إذا كان المضاف جزءاً من المضاف إليه كقوله تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر]، أو كالجزء كقوله تعالى ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة].

وأما قول ابن عطية في ردّه على مكي بقوله: وليس كما قال لأن الحال إلى آخره، فقول بعيد عن قول أهل الصنعة، لأن الباء في «بزيد» ليست هي العاملة في «قائماً» وإنما العامل في الحال «مررت»، والباء، وإن عملت الجرّ في «بزيد» فإن زيداً في موضع نصب بمررت، ولذلك إذا حذف حرف الجر حيث يجوز حذفه، نصب الفعل ذلك[٣] الاسم الذي كان مجروراً بالحرف.

---

(١) ق: وتحريم ما حرّم وتحليل ما أحلّ.

(٢) انظر مشكل إعراب القرآن ١: ٤٢٦.

(٣) ق: لذلك.

وتقدّم تفسير القانت والحنيف[١].

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ روي أنه كان عليه السّلام لا يتغدّى إلا مع ضيف، فلم يجد ذات يوم ضيفاً، فأخّر غداءه، فإذا هو بفوجٍ من الملائكة في صورة البشر، فدعاهم إلى الطعام فخيّلوا له أنّ بهم جذاماً، فقال: الآن وجبت مؤاكلتكم، شكراً لله تعالى على أنه عافاني وابتلاكم.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قال قتادة: حبّبه الله تعالى إلى كلّ الخلق، فكلّ أهل الأديان يتولّونه[٢]: اليهود والنصارى والمسلمون، وخصوصاً كفّار قريش، فإنّ فخرهم إنما هو به، وذلك لإجابة دعوته ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الشعراء].

ولمّا وصف إبراهيم عليه السلام بتلك الأوصاف الشريفة أمر نبيّه عليه السلام أن يتّبع ملّته. وهذا الأمر من جملة الحسنة التي آتاها الله تعالى إبراهيم في الدنيا. وملّته: أي: عقائد الشرع [٣٢٤/ب] دون الفروع لقوله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة].

ولمّا أمر تعالى رسوله باتّباع ملّة إبراهيم، وكان الرسول عليه السلام قد اختار يوم الجمعة - فدلّ ذلك على أنّه كان في شرع إبراهيم - بيّن أنّ يوم السبت لم يكن في شرع إبراهيم. و«السبت» مصدر وبه سُمّي اليوم، وتقدم الكلام في هذا اللفظ في الأعراف[٣].

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ

(١) انظر تفسير الآيتين ٢٣٨، ١٣٥ من البقرة.
(٢) ق: يتلونه.
(٣) انظر تفسير الآية ١٦٣ من الأعراف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ
فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا
صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أمر تعالى رسوله عليه السلام أن يدعو[1] إلى دين الله وشرعه بتلطّف، وهو أن يسمع المدعوّ حكمة، وهو الكلام الصواب القريب الواقع في النّفس أجمل موقع. وعن ابن عباس أن «الحكمة» هي القرآن، وعنه أيضاً: «الموعظة الحسنة» مواعظ القرآن.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ أطبق أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت[2] في شأن التمثيل بحمزة، رضي الله عنه وغيره في يوم أحد. والظاهر عود الضمير في «لهو» إلى المصدر الدّال عليه الفعل مقيّداً بالإضافة إليهم أي: لَصَبْرُكم.

و﴿لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: لكم أيها المخاطبون، فوضع «الصابرين» موضع الضمير ثناءً من الله تعالى [عليهم] بصبرهم على الشّدائد أو بصبرهم على المعاقبة.

ولمّا خُيّر المخاطبون في المعاقبة والصبر عنها عَزم على الرسول عليه السلام في الذي هو خير وهو الصبر، فأُمر هو وحده[3] بالصبر.

ومعنى ﴿بِٱللَّهِ﴾ بتوفيقه وتيسيره وإرادته.

---

(١) ق: يدع.

(٢) انظر أسباب النزول ص١٩١ وما بعدها.

(٣) ق: فأمر وحده هو.

والضمير في «عليهم» يعود على الكفّار، وكذلك في «يمكرون» كما قال تعالى ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة].

ومعنى المعيّة: بالنّصر والتأييد والإعانة. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

تم الجزء الأول ويتلوه في الثاني سورة الإسراء(١).

[٣٢٦/أ] الجزء الثاني من تفسير أبي حيان المسمّى بالنّهر المقتصر من البحر، غفر له وللمسلمين أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً(٢).

---

(١) الورقة التالية ٣٢٥ بوجهيها بياض في الأصل.

(٢) فوق هذا العنوان تمليك صورته: مِلْكٌ لله تعالى بيد أحمد بن محمد بن ناصر كان الله له آمين.

وتحته تمليك آخر نصّه: مِلْكٌ لعبد ربّه العليّ، أحمد نجل ناصر الدرعي.

[٣٢٦/ب] بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. قال الشيخ الإمام أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي رحمه الله [ورضي] عنه:

سورة الإسراء(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ
حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾
ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ
نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ
لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا
عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

(١) مكية وآياتها مئة وإحدى عشرة.

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ الآية، سبب نزولها ذكر رسول الله ﷺ لقريش الإسراء به وتكذيبهم [له] فأنزل الله تعالى ذلك تصديقاً له. وهذه السورة مكية إلاّ آيات اختلف فيها، ذكرت في البحر[١]. ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى [لمّا] أمره بالصبر ونهاه عن الحزن عليهم، وأن يَضيق صدره من مكرهم، وكان من مكرهم نسبتُه إلى التكذيب والسحر والشعر وغير ذلك ممّا رموه به - أعقب تعالى ذلك بشرفه وفضله واحتفائه به وعلوّ منزلته. وتقدّم الكلام على «سبحان» في البقرة[٢]. و«أسرى» بمعنى سرى. وانتقل من ضمير الغيبة في قوله «بعبده» إلى ضمير المتكلم في قوله «لنريه من آياتنا».

والظاهر أن هذا الإسراء كان بشخصه، ولذلك كذّبت قريش به وشغبت عليه.

و«المسجد الأقصى» بيت المقدس. وسمّي الأقصى لأنه كان في ذلك الوقت أقصى بيوت الله الفاضلة من الكعبة.

و﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ صفة مدح لإزالة اشتراك عارض، وبركته بما خُصّ به من الخيرات الدينية كالنبوّة والشرائع والرّسل الذين كانوا في ذلك [٣٢٧/أ] القطر، والدّنياوية من كثرة الأشجار والأنهار وطيب الأرض. وفي الحديث[٣] أنه تعالى بارك فيما بين العريش إلى الفرات، وخصّ فلسطين بالتقديس. وفي إضافته تعالى «عبده» لضميره تشريفٌ عظيم. وكثيراً ما أتى التشريف

(١) انظر ٦: ٣-٤.

(٢) انظر تفسير الآية ٣٢ من البقرة.

(٣) انظر مثلاً: سلسلة الأحاديث الضعيفة ١: ٢٥، وتفسير القرطبي ١٠: ٢١٢.

بلفظ العبد كقوله تعالى ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۝٣٠﴾ [ص] و﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۝٤٢﴾ [الحجر] و﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ[1] إِبْرَٰهِيمَ [وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ] ۝٤٥﴾ [ص].

ويروى عنه[2] أنه صلى الله عليه وسلم كان نائماً في بيت أمّ هانىء [بعد صلاة العشاء فأُسري به ورجع من ليلته. وقصّ القصّة على أمّ هانىء] وقال: مُثّل لي النبيّون فصلّيت بهم. وقام ليخرج إلى المسجد[3] فتشبّثت أم هانىء بثوبه. فقال: مالكِ؟ قالت: أخشى أن يكذّبك قومك إن أخبرتَهم. قال: وإن كذّبوني!. فخرج فجلس إليه أبو جهل، فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء فقال أبو جهل: يا معشر كعب بن لؤي هلمّ، فحدّثهم فمن بين مصفّق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً. وارتدّ ناس ممّن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: أتصدّقه على ذلك؟ قال: إني لأصدّقه على أبعد من ذلك. فسمّي الصدّيق. ومنهم من كان سافر إلى [بيت المقدس] ثم [عاد]، فاستنعتوه المسجد، فجُلي له بيت المقدس فطفق ينظر إليه وينعته لهم. فقالوا: أما النّعت فقد أصاب. وقالوا: أخبِرْنا عن عِيْرنا. فأخبرهم عن عدد جمالها وأحوالها وقال: تَقْدُم يوم كذا مع طلوع [الشمس] يَقْدُمها جمل أورق[4]. فخرجوا ذلك [اليوم] نحو الثنيّة[5]، فقال: قائل منهم: هذه والله الشمس قد طلعت. فقال آخر: وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد. ثمّ لم يؤمنوا وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين.

---

(١) ق: عبدنا.

(٢) انظر السيرة النبوية ٢: ٤٣.

(٣) ق: من المسجد.

(٤) الأورق من الإبل: الذي في لونه بياض إلى سواد.

(٥) ق: لأفعاله.

وقد عُرج به إلى السّماء في تلك الليلة، وكان العروج به من بيت المقدس. وأخبر قريشاً أيضاً بما رأى في السّماء من العجائب وأنه لقي الأنبياء، وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى.

«إنه هو السميع» لأقوال محمد. «البصير» بأفعاله[١]. وفيه التفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب في «إنه».

﴿ وَءَاتَيْنَا﴾ معطوف على الجملة السابقة من تنزيهه سبحانه وتعالى وبراءته من السوء. ولا يلزم من عطف الجمل المشاركة في الخبر أو غيره.

ولمّا ذكر تشريف الرسول عليه السلام بالإسراء وإراءته الآيات، ذكر تشريف موسى عليه السلام بإيتائه التوراة. و«الكتاب» هنا التوراة. والظاهر عود الضمير في «وجعلناه» على «الكتاب». «أن لا» تكون تفسيرية و«لا» نهي. و«أن» تكون مصدرية تعليلاً أي: لئلاّ يتخذوا، و«لا» نفي.

وانتصب «ذرية» على النّداء أي: يا ذريّة. قرأت فرقة: ذرّيةُ من حملنا، برفع «ذرية». وخُرّج على أن يكون بدلاً من الضمير في «تتخذوا» على قراءة من قرأ بياء الغيبة.

قال ابن عطية: ولا يجوز في القراءة بالتاء، لأنك لا تبدل من ضمير مخاطب لو قلت: ضربتك زيداً، على البدل، لم يَجُزْ انتهى. ما ذكره من إطلاق أنك لا تبدل من ضمير مخاطب يحتاج إلى تفصيل؛ وذلك أنه إن كان في بدل بعض من كل وبدل اشتمال جاز بلا خلاف، وإن كان من بدل شيء من شيء وهما لعينٍ واحدة؛ فإن كانت تفيد[٢] التوكيد جاز بلا خلاف نحو:

---

(١) ق: لأفعاله.

(٢) ق: فكان يفيد.

مررت بكم كبيركم وصغيركم، وإن لم يُفِدِ التوكيد فمذهب جمهور البصريين المنع، ومذهب [٣٢٧/ب] الأخفش والكوفيين الجواز وهو الصحيح لوجود ذلك في كلام العرب، وقد استدللنا على صحة ذلك في شرح التسهيل.

وذكر ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تنبيهاً على النعمة التي نجّاهم الله بها من الغرق. والظاهر أن الضمير في «إنّه» عائد على «نوح» عليه السلام أي: كونوا موحِّدين شاكرين لنعم الله مقتدين بنوح الذي أنتم ذرّيّة من حُمل معه.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية، قضى: يتعدى بنفسه إلى مفعول كقوله تعالى ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص]. ولمّا ضمّن هنا معنى الإيحاء أو الإنفاذ تعدّى بإلى[1]، أي: وأوحينا أو أنفذنا إلى بني إسرائيل في القضاء المحتوم المبتوت. واللام في «لتفسدنّ» جواب قسم؛ فإمّا أن يقدّر محذوفاً ويكون متعلّق القضاء محذوفاً تقديره: وقضينا إلى بني إسرائيل بفسادهم في الأرض وعلوّهم، ثم أقسم تعالى على وقوع ذلك وأنه كائن لا محالة، فحذف متعلق «قضينا» وأبقى منصوب[2] القسم المحذوف. ويجوز أن يكون «قضينا» أجري مجرى القَسَم و«لتفسدنّ» جوابه، كقولهم: قضاء الله لأقومنّ. «مرّتين» أولاهما قتل زكريّا عليه السلام ونشره في الشجرة بالمنشار، والثانية حبسهم أرميا حين أنذرهم سخط الله تعالى.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي: موعود أولاهما والوعد قد سبق بذلك. والموعود هو العقاب. والضمير في «أولاهما» عائد على المرّتين.

﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ قال ابن عباس: غزاهم سنحاريب وجنوده ملك بابل، وقيل:

(١) ق: إلى.

(٢) ق: منصب.

بختنصر. وروي أنه دخل قبلُ في جيش من الفرس، وهو خامل، يسير في مطبخ الملك، فاطّلع من جور بني إسرائيل على ما لم تعلمه الفرس، لأنه كان يُداخلهم، فلما انصرف الجيش ذكر ذلك للملك الأعظم، فلمّا كان بعد مدّة جعله الملك رئيس جيش، وبعثه، وخرّب بيت المقدس، وقتلهم، وجلاهم. ثم انصرف، فوجد الملك قد مات، فملك موضعه، واستمر حاله حتى ملك الأرض بعد ذلك. والبعث هنا: الإرسال والتسلّط.

﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: قتال وحرب شديد، لقوّتهم ونجدتهم وكثرة عَددهم وعُددهم[١].

﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ وأسند الجَوْس - وهو التردّد خلال الديار بالفساد - إليهم، فتخريب[٢] المساجد وإحراق التوراة من جملة الجَوْس المسند إليهم.

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي: منجزاً ما وقع به الوعد من العقاب.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ هذا إخبار من الله تعالى لبني إسرائيل في التوراة. وجعل «رددنا» موضع نردّ، إذ وَقْتَ إخبارهم لم يقع الأمر بعدُ، لكنّه لمّا كان وعد الله تعالى في غاية الثّقة أنه يقع، عبّر عن مستقبله بالماضي. و«الكرّة» الدّولة والغلبة على الذين بُعثوا عليهم حين[٣] تابوا ورجعوا عن الفساد، ملكوا بيت المقدس. وقيل: «الكرّة» قتل[٤] بختنصّر واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع المُلْك إليهم.

---

(١) ق: مَددهم ومُددهم.

(٢) ق: لتخريب.

(٣) ق: حتّى.

(٤) ق: قبل الكرة قبل.

وذكر في سبب ذلك أنّ ملكاً غزا أهل بابل، وكان بختنصر قد قتل من بني إسرائيل أربعين ألفاً ممّن يقرأ التوراة، وبقي بقيّتهم عنده ببابل في الذّل. فلمّا غزاهم ذلك الملك، وغلب على بابل، تزوج امرأة من بني إسرائيل، فطلبت منه أن يردّ بني إسرائيل إلى بيت المقدس ففعل. وبعد مدة [٣٢٨/أ] قامت فيهم الأنبياء، فرجعوا إلى أحسن ما كانوا عليه.

وانتصب «نفيراً» على التمييز فقيل: النفير والنافر واحد، وأصله مَن ينفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته.

وجواب ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ قوله ﴿فَلَهَا﴾ على حذف مبتدأ، و«لها» خبره تقديره: فالإساءة لها.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة في إفسادكم وعلّوكم. وجواب «إذا»[١] محذوف يدلّ عليه جواب «إذا» الأولى تقديره: بعثناهم عليكم. وإفسادهم [في ذلك بقتل يحيى بن زكريا عليهما السلام]. وقرىء: ليسوؤوا، بلام كي وياء الغيبة وضمير الجمع الغائب العائد على المبعوثين. وقرىء: لنسوء، بالنون التي للعظمة، وفيها ضمير يعود على الله تعالى. والظاهر أنه أراد بالوجوه الحقيقة؛ لأن آثار الأعراض النفسانية في القلب تظهر[٢] على الوجه؛ ففي[٣] الفرح يظهر الإسفار والإشراق، وفي الحزن يظهر الكلوح والغبرة[٤]. ويحتمل أن يعبّر عن الجملة بالوجه، فإنهم ساؤوهم بالقتل والنهب والسّبي، فحصلت الإساءة للذوات كلها.

---

(١) ق: إذ.

(٢) ق: يظهر.

(٣) ق: وفي.

(٤) ق: والغيبة.

﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ﴾ أي: مسجد بيت المقدس.

ومعنى ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ بالسيف والقهر والغلبة والإذلال. وهذا يُبعد قول من ذهب إلى أن أولى المرّتين لم يكن فيها قتل ولا قتال ولا نهب.

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ يهلكوا، وقال قطرب: يهدموا، وقال الشاعر[1]: [من الطويل]

فما الناس إلا عاملان فعامل يتبرّ ما يبني وآخر رافع

والظاهر أن «ما» مفعول «يتبرّوا» أي: يهلكوا ما غلبوا عليه من الأقطار. ويحتمل أن تكون «ما» ظرفية أي: مدة استيلائهم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ﴾ بعد المرّة الثانية إن تبتم وانزجرتم عن المعاصي، وإن عدتم إلى المعصية مرة ثالثة، عدنا إلى العقوبة. وقد عادوا فأعاد الله عليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الإتاوة عليهم. وعن الحسن: عادوا، فبعث الله تعالى محمداً ﷺ، فهم يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. ثم ذكر ما أعدّ لهم في الآخرة وهو جعل جهنم لهم حصيراً، والحصير: السجن أو المحبس. قال لبيد[2]: [من الكامل]

ومقامةٍ غلب الرجال كأنهم جنّ لدى باب الحصير قيام

والذي يظهر أنها حاصرة لهم محيطة بهم من جميع جهاتهم. فحصير: معناه ذات حصر؛ إذ لو كان للمبالغة لزمته التاء لجريانه على مؤنث كما تقول: رحيمة وعليمة، ولكنه على معنى النسب كقوله تعالى ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ ١٨﴾ [المزمل] أي: ذات انفطار.

---

(١) البيت للبيد في ديوانه ص١٧٠.

(٢) ديوانه ص٢٩٠.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ لمّا ذكر تعالى من اختصّه بالإسراء وهو محمد ﷺ، ومن آتاه التوراة وهو موسى عليه السلام، وأنه هدى لبني إسرائيل، وذكر فيها ما قضى عليهم فيها من التسلّط عليهم بذنوبهم - كان ذلك رادعاً من غفل عن[1] معاصي الله تعالى، فذكر ما شرّف الله به رسوله من القرآن الناسخ لحكم التوراة وكل كتاب إلهي وأنه[2] يهدي للطريقة التي هي أقوم.

والذي يظهر من حيث المعنى أن «أقوم» هنا لا يراد بها التفضيل؛ إذ لا مشاركة بين الطريقة التي يرشد إليها القرآن وطريقة غيرها وفُضّلت هذه عليها، وإنما المعنى: التي هي قيّمة [أي]: مستقيمة وغيرها من الطرق ليست مستقيمة، كما قال تعالى ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة].

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ عطف على قوله ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

---

(١) ق: من. وفي المطبوع: رادعاً من عقل، وهو وجه.

(٢) ق: فأنه.

بشّروا بفوزهم بالجنة وبكينونة العذاب الأليم لأعدائهم الكفار؛ إذ في علم المؤمنين بذلك [٣٢٨/ب] وتبشيرهم به مسرّةٌ لهم، فهما بشارتان، وفيه وعيد للكفّار.

قال الزمخشري(١): فإن قلت: كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفّار، ولم يذكر الفسقة؟ قلت: [كان] الناس حينئذ إمّا مؤمن تقي وإما مشرك، وإنما حدث أصحاب المنزلة بين المنزلتين بعد ذلك.انتهى.

هذه مكابرة، بل قد وقع في زمان الرسول عليه السلام من بعض المؤمنين هَنات وسقطات بعضها مذكور في القرآن وبعضها في الحديث الصحيح الثابت.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ قال ابن عباس وغيره: نزلت ذامّة لما يفعله الناس من الدعاء على أموالهم وأبنائهم في أوقات الغضب والضجر. ومناسبتها لما قبلها أن بعض من لا يؤمن بالآخرة كان يدعو على نفسه بتعجيل ما وُعد به من الشّر في الآخرة، كقول النّضر ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]. وكتب «ويَدْعُ» بغير واو على حسب السّمع. و«الإنسان» هنا ليس واحداً معيّناً، والمعنى أنّ في طباع الإنسان إذا ضجر وغضب، دعا على نفسه وأهله وماله بالشّر أن يصيبه كما يدعو بالخير أن يصيبه. ثم ذكر تعالى أن ذلك من عدم تثبّته وقلّة صبره وكونه خُلق كثير التسرّع لما يرد: عليه لا يتأنّى ولا يستبصر.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ الظاهر أنّ «آيتين» هو المفعول الأول، و«الليل والنهار» ظرفان في موضع المفعول الثاني؛ أي: وجعلنا في الليل والنهار

(١) الكشاف ٢: ٤٣٩.

آيتين.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: جعلنا [الليل] ممحوّ الضّوء مطموسه مظلماً لا يستبان فيه شيء، كما لا يُستبان ما في اللوح الممحوّ.

﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي: تُبصَر فيه الأشياء وتُستبان. ومعنى «لتبتغوا فضلاً» أي]: من فضله، أي: لتتوصّلوا إلى استبانة أعمالكم وتصرّفكم في معايشكم(١).

«والحساب» للشهور والأيام والساعات. ومعرفة ذلك في الشرع إنما هو من جهة آية الليل لا من جهة آية النهار.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ ممّا تفتقرون(٢) إليه في دينكم ودنياكم.

﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ بيّنّاه تبييناً غير ملتبس. والظاهر أنّ نَصْب «وكل شيء» على الاشتغال.

﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ أي: أن جميع ما يلقى الإنسان من خير وشرّ، فقد سبق به القضاء، وألزم حظّه وعمله ومكسبه في عنقه، فعبّر عن الحظّ والعمل إذ هما متلازمان بالطائر. وقرىء: ونُخرج، بالنون مضارع أخرج، كتاباً: بالنصب. وعن أبي جعفر: ويُخْرَج، بالياء مبنيًّا للمفعول، كتاباً، أي(٣): يُخْرَج الطائر كتاباً. وعنه أيضاً: كتابٌ، بالرفع على أنه مفعول ما لم يُسَمَّ فاعله.

و﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ صفتان لكتاب. ويجوز أن يكون «منشوراً» حالاً من مفعول «يلقاه».

---

(١) ق: ومعايشكم.
(٢) ق: لا تفتقرون.
(٣) ق: أو.

«اقرأ كتابك» معمول لقول محذوف أي: يقال له: اقرأ كتابك. وقال قتادة: يقرأ في ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئاً. و«بنفسك» فاعل «كفى» والباء زائدة على سبيل الجواز لا اللزوم، ويدلّ عليه أنها إذا حذفت ارتفع ذلك الاسم بكفى كقول الشاعر[(١)]: [من الطويل]

ويخبرني عن غائب المرء هَدْيُه كفى الهديُ عمّا غيَّب المرءُ مُخبِرَا

و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ منصوب «بكفى» و«عليك» متعلق «بحسيباً».

ومعنى «حسيباً» حاكماً عليك بعملك[(٢)]. و«حسيباً» منصوب على التمييز لجواز دخول «مِن» عليه. والحسيب بمعنى المحاسب ومعناه حافظاً عليك عملك، ولذلك عدّي بعلى.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ قيل: نزلت[(٣)] الإشارة في الهدى إلى أبي سلمة بن عبد الأسود، وفي الضلال إلى الوليد بن المغيرة. وتقدّم تفسير ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ في آخر الأنعام[(٤)] [٣٢٩/أ].

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ غيّا[(٥)] انتفاء التعذيب ببعثة رسول الله ﷺ، والمعنى: حتى نبعث رسولاً فيُكذّب[(٦)] ولا يؤمنَ بما جاء به من عند الله تعالى. وانتفاء التعذيب أعمّ من أن يكون في الدنيا بالهلاك وغيره من

---

(١) البيت لزياد بن زيد العدوي في تهذيب اللغة «هدى».

(٢) ق: بعلمك.

(٣) انظر القرطبي ١٠: ٢٣٠.

(٤) بل مرّ بها المصنف في آية الأنعام ١٦٤ دون شرح.

(٥) غيّاه به: علّقه.

(٦) ق: يتكذّب.

العذاب، أو في الآخرة بالنّار فهو يشملهما.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى أنه لا يعذّب أحداً حتى يبعث إليه رسولاً، بيّن بعد ذلك علّة إهلاكهم وهي مخالفة أمر رسول الله ﷺ والتّمادي على الفساد والفسق. وأراد هنا: على حقيقته. و«أن نهلك» يعني في الدنيا.

وقرىء: أَمَرْنا، بتخفيف الميم من الأمر، ومفعول أمر محذوف تقديره: أمرنا بالطاعة مترفيها. ويجوز أن يكون «أمرنا» بمعنى كثّرنا لقول العرب: أَمِر القوم بكسر الميم أي: كثروا، وأَمَرهم الله بفتح الميم أي: كثّرهم، فصارت الحركة يصير بها الفعل متعدّياً، تقول العرب: شتِرت عين الرجل بكسر التاء، وشتَرها الله بفتح التاء. والقول الذي حقّ عليهم هو وعيد الله تعالى الذي قاله رسولهم. والتدمير: الإهلاك مع طمس الأثر وهدم البناء مع إهلاك أهلها.

وقرىء: آمرنا، بالمدّ أي: كثّرنا، عدّي أمر بالهمزة بمعنى كثّرنا.

وقرىء: أمّرنا بالتشديد أي: جعلناهم أمراء، أو بمعنى كثّرنا.

«وكم» في موضع نصب على المفعول «بأهلكنا» أي: كثيراً من القرون أهلكنا. و«من القرون» بيان «لكم» وتمييز له كما يميّز العدد بالجنس. والقرون: عاد وثمود وغيرهم. ويعني بالإهلاك هنا الإهلاك بالعذاب، وفي ذلك تهديد ووعيد لمشركي مكّة. وقال «من بعد نوح» ولم يقل: من بعد آدم، لأن نوحاً عليه السلام أول نبيّ بالغ قومه في تكذيبه، وقومه أوّلُ من حلّت بهم العقوبة العظمى وهي الاستئصال بالطّوفان. وتقدّم القول في عمر القرن[1].

و«مِن» الأولى للتّبيين والثانية لابتداء الغاية، وتعلّقا بـ«أهلكنا» لاختلاف معنييهما.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ إنما يجيء في الأغلب في مدح أو ذمّ. وإعراب «كفى بربك» كإعراب: كفى بالله.

و﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ تنبيه على أن الذّنوب هي أسباب الهلكة.

و﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تنبيه على أنه عالم بها فمعاقب عليها. ويتعلق «بذنوب» «بخبيراً» أو «ببصيراً».

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ قيل: نزلت في المنافقين كانوا يغزون مع المسلمين لا للثّواب. و«مَن» شرطية وجوابه ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ فقيّد المعجّل بمشيئته، أي: ما نشاء تعجيله. و﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل من قوله «له» بدل بعض من كلّ، لأن الضمير في «له» عائد على «مَن» الشرطية. وهي في معنى

(١) انظر تفسير الآية ٦ من الأنعام.

الجمع ولكن جاءت الضمائر هنا على اللفظ لا على المعنى.

و«جعلنا» بمعنى صيّرنا. والمفعول الأول «جهنّم» والثاني «له» لأنه ينعقد منهما مبتدأ وخبر. و«يصلاها» حال من الضمير في «له» أو من «جهنم».

«مذموماً» إشارة إلى الإهانة. «مدحوراً» إشارة إلى البعد والطرد من رحمة الله تعالى. وهما حالان من الضمير المستكنّ في «يصلاها».

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي: ثواب الآخرة بأن يؤثرها على الدنيا ويعقد إرادته بها. «وسعى» فيما كُلّف من الأعمال والأقوال. «سعيها» أي: السّعي المعدّ للنّجاة فيها.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هو الشرط الأعظم في النجاة، فلا تنفع إرادة ولا سعي إلا بحصوله. وفي الحقيقة هو الناشىء عنه إرادة الآخرة والسعي للنجاة فيها وحصول الثواب.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من اتّصف بهذه الأوصاف. وراعى معنى «مَن» فلذلك كان بلفظ الجمع. والله تعالى يشكرهم على طاعتهم، وهو تعالى هو [٣٢٩/ب] المشكور على ما أعطى. وانتصب «كلا» بـ«نَمُدُّ». والإمداد: المواصلة بالشيء.

و«هؤلاء وهؤلاء» بدلان من «كلاًّ» بدل تفصيل، وقدّره الزمخشري(١): كلّ واحد من الفريقين نمدّ. وأعربوا «هؤلاء» بدلاً من «كلاًّ».

ولا يصحّ أن يكون بدلاً من «كلاًّ»(٢) على تقدير: كل واحد، لأنه يكون إذ

---

(١) الكشاف ٢: ٤٤٣.

(٢) ق: كلّ.

ذاك بدل كلٍّ من بعض فينبغي أن يكون التقدير: كلّ الفريقين، فيكون بدل [كلٍّ] من كلٍّ على جهة التفصيل.

والظاهر أنّ هذا الإمداد هو في الرزق في الدنيا، ويدلّ على هذا التأويل ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: أن رزقه لا يضيق عن مؤمن ولا كافر. ومعنى «محظوراً» أي: ممنوعاً.

والظاهر أن «انظر» بصريّة لأن التفاوت[١] في الدنيا مُشاهَد. و«كيف» سؤال عن الهيئة منصوب «بفضّلنا»، والجملة في موضع نصب على إسقاط حرف الجر [وهو: إلى. ويجوز أن يكون «انظر» من نظر القلب، فيكون حرف الجر] المقدَّر لفظة: في، والتفضيل هنا في الدنيا، و«درجات» منصوباً على التمييز والمفضّل عليه محذوف تقديره: من درجات الدنيا وتفضيلها.

والخطاب في «لا تجعل» للسامع المخاطب [غير الرسول. «فتقعد» قال الفراء وتبعه الزمخشري[٢]: «فتقعد» بمعنى فتصير، فيكون اسمها ضمير المخاطب] وخبرها «مذموماً». وحكى الكسائي عن العرب: قعد لا يُسأل حاجة إلا قضاها.

وأصحابنا لا يجعلون قعد بمعنى صار، إلا في المَثَل في قولهم: شحذ شفرته حتى قعدت كأنها حَرْبة[٣]، أي: صارت. و«مذموماً» حال عندهم من الضمير المستكنّ في «فتقعد» ويؤوّلونه على معنى: فيثبت ويسكن[٤] في حال

---

(١) ق: التفات.

(٢) ليس في معاني القرآن، وانظر الكشاف ٢: ٤٤٤.

(٣) انظر الهمع ٢: ٧٠.

(٤) ق: فثبت وسكن.

الذم.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الآية، قال ابن عباس وجماعة: «قضى» بمعنى أمر و«أن» حرف تفسير.

وقال أبو البقاء[1]: ويجوز أن يكون في موضع نصب أي: الزم ربك عبادته و«لا» زائدة انتهى.

وهذا وهم لدخول «إلاّ» على مفعول «تعبدوا» فلزم أن يكون منفيًّا أو منهيًّا، و«لا تعبدوا» نهي.

و﴿ إِحْسَـٰنًاۚ ﴾ مصدر بمعنى الأمر، عطف ما معناه أمر على نهي[2]، كما عطف في قوله[3]: [من الطويل]

[وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم] يقولون لا تهلِك أسًى وتجمَّلِ

وقد اعتنى بالأمر بالإحسان إلى الوالدين حيث قُرن بقوله «لا تعبدوا إلاّ إياه» وتقديمهما اعتناءً بهما على قوله «إحساناً». ومناسبة[4] اقتران برّ الوالدين بإفراد الله تعالى بالعبادة من حيث إنه تعالى هو الموجِد حقيقة والوالدان وساطة في إنشائه، وهو تعالى المنعم بإيجاده ورزقه وهما ساعيان في مصالحه.

وقال الزمخشري[5]: «إمّا» هي إنْ الشرطية زيدت عليها ما توكيداً لها، ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل، ولو أفردت لم يصحّ دخولها؛ لا تقول: إن تكرمنّ زيداً يكرمك، ولكن: إمّا تكرمنّه.انتهى.

وهذا الذي ذكره مخالف لمذهب سيبويه، لأنّ مذهبه أنه يجوز أن يجمع

(١) إملاء ٢: ٩٠.
(٢) ق: نفي.
(٣) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٩.
(٤) ق: أو مناسبة.
(٥) الكشاف ٢: ٤٤٤.

بين إمّا ونون التوكيد، وأن تأتي[١] بإنّ وحدها ونون التوكيد، وأن تأتي بإمّا وحدها دون نون التوكيد. وقال سيبويه[٢] في هذه المسألة: وإن شئت لم تقحم النّون، كما أنك [إن شئت] لم تجيء بها[٣] - يعني مع النون وعدمها -.

وقرىء: يبلغنّ بنون التوكيد، وعند: متعلق به، وأحدهما: فاعل بيبلغنّ، أو كلاهما: معطوف على أحد. وقرىء: يبلغانّ، فالألف للتثنية والنون مشدّدة بعد ألف الاثنين، وأحدهما: بدل من الضمير، أو كلاهما: فاعل بفعل محذوف تقديره: أو يبلغ كلاهما. والفاء في «فلا» جواب الشرط.

وقال الزمخشري[٤]: فإن قلت: لو قيل: إمّا يبلغان كلاهما، كان توكيداً لا بدلاً، فمالك زعمت أنه بدل؟ قلت: لأنه معطوف على ما لا يصحّ أن يكون توكيداً للاثنين، فانتظم في حكمه، فوجب أن يكون مثله. فإن قلت: ما ضرّك لو جعلته توكيداً مع كون المعطوف عليه بدلاً [٣٣٠/أ] وعطفت التوكيد على البدل؟ قلت: لو أريد توكيد التّثنية لقيل: كلاهما فحسب[٥]، فلما قيل «أحدهما أو كلاهما» علم أن التوكيد غير مراد فكان بدلاً مثل الأول.

وقال ابن عطية: وعلى هذه القراءة الثالثة - يعني يبلغان - يكون قوله «أحدهما» بدلاً من الضمير في «يبلغان» وهو بدل مقسّم كقول

---

(١) ق: يأتي.

(٢) الكتاب ٣: ٥١٥.

(٣) ق: بما.

(٤) الكشاف ٢: ٤٤٤.

(٥) ق: محسن.

الشاعر[1]: [من الطويل]

وكنت كذي رِجْلين رِجْلٍ صحيحةٍ ورجلٍ رمى فيها الزّمان فشَلَّتِ

انتهى.

ويلزم من قوله أن يكون «كلاهما» معطوفاً على «أحدهما» وهو بدل، والمعطوف على البدل بدل، والبدل مشكل لأنه يلزم منه أن يكون المعطوف عليه بدلاً، وإذا جعلت «أحدهما» بدلاً من الضمير فلا يكون إلا بدل بعض من كل، وإذا عطفت عليه «كلاهما» فلا جائز أن يكون بدل بعض من كلّ، لأن «كلاهما» مرادف للضمير من حيث التثنية، فلا يكون بدل بعض من كلّ، ولا جائز أن يكون بدل كلّ من كلّ، لأن المستفاد من الضمير التثنية، وهو المستفاد من «كلاهما» فلم يفد البدل زيادة على المبدل منه.

وأما قول ابن عطية: وهو بدل مقسم كقول الشاعر: وكنت كذي[2] رجلين.. البيت، فليس [من] بدل التقسيم، لأن شرط ذلك العطف بالواو. وأيضاً فالبدل المقسم لا يصدق المبدل فيه على أحد قسميه، وكلاهما يصدق عليه الضمير وهو المبدل منه، فليس هو من البدل المقسم. وقد ذكرنا تخريجه على إضمار فعل، فيكون «كلاهما» فاعلاً بذلك الفعل.

﴿أُفٍّ﴾ اسم فعل بمعنى أتضجر[3]. ولم يأت اسم فعل بمعنى المضارع إلا قليلاً نحو: أف وأوّه بمعنى أتوجّع. وإذا كان قد نهى أن يستقبلهما بهذه اللفظة الدالّة على الضجر والتبرّم بهما، فالنّهي عمّا هو أشدّ كالشّتم والضّرب

(١) البيت لكثيّر عزّة في ديوانه ص٩٩.
(٢) ق: كذا.
(٣) ق: التضجّر.

هو بجهة الأَوْلى. وفي «أفّ» لغات ذكرت في البحر[١]. ولمّا نهاه تعالى أن يقول لهما ما مدلوله: أتضجرّ منكما، ارتقى إلى النّهي عمّا هو من حيث الوضع أشدّ من «أفّ» وهو نَهْرُهما، وإن كان النّهي عن نهرهما يدلّ عليه النّهي عن قوله «أفّ»، لأنه إذا نهى عن الأدنى كان ذلك نهياً عن الأعلى بجهة الأَوْلى. والمعنى: لا تزجرهما عمّا يتعاطيانه ممّا لا يعجبك.

﴿وَقُل لَّهُمَا﴾ بدل قول أفّ ونهرهما.

﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: جامعاً للمحاسن من البرّ وجودة[٢] اللفظ.

ثم أمره تعالى بالمبالغة في التواضع لهما بقوله ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ وقال القفّال: في تقديره وجهان: أحدهما أن الطائر إذا ضمّ فرخه إليه للتربية، خفض له جناحه. فخَفْضُ الجناح كناية عن حسن التدبير، فكأنه قيل للولد: اكفل والديك بأن تضمّهما إلى نفسك كما فعلا بك [ذلك] حال صغرك. الثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحيه، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه. فصار خَفْضُ الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه.

ثم أمره تعالى بأن يدعو الله تعالى لهما بأن يرحمهما رحمته الباقية، إذ رحمته عليهما لا فناء لها. ثم نبّه على العلّة الموجبة للإحسان إليهما والبرّ بهما واسترحام الله تعالى لهما، وهي تربيتهما له صغيراً، وتلك الحالة مما يزيده إشفاقاً لهما ورحمة؛ إذ هي تذكير بحالة إحسانهما له وقت أن لا يقدر على الإحسان لنفسه. والظاهر أن الكاف في «كما» للتعليل، أي: رب

---

(١) انظر ٦: ٢٣.

(٢) ق: البرّ وغيره وجودة.

ارحمهما لتربيتهما لي وإحسانهما إليّ حالة الصغر والافتقار.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [٣٣٠/ب] أخبر تعالى أنه أعلم بما انطوت عليه الضمائر من قصد عبادة الله تعالى والبرّ بالوالدين. ثم قال ﴿إِن تَكُونُوا صَٰلِحِينَ﴾ أي: ذوي صلاح ثم فرط منكم تقصير في عبادة أو برّ وأَنَبْتُم إلى الخير.

﴿فَإِنَّهُۥ[كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ أي]: غفور لما فرط من هَناتكم. والظاهر أن هذا عامّ في كلّ من فرطت منه جناية ثم تاب منها.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ الآية، لمّا أمر ببرّ الوالدين أمر بصلة القرابة. والظاهر أنه خطاب لمن خوطب بقوله ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء]. والحقّ هنا ما يتعيّن له من صلة الرّحم وسدّ الخلّة والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه. ونهى تعالى عن التبذير، وكانت الجاهلية تنحر إبلها وتتياسر[1] عليها، وتبذّر أموالها في الفخر والسمعة، وتذكر ذلك في أشعارها، فنهى الله تعالى عن النفقة في غير وجوه البرّ وما يقرّب منه تعالى.

﴿كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ وأخوّة الشياطين كونهم قرناءهم في الدنيا، وفي النار في الآخرة. وتدلّ هذه الأخوّة على أنّ التبذير هو في معصية الله تعالى، وكونهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف في الدنيا. وذكر كفران الشيطان لربّه ليُحْذَرَ ولا يطاع، لأنه لا يدعو إلى خير، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر].

(١) تتياسر عليها: تلعب بالقداح.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ قيل: نزلت في ناسٍ من مزينة، استحملوا رسول الله ﷺ فقال «لا أجد ما أحملكم عليه»[١] فبكوا. وروي أنه عليه السلام كان بعد نزول هذه الآية إذا لم يكن عنده ما يعطي وسُئل قال: يرزقنا الله وإياكم من فضله[٢]. فالرحمة على هذا: الرزق المنتظر.

قال الزمخشري[٣]: ويجوز أن يكون «ابتغاء رحمة من ربك» علّة لجواب[٤] الشرط فهو يتعلّق به وقُدّم عليه، أي: فقل لهم قولاً سهلاً ليّناً، وعِدْهم وعداً جميلاً رحمةً لهم وتطييباً لقلوبهم ابتغاء رحمة من ربك، أي: ابْتَغِ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم.انتهى.

ما أجازه لا يجوز لأنّ ما بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبله. لا يجوز في قولك: إن تقم فاضرب زيداً، إن تقم زيداً فاضرب، وهذا منصوص عليه. فإن حذفت الفاء في مثل: إن تقم تضرب خالداً، فمذهب سيبويه والكسائي الجواز فتقول: إن تقم خالداً تضرب، ومذهب الفرّاء المنع. فإن كان معمول الفعل مرفوعاً [نحو: إن تفعل يفعل زيد، فلا يجوز تقديم زيد على أن يكون مرفوعاً] بتفعل هذه وأجاز سيبويه أن يكون مرفوعاً بفعل يفسّره: يفعل، كأنك قلت: إن تفعل يفعل زيد يفعل، ومنع ذلك الكسائي والفرّاء.

﴿فَقُل[٥] لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: مداراة باللسان. ويَسَرَ: يكون لازماً ومتعدّياً، فميسور: من المتعدي، تقول: يَسَرْتُ لك كذا إذا أعددته لك.

---

(١) انظر دلائل النبوة ٥: ٢١٨.

(٢) انظر القرطبي ١٠: ٢٤٩.

(٣) الكشاف ٢: ٤٤٧.

(٤) ق: الجواب.

(٥) ق: وقل.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ الآية، قيل: نزلت في إعطائه صلى الله عليه وسلم قميصه، ولم يكن له غيره وبقي عرياناً. وقيل أعطى الأقرع بن حابس مئة من الإبل وعيينة مثل ذلك والعباس بن مرداس خمسين ثم كملها مئة فنزلت[١]. وهذه استعارة استعير فيها المحسوس للمعقول، وذلك أن البخل معنى قائم في الإنسان يمنعه من التصرّف في ماله، فاستعير له الغلّ الذي هو ضمّ اليد إلى العنق، فامتنع من تصرّف يده وإجالتها حيث يريد. وذكر اليد لأنّ الأخذ بها والإعطاء، واستعير بسط اليد لإذهاب المال، وذلك لأنّ قَبْض اليد يحبس ما فيها وبَسْطها يُذهب ما فيها. طابق في الاستعارة بين بسط اليد وقبضها من حيث المعنى؛ لأنّ جعل اليد مغلولة هو قبضها، وغلّها أبلغ في القبض. وقد طابق بينهما أبو تمام فقال في المعتصم[٢]: [٣٣١/أ]

تعـوّد بسـط الكـف حتـى لـو أنّـه ثنـاهـا لقبـضٍ لـم تُجِبْـهُ أنـاملُـهْ

والظاهر أنه مراد بالخطاب أمّة الرسول عليه السلام، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم كان لا يدّخر شيئاً لغدٍ، وكذلك من كان واثقاً بالله تعالى حتى الوثوق كأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه حيث تصدّق بجميع ماله. وختم ذلك بقوله «خبيراً» وهو العلم بخفيّات الأمور. و«بصيراً» أي: بمصالح عباده حيث يبسط لقوم ويضيّق على قوم.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ تقدّم تفسير نظير صدر هذه الآية[٣]، والفرق بين «خشية إملاق» و«من إملاق»، وبين قوله «نرزقكم وإياهم» وبين

---

(١) انظر لباب النقول ص١٣٦.

(٢) ديوانه ٣: ٢٩.

(٣) وهي قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۝١٥١﴾ [الأنعام]، وانظر تفسير الآية.

قوله «نرزقهم وإياكم».

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ الآية، تقدّم تفسيره في الأنعام[1].

﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبئس طريقاً طريقه، لأنها سبيل تؤدي إلى النار.

وقال ابن عطية: «وساء سبيلاً» نصب على التمييز، التقدير: وساء سبيله سبيلاً انتهى.

وإذا كان «سبيلاً» نصب على التمييز، فإنما هو تمييز للمضمر المستكن في «ساء»، وهو من المضمر الذي يفسّره ما بعده. والمخصوص بالذمّ محذوف، وإذا كان كذلك فلا يكون تقديره: وساء سبيله سبيلاً، لأنه إذ ذاك لا يكون فاعله ضميراً يُراد به الجنس مقيّداً بالتمييز، ويبقى التقدير أيضاً عارياً عن المخصوص بالذّم.

وتقدّم تفسير قوله ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾ في أواخر الأنعام[2]. ولمّا نهى عن قتل الأولاد نهى عن قتل النفس فانتقل من الخاصّ إلى العامّ. والظاهر أن هذه كلها منهيّات مستقلّة ليست مندرجة تحت قوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء] كاندراج «ألاّ تعبدوا».

وانتصب مظلوماً على الحال من الضمير المستكنّ في «قُتل»، والمعنى أنه قُتل بغير الحقّ.

---

(١) لم يتقدّم ذلك.

(٢) انظر تفسير الآية ١٥١ من الأنعام.

﴿ فَقَدْ[1] جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ وهو الطالب لدمه[2] شرعاً.

﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: تسلّطاً وقهراً.

والظاهر النّهي عمّا كانت الجاهلية تفعله من قتل الجماعة بالواحد وقتل غير القاتل والمُثْلة ومكافأة الذي يَقْتل[3] لمن قتله.

والضمير في «إنه» عائد على الولي لتناسق الضمائر. ونَصْره إياه بأن أوجب له القصاص فلا يستزاد[4] على ذلك، أو نصره بمعونة السلطان وبإظهار المؤمنين على استيفاء الحق.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ تقدّم تفسير نظيره في الأنعام[5].

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ عامّ فيما عقده الإنسان بينه وبين ربّه تعالى، أو بينه وبين آدمي في طاعة.

﴿ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ ظاهره أن العهد هو المسؤول من المعاهِد أن يفي له ولا يضيّعه. وقيل هو على حذف مضاف أي: إن ذا العهد كان مسؤولاً إن لم يفِ به. واسم «كان» ضمير يعود على «العهد» أو على ذي العهد. «مسؤولاً» خبر «كان» وفيه ضمير المفعول أي: مسؤولاً هو، أي: عدمَ الإيفاء به.

ثم أمره تعالى بإيفاء الكيل وبالوزن المستقيم وذلك فيما يرجع إلى

---

(١) ق: وقد.

(٢) ق: بدمه.

(٣) ق: والمكافأة التي تقتل.

(٤) ق: بأن وجب.. فلا يسترد.

(٥) انظر تفسير الآية ١٥٢ من الأنعام.

المعاملة بالأموال.

وفي قوله ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ دلالة على أن الكيل هو على البائع لأنه لا يقال ذلك للمشتري. والتقييد بقوله «إذا كلتم» أي: وقت كيلكم على سبيل التأكيد. ولا يتأخر الإيفاء بأن يكيل به بنقصانٍ ما، ثمّ يوفيه بعد ذلك، فلا يتأخر الإيفاء عن وقت الكيل.

[بالقسطاس]: قال ابن عطيّة: واللفظة للمبالغة من القسط انتهى.

لا يجوز [٣٣١/ب] أن يكون من القسط لاختلاف المادّتين؛ لأن القسط مادّته: قسط، وذلك مادته: قَسْطَسَ إلا إن أعتقد زيادة السين أخيراً كسين قُدموس وضُغبوس وعِرفاس[١] فيمكن، لكنه ليس من مواضع زيادة السين المقيسة.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: الإيفاء والوزن، لأنّ فيه تطييب النفوس بالاتّسام بالعدل والإيصال للحقّ.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: عاقبة، إذ لا يبقى على الموفي والوازن[٢] تبعة لا في الدنيا ولا في الآخرة. وهو من المآل، وهو المرجع.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الآية، لمّا أمر تعالى بثلاثة أشياء: بالإيفاء بالعهد والإيفاء بالكيل والوزن بالقسطاس، أتبع ذلك بثلاثة مَنَاهٍ: «ولا تَقْفُ» «ولا تمش» «ولا تجعل». ومعنى «ولا تَقْفُ» لا تتبع ما لا علم لك به من قولٍ أو فعلٍ. نهى أن يقول ما لا يعلم، وأن يعمل بما لا يعلم. ويدخل فيه

---

(١) القدموس: الضخم. والضغبوس: الرجل الضعيف. والعرفاس: الناقة الصبور على السير.

(٢) ق: والوزان.

النّهي عن اتّباع التقليد لأنه اتّباع لما لا يعلم صحته. وقال الكميت[١]:

فــلا أرمــي البــريء بغيــر ذنــب ولا أَقْفُــو الحــواصــن إن قُفينــا[٢]

وفي قوله ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ دليل على أن العلوم مستفادة من الحواسّ ومن العقول. وجاء هذا الترتيب القرآني في البداءة بالسمع ثم يليه البصر ثم الفؤاد. و«أولئك» إشارة إلى «السمع والبصر والفؤاد»، وهو اسم إشارة إلى الجمع المذكر والمؤنث العاقل وغيره.

وتخيّل ابن عطية أن «أولئك» مختصّ بالعاقل فقال: وعبّر عن «السمع والبصر والفؤاد» بأولئك، لأنها حواس لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسؤولة فهي حالة من يعقل.

وليس ما تخيّله صحيحاً بل جميع أسماء الإشارة مثل «أولئك» يشترك فيه المذكر والمؤنث والعاقل وغير العاقل.

قال الزمخشري[٣]: و«عنه» في موضع الرفع بالفاعلية أي: كل واحدٍ منها[٤] كان مسؤولاً عنه. «فمسؤولاً» مسند إلى الجارّ والمجرور كالمغضوب في قوله ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ۝٧﴾ [الفاتحة] يقال للإنسان: لِمَ سمعتَ ما لا يحلّ لك سماعه؟ ولم نظرتَ [إلى] ما لا يحلّ لك النظر إليه، ولم عزمتَ على ما لا تحلّ لك العزيمة عليه؟ انتهى. وهذا الذي ذهب إليه من أنّ «عنه»

(١) البيت في شعر الكميت ٢: ١٣٢. وهو من الوافر

(٢) ق: تفسا.

(٣) الكشاف ٢: ٤٤٩.

(٤) ق: منهما.

في موضع الرفع بالفاعلية ويعني [به] أنه[1] مفعول لم يُسَمَّ فاعله لا يجوز؛ لأن الجارّ والمجرور وما يقام مقام الفاعل من مفعول به ومصدر وظرف بشروطهما جارٍ مجرى الفاعل. [وكما أن الفاعل] لا يجوز تقديمه فكذلك ما جرى مجراه وأقيم مقامه؛ فإذا قلت: غضب عليّ زيد، [فلا يجوز: عليّ زيدٌ غضب، بخلاف: غضبت على زيد] فيجوز: على زيد غضبت.

وقد حكى الاتفاق من النحويين على أنه لا يجوز تقديم الجار والمجرور الذي يقام مقام الفاعل على الفعل أبو جعفر النّحاس، ذكر ذلك في المقنع[2] من تأليفه، فليس «عنه مسؤولاً» «كالمغضوب عليهم» لتقديم الجار والمجرور في «عنه مسؤولاً» وتأخيره في ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ۝٧﴾ [الفاتحة].

وقول الزمخشري: ولم نظرت إلى ما لا يحل لك، أسقط «إلى»[3] وهو لا يجوز إلا إن جاء في ضرورة الشعر، لأنّ نظر يتعدّى بإلى، وكان التركيب: ولم نظرت إلى ما لا يحلّ لك؟ كما قال: انظر إليه، فعدّاه بإلى، و«مسؤولاً» فيه ضمير يعود على «كل» من حيث اللفظ، وهذا الضمير هو المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله. و«عنه» في موضع نصب، والضمير في «عنه» عائد على معنى «أولئك» أي: عن كل واحد مما تقدّم.

وانتصب «مرحاً» على الحال أي: مارحاً[4] كما تقول: [٣٣٢/أ] جاء زيد ركضاً، أي: راكضاً. أو على حذف مضاف أي: ذا مَرَحٍ. والمرح هو

(١) ق: ومعنى أنه.
(٢) انظر تآليفه في الأعلام ١: ٢٠٨. وفي الإنباه ١: ٣٥٢ أن للحسن بن علي الطائي كتاب المقنع في شرح كتاب ابن جني.
(٣) لم يُسقطها الزمخشري، والظاهر أنها سقطت في النسخة التي نقل عنها المصنّف.
(٤) ق: مرحاً.

السّرور [والاغتباط بالراحة والفرح، وكأنه ضمّن معنى الاختيال لأنّ غلبة السرور] والفرح يصحبها التكبّر والاختيال، ولذلك علّل بقوله ﴿إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: لن تجعل فيها خرقاً بدَوْسك لها وشدة وطئك. وانتصب ﴿طُولٗا﴾ على التمييز أي: لن يبلغ[1] طولك الجبال.

والظاهر أن ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر النّهيين السابقين وهما: قَفْوُ ما ليس لك به علم والمشي في الأرض مرحاً. و«سيّئة» خبر «كان» وأنّث؛ ثم قال «مكروهاً» فذكّر. وقرىء: «سيئُهُ»، «فسيئُهُ» اسم «كان» و«مكروهاً» الخبر.

«ذلك» إشارة إلى جميع التكاليف من قوله ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴿٢٢﴾﴾ إلى قوله ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء][2]. وهي أربعة وعشرون نوعاً من التكاليف بعضها أمرٌ وبعضها نَهْيٌ، بدأها بقوله «لا تجعل» واختتم الآيات بقوله «ولا تجعل». وقال «ممّا أوحي» لأنّ ذلك بعض ممّا أوحي إليه؛ إذ أوحي بتكاليف أُخر. و«مما أوحي» خبر عن «ذلك». و«من الحكمة» يجوز أن يكون متعلّقاً «بأوحي»، وأن يكون بدلاً من «ما»، وأن يكون حالاً من الضمير المنصوب المحذوف العائد على «ما». وكانت هذه التكاليف حكمة، لأن حاصلها يرجع إلى الأمر بالتوحيد وأنواع الطاعات والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة، والعقول تدلّ على صحّتها وهي شرائع في جميع الأديان لا تقبل النَّسْخ.

وعن ابن عباس أنّ هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه السلام أوّلها «لا تجعل مع الله إلهاً آخر». قال تعالى ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ

(١) ق: تبلغ.

(٢) الآيات ٢٢-٣٧ السابقة.

﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف]. وكرر تعالى النّهي عن الشّرك؛ ففي النهي الأول ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء] وفي الثاني ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء] والفرق بين مذموم وملوم أنّ كونه مذموماً أن يذكر أن الفعل الذي أقبل عليه قبيح منكر، وكونه ملوماً أن يقال له بعد الفعل وذمّه: لِمَ فعلت كذا وما حملك عليه وما استفدت منه إلا لحاق الضّرر بنفسك؟ فأول الأمر الذّم[1] وآخره اللوم.

والفرق بين «مخذولاً» و«مدحوراً» أنّ المخذول هو المتروك إعانته ونصره والمفوّض إلى نفسه، والمدحور: المطرود المبعَد على سبيل الأهانة له والاستخفاف به. فأول الأمر الخذلان وآخره الطّرد مهاناً. وكان وصف الذّم والخذلان يكون[2] في الدنيا، ووصف اللوم والدّحور يكون في الآخرة ولذلك جاء «فتُلقى في جهنم».

والخطاب بالنهي في هذه الآيات كلّها للسامع غير رسول الله ﷺ.

وقال الزمخشري[3]: ولقد جعل الله تعالى فاتحتها وخاتمتها النّهي عن الشّرك لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها، ومَن عَدِمَها لم تنفعه حكمته وعلومه وإن بذّ[4] فيها الحكماء وحكّ بيافوخه السماء. وما أغنت[5] عن الفلاسفة أسفار الحِكَم وهم عن دين الله أضلّ من النَّعَم.

---

(١) ق: بالذّم.

(٢) ق: لا يكون.

(٣) الكشاف ٢: ٤٥٠.

(٤) أي غلبهم وفاقهم.

(٥) ق: أغنت.

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ الآية، لمّا نبّه تعالى على فساد طريقة من أثبت لله شريكاً ونظيراً، أتبعه بفساد طريقة من أثبت لله ولداً. والاستفهام معناه الإنكار والتوبيخ. والخطاب لمن اعتقد أن الملائكة بنات الله تعالى.

ومعنى «أفأصفاكم» آثركم وخصّكم وهذا كما قال ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الطور][1] ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [النجم] وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم. ومعنى «عظيماً» مبالغاً في المنكر والقبيح حيث أضفتم إليه [٣٣٢/ب] الأولاد[2]، ثم حيث فضّلتم عليه تعالى أنفسكم فجعلتم له ما تكرهون، ثم نسبة الملائكة - الذين هم من شريف ما خلق - إلى الأنوثة.

ومعنى ﴿ صَرَّفْنَا ﴾ نوّعنا من جهة إلى جهة ومن مثال إلى مثال. والتصريف لغةً: صرف الشيء من جهة إلى جهة، ثم صار كناية عن التبيين. وقرىء: ليذّكّروا، أصله من التذكّر، أدغمت التاء في الذال. وقرىء: لِيَذْكُروا، من الذِّكْر.

﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أي: التصريف.

---

(١) ق: أله.

(٢) ق: أولاد.

﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: بعداً وفراراً عن الحق.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ ذكر قولهم إنه تعالى معه آلهة وردّ عليهم.

ومعنى ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ أي: طلبوا متوصّلين.

﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ إلى مغالبته وإفساد ملكه لأنهم شركاؤه كما تفعل الملوك بعضهم مع بعض. والكاف في «كما» في موضع نصب أي: مثلما. وقرىء: تقولون، بتاء الخطاب. ويقولون، بياء الغيبة.

«سبحانه» أي: تنزيهه. «وتعالى» متعلق به «عن» على سبيل الإعمال، إذ يصح «لسبحان» أن يتعلق به «عن». والتّعالي في حقّه تعالى هو بالمكانة لا بالمكان. وعلوّ: مصدر على غير المصدر؛ إذ لو جاء على «تعالى» لكان المصدر تعالياً، لأنّ تفاعل بمعنى الفعل المجرد وهو علا.

ونسبة التسبيح للسماوات والأرض ومن فيهنّ من ملك وإنس وجانّ، حمله بعضهم على النطق بالتسبيح حقيقة، وأنّ ما لا حياة فيه ولا نموّ يُحدث الله تعالى له نطقاً. وهذا هو ظاهر اللفظ، ولذلك جاء ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

قال ابن عطية: ثم أعاد على السماوات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح انتهى.

ويعني بالضمير في قوله «ومن فيهنّ» و[كأنه] تخيّل أنّ هنّ لا يكون إلا لمن يعقل من المؤنثات[1]. وليس كما تخيّل بل هنّ يكون ضمير الجمع المؤنث مطلقاً.

(١) ق: المؤمنات.

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ «إن» نافية، و«من شيء» مبتدأ، و«من» زائدة، وخبره «يسبّح» موجب بعد النّفي.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ حيث لا يعالجكم بالعقوبة على سوء نظركم.

﴿غَفُورًا﴾ إن رجعتم ووحّدتم الله تعالى.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا
مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى
ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ
وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ
ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ
خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى
صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ
بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا﴾ الآية، نزلت[(١)] في أبي سفيان والنضر وأبي جهل وأم جميل امرأة أبي لهب، كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن، فحجب الله تعالى أبصارهم إذا قرأ، فكانوا يمرّون به ولا يرونه. ومناسبتها لما قبلها أنه لمّا ذكر تقرير الألوهية ذكر بعده تقرير النبوّة، وذكر أشياء من أحوال الكفرة وإنكارها وإنكار المعاد. والمعنى: إذا شرعت في القراءة، وليس المعنى على الفراغ من القراءة بل المعنى أنك إذا التبستَ بقراءة القرآن. ولا يراد بالقرآن جميعه بل ما ينطلق

(١) انظر لباب النقول ص١٣٦.

عليه الاسم، فإنك تقول لمن يقرأ شيئاً من القرآن: هذا يقرأ القرآن.

والظاهر إقرار ﴿مَّسْتُورًا﴾ على موضوعه [من كونه] اسم مفعول أي: مستوراً عن أعين الكفّار فلا يرونه، أو مستوراً به الرسول عن أعينهم.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ تقدّم تفسيره في الأنعام[1].

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ قيل: دخل ملأٌ من قريش على أبي طالب يزورونه، فدخل عليهم رسول الله ﷺ فقرأ، ومرّ بالتوحيد فقال: يا معشر قريش: قولوا لا إله إلا الله تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم. فولَّوا ونفروا، فنزلت[2] هذه الآية.

قال الزمخشري[3]: وَحَد يَحِد وَحْداً وحِدَةً نحو: وعد يعد وعداً وعِدَةً. و«وحده» من باب رجع عَوْده على بَدْئه [٣٣٣/أ] وافعله جَهْدك وطاقتك في أنه مصدر سادٌّ مسدّ الحال [أصله يَحِدُ وحده بمعنى واحداً انتهى.

ما ذهب إليه من أن «وحده» مصدر سادّ مسدّ الحال] خلاف مذهب سيبويه، و«وحده» عند سيبويه ليس هو مصدراً بل هو اسم وضع موضع المصدر الموضوع موضع الحال، «فوحده» عنده موضوع موضع إيحاد، وإيحاد موضوع [موضع] موحد. و«وحده» وقع بعد فاعل ومفعول نحو: ضربتُ زيداً [وحده] فمذهب سيبويه أنه حال من الفاعل أي: موحّداً له بالضرب.

ومذهب المبرّد أنه يجوز أن يكون حالاً من المفعول. فعلى مذهب

(١) انظر تفسير الآية ٢٥ من الأنعام.
(٢) انظر تفسير القرطبي ١٠ : ٢٧٢.
(٣) الكشاف ٢ : ٤٥٢.

سيبويه يكون التقدير: موحِّداً له بالذّكر، وعلى مذهب المبرّد يكون التقدير: موحَّداً بالذكر.

والظاهر أن الآية في حال الفارّين عنه وقت قراءته القرآن ومروره بتوحيد الله تعالى. والمعنى: إذا جاء في قراءته مواضع التوحيد، فرّ الكفّار إنكاراً له واستبشاعاً لرفض آلهتهم واطّراحها.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: بالاستخفاف الذي يستمعون به والهزء بك وبالقرآن واللغو. كان إذا قرأ صلى الله عليه وسلم قام رجلان من بني عبدالله عن يمينه ورجلان منهم عن يساره فيصفّقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار.

و«بما» متعلّق «بأعلم». و«به» متعلق «بيستمعون» لمّا ضُمّن «يستمعون» معنى يستهزئون عُدّي بالباء. و«إليك» متعلق «بيستمعون» الثانية. و«إذ» الثانية بدل من الأولى. و«نجوى» على إضمار: هم نجوى أي: ذوو نجوى. و«إن» في «إن تتبعون» نافية والجملة في موضع مفعول «بيقول».

وروي أنّ تناجيهم كان عند عتبة، دعاهم - أي: أشرافَ قريش - إلى طعام، فدخل عليهم النبي ﷺ وقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله تعالى، فتناجوا يقولون: ساحر مجنون. والظاهر أن «مسحوراً» من السحر، أي: خبل عقله [السحر].

و«الأمثال» هي ما تقدّم من قولهم في تناجيهم.

﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ أي: إلى الإيمان.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا﴾ استفهام تعجّب وإنكار واستبعاد. لمّا ضربوا له الأمثال وقالوا عنه إنه مسحور، ذكروا ما استدلّوا به على زعمهم على اتّصافه بما نسبوا إليه، واستبعدوا أنه بعدما يصير الإنسان رفاتاً يحييه الله تعالى ويعيده.

وقد ردّ عليهم ذلك بأنه تعالى هو الذي فطرهم بعد العدم الصّرف، على ما يأتي شرحه في الآية بعد هذا.

وجواب «إذا» محذوف تقديره: أئذا كنا عظاماً ورفاتاً نبعث. رفت الشيء: كسره يرْفِتُه بالكسر، والرُّفات: الأجزاء المفتّتة من كل شيء مكسّر. وفُعال بناء لهذا المعنى كالحطام والفُتات والرُّضاض[1] والرُّقاق.

﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ الآية، أي: كونوا حجارة يابسة أو حديداً، مع أن طباعها القساوة والصلابة، لكان قادراً على أن يردّكم إلى حال الحياة.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه فإنه يحييه.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: يحرّكونها على سبيل التكذيب والاستبعاد.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي: متى العَوْد، ولم يقولوا ذلك على سبيل التسليم للعود ولكن حيدةً وانتقالاً لما لا يُسأل عنه؛ لأنّ ما ثبت إمكانه بدليل العقل لا يُسأل عن تعيين وقوعه، ولكن أجابهم على سؤالهم بقرب وقوعه لا بتعيين زمانه، لأنّ ذلك مما استأثر الله تعالى بعلمه.

واحتمل أن يكون في «عسى» إضمار، أي: عسى هو أي: العَوْد. واحتمل أن يكون [٣٣٣/ ب] مرفوعها «أن يكون» فتكون فيه تامّة.

ووقع في لفظ ابن عطية: عسى أنّ الساعة قريبة انتهى.

وهذا تركيب لا يجوز، لا تقول: عسى أن زيداً قائم، بخلاف: عسى أن

(١) رُضاض الشيء: فُتاته.

يقوم زيد. و«قريبا» يحتمل أن يكون خبر كان على أنه يكون العود متّصفاً بالقرب. ويحتمل أن يكون ظرفاً أي: زماناً قريباً، وعلى هذا التقدير يكون «يوم يدعوكم» بدلاً من «قريباً». والظاهر أن الدعاء حقيقة أي: يدعوكم بالنداء الذي يُسمعكم وهو النفخة الأخيرة، كما قال تعالى ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق].

ومعنى «فتستجيبون» توافقون الداعي فيما دعاكم إليه. والظاهر أن الخطاب للكفار، إذ الكلام قبل ذلك معهم، فالضمير لهم. و«بحمده» حال منهم أي: ملتبسين[١] بالثناء عليه تعالى.

﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ و«إنْ» هنا نافية. و«تظنون» معلّقة[٢] عن العمل فالجملة بعده في موضع نصب. وقلّما ذكر النحويون في أدوات التعليق إنْ النافية. ويظهر أن انتصاب «قليلا» على أنه نعت لزمان محذوف أي: إلا زماناً قليلا، كقوله[٣] ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴿١٩﴾﴾ [الكهف]. ويجوز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف أي: لبثنا لبثاً قليلا، ودلالة الفعل على مصدره دلالة قوية.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ الآية، إضافة العباد له تعالى [تدلّ] على أن المأمورين هم المؤمنون، أُمروا أن يقول بعضهم لبعض الكلم التي هي

(١) ق: ملتبثين.

(٢) ق: متعلقة.

(٣) ق: لقوله.

أحسن، أي: يجلّ بعضهم بعضاً ويعظّمه، ولا يصدر له منه إلا الكلم الطيب والقول الجميل. ونُبّهوا على أنه قد يكون من الشيطان نزغ لهم فيتجنّبوه، ذُكّروا بعداوته القديمة لهم.

والخطاب بقوله ﴿رَّبُّكُمْ﴾ للمؤمنين. فالرحمة: الإنجاء من الكفار وأذاهم. والتعذيب: تسليطهم عليهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً وكفيلا.

ولمّا خاطبهم تعالى بقوله «ربكم[1] أعلم بكم» انتقل من الخصوص إلى العموم، فقال مخاطباً لرسوله عليه السلام ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليبيّن أنّ علمه غير مقصور عليكم؛ بل علمه متعلق بجميع من في السماوات والأرض بأحوالهم ومقاديرهم وما يستأهل[2] كل واحد منهم. و«بمن» متعلق «بأعلم» كما تعلّق «بكم» قبله «بأعلم». ولمّا كان الكفار قد استبعدوا تنبئة البشر - إذ فيه تفضيل الأنبياء على غيرهم - أخبر تعالى بتفضيل بعض الأنبياء على بعض، إشارة إلى أنه لا يستبعد تفضيل الأنبياء على غيرهم إذ قد وقع التفضيل في هذا الجنس المفضّل على الناس. والله تعالى أعلم بما خصّ كل واحد به من المزايا، فهو يفضّل من يشاء منهم على من شاء إذ هو الحكيم، فلا يصدر شيء إلا عن حكمته.

وفيه إشارة إلى أنه لا يستنكر تفضيل محمد ﷺ على سائر الأنبياء، وخصّ داود بالذّكر هنا لأنه تعالى ذكر في الزبور أن محمداً خاتم النبيين، وأن أمته خير الأمم، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا

(١) ق: ربّه.

(٢) ق: يتساهل.

عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء] وهم محمد ﷺ وأمّته.

وكانت قريش ترجع إلى اليهود كثيراً فيما يخبرون به ممّا في كتبهم، فنبّه على أن زبور داود تضمّن البشارة بمحمد ﷺ. وفي ذلك ردٌّ على مكابري اليهود حيث قالوا: لا نبيّ بعد موسى، ولا كتاب بعد التوراة. ونصّ تعالى هنا على إيتاء داود الزّبور وإن كان قد آتاه مع ذلك الملك، إشارةً إلى أن التفضيل المحض هو بالعلم الذي آتاه والكتاب الذي أنزل عليه، كما فضّل محمداً(1) ﷺ بما آتاه [٣٣٤/أ] من العلم والقرآن الذي خصّه به.

وتقدّم تفسير ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ في آخر النساء(2).

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ الآية، قيل: نزلت في عبدة الشياطين، وهم خزاعة أسلمت الشياطين وبقوا يعبدونهم.

(1) ق: محمد.

(2) انظر تفسير الآية ١٦٣ من النساء.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾[1] [جواب لقوله «ادعوا». وثَمّ محذوف بعد الفاء تقديره: فهم لا يستطيعون]. والمعنى: لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضرّ من مرض أو فقر أو عذاب، ولا أن يحوّلوه من واحد إلى آخر ويبدّلوه. وفي قوله «زعمتم» ضمير محذوف عائد على «الذين» وهو المفعول الأول، والثاني محذوف تقديره: زعمتموهم آلهةً من دون الله.

والظاهر أن «أولئك» إشارة إلى المعبودين وهو مبتدأ، و«الذين» صفة له، و«يدعون» صلة «للذّين»، والواو للعابدين، والضمير العائد على «الذين» محذوف تقديره: يدعونهم آلهةً. و«يبتغون» خبر «أولئك». و«الوسيلة» القرب إلى الله تعالى.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أجاز الحوفي أن يكون بدلاً من الواو في «يبتغون» وتبعه الزمخشري[2]، فعلى هذا يكون «أيهم» موصولاً، و«أقرب» خبر مبتدأ، التقدير: يبتغي الذين هم أقرب إلى ربّهم الوسيلة.

وأجاز أيضاً أن يكون «أيّهم أقرب» مبتدأ وخبراً على الاستفهام، ومقدّراً قبله[3] الفعل المعلّق وهو[4] ينظرون. وقال نحوه ابن عطية. والجملة في موضع نصب على إسقاط: في، إن كان من نظر القلب، وإلى، إن كان من نظر البصر. وإضمار الفعل المعلّق يحتاج إلى سماع.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ معطوف على «يبتغون».

---

(١) ق: يستطيعون.

(٢) انظر الكشاف ٢: ٤٥٤.

(٣) ق: قبل.

(٤) ق: وهم.

﴿مَحْذُورًا﴾ يحذره كل أحد.

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ «إنْ» نافية، و«من» زائدة في المبتدأ، تدلّ على استغراق الجنس. والجملة بعد «إلاّ» خبر. وقيل: المراد الخصوص، التقدير: وإن من قرية ظالمة، والظاهر أن جميع القرى تهلك قبل يوم القيامة، وإهلاكها تخريبها وفناء أهلها.

﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ أي: معذّبو أهلها بالقتل وأنواع العذاب.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإهلاك والتعذيب.

﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في سابق القضاء أو اللوح المحفوظ [«مسطوراً»] أي: مكتوباً أسطاراً.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ عن ابن عباس أنّ أهل مكّة سألوا أن يجعل لهم الصّفا ذهباً، وأن ينحّي عنهم الجبال فيزرعون، اقترحوا ذلك على رسول الله ﷺ. فأوحى الله تعالى إليه: إن شئتَ أفعل ذلك لهم، فإن تأخّروا عاجلتهم بالعقوبة، وإن شئتَ استأنيت بهم، عسى أن أجتبي منهم مؤمنين. فقال: بل تستأني بهم يا ربّ فنزلت[١].

واستعير المنع للتَّرك، أي: ما تركْنا إرسال الآيات المقترحة إلا لتكذيب الأولين بها. وليس تكذيب الأولين علّة في منع إرسال الآيات لقريش، فالمعنى: إلاّ اتّباعهم طريقة تكذيب الأولين بها. فتكذيب الأولين: فاعل على حذف مضاف، فإذا كذّبوا بها كما كذّب الأولون، عاجلتهم بعذاب الاستئصال، وقد اقتضت الحكمة أن لا أستأصلهم.

---

(١) انظر أسباب النزول ص١٩٥.

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأوّلون ثم كذّبوا بها لمّا أُرسلت إليهم فأهلكوا، واحدة وهي ناقة صالح، لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم، يبصرها صادرهم وواردهم. وانتصب «مبصرة» على الحال وهي قراءة الجمهور. وقرىء: مبصِرةٌ، بالرفع على إضمار مبتدأ أي: هي مبصِرة، وأضاف الإبصار إليها على سبيل المجاز لما كانت تبصرها الناس، والتقدير: آية مبصرة. وقرىء: مبصَرةً، بفتح الصاد اسم مفعول يبصرها الناس ويشاهدونها.

﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي: إنذاراً بعذاب الدنيا والآخرة.

[٣٣٤/ب] «وإذ قلنا لك» الآية، «أحاط بالناس» فقيل بعلمه فلا يخرج شيء عن علمه، وبقدرته، فقدرته غالبة كل شيء.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ قال الجمهور: هي رؤيا عين ويقظة، وهي ما رأى في ليلة الإسراء من العجائب. قال الكفّار: إنّ هذا لعجب! نسير لبيت المقدس شهرين إقبالاً وإدباراً، ويقول محمد: جاءه من ليلته وانصرف منه!. فافتتن بهذا التلبيس قوم من ضعفاء المسلمين فارتدّوا. وشقّ ذلك على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية(١).

وقيل في الرؤيا غير ذلك ممّا هو مذكور في البحر(٢). قال ابن عطية: قالت عائشة: الرؤيا رؤيا منام. وهذه الآية تقضي بفساده؛ وذلك أنّ رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها.انتهى.

ليس كما قال ابن عطية فإن رؤيا الأنبياء حقّ، ويخبر النبي بوقوع ذلك لا

(١) انظر لباب النقول ص١٣٧.
(٢) انظر ٦ : ٥٤.

محالة، فيصير إخباره فتنة لمن يريد الله به ذلك.

و﴿أَرَيْنَكَ﴾ صلة «للّتي» والعائد محذوف تقديره: أريناكها.

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾ قيل هي أبو جهل، وقيل شجرة الزّقوم. وقال أبو جهل[1] وغيره: هذا محمد يتوعّدكم بنارٍ تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر، والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزّقوم إلا التّمر بالزّبد. ثم أمر أبو جهل جارية له، فأحضر تمراً وزبداً وقال لأصحابه: تزقّموا؛ فافتتن أيضاً بهذه المقالة بعض الضعفاء. والظاهر أن «الشجرة الملعونة في القرآن» هي التي تفرّع منها ناس في الملّة الإسلامية وهم ظالمون قد أحدثوا من الشريعة ما لا يجوز فيها، ويدلّ عليه قوله تعالى ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝١٨﴾ [هود]. وسئل الإمام أحمد عن شخص منهم هل تلعنه؟ فقال: هل رأيتني ألعن أحداً؟ ثم قال: ما لي لا ألعن من لعنه الله تعالى في كتابه، وتلا ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝١٨﴾ [هود].

﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: التخويف إلا طغياناً كبيراً.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ۝٦٣ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾.

---

(١) انظر أسباب النزول ص١٩٥.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تقدم الكلام في مثل هذه الآية[١].

وانتصب «طينا» على أنه حال من الضمير المحذوف العائد على «مَن» تقديره: لمن خلقته في حال طين، وهي حال ماضية محكية. وأجاز بعضهم أن يكون منصوباً على إسقاط حرف الجر، تقديره: من طين، كمَا صرّح به في قوله ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف].

والكاف في «أرأيتك» للخطاب، وتقدّم الكلام عليها في سورة الأنعام[٢].

وقال الحوفي: «أرأيتك» بمعنى عرِّفْني وأخبِرْني. و«هذا» منصوب «بأرأيتك». والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كرّمتَه عليّ لِمَ كرّمتَه عليّ وقد ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف]. وحذف هذا لما في الكلام من الدليل عليه. وقال نحواً منه الزّمخشري[٣].

وقال ابن عطية: والكاف في «أرأيتك» حرف خطاب ومبالغة في التنبيه، لا موضع لها من الإعراب، فهي زائدة. ومعنى أرأيت: أتأمّلت ونحوه[٤]، كأن المخاطِب بها ينبّه المخاطَب، ليستجمع لما ينصّه عليه بعد.

وقال سيبويه[٥]: هي بمعنى أخبرني، ومثّل بقوله: أرأيتك زيداً أبو من هو.

وقاله الزّجاج، ولم يمثّل: وقول سيبويه صحيح حيث يكون بعدها استفهام كمثاله، وأمّا في هذه الآية فهي كما قلت، وليست التي ذكر سيبويه، انتهى.

---

(١) انظر تفسير الآية ٣٤ من البقرة.
(٢) انظر تفسير الآية ٤٠ من الأنعام.
(٣) انظر الكشاف ٢: ٤٥٦.
(٤) ق: ونحو.
(٥) الكتاب ١: ٢٣٩.

وما ذهب إليه الحوفي والزمخشري في «أرأيتك» هنا هو الصحيح، ولذلك قدّر الاستفهام وهو: لِمَ كرّمته عليّ. فقد انعقد من قوله: هذا الذي كرّمت عليّ، لِمَ كرّمته عليّ، جملة من مبتدأ وخبر، وصار مثل: زيد أبو من هو؟. دخلت عليه «أرأيتك» فعملت في الأول والجملة الاستفهامية في موضع الثاني.

والمستقرّ[1] في: أرأيت [٣٣٥/أ] بمعنى أخبرني، أن يدخل على جملة ابتدائية، يكون الخبر استفهاماً، فإن صُرّح به فذاك واضح، وإن قُدّر، فقد أشبعنا الكلام في ذلك في الأنعام[2].

ومعنى ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ﴾ أي: أخّرت مماتي وأبقيتني حيًّا. واللام مؤذنة بقسم محذوف، وقد صرّح هو في مكان آخر بالمُقْسَم به، فقال ﴿فَبِعِزَّتِكَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص]. وجواب القسم ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ تقول العرب: احتنك الجراد الأرض: أكل نباتها، ولذلك[3] فسّره بعضهم بمعنى لأستأصلنّ. واستثنى القليل لأنه علم أنه يكون في ذرّية آدم عليه السلام من لا يتسلّط عليه كما قال ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر].

والأمر بالذّهاب ليس على حقيقته من نقيض المجيء، والمعنى اذهب لشأنك الذي اخترته. وعقبه [بذكر] ما جرّه سوء فعله من جزائه وجزاء أتباعه: جهنم. ولمّا تقدم اسم غائب وهو «فمن تبعك» وضمير خطاب، غَلَّب الخطاب فقال «جزاؤكم». والموفور: المكمل. ووفر متعدٍّ

(١) ق: والمستتر.
(٢) انظر تفسير الآية ٤٠ من الأنعام.
(٣) ق: وكذلك. وفيه وجه.

كقوله[١]: [من الطويل]

ومن يجعلِ المعروف من دون عرضه يَفِرْه ومن لا يتّق الشتم يُشتَمِ

ولازم، تقول: وفر المالُ يَفِرُ وفوراً.

وانتصب «جزاء» على المصدر والعامل فيه «جزاؤكم».

﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ معناه استخفف[٢]، وهو معطوف على «اذهب»[٣] وعطف عليه ما بعده من الأمر، وكلّها بمعنى التهديد كقوله تعالى ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ۝٤٠﴾ [فصلت]. و«مَن» في ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ﴾ موصولة مفعولة «باستفزز». ومفعول «استطعت» محذوف تقديره: من استطعت أن تستفزّه[٤].

والصوت هنا: الدّعاء إلى معصية الله. وقرأ الحسن: واجلُب، بوصل الألف وضمّ اللام مِن جَلَب ثلاثيًّا. وأَجلِبْ، مِن أجلب على قراءة الجمهور رباعيًّا.

والظاهر أن إبليس له خيل، ورجاله من الجن من جنسه، قاله قتادة. وقيل من الآدميين أضيفوا إليه لانخراطهم في طاعته وكونهم أعوانه على غيرهم قاله مجاهد.

وقال الزمخشري[٥]: فإن قلت: ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلابه

(١) البيت لزهير في ديوانه ص٣٠.
(٢) ق: التخفف.
(٣) ق: فاذهب.
(٤) ق: تستفززه.
(٥) الكشاف ٢: ٤٥٦.

بخيله ورَجِله؟ قلت: هو كلام وارد[1] مورد التمثيل؛ مثّلت حاله في تسليطه على من يغويه بمغوارٍ وقع على قوم، فصوّت بهم صوتاً، يستفزّهم من أماكنهم، ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيّالة ورجالة حتى استأصلهم انتهى.

وقرأ الجمهور: ورَجْلك، بفتح الراء وسكون الجيم، وهو اسم جمع، واحده راجل كرَكْب وراكب. وقرأ حفص بكسر الجيم.

والمشاركة في الأموال ما أخذ من غير حقّه وما وضع في غير حقّه. والمشاركة في الأولاد ما مجّسوه وهوّدوه ونصّروه وصبغوه غير صبغة الإسلام. وأمّا وعده فالوعد الكاذب كوَعْدهم أنْ لا بَعْث.

وانتصب «غروراً» وهو مصدر، على أنه نعت لمصدر محذوف أي: وعداً غروراً.

والإضافة إليه تعالى في «إن عبادي» إضافة تشريف، والمعنى: المختصّين بكونهم عبادي لا يضافون إلى غيري.

ومعنى ﴿وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً لعباده الذين ليس له عليهم سلطان من إغواء الشيطان.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ

(١) ق: قادر.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى وصف المشركين في اعتقادهم آلهتهم، وأنها تضرّ وتنفع، وأتبع ذلك بقصّة إبليس مع آدم وتمكينه من وسوسة ذرّيته وتسويله، ذكر ما يدل من أفعاله على وحدانيته تعالى، وأنّه هو النافع الضّار المتصرّف في خلقه بما يشاء، فذكر إحسانه إليهم بحراً وبرًّا.

وإزجاء [٣٣٥/ب] الفلك: سوقها من مكان إلى مكان بالريح اللينة والمجاديف[١]. وابتغاء الفضل: طلب التجارة والحج فيه والغزو.

و﴿ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ الخوف من الغرق باضطرابه وعصف الريح.

ومعنى ﴿ضَلَّ﴾ ذهب عن أوهامكم من تدعونه إلهاً، فيشفع أو ينفع. وجاءت صفة كفور دلالة على المبالغة، ثم لم يخاطبهم بذلك، بل أسند ذلك إلى الإنسان لطفاً بهم وإحالة على الجنس؛ إذ كل واحد لا يكاد يؤدي شكر نعم الله تعالى.

ولمّا كان الخسف تغييباً في التراب قال «جانب البر». و«بكم» حال أي: يخسف جانب البرّ مصحوباً بكم. والحاصب: الحجارة. «ثم لا تجدوا» عند حلول أحد هذين بكم من توكلون أموركم إليه.

و«أم» في ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ منقطعة تتقدّر ببل والهمزة، أي: بل أأمنتم.

---

(١) وبالذّال أيضاً.

والضمير في «فيه» عائد على البحر. وانتصب «تارة» على الظرف أي: وقتاً غير الوقت الأول.

﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ ﴾ والقاصف: الذي يكسر كلّ ما يلقى، ويقال: قصف الشجر يقصفه قصفاً: كسره. وقال أبو تمام[1]: [من البسيط]

إنّ الرياح إذا ما أعصفَتْ[2] قصفَتْ عيـدانَ نجـدٍ ولا يعبـأنَ بـالـرَّتَـمِ

والباء في ﴿ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ سببية، و«ما» مصدرية أي: بسبب كفركم السابق منكم. والضمير في «به» عائد على المصدر الدالّ عليه «فيغرقكم» إذ هو أقرب مذكور وهو نتيجة الإرسال. والتّبيع: قال ابن عباس: النّصير، وقال الفرّاء[3]: طالب الثأر.

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى ما امتنّ به عليهم من إزجاء الفلك ومن تنجيتهم من الغرق، تمّم ذكر المنّة بذكر تكريمهم ورزقهم وتفضيلهم. وكرّم معدّى بالتضعيف من كَرَم، أي: جعلناهم ذوي كرم بمعنى الشرف والمحاسن الجمّة.

﴿ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ قال ابن عباس: في البرّ على الخيل والبغال والحمير والإبل، وفي البحر على السفن.

و«الطَّيِّبات» كما تقدّم[4]: الحلال أو المستلذّ.

---

(١) ديوان أبي تمام ٣: ٢٨٠.

(٢) ق: عصفت.

(٣) ق: وقا. معاني القرآن ٢: ١٢٧.

(٤) انظر تفسير الآية ٩٣ من يونس.

ومعنى ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ أبهم في قوله «على كثير» ولم يعيّن الكثير الذي فَضَّل بني[1] آدم عليه.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

ولمّا ذكر تعالى أنواعاً من كرامات الإنسان في الدنيا ذكر أشياء من أحوال الآخرة فقال ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾. والعامل في «يوم» اذكُرْ، على أنه مفعول به. «بإمامهم» الظاهر[2] أنه الإمام الذي يأتمّ به أمّته من نبيّ أو كتاب أو شريعة.

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ جاء جمعاً على معنى مَن؛ إذ قد حمل على اللفظ أولاً فأفرد في قوله ﴿ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾. والكتاب ما كُتب له فيه من خير وشر.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: لا ينقصون أدنى شيء. وتقدّم شرح الفتيل في سورة النساء[3].

(١) ق: بنو.
(٢) ق: والظاهر.
(٣) لم يتقدم شرحه في الآيتين ٤٩، ٧٧ اللتين ورد ذكر الفتيل فيهما في النساء.

والظاهر أن الإشارة بقوله ﴿فِي هَٰذِهِۦٓ﴾ إلى الدنيا قاله ابن عباس وغيره، أي: من كان في هذه الدار أعمى عن النظر في آيات الله تعالى وعبره والإيمان بأنبيائه.

﴿فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ إمّا أن يكون على حذف مضاف أي: في شأن الآخرة، وإما أن يكون: فهو يوم القيامة أعمى على معنى أنه حيران لا يتوجّه له صواب، ولا يلوح له نجح.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الضمير في «وإن كادوا» عائد على الكفار. ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لمّا عدّد نعمه على بني آدم، ثم ذكر حالهم في الآخرة من إيتاء الكتاب باليمين لأهل السعادة، ومن عمل أهل الشقاوة، أتبع ذلك بما يهمّ به الأشقياء في الدنيا من المكر والخداع والتّلبيس على سيّد أهل السعادة المقطوع له بالعصمة. ومعنى «ليفتنونك» ليخدعونك، وذلك في ظنّهم، لا أنهم قاربوا ذلك إذ هو معصوم عليه السلام أن يقاربوا فتنته عمّا[1] أوحى الله تعالى إليه. وتلك المقاربة في زعمهم سببها [٢٣٦/أ] رجاؤهم أن يفتري على الله تعالى غير ما أوحى الله تعالى إليه، من تبديل الوعد وعيداً[2] أو الوعيد وعداً، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله تعالى ما لم ينزّله عليه. و«إنْ» هذه هي المخفّفة من الثقيلة وَلِيَتْها الجملة الفعلية وهي «كادوا» لأنّها[3] من أفعال المقاربة. وإنما تدخل - على مذهب البصريين - من الأفعال على النواسخ التي للإثبات، على ما تقرّر في علم النحو. واللام في «ليفتنونك» هي الفارقة بين إنْ هذه وإنْ النافية.

(١) ق: فتنة ما.

(٢) ق: وعيد.

(٣) ق: لا أنها.

﴿وَإِذًا﴾ حرف جواب وجزاء. ويقدّر قَسَم هنا يكون «لاتّخذوك» جواباً له والتقدير: والله إذاً، أي: [إن] افتتنت أو افتريت لاتّخذوك.

و﴿ لَّاتَّخَذُوكَ﴾ في معنى ليتّخذونك.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ جواب «لولا» يقتضي إذا كان مثبتاً امتناعه لوجود ما قبله؛ فمقاربة الركون لم تقع منه عليه السلام، فضلاً عن الركون، والمانع من ذلك هو وجود تثبيت الله تعالى له. وانتصب «شيئا» على المصدر. وجواب «لولا» قوله «لقد كدت» ومثله قول الشاعر[١]: [من البسيط]

لولا الأمير ولولا فضل طاعته   لقد شربت دماً أحلى من العسل

وأكثر ما يجيء باللام وحدها وبعدها الفعل الماضي المثبت كقوله ﴿لَمَسَّكُمْ (٦٨)﴾ [الأنفال].

﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ أي: عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفَيْن.

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ روي أنه لمّا نزلت قال رسول الله ﷺ «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[٢]. والضمير في «وإن كادوا» ليهود المدينة وناحيتها كحييّ بن أخطب وغيره، وذلك أنهم ذهبوا إلى المكر برسول الله ﷺ فقالوا: إن هذه ليست بأرض الأنبياء وإنما أرض الأنبياء الشام، ولكنك تخاف الرّوم. فإن كنت نبيًّا فاخرج إليها فإن الله[٣] سيحميك كما حمى غيرك

(١) لم أجده.
(٢) أخرجه أحمد ٥ : ٤٢ من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة.
(٣) ق : فإن كان الله.

من الأنبياء فنزلت[١]. وأخبر تعالى أنه لو خرج لم يُلْبِثْهم بعده إلا قليلاً.

وانتصب «سنة» على المصدر المؤكد أي: سنّ الله ذلك سنة. والمعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم فسنّة الله تعالى أن يهلكهم بعد إخراجه ويستأصلهم ولا يقيمون بعده إلا قليلا، كقوله في قصة شعيب[٢]، وقوله ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل] وقوله ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء][٣]. وقوله ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ﴾ نظير قوله ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء][٤].

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر كيدهم لرسول الله ﷺ وما كانوا يرمون به، أمره تعالى أن يقبل على شأنه من عبادة ربه وأن لا يشغل[٥] قلبه بهم. وكان قد تقدم القول في الإلهيّات

(١) انظر أسباب النزول ص١٩٦.
(٢) انظر الآية ٩٤ من الأعراف وتفسيرها.
(٣) ق: ولتكونن.
(٤) ق: يأتون.
(٥) ق: يغشل.

والمعاد والنبوّات، فأردف ذلك بالأمر بأشرف العبادات والطاعات بعد الإيمان، وهي الصلاة. وتقدّم الكلام في إقامة الصلاة[١]. والمواجَه[٢] بالأمر الرسول عليه السلام.

قال الواحدي: اللام للسبب لأنها إنما تجب بزوال الشمس، فيجب على المصلّي إقامتها لأجل دلوك الشمس.

وقال ابن عطية: «أقم الصلاة» الآية، هذه بإجماع المفسرين إشارة إلى الصّلوات [الخمس] المفروضة.

وقال ابن عباس[٣] وغيره: دلوك الشمس: زوالها، والإشارة إلى الظهر والعصر، و«غسق الليل» إشارة إلى المغرب والعشاء، «وقرآن الفجر» أريد به صلاة الصبح. فالآية على هذه تعمّ جميع الصلوات كلها. وأعاد «قرآن الفجر» في قوله [٢٣٦/ ب] ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ ولم يأت مضمراً فيكون على سبيل التعظيم والتنويه بقرآن الفجر.

ومعنى ﴿مَشْهُودًا﴾ أي: تشهده الملائكة حَفَظَة الليل وحفظة النهار كما جاء في الحديث[٤] «إنهم يتعاقبون ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر».

ولمّا أمره تعالى بإقامة الصلاة للوقت المذكور، ولم يَدُلَّ أمره تعالى إياه على اختصاصه بذلك دون أمّته، ذكر ما اختصّه به تعالى وأوجبه عليه من

(١) انظر تفسير الآية ٤٣ من البقرة.
(٢) ق: والمواجهة.
(٣) ابن عباس: مكررة في ق.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١: ٤٣٩ من حديث أبي هريرة.

قيام الليل، وهو[١] في أمّته تطوّع فقال «ومن الليل فتهجد به» أي: بالقرآن في الصلاة. «نافلة» زيادة مخصوصاً بها أنت. و«تهجّد» هنا تفعَّل بمعنى الإزالة والتّرك كقولهم: تأثم وتحنّث: ترك التأثّم والتحنّث، ومنه: تحنّث بغار حراء أي: ترك[٢] التحنّث، وشرح بلازمه وهو التعبّد. و«ومن» للتبعيض. و«عسى» مدلولها في المحبوبات في الترجّي، والأجود أن هذه الترجية والإطماع بمعنى الوجوب من الله تعالى. وهو متعلق من حيث المعنى بقوله «فتهجّد». و«عسى» هنا تامّة وفاعلها «أن يبعثك» و«ربك» فاعل «يبعثك». و«مقاماً» الظاهر أنه معمول «ليبعثك» وهو منصوب على الظرف أي: في مقام محمود.

ولا يجوز أن يكون «ربك» اسم «عسى» و«أن يبعثك» في موضع الخبر لأنه يلزم من ذلك الفصل [بين العامل الذي هو «أن يبعثك» وبين المعمول الذي هو «مقاماً»] بأجنبي وهو «ربك» الذي هو اسم «عسى». وعن أبي هريرة أنه عليه السلام قال[٣] «المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي».

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآية، لمّا أمره تعالى بإقامة الصلاة وبالتّهجد ووعده ببعثه مقاماً محموداً، وذلك في الآخرة - أمره أن يدعوه بما يشمل أموره الدّنْياويّة والأخراوية فقال «وقل رب أدخلني» الآية. والظاهر أنه عام في جميع أموره ومصادره دنيا وآخرة. والصدق هنا لفظ يقتضي رفع المذامّ واستيعاب المدح كما تقول: رجل صدق، إذ هو مقابل رجل سوء.

(١) ق: وهي.

(٢) ق: تترك.

(٣) أخرجه أبو نعيم والبيهقي من حديث أبي هريرة، انظر صحيح الجامع الصغير ٦: ٢٠.

و﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجّة بيّنة.

و﴿نَّصِيرًا﴾ مبالغة في ناصر.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ «الحق»: القرآن. و﴿ٱلْبَٰطِلُ﴾: الشيطان. وهذه الآية نزلت بمكّة، ثم إن رسول الله ﷺ كان يستشهد بها يوم فتح مكة وقت طعنه الأصنام وسقوطها لطعنه إياها بالمِخْصَرة حسبما ذكر في السِّير[1].

و﴿زَهُوقًا﴾ صفة مبالغة في اضمحلاله وعدم ثبوته في وقت ما.

و«مِن» في ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ لابتداء الغاية.

وقال ابن عطية والزمخشري[2]: «من القرآن»: «من» لبيان الجنس. ووافقهما أبو البقاء[3]. وقد ذكرنا[4] أن مِن التي لبيان الجنس لا تتقدّم على المبهم الذي بيّنَتْهُ وإنما تكون متأخرة عنه. وشفاؤه كونه مزيلاً للرّيب كاشفاً عن غطاء القلب لفهم المعجزات والأمور الدالّة على الله تعالى المقرّرة[5] لدينه، فصار لعلّات القلوب كالشفاء لعلّات الأجسام، و«خساراً» للظالمين - وهم الذين يضعون الشيء في غير موضعه - هو بإعراضهم عنه وعدم تدبّره، بخلاف المؤمن فإنه يزداد بالنظر فيه والتدبّر في معانيه إيماناً.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ لما ذكر تعالى تنويع ما أنزل من القرآن شفاء للمؤمن وخساراً للظالم، عرّض بما أنعم عليه من شرائع الإسلام، ومع ذلك

---

(١) المخصرة: ما يُتوكّأ عليه كالعصا ونحوه. وانظر سيرة ابن هشام ٤: ٥٩.
(٢) الكشاف ٢: ٤٦٣.
(٣) إملاء ٢: ٩٥.
(٤) انظر تفسير الآية ٢٥ من البقرة.
(٥) ق: المقدّرة.

أعرض عنه وبَعُد بجانبه اشمئزازاً له.

وقرىء: نأى، من النأي وهو البعد. وقرىء: وناء، نهض.

ومعنى «يؤوساً» قنوطاً من أن ينعم الله تعالى عليه.

والظاهر أن المراد بالإنسان هنا ليس واحداً بعينه بل [٣٣٧/أ] المراد الجنس. ونسب تعالى الإنعام لذاته، والمسيس للشّر. ويؤوس: صفة مبالغة من يئس.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ ﴾ «كلٌّ» إذا كان غير مضاف فتارة يُراعى لفظه فيفرد الضمير العائد عليه، كما في قوله تعالى «كلٌّ يعمل على شاكلته»، [وتارة يُراعى معناه فيُجمع كما في قوله تعالى ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس].

و﴿ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾] أي: على مذهبه الذي[1] يشاكل حاله في الهدى والضّلالة، من قولهم: طريق ذو شواكل، وهي الطرق التي تشعّبت منه.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا
وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ
ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ
ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾
أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ
ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ
بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ

---

(١) ق: أي. وهذه العبارة من كلام الزمخشري، انظر الكشاف ٢: ٤٦٤.

سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ
إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ
مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن
يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا
وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ
كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ
أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ
رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ في الصحيح من حديث ابن مسعود[١] أنه قال: إني مع رسول الله ﷺ في حرث[٢] بالمدينة وهو متكىء على عسيب، فمرّ بنا ناسٌ[٣] من اليهود فقالوا: سَلُوه[٤] عن الرّوح. فقال بعضهم: لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون. فأتاه نفرٌ منهم فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول في الرّوح؟ فسكت ثم ماج فأمسكت بيدي على جبهته فعرفت أنّه ينزل عليه الوحي، فنزل عليه «ويسألونك عن الرّوح» الآية. فعلى هذا يكون الضمير في «ويسألونك» لليهود، ويكون الخطاب [لهم] في قوله[٥] ﴿وَمَا أُوتِيتُم﴾ الآية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤: ١٧٤٩ من حديث عبد الله بألفاظ مقاربة.

(٢) ق: حرب.

(٣) ق: فمرّ بناسٍ.

(٤) ق: سلوا.

(٥) ق: وقوله.

و«الرّوح» على قول الجمهور هي[1] الروح التي في الحيوان وهو اسم جنس، وهذا هو الظاهر.

ومعنى ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: فعل ربّي كونها بأمره، وفي ذلك دلالة على حدوثها. والأمر بمعنى الفعل وارد، قال تعالى ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود] أي: فِعْله. والظاهر أنهم سألوا عن ماهيّتها وحقيقتها، وقيل عن كيفية مداخلتها الجسد الحيواني وانبعاثها فيه وصورة ملابستها له، وكلاهما مشكل لا يعلمه إلا الله تعالى.

وقد رأيت كتاباً يترجم بالنّفخ والتسوية لبعض الفقهاء المتصوّفة، يذكر فيه أن الجواب في قوله تعالى ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ إنما هو للعوامّ، وأمّا الخواصّ فهم عنده يعرفون الرّوح.

وأجمع علماء الإسلام على أن الرّوح مخلوقة، وذهب كفرة الفلاسفة وكثير ممّن ينتمي إلى الإسلام إلى أنها قديمة. واختلاف الناس في الرّوح بلغ إلى سبعين قولاً، وكذلك اختلفوا هل الروح النفس أم شيء غيرها.

﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ اللام مؤذنة بقسم محذوف. و﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ جوابه.

﴿وَكِيلًا﴾ أي: حافظاً ما أوحينا إليك.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناء منقطع أي: ولكن رحمة من ربك غير مذهوب به. وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً.

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى إنعامه على نبيّه بالنبوّة وبإنزال وحيه عليه وباهر قدرته، ذكر ما منحه تعالى من الدليل على نبوّته

(١) ق: هنا.

الباقي بقاء الدهر وهو القرآن الذي عجز العالم عن الإتيان بمثله، وأنه من أكبر النعم عليه والفضل الذي أبقى له ذكراً إلى آخر الدهر. وإذا كان فصحاء اللسان الذي نزل به وبلغاؤهم[1] عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة [مثله]، فلأن يكونوا أعجز عن أن يأتوا[2] بمثل جميعه، ولو تعاون الثقلان عليه، لا يأتون بمثله. ولما كانت[3] الجن تفعل أفعالاً مستغربةً كما حكى الله عنهم في قصة سليمان[4] عليه السلام، أدرجوا مع الإنس في التعجيز، ليكون ذلك أبلغ في التعجيز.

و﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواب القسم محذوف. واللام الموطئة في «لئن» وهي الداخلة على الشرط كقوله تعالى ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ [الحشر].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ تقدّم نظيره[5]. والظاهر أن المراد بالمَثَل هو [القول] الغريب السائر في الآفاق، والقرآن مَثَل من الأمثال التي ضربها الله سبحانه وتعالى.

قال الزمخشري[6]: ويجوز أن تكون [«مِن»] مؤكدة [٣٣٧/ب] زائدة، التقدير: ولقد صرّفنا كلّ مثل.انتهى.

يعني فيكون مفعول «صرّفنا» «كلّ مثل». وهذا التخريج هو على مذهب الكوفيين والأخفش [لا] على مذهب جمهور البصريين. والظاهر أن مفعول

(١) ق: وبلغاتهم.
(٢) عبارة ق: فلأن تكونوا أنتم أعجز عن أن تأتوا.
(٣) ق: كان.
(٤) انظر مثلاً الآية ٣٩ من النمل، والآية ١٣ من سبأ.
(٥) انظر تفسير الآية ٤١ من هذه السورة.
(٦) لم أجد هذا النص في الكشاف.

«صرّفنا» محذوف تقديره: البيّنات والعبر. و«مِن» لابتداء الغاية.

وروي أن صناديد قريش اجتمعوا وسيّروا للرسول عليه الصلاة والسلام، فلمّا جاء إليهم جرت بينهم محاورات في ترك دينهم، وطلب منهم أن يوحّدوا ويعبدوا الله تعالى. فأرغبوه بالمال والرئاسة فأبى وقال: لست أطلب ذلك. فاقترحوا عليه ستّ الآيات التي ذكرها الله تعالى [هنا].

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لمّا تحدّاهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، فتبيّن عجزهم عن ذلك وإعجازه، وانضمّت إليه معجزات أخر وبيّنات واضحة، فلزمَتْهم الحجّة وغُلبوا - أخذوا يتعلّلون باقتراح آياتٍ، فِعْل الحائر المبهوت، فقالوا ما حكاه الله تعالى عنهم.

ومعنى ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مكّة. ﴿يَنۢبُوعًا﴾ مشتق من النّبع ووزنه يَفعول كيَعْفور.

﴿فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ التي أصلها الينبوع. ثم اقترحوا ثانياً جنةً من نخيل وأعناب، وكان الغالب على بلادهم ذلك. ﴿خِلَـٰلَهَا﴾ أي: وسط الجنّة.

وقولهم ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ إشارة إلى قوله تعالى ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۝٩﴾ [سبأ].

﴿قَبِيلًا﴾ معاينة.

والزّخرف: الزّينة، ويطلق على الذهب. «أو ترقى» أي: تصعد. «في السماء» على حذف مضاف أي: إلى معارج السماء. والظاهر أن «السماء» هنا هي المظلّة. وما اكتفوا بالتّغيية بالرقي في السماء، حتى غيّوا[1] ذلك بأن

---

(١) غيّا الأمر: جعله له غاية.

ينزل عليهم كتاباً يقرؤونه. ولمّا تضمّن اقتراحهم ما هو مستحيل في حقّ الله تعالى، وهو أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً، أمره تعالى بالتّسبيح والتنزيه عمّا لا يليق به، ومن أن يُقترح عليه ما ذكرتم فقال ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ﴾ أي: ما كنت إلا بشراً رسولاً من الله إليكم لا مقترحاً عليه ما ذكرتم من الآيات.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا﴾ الآية، الظاهر أن قوله «وما منع الناس أن يؤمنوا» إخبار من الله تعالى عن السبب الضعيف الذي منعهم من الإيمان، إذ ظهر لهم المعجز، وهو استبعاد أن يبعث الله تعالى رسولاً إلى الخلق واحداً منهم، ولم يكن ملكاً. و«أن يؤمنوا» في موضع نصب. و«أن قالوا» في موضع رفع. و«إذ» ظرفٌ العامل فيه «منع». و«النّاس» كفّار قريش القائلون تلك المقالات السابقة. و«الهدى» القرآن ومن جاء به. وليس المراد مجرّد القول، بل قولهم الناشىء عن اعتقادهم.

والهمزة في «أبعث» للإنكار. و«رسولا» ظاهره أنه نعت.

وقوله «قل لو كان» الآية، «يمشون» يتصرفون فيها بالمشي، وليس لهم صعود إلى السّماء، فيسمعون من أهلها ويعلمون ما يجب علمه، بل هم مقيمون في الأرض يلزمهم ما يلزم المكلّفين من عبادات مخصوصة وأحكام، لا يدرك تفصيلها بالعقل.

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم﴾ من جنسهم مَنْ يعلّمهم ذلك ويلقيه إليهم.

ولمّا دعاهم صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان وتحدّى على صدق نبوّته بالمعجز الموافق لدعواه، أمره تعالى أن يعلمهم، بأنه تعالى هو الشهيد بينه وبينهم، على تبليغه، وما قام به من أعباء الرّسالة، وعدم قبولهم وكفرهم، وما اقترحوا عليه من الآيات، على سبيل العناد.

وأردف ذلك بما فيه تهديد، وهو قوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ بخفيّات أسرارهم ﴿بَصِيرًا﴾ مطّلعاً على ما يظهر [٣٣٨/أ] من أفعالهم وأقوالهم.

والظاهر أنّ قوله ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ إخبار من الله تعالى وليس مندرجاً تحت «قل» لقوله «ونحشرهم». و«مَن» مفعول «بيَهْدِ» فهو: ضمير يعود على «مَن» على لفظها.

و﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾ مطاوع لهدى، تقول: هداه فاهتدى كما تقول: عصمته فاعتصم. «ومن» مفعول بـ«يضلل». «لهم» ضمير يعود على [معنى] «مَن» لا على لفظها.

والظاهر أن قوله ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ هو حقيقة، وذلك عند قيامهم من قبورهم، لم يردّ الله إليهم سمعهم وأبصارهم ونطقهم، فيرون النار ويسمعون زفيرها، وينطقون بما حكى الله تعالى عنهم، كما تقدّم في أوائل البقرة[1]. و﴿خَبَتْ﴾ معناه سَكَنَ لهبها. ﴿سَعِيرًا﴾ إيقاداً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ذلك الحشر والعذاب.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا﴾ تقدّم الكلام عليه في أثناء السورة[2].

والرؤية هنا رؤية القلب [وهي العلم]. ومعنى ﴿مِثْلَهُمْ﴾ من الإنس. وعطف قوله ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ﴾ على قوله ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ لأنه استفهام تضمّن التقرير، والمعنى: قد علموا بدليل العقل كيت وكيت. «وجعل لهم» أي: للعالمين ذلك.

---

(١) انظر تفسير الآية ١٨ من البقرة.

(٢) انظر تفسير الآية ٤٩ المتقدمة.

﴿أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ وهو الموت.

﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ وهم الواضعون الشيء غير[١] موضعه على سبيل الاعتداء ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جحوداً لما أتى به الصادق عليه السلام من توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وبعثهم يوم القيامة إلى الجزاء.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾ مناسبة أن المشركين قالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء] وطلبوا إجراء الأنهار والعيون في بلدهم لتكثير أقواتهم وتتسع عليهم، فبيّن تعالى أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقُوا على بخلهم وشحّهم.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ فاعل بفعل محذوف يفسّره ما بعده تقديره: تملكون، فحذف تملك وانفصل الضمير الذي هو الواو فصار «أنتم» كقوله[٢]:

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها [فليس إلى حسن الثناء سبيل]

فهو: فاعل وكان تقديره: وإن لم يحمل، ففيه ضمير مستكن، فلما حذف الفعل انفصل الضمير فصار: هو. وخرّج [ذلك] أبو الحسن علي بن فضّال[٣] المجاشعي على إضمار كان.

وقال أبو الحسن بن الصائغ[٤]: حذف كان فانفصل اسمها والتقدير: قل لو كنتم، وقال: البصريون يصرّحون بامتناع: لو زيد قام لأكرمته، على

(١) ق: على غير.
(٢) البيت للسموأل في شرح ديوان الحماسة ١ : ١١١ . وهو من الطويل
(٣) ق: فضالة، انظر الأعلام ٤ : ٣١٩.
(٤) هو شيخ أبي حيان، انظر البحر ٦ : ٨٤.

الفصيح، ويجيزونه شاذًّا كقولهم: لو ذاتُ سوارٍ لطمَتْني[١].

وهو عندهم على فعل مضمر. وجواب «لو» لأمسكتم. و«خشية» مفعول من أجله. و«قتورا» مبالغة في التقتير.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾.

ولمّا حكى الله تعالى عن قريش ما حكى من تعنّتهم في اقتراحهم وعنادهم للرسول عليه السلام، سلّاه تعالى بما جرى لموسى عليه السلام مع فرعون ومع قومه من قولهم ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء].

و«تسع آيات» تقدّم الكلام عليها في الأعراف[٢].

والعامل في «إذ» محذوف تقديره: فاسأل عن حديث أو قصة بني إسرائيل إذ جاءهم.

وقال الزمخشري[٣]: اذكر أو: يخبروك[٤] انتهى.

و«إذ» ظرف لما مضى ولا يصحّ إعمال واحد منهما فيه.

---

(١) من أمثال العرب، انظر المستقصى ٢: ٢٩٧.
(٢) انظر تفسير الآية ١٣٣ من الأعراف.
(٣) الكشاف ٢: ٤٦٨.
(٤) ق: يخبرونك.

وقرأ الجمهور: لقد علمتَ، بفتح التاء على خطاب موسى لفرعون، وتبكيته في قوله عنه إنه مسحور؛ أي: قد علمتَ أنّ ما جئتُ به ليس من باب السحر ولا أني خُدعتُ في عقلي، بل علمتَ أنه ما أنزلها إلا الله. وما أحسن ما جاء به من إسناد إنزالها إلى لفظ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إذ هو لمّا سأله [٣٣٨/ب] فرعون في أول محاورته فقال له ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾ [الشعراء] قال له ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۝٢٤﴾ [الشعراء] ينبّهه على[1] نقصه وأنه لا تصرّف له في الوجود، فدعواه الربوبية دعوى استحالة. فبكّته وأعلمه أنه يعلم آيات الله ومن أنزلها، ولكنه مكابر معاند كقوله تعالى ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا ۝١٤﴾ [النمل]. وخاطبه بذلك على سبيل التوبيخ، أي: أنت بحال من يعلم هذا، وهو في الوضوح بحيث تعلمها. وليس خطابه على جهة إخباره عن علمه.

وقرىء: لقد علمتُ، بتاء المتكلّم وهو ضمير موسى عليه السلام، و«ما أنزل» جملة في موضع نصب علّق عنها «علمت».

ومعنى «بصائر» دلالات على وحدانية الله تعالى وصدق رسوله عليه السلام. والإشارة «بهؤلاء» إلى [الآيات] التّسع. وانتصب «بصائر» على الحال والعامل فيه محذوف تقديره: أنزلها.

وقابل موسى عليه السلام ظنه بظنّ فرعون، وشتّان ما بين الظّنّين: ظَنُّ فرعون ظَنٌّ باطل وظَنُّ موسى عليه السلام ظَنُّ صدقٍ.

---

(١) على: مكررة في ق.

وقال الفرّاء[١]: «مثبوراً» مصروفاً عن الخير مطبوعاً[٢] على قلبك، من قولهم: ما ثبرك عن هذا؟ أي: ما منعك وصرفك.

واستفزازه إياهم هو استخفافه لموسى ولقومه، بأن يقلعهم من أرض مصر بقتلٍ أو جلاء، فحاق به مكره، وأغرقه الله تعالى وقبطه.

والضمير في «من بعده» عائد على فرعون أي: بعد إغراقه.

والأرض المأمور بسكناها أرض الشام.

و﴿ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ ﴾ قيام الساعة.

وانتصب ﴿لَفِيفًا﴾ على الحال، أي: منضمًّا بعضكم إلى بعض.

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ
عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن
قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا
لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟
ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ
ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن
لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾.

﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ الآية، هو مردود على قوله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء]. وهكذا طريقة كلام العرب وأسلوبها: تأخذ في شيء، وتستطرد منه إلى شيء آخر ثم إلى آخر، ثم تعود إلى ما ذكرته أولاً.

---

(١) انظر معاني القرآن ٢: ١٣٢.

(٢) ق: مصروف عن الخير مطبوع.

وانتصب مبشراً ونذيراً على الحال، أي: مبشراً لهم بالجنّة ومنذراً من النّار.

وانتصب «قرآناً» على إضمار فعلٍ يفسّره «فرقناه» أي: وفرقنا قرآناً فرقناه، فهو من باب الاشتغال. وحَسَّنَ النصب ورجّحه على الرفع كونه عُطف على جملة فعلية، وهي قوله «وما أرسلناك». ولا بدّ من تقدير صفة لقوله «وقرآنا» حتى يصحّ كونه كان يجوز فيه الابتداء، لأنه نكرة لا مسوّغ لها في الظاهر، للابتداء بها، والتقدير: وقرآناً أيَّ قرآن أي: [قرآناً] عظيماً جليلا.

﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ أي: تطاول في المدّة شيئاً بعد شيء.

﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ﴾ يتضمّن الإعراض عنهم والاحتقار لهم وعدم الاكتراث بهم، فإنّ خيراً منهم العلماء الذين قرؤوا الكتاب، وعلموا الشرائع، آمنوا به، وصدّقوه، وثبت عندهم أنه النبي الموعود به في كتبهم، فإذا تُلي عليهم خرّوا[1] سجّداً وسبّحوا الله تعظيماً لوعده ولبشارته ببعثة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله ﴿إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا﴾. والظاهر أن الضمير في قوله [﴿مِن قَبۡلِهِۦٓ﴾] عائد على القرآن كما عاد عليه في قوله «به» ويدلّ عليه ما قبله وما بعده.

والظاهر في قوله ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أن الضمير في «يُتلى» عائد على القرآن. والخرور: السقوط بسرعة. وانتصب «سجداً» على الحال.

و﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ نزّهوا الله عمّا نسبه إليه كفّار قريش وغيرهم.

و﴿إِن﴾ هنا المخفّفة من الثقيلة، واللام هي الفارقة. والمعنى أن ما وَعد به من إرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه قد [٣٣٩/أ] فعله وأنجزه.

---

(١) سخروا.

وتكرّر الخرور لاختلاف حالتي السّجود والبكاء، وجاء التعبير عن الحالة الأولى بالاسم، وعن الثانية بالفعل، لأنّ الفعل مشعر بالتّجدد [وذلك أن البكاء ناشىء عن التفكّر، فهم دائماً في فكره وتذكّر، فناسب ذكر الفعل إذ هو مُشعر بالتجدّد]. ولما كانت حالة السجود ليست تتجدّد في كل وقت، عبّر فيها بالاسم.

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي: ما تُلي عليهم. ﴿خُشُوعًا۩﴾ أي: تواضعاً.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الآية، قال ابن عباس: تهجّد رسول الله ﷺ ذات ليلة بمكّة، فجعل يقول في سجوده: يا رحمن يا رحيم. فقال المشركون: كان محمد يدعو إلهاً واحداً فهو الآن يدعو إلهين اثنين [الله] والرحمن، ما [نعرف] الرحمن إلا رحمان اليمامة - يعنون مسيلمة - فنزلت[1]. والله والرحمن اسمان لذات واحدة. و﴿أَيًّا﴾ شرطية. و«ما» زائدة. و﴿تَدْعُوا۟﴾ فعل الشرط، حذفت منه النون. و﴿فَلَهُ﴾ جواب الشرط.

والمعنى: أيّ الاسمين - وهو لفظ الله والرحمن - فله - لكون[2] الاسمين لذات واحدة - الأسماء الحسنى. والصلاة هنا الدعاء، قاله ابن عباس.

ومعلوم أن الجهر والمخافتة معتقبان على الصوت لا غير، والصلاة أفعال وأذكار. وكان عليه السلام يرفع صوته بقراءته، فيسبّ[3] المشركون ويلغون، فأُمر بأن يخفض من صوته حتى لا يسمع المشركون، وأن لا يخافت حتى

---

(١) انظر أسباب النزول ص٢٠٠، والبخاري ٦: ٢٧٢٢.

(٢) ق: الكون.

(٣) ق: فتسبّ.

يسمعه[١] من وراءه من المؤمنين.

﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين الجهر والمخافتة سبيلاً وسطاً. وتقدّم الكلام على «بين ذلك» في البقرة[٢].

ولمّا ذكر تعالى أنه واحد، وإن تعدّدت أسماؤه، أمره تعالى أن يحمده على ما أنعم به عليه بما آتاه من شرف الرسالة والاصطفاء. ووصف نفسه بأنه لم يتخذ ولداً، فيعتقد تكثّره فيه بالنّوع، وكان ذلك ردًّا على اليهود والنصارى والعرب الذين عبدوا الملائكة، واعتقدوا أنهم بنات الله. ونفى أولاً الولد خصوصاً، ثم نفى الشريك في ملكه وهو أعمّ من أن يُنسب إليه ولد، فيشركه في ملكه أو غيرَه. ولمّا نفى الولد، ونفى الشريك، نفى الوليّ وهو الناصر، وهو أعمّ من أن يكون ولداً أو شريكاً أو غير شريك. ولمّا كان اتخاذ الولد قد يكون للانتصار والاعتزاز والاحتماء من الذّل، وقد يكون التّفضل والرحمة لمن والى من عباده الصالحين، كان النفي لمن ينتصر به من أجل المذلّة، إذ كان مورد الولاية يحتمل هذين الوجهين، فنفى الجهة التي تكون لأجل النقص، بخلاف الولد والشريك، فإنهما نفيا على الإطلاق.

﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ التكبير أبلغُ لفظةٍ للعرب في معنى التعظيم والإجلال. وأكّد بالمصدر تحقيقاً له وإبلاغاً[٣] في معناه.

(١) ق: لا يسمعه. وانظر ذلك في لباب النقول ص١٤٢.

(٢) انظر تفسير الآية ٦٨ من البقرة.

(٣) ق: وبلاغاً.

وابتُدئت هذه السورة بتنزيه الله تعالى واختُتمت به. وكان رسول الله ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطّلب، علّمه هذه الآية ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية، إلى آخرها.

سورة الكهف(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا
شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم
بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا
كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾
إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا
عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ الآية، هذه السورة مكية، وقيل: فيها آيات مدنية. وسبب نزولها(٢) أن قريشاً أرسلت النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة [٣٣٩/ب] فقالوا لهما: سَلاَهم عن محمد، وصِفَا لهم صفته، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى أتيا المدينة فسألاهم، فقالت اليهود: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهنّ، فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل، فالرجل متقوّل، فَرَوْا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم، فإنه كان لهم أمر عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق

---

(١) مكّية وهي مئة وعشر آيات.

(٢) انظر لباب النقول ص١٤٣.

الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه. وسلوه عن الرّوح. فأقبل النّضر وعقبة إلى مكّة، فسألاه[1] فقال: غداً أخبركم، ولم يقل: إن شاء الله. فاستمسك الوحي عنه خمسة عشر يوماً، فأرجف به كفّار قريش وقالوا إن محمداً تركه رَئِيُّه[2] الذي كان يأتيه من الجن. وقال بعضهم: قد عجز عن أكاذيبه. فشقّ ذلك عليه، فلما انقضى ذلك جاءه الوحي بجواب الأسئلة وغيرها.

ومناسبة أول السّورة لآخر ما قبلها أنه لمّا قال ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء] وذكّر المؤمنين أنه[3] يزيدهم خشوعاً، وأنه تعالى أمره بالحمد له، وأنه لم يتخذ ولداً - أمره تعالى بحمده على إنزال هذا الكتاب السالم من العوج، القيّم على كل الكتب، المنذر من اتّخذ ولداً، المبشّر المؤمنين بالأجر الحسن. ثم استطرد إلى كفّار قريش، والتفت من الخطاب في قوله ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء] إلى الغيبة في قوله ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ لما في «عبده»[4] من الإضافة المقتضية تشريفه. ولم يجىء التركيب: أنزل عليك. و«الكتاب» القرآن.

وقال الزمخشري[5]: «ولم يجعل له» معطوفة على «أنزل» فهي داخلة في الصلة. ورتّب على هذا أن الأحسن في انتصاب «قيّماً» أن يُنصب بفعل مضمر ولا يُجعل حالاً من «الكتاب» لما يلزم من ذلك، وهو الفصل بين الحال وذي الحال ببعض الصلة، وقدّره: جعله قيّماً.

(١) ق: فسألوه.
(٢) ق: رائيه.
(٣) ق: ذكر المؤمنين وأنه.
(٤) ق: عبد.
(٥) الكشاف ٢: ٤٧١.

وقال ابن عطية: «قيّماً» نصب على الحال من «الكتاب» فهو بمعنى التقديم مؤخر في اللفظ، أي: أنزل الكتاب قيّماً، واعترض بين الحال وذي الحال قوله «ولم يجعل له عوجاً».

أمّا إذا قلنا بأن الجملة المنفيّة اعتراض فهو جائز، ويفصل بجمل الاعتراض بين الحال وصاحبها. والصحيح أنهما حالان من «الكتاب» الأولى جملة والثانية مفرد، وكثير من أصحابنا على منع ذلك، وفي ذلك أعاريب أخر ذكرت في البحر[1].

والعِوَج في المعاني كالعوج في الأشخاص. ونكّر «عوجاً» ليعمّ جميع أنواعه لأنها نكرة في سياق النّفي، والمعنى أنه في غاية الاستقامة، لا تناقض ولا اختلاف في معانيه، ولا حوشيّة ولا عيّ في تراكيبه ومبانيه.

و﴿ قَيِّمًا ﴾ بمصالح العباد وشرائع دينهم وأمور معايشهم ومعادهم، ولذلك جاء بعده «لينذر» و«ليبشّر»، فيجوز أن يتعلّقا بقوله «قيّماً» ويجوز أن يعلّقا «بأنزل». والبأس الشديد: عذاب الآخرة، ويحتمل أن يندرج فيه ما يلحقهم من عذاب الدنيا.

﴿ مِّن لَّدُنْهُ ﴾ تقدّم الكلام عليه في أول هود[2]. والأجر الحسن: الجنّة.

ولمّا كنّى عن الجنّة بقوله ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ قال ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ ﴾ أي: مقيمين، فجعله ظرفاً لإقامتهم. ولمّا كان المكث لا يقتضي التأبيد قال ﴿ أَبَدًا ﴾، وهو [ظرف] دالّ على زمن [غير] متناهٍ. وانتصب «ماكثين» على الحال، وذو الحال هو الضمير في «لهم».

---

(١) انظر ٦: ٩٦.

(٢) أحال المصنّف في أول هود إلى آل عمران، انظر تفسير الآية ٣٨ منها.

والذين نسبوا الولد إلى الله تعالى بعض اليهود في عزير، وبعض النصارى في المسيح، وبعض العرب في الملائكة.

والضمير في «به» الظاهر أنّه عائد على الولد الذي ادّعوه.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما لهم بقولهم هذا من علم، فالجملة [٣٤٠/أ] في موضع الحال، أي: قالوا جاهلين من غير فكر ولا رويّة ولا نظيرٍ فيما يجوز ويمتنع. وقرأ الجمهور: كلمةً، بالنصب فالظاهر انتصابها على التمييز، وفاعل «كبرت» مضمر يعود على المقالة المفهومة من قوله ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ وفي ذلك معنى التعجب، أي: ما أكبرها كلمة، والجملة بعدها صفة لها، تفيد استعظام اجترائهم على النّطق بها وإخراجها من أفواهم، فإن كثيراً مما يوسوس[1] به الشيطان في القلوب وتحدّث به النفس لا يمكن أن يُتفوّه به، بل يُصرف عنه الفكر، فكيف بهذا المنكر؟. وسميّت «كلمة» كما يسمّون القصيدة كلمة. و﴿إِن﴾ نافية، أي: ما يقولون. و﴿كَذِبًا﴾ نعت لمصدر محذوف أي: قولاً كذباً.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ لعلّ للترجّي في المحبوب وللإشفاق في المحذور. و«باخع» قال الفرّاء: بخع يبخع بخعاً وبخوعاً: أهلك من شدة الموجدة[2]، وأصله الجهد. والظاهر أنها هنا للإشفاق؛ أشفق أن يبخع الرسول نفسه عليهم لكونهم لم يؤمنوا.

وقوله ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ استعارة فصيحة من حيث لهم إدبار وتباعد عن الإيمان وإعراض عن الشرع، فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو [في]

(١) ق: يشوش.

(٢) ق: الوحدة.

إدبارهم يحزن[١] عليهم.

ومعنى «على آثارهم» من بعدهم أي: بعد يأسك من إيمانهم أو بعد موتهم على الكفر. ويقال: مات فلان على أثر فلان أي: بعده.

والإشارة ﴿ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ إلى القرآن، قال تعالى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر]. و﴿أَسَفًا﴾ مفعول من أجله وأصله: حزناً.

وارتباط قوله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ بما قبلها على سبيل التسلية لرسول الله ﷺ، لأنه تعالى أخبر أنه خلق ما على الأرض من الزّينة، للابتلاء والاختبار أيّ الناس أحسن عملاً، وليسوا على نمط واحد في الاستقامة واتّباع الرّسل، لا بدّ أن يكون فيهم من هو أحسن عملاً ومن هو أسوأ عملاً. فلا تغتمّ وتحزن على من قضيتُ عليه بأنه يكون أسوأ عملاً، ومع كونهم يكفرون بي، لا أقطع عنهم موادّ هذه النّعم التي خلقتها.

و﴿جَعَلْنَا﴾ هنا بمعنى خلقنا. والظاهر أن «ما» يُراد بها غير العاقل، وأنه يراد به العموم فيما لا يعقل. وزينة كل شيء بحسبه. وانتصب «زينةً» على الحال أو المفعول من أجله إن كان «جعلنا» بمعنى خلقنا وأوجدنا. وإن كان بمعنى صيّرنا، فانتصب على أنه مفعول ثانٍ.

و﴿أَيُّهُمْ﴾ يحتمل أن تكون الضّمة فيها إعراباً فيكون «أيّهم» مبتدأ، و﴿أَحْسَنُ﴾ خبره، والجملة في موضع المفعول «لنبلوهم» ويكون قد علّق «لنبلوهم»[٢] إجراءً لها مجرى العلم، لأن الابتلاء والاختبار سبب العلم. ويحتمل أن تكون الضمة فيها على مذهب سيبويه، لوجود شرط جواز البناء

---

(١) ق: تحزن.

(٢) ق: ليبلوهم، في الموضعين.

في أيّ، وهو كونها مضافة، قد حذف صدر صلتها، و«أحسن» خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو أحسن. ويكون «أيُّهم» موصولاً في موضع نصب بدلاً من الضمير في «ليبلوهم»[1] والمفضّل عليه محذوف تقديره: ممّن ليس أحسن عملاً.

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ ﴾ أي: مصيّرون ما عليها ممّا كان زينة لها، أو ما عليها ممّا هو أعمّ من الزّينة وغيره.

﴿ صَعِيدًا ﴾ تراباً. «جرزاً» لا نبات فيه. وهذا إشارة إلى التزهيد في الدنيا والرغبة عنها، وتسلية لرسول الله ﷺ عمّا تضمّنته أيدي المترفين من زينتها إذ مآل ذلك كله [٣٤٠/ب] إلى الفناء والمحاق.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى
ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾
فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ
وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ ﴾ الآية، «أم» هنا هي المنقطعة، فتقدّر ببل والهمزة، قيل للإضراب عن الكلام الأول، والمعنى الانتقال من كلام إلى

---

(١) ق: ليبلوهم.

اخر، لا بمعنى الإبطال، والهمزة للاستفهام وزعم بعض النحويين أنّ «أم» هنا بمعنى الهمزة فقط. والظاهر في قوله «أم حسبت» أنه خطاب لرسول الله ﷺ.

وقال[١] مجاهد: لم يُنْهَ عن التعجب وإنما أراد: كل آياتنا كذلك.

وأهل الكهف: هم الفتية الذين ذكرهم الله تعالى بعد ذلك.

و«الكهف» هو الغار الذي في الجبل يُستتر فيه. و«الرقيم» قيل هو [اسم] الكلب الذي كان معهم، وقيل اسم قصر. وقيل: هذا الكهف هو في الروم، وقيل في الشام. وبالأندلس[٢] في جهة غرناطة بقرب قرية تُسمّى لَوْشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمّة، وأكثرهم قد انجرد لحمه وبعضهم متماسك. وقد مضت القرون السّالفة ولم نجد من علم شأنهم، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف.

قال ابن عطية: دخلتُ إليهم ورأيتهم منذ أربع وخمس مئة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رومي يسمّى الرقيم كأنه قصر مُخْلِق، وبقي بعض جدرانه وهو في فلاة من أرض خربة. وبأعلى حضرة غرناطة مما يلي القبلة آثار قديمة يقال لها مدينة دَقْيوس[٣] وجدنا في آثارها غرائب من[٤] قبور ونحوها. وإنما سهل [ذكر] هذا مع بُعْده لأنه عجب يتخلّد ذكره ما شاء الله تعالى.انتهى.

(١) ق: فقال.

(٢) هذا كلام ابن عطية، انظر القرطبي ١٠: ٣٥٨.

(٣) ق: دفتوس.

(٤) ق: في.

وقال والدي، فسح الله في مدّته: وحين كنّا بالأندلس كان الناس يزورون هذا الكهف، ويذكرون أنهم يغلطون في عددهم إذا عَدُّوهم وأنّ معهم كلباً، ورحل الناس إلى لوشة لزيارتهم. وأمّا ما ذكر من مدينة دَقْيوس[1] التي بقبلي غرناطة فقد مررت عليها مراراً لا تُحصى وشاهدت فيها حجارة كباراً. ويترجّح كون أهل الكهف بالأندلس لكثرة دين النصارى بها حتى أنها بلاد مماكتهم العظمى، ولأن الإخبار بما هو في أقصى مكان عن أرض الحجاز أبعد أن لا يعرفه[2] أحد إلا بوحيٍ من الله تعالى.

والعامل في [«إذ»] قيل: اذكر، وقيل «عجباً». ومعنى «أوى» جعلوه مأوى لهم ومكان اعتصام. ثم دَعَوُا الله تعالى أن يؤتيهم رحمة من عنده وهي الرزق. ولفظ «الفتية» يُشعر بأنهم كانوا شبّاناً، وكذلك روي أنهم كانوا شبّاناً من أبناء الأشراف والعظماء مطوّقين مسوّرين بالذهب ذوي ذوائب. وهم من الرُّوم اتّبعوا دين عيسى عليه السلام. وأصحابنا الأندلسيون يكثر في ألفاظهم تسمية نصارى الأندلس بالروم، وقلّ من ينطق بلفظ النصارى. وقال بعض أدبائهم يخاطب ملك الأندلس [الآن] ابن أحمر[3]: [من الطويل]

حميتَ حمى الإسلام في أرضِ غربةٍ وقد نشبت للرّوم فيها المخالب

ومفعول «ضربنا» محذوف تقديره: حجاباً من أن يسمعوا، وهو كناية عن النوم. وانتصب «سنين» على الظرف، والعامل فيه «فضربنا».

و﴿عَدَدًا﴾ مصدر وُصف [به]، والظاهر منه الدّلالة على الكثرة، لأنه لا

(١) ق: دفتوس.

(٢) ق: وأبعد لا يعرفه.

(٣) لم أجده.

يحتاج أن يعدّ إلاّ ما كَثُر لا ما قلّ.

قال الزمخشري[1]: ويحتمل أن يريد القلّة، لأن الكثير عنده قليل كقوله ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۝٣٥﴾ [الأحقاف] انتهى.

هذا تحريف في التشبيه، لأن لفظ الآية ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [٣٤١/أ] فهذا تشبيه لسرعة انقضاء ما عاشوا في الدنيا إذا رأوا العذاب كما قال الشاعر[2]:

كأنّ الفتى لم يَعْرَ[3] يوماً إذا اكتسى ولـم يـك صعلـوكـاً إذا مـا تمـوّلا

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي: أيقظناهم من نومهم.

و﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: ليظهر لهم ما علمناه من أمرهم.

﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ قال ابن عباس: هم الملوك الذين تداولوا ملك المدينة حزب، وأهل الكهف حزب، وقيل غير ذلك.

قال الزمخشري[4]: وقرىء: لِيُعلم، وهو معلّق عنه لأن ارتفاعه بالابتداء لا بإسناد «يعلم» إليه. وفاعل «يعلم» مضمون الجملة كما أنه مفعول «يعلم» انتهى.

لا يجوز ما ذكر على مذهب البصريين، لأن الجملة إذ ذاك تكون في موضع المفعول الذي لم يُسمَّ فاعله، وهو قائم مقام الفاعل. فكما أن تلك الجملة وغيرها من الجمل لا تقوم مقام الفاعل، فكذلك لا يقوم ما ناب

(١) الكشاف ٢: ٤٧٣.

(٢) البيت في الكامل ٢: ١١٩ ونسبه محققه لجابر بن ثعلبة الطائي.

(٣) ق: يعد.

(٤) الكشاف ٢: ٤٧٣.

عنه.

وللكوفيين مذهبان: أحدهما أنه يجوز الإسناد إلى الجملة مطلقاً، والثاني: أنه لايجوز إلا إذا كان الفعل ممّا يصحّ تعليقه.

و«أي الحزبين» مبتدأ و«أحصى» خبره وهو أفعل التفضيل، و«لما» متعلّق به، و«أمدا» مفعول «أحصى».

غلط ابن عطية، فأورد فيما بني من الرباعي: ما أعطاه للمال وآتاه للخير، وهي أسود من القار، وماؤه أبيض من اللبن، و: فهو لما سواه أضيع. قال: وهذه كلّها أفعل من الرباعي انتهى.

وأسود وأبيض ليس بناؤهما من الرباعي. وفي بناء أفعل للتعجب وللتفضيل ثلاثة مذاهب: يُبنى مطلقاً وهو ظاهر كلام سيبويه. وقد جاء منه ألفاظ لا يبنى منه مطلقاً وما ورد حُمِل على الشذوذ. والتفضيل[1] بين أن تكون الهمزة للنقل فلا يجوز، أو لغير النقل، كأشكل الأمر وأظلم الليل، فيجوز أن تقول: ما أشكل هذه المسألة وما أظلم هذا الليل، وهذا اختيار ابن عصفور من أصحابنا. ودلائل هذه المذاهب مذكورة في كتب النحو.

قال الزمخشري[2]: فإن [قلت]: فما تقول فيمن جعله من أفعل التفضيل؟ قلت: ليس بالوجه السديد؛ وذلك أن بناءه من غير الثلاثي[3] المجرد ليس بقياس، ونحو: أعدى من الجرب، وأفلس من ابن المذلّق[4] شاذ، والقياس

(١) ق: التفضيل.

(٢) الكشاف ٢: ٤٧٤.

(٣) ق: الثلا.

(٤) ق: وأفلس من الذّلق. وانظر المثلين في الدرة الفاخرة ص٣٠٣، ٣٣٢.

على الشاذ في غير القرآن ممتنع، فكيف به [فيه]. ولأنّ «أمداً» لا يخلو إما أن ينصب بأفعل، فأفعل لا يعمل، وإما أن ينصب بـ«لبثوا» فلا يسدّ عليه المعنى. فإن زعمت أني أنصبه بإضمار فعل يدل عليه «أحصى» كما أضمر في قوله[1]: **[من الطويل]**

[أكـرّ وأحمـى للحقيقـة منهـمُ] وأَضربَ منّا بالسيوفِ القوانسا

على: نضرب[2] القوانس، فقد أبعدت المتناول[3]، وهو قريب، حيث أبيت[4] أن يكون «أحصى» فعلاً، ثم رجعت مضطرًّا إلى تقديره وإضماره انتهى.

أما دعواه الشذوذ، فهو مذهب أبي علي، وقد ذكرنا أنّ ظاهر مذهب سيبويه جواز بنائه من أفعل مطلقاً، وأنه مذهب أبي إسحاق، وأن التفضيل اختيار ابن عصفور، وقول غيره: والهمزة في «أحصى» ليست للنقل.

وأمّا قوله: فأفعل لا يعمل، ليس بصحيح، لأنه يعمل في التمييز و«أمداً»[5] تمييز، وهكذا أعربه من زعم أنّ «أحصى» أفعل التفضيل كما تقول: زيد أقطع الناس سيفاً، فلم يعربه مفعولاً به.

وأما قوله: وإما أن ينصب بـ«لبثوا» فلا يسدّ عليه المعنى أي: لا يكون سديداً، فقد ذهب الطبري إلى أن نصب «أمداً» «بلبثوا». قال ابن عطية:

---

(١) البيت لعباس بن مرداس في ديوانه ص٦٩.
(٢) ق: بضرب.
(٣) ق: التناول.
(٤) ق: أثبتّ.
(٥) ق: وأبداً.

وهذا غير متّجه.انتهى.

وقد يتّجه ذلك، لأن الأمد هو الغاية، وتكون عبارة [٣٤١/ب] عن المدّة كقوله ﴿۞مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة] ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ ﴿٢﴾﴾ [فاطر]. ولما سقط الحرف وصل إليه الفعل.

وأما قوله: فإن زعمت إلى آخره، فنقول: لا يحتاج إلى هذا الزّعم، لأن لقائل[١] ذلك أن يسلك مذهب الكوفيين في أن أفعل التفضيل تنصب المفعول به. فالقوانس عندهم منصوب بأضرب نَصْبَ المفعول به.

وأما تأويله بضرب القوانس، فقول[٢] البصريين.

وكذلك[٣] ذهب بعض النحويين إلى أن قوله «أعلم مَن يضلّ» «مَن» منصوبة «بأعلم» نَصْب المفعول به. ولو كثر وجود مثل[٤]:

وأضرب منّا بالسيوف القوانسا

لكنّا نقيسه، ويكون معناه صحيحاً، لأن أفعل التفضيل مضمن معنى المصدر، فيعمل بذلك التّضمين؛ ألا ترى أن المعنى: يزيد ضربنا بالسيوف على ضرب غيرنا؟.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ﴾ بدأ بقصتهم أولاً مختصرةً ثم ذكرها مفصّلة مطوّلة.

﴿نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: على وجه الصدق. وجاء بلفظ «نقصّ» موازناً لقوله

(١) ق: القائل.
(٢) ق: قول.
(٣) ق: ولذلك.
(٤) تقدّم تخريجه قبل قليل.

«لنعلم»، ثم قال «آمنوا بربهم» ففيه[١] إضافة الربّ وهو السيد والناظر في مصلحة عبيده. ولم يأت التركيب: آمنوا بنا، للإشعار بتلك الرتبة، وهي أنهم مربوبون له مملوكون. ثم قال «وزدناهم» ولم يأت التركيب: وزادهم، لِمَا في لفظ: نا من العظمة والجلالة. وزيادته تعالى لهم هدى هو تيسيرهم للعمل الصالح والانقطاع إليه، ومباعدة الناس والزهد في الدنيا، وهذه زيادة على الإيمان الذي حصل لهم.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: ثبّتناها وقوّيناها على الصبر على هجرة الوطن والنّعيم، والفرار بالدين إلى غار في مكان قفر لا أنيس فيه ولا ماء ولا طعام. والرّبط مقابله الانحلال، ومنه: فلان رابط الجأش، إذا كانت نفسه لا تتفرّق[٢] عند الفزع والخوف.

واللام في «لقد» لام تأكيد. و«إذاً» حرف جواب وجزاء، أي: لقد قلنا إن دعونا من دونه إلهاً «قولاً شططاً» أي: ذا شطط وهو التعدّي والجور، «فشططاً» نعت لمصدر محذوف.

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ الآية، ولما وحّدوا الله تعالى، ورفضوا ما دونه من الآلهة، أخذوا في ذمّ قومهم وسوء فعلهم، وأنهم لا حجّة لهم في عبارة غير الله تعالى. ثمّ عظّموا جرم من افترى على الله كذباً. والضمير في «من دونه» عائد على الله تعالى. و«لولا» حرف تحضيض بمعنى هلا صحبه[٣] الإنكار. والسلطان: الحجّة والبرهان.

(١) ق: فيه.
(٢) ق: تتفرّع.
(٣) ق: صحبة.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خطاب من بعضهم لبعض. والاعتزال يشمل مفارقة أوطان قومهم ومعتقداتهم، فهو اعتزال جسماني وقلبي. و«ما» معطوف على المفعول في «اعتزلتموهم» أي: واعتزلتم معبوداتهم.

و﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ استثناء متصل إن كان قومهم يعبدون [الله] مع آلهتهم، لاندراج لفظ الجلالة في قوله «وما يعبدون»، أو منقطع إن كانوا لا يعرفون الله ولا يعبدونه لعدم اندراجه في معبوداتهم.

﴿يَنشُرْ لَكُمْ﴾ المعنى: يبسط عليكم رحمته.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم﴾ ما ترتفقون به في أمر عيشكم.

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ الآية، هنا جمل محذوفة[1] دلّ عليها ما تقدّم، والتقدير: فأَوَوْا إلى الكهف، فألقى الله تعالى عليهم النوم، واستجاب دعاءهم، وأرفقهم في الكهف بأشياء. وقرىء: تَزَّاور، بإدغام تاء «تَزَاوَرُ» في الزّاي. وقرىء: تَزْوَرُّ، على وزن تحمرّ. وقرىء: تَزاوَرُ، بحذف التاء على [٣٤٢/ أ] وزن تَفَاعَلُ وبإدغام التاء في الزّاي، والمعنى تزوغ وتميل.

و«ذات اليمين» جهة يمين الكهف، وحقيقته المسالمة باليمين، يعني

(١) ق: محذفة.

يمين الداخل إلى الكهف أو يمين الفتية.

و﴿ تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: لا تقربهم، من معنى القطيعة.

﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ﴾ أي: متّسع من الكهف.

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذه الصفة مع الشمس تقتضي أنهم كان لهم حاجب من جهة الجنوب وحاجب من جهة الدَّبور[١]، وهم في زاوية. وقال عبدالله بن مسلم: كان باب الكهف ينظر إلى بنات نعش، وعلى هذا كان أعلى الكهف مستوراً من المطر.

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ جمع يَقِظ بمعنى منتبه من النوم.

﴿ وَهُمْ رُقُودٌ﴾ جملة حالية. وقيل: كانت أعينهم مفتّحة فيحسبهم الرائي أنهم منتبهون.

والظاهر أن قوله «ونقلبهم» خبر مستأنف. وقيل: إنما وقع الحسبان من جهة تقلّبهم ولا سيّما إذا كان من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين، و﴿ ذَاتَ﴾ منصوب على الظرف، وأصلها صفة للجهة كأنه قال: جهةً ذاتَ اليمين.

والظاهر[٢] أن قوله «وكلبهم» أريد به الحيوان المعروف الذي تبعهم. والوصيد: باب الكهف.

قال الزمخشري[٣]: «باسط ذراعيه» حكاية حال ماضية لأن اسم الفاعل لا

(١) الدَّبور: الريح التي تقابل الصَّبا.
(٢) ق: والظ.
(٣) الكشاف ٢: ٤٧٥.

يعمل إذا كان في معنى المضيّ، وإضافته إذا أضيف حقيقيّة[1] معرّفة كغلام زيد، إلا إذا نُويت حكاية الحال الماضية انتهى.

وقوله إن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضي، ليس إجماعاً، بل ذهب الكسائي وهشام، ومن أصحابنا أبو جعفر بن مضاء إلى أنه يجوز أن يعمل. وحجج الفريقين مذكورة في علم النّحو. والخطاب في قوله «لو اطلعت» لمن هو في قوله «وترى الشمس» «وتحسبهم أيقاظاً».

ومعنى ﴿ لَوَلَّيْتَ ﴾ أي: أعرضت بوجهك عنهم وأوليتهم كشحك[2]. وانتصب «فراراً» على المصدر، إما لفررْتَ محذوفة، وإما لولّيْتَ لأنه بمعنى: لفررت. وإما مفعولاً من أجله. وانتصاب ﴿ رُعْبًا ﴾ على أنه مفعول ثانٍ.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية، الكاف للتشبيه، والإشارة «بذلك» قيل للمصدر المفهوم من ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف] أي: مِثْلِ جَعْلِنا إنامتهم هذه المدة الطويلة جَعَلْنا بَعْثهم آيةً. واللام في «ليتساءلوا» للصيرورة والمآل لا للتعليل.

والقائل في قوله: ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ قيل كبيرهم، وقيل صاحب نفقتهم.

---

(١) ق: حقيقته.

(٢) طوى عنه كشحه وأولاه كشحه: تركه وأدبر عنه.

و«كم» سؤال عن العدد والمعنى: كم يوماً أقمتم نائمين. والظاهر صدور الشكّ من المسؤولين، وقيل «أو» للتفضيل؛ قال بعضهم: لبثنا يوماً، وقال بعضهم: بعض يوم. والسائل أحسّ في خاطره طول نومهم ولذلك سأل. قيل: ناموا أول النهار واستيقظوا آخر النّهار. وجوابهم هذا مبني على غلبة الظنّ، والقول بالظّن الغالب لا يُعدّ كذباً. ولمّا عرض لهم الشّك في الإخبار ردّوا علم لُبْثهم إلى الله تعالى. ولمّا انتبهوا من نومهم أخذهم ما يأخذ من نام طويلاً [من] الحاجة إلى الطعام.

واتّصل ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ﴾ بحديث التساؤل كأنهم قالوا: خذوا فيما[1] يهمّكم ودَعُوْا علم ذلك إلى الله تعالى. والمبعوث قيل هو تمليخا. وكانوا قد استصحبوا حين خرجوا دراهم لنفقتهم وكانت حاضرة عندهم، فلذلك أشاروا إليها بقولهم «هذه». و«المدينة» هي مدينتهم التي خرجوا منها. «وليتلطف» في اختفائه وتحيّله مدخلاً ومخرجاً. «ولا يشعرون» أي: لا يفعل ما [٣٤٢/ب] يؤدّي من غير قصدٍ منه إلى الشعور بنا، سمّي ذلك إشعاراً منه بهم لأنه سبب فيه. والجملة في موضع نصب بـ«فلينظر» معلّق عنها الفعل. «فأيّها» استفهام مبتدأ، و«أزكى» خبره. ويجوز أن يكون «أيّها» موصولاً مبنيًّا مفعولاً «بينظر» على مذهب سيبويه، و«أزكى» خبر مبتدأ محذوف، و«طعاماً» تمييز. و«أزكى» قال يمان بن ريان[2]: أرخص.

والضمير في «إنهم» عائد على ما دلّ عليه المعنى من كفّار تلك المدينة. والظّهور هنا الاطّلاع عليهم والعلم بمكانهم، والظاهر أنه الرّجم بالحجارة. «أو يعيدوكم» يدخلوكم فيها مكرهين. ولا يلزم

---

(١) ق: ما.

(٢) ق: رياب، وانظر البحر ٦: ١١١.

من[1] العود إلى الشيء التلبّس به. «ولن تفلحوا» إن دخلتم في دينهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ قبل هذا الكلام جمل محذوفة، التقدير: فبعثوا أحدهم، ونظر أيها أزكى طعاماً، وتلطّف، ولم يُشعر بهم أحداً، فأطلع الله تعالى أهل المدينة على حالهم. وقصّة ذهابه إلى المدينة وما جرى له مع أهلها وحمله إلى الملك وادّعائهم عليه أنه أصاب كنزاً من كنوز الأقدمين وحمل الملك ومن ذهب إليهم مذكور في التفاسير[2].

و﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أَطْلعنا. وتقدّم الكلام في «أعثرنا» في قوله ﴿فَإِنْ عُثِرَ[3] ﴿١٠٧﴾﴾ [المائدة]. ومفعول «أعثرنا» محذوف تقديره: أعثرناهم عليهم. والضمير في ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ عائد على مفعول «أعثرنا». و«وعد الله» هو البعث لأنّ حالهم في نومتهم وانتباههم بعد المدة المتطاولة كحال من يموت ثم

---

(١) ق: يلزمن العود.

(٢) انظر مثلاً: تفسير الطبري ١٥: ١٤٢، والقرطبي ١٠: ٣٧٨.

(٣) ق: عثروا.

يبعث. و«لا ريب فيها» أي: لا شكّ ولا ارتياب في قيامها والمجازاة فيها. وكان الذين أُعثروا على أهل الكهف قد دخلتهم فتنة في أمر الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشكّ في ذلك بعض الناس، واستبعدوه وقالوا: تُحشر الأرواح. فشقّ ذلك على ملكهم وبقي حيران [لا يدري] كيف يبين أمره لهم حتى لبس المسوح وقعد على الرّماد وتضرّع إلى الله تعالى في حجّة وبيان. فأعثر الله تعالى على أهل الكهف، فلما بعثهم الله تعالى، وتبيّن الناس أمرهم، سُرّ الملك بذلك، ورجع من كان شكّ في بعث الأجساد إلى اليقين به. وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾. و«إذ» معمولة «لأعثرنا» أو «ليعلموا».

والظاهر أنّ «سيقولون» عائد على من تقدّم ذكرهم وهم المتنازعون في حديثهم قبل ظهورهم عليهم، فأخبر تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بما كان من اختلاف قومهم في عددهم. وانتصب «رجماً» على أنه مصدر لفعل مضمر أي: يرجمون بذلك. و«ثلاثة» خبر مبتدأ محذوف والجملة بعده صفة أي: هم ثلاثة أشخاص. وإنما قدّرنا أشخاصاً [لأنّ] «رابعهم»[1] اسم فاعل أضيف إلى الضمير. والمعنى أنه ربعهم أي: جعلهم أربعة وصيّرهم إلى هذا العدد. والكلام في «خمسة سادسهم[2]» كالكلام فيما تقدّم. والواو في «وثامنهم» للعطف على الجملة السابقة، أي: يقولون هم سبعة وثامنهم كلبهم. ثم أخبروا إخباراً ثانياً أن ثامنهم كلبهم فهما جملتان.

قال الزمخشري[3]: فإن قلت: فما هذه الواو الداخلة على الجملة [الثالثة

(١) ق: ورابعهم.
(٢) ق: وسادسهم.
(٣) الكشاف ٢: ٤٧٨.

ولِمَ دخلت عليها دون الأوليين؟ قلت: هي الواو التي تدخل على الجملة] الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف، ومنه[1] [٣٤٣/أ] قوله عزّ وجلّ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝﴾ [الحجر]. وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف والدّلالة على أنّ اتّصافه بها أمر ثابت مستقرّ، وهي الواو التي أذّيت بالذين قالوا «سبعة وثامنهم كلبهم» قالوا عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظنّ كما غيرهم انتهى.

وكون الواو تدخل على الجملة الواقعة صفة دالّة على لصوق الصفة بالموصوف وعلى ثبوت اتّصاله بها، شيء لا يعرفه النّحويون. بل قرّروا[2] أنه لا تعطف[3] الصفة التي ليست بجملة على صفة أخرى، إلا إذا اختلفت المعاني حتى يكون العطف دالاًّ على المغايرة، وأما إذا لم يختلف فلا يجوز العطف. هذا في الأسماء المفردة، وأما الجمل التي تقع صفة فهي أبعد من أن يجوز ذلك فيها.

ولمّا أخبر تعالى عن مقالتهم واضطرابهم في عددهم أمره أن يقول «ربي أعلم بعدتهم» [أي] لا يخبر بعددهم إلا من يعلمهم حقيقةً وهو الله تعالى. «ما يعلمهم إلا قليل» والمثبت في حق الله تعالى الأعلمية وفي حقّ القليل العالمية فلا تعارض. ثم نهاه تعالى عن الجدل فيهم أي: في عدّتهم. والمراء: وسمّى مراجعتهم له مراء على سبيل المقابلة لمماراة أهل الكتاب له في ذلك، وقيده بقوله «ظاهراً» أي: غير متعمق فيه وهو أن تقصّ عليهم ما

(١) مكررة في ق.

(٢) ق: قدّروا.

(٣) ق: يعطف.

أوحي إليك فحسب من غير تجهيل ولا تعنيف كما قال تعالى ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل]. ثم نهاه أن يسأل أحداً من أهل الكتاب عن قصّتهم: لا سؤال متعنّت لأنه خلاف ما أمرت به من الجدال بالتي هي أحسن، ولا سؤال مسترشد لأنه تعالى قد أرسلك بأن أوحى إليك قصّتهم.

ثم نهاه أن يخبر بأنه يفعل في الزمن المستقبل شيئاً إلا ويقرن بمشيئته تعالى. وتقدّم في سبب النزول[1] كونه لم يقل ذلك مقروناً بالمشيئة.

و﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناء لا يمكن حمله على ظاهره، لأنه يكون داخلاً تحت القول، فيكون من المقول، ولا ينهاه الله أن يقول ﴿إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ لأنه كلام صحيح في نفسه لا يمكن أن ينهى عنه، فاحتيج في تأويل هذا الظاهر إلى تقدير. والظاهر أمره تعالى بذكر الله إذا عرض له النسيان.

والإشارة بقوله ﴿لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا﴾ إلى الشيءِ المنسيِّ، أي: اذكر ربك عند نسيانه بأن تقول: عسى أن يهديني ربي لشيء آخر أقرب منه رشداً وأدنى خيراً.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ

(١) انظر صدر تفسير هذه السورة.

وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ﴾ الظاهر أن قوله[1] «ولبثوا» إخبار من الله تعالى بمدة لبثهم نياماً في الكهف إلى أن أطْلع الله تعالى عليهم. ولمّا تحرّر هذا العدد بإخبار الله تعالى، أمر نبيّه عليه السلام أن يقول ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ فخبره هذا هو الحق والصدق الذي لا يدخله ريب، لأنه عالم غيب السماوات والأرض.

والظاهر أن قوله «بما لبثوا» إشارة إلى المدّة السابق ذكرها. وحكى النقّاش أنها ثلاث مئة سنة شمسيّة، ولما كان الخطاب للعرب زيدت التّسع إذ حساب العرب هو بالقمر لاتّفاق الحسابين. والضمير في «له» عائد على الله. وهل هو في موضع رفع أو نصب، وهل: أسمِعْ وأبصِرْ أمران حقيقة أم أمران لفظيّان معناهما إنشاء التعجب، في ذلك خلاف مقرر في النحو. وتقدم الكلام على كيفية نسبة التعجب إلى الله تعالى في قوله ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾ [البقرة].

والضمير في قوله «مالهم» لأهل السماوات والأرض. و«من ولي» من متولٍّ[2] [٣٤٣/ب] لأمورهم. ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ في قضائه. ﴿أَحَدًا﴾ منهم.

(١) أن قوله: مكررة في ق.
(٢) ق: متولّي.

ولما أنزل[١] عليه ما أنزل من قصة أهل الكهف، أمره بأن يقصّ ويتلو على معاصريه ما أوحى الله تعالى [إليه] من كتابه في قصة أهل الكهف وفي غيرهم، وأنّ ما أوحاه إليه لا مبدّل له.

و﴿لَا مُبَدِّلَ﴾ عامّ و﴿لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ عامّ أيضاً.

فالتخصيص إما في «لا مبدّل» أي: لا مبدّل له سواه ألا ترى إلى قوله ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل]؟ وإما في: كلماته، [أي]: لكلماته المتضمّنة الخبر، لأن ما تضمّن غير الخبر وقع النسخ في بعضه.

وفي أمره تعالى أن يتلو ما أوحي إليه، وإخباره أنه لا مبدّل لكلماته إشارة إلى تبديل المتنازعين في أهل الكهف وتحريف أخبارهم. والملتحد: أي: الملتجأ الذي تميل إليه وتعدل له.

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية، قال كفار قريش: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك، وصحبناك - يعنون عمّاراً وصهيباً وسلمان[٢] وابن مسعود وبلالاً ونحوهم من الفقراء - وقالوا: إن ريح جبابهم[٣] يؤذينا، فنزلت «واصبر نفسك» الآية[٤]، أي: احبسها وثبّتها. قال عنترة[٥]:

فصبرتُ عارفةً لذلك حُرّةً ترسو إذا نفسُ الجبان تَطَلَّعُ

﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ إشارة إلى الصلوات الخمس. وتقدم الكلام على قوله

---

(١) ق: نزل.

(٢) ق: سليمان.

(٣) ق: جباههم.

(٤) انظر لباب النقول ص١٠١.

(٥) ق: قال أبو ذؤيب، وهو خطأ والبيت لعنترة في ديوانه ص٢٦٤. وهو من الكامل

«بالغداة والعشي» قراءة وإعراباً في الأنعام[١].

﴿وَلَا تَعْدُ﴾ أي: لا تصرفِ عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا. وعدا: متعدٍّ، تقول: عدا فلان طوره، وجاء القوم عدا زيداً. فلذلك قدّرنا المفعول محذوفاً ليبقى الفعل على أصله من التّعدية.

وقال الزمخشري[٢]: إنما عُدّي [بعن] لتضمين عدا معنى نبا وعلا في قولك: نبت عنه عينه، وعلت عنه عينه، إذا اقتحمته، ولم تعلق به. فإذا قلت: أي غرض في هذا التضمين، وهلاّ قيل: ولا تَعْدُهُمْ عيناك، أو: لا تَعْلُ عيناك عنهم؟ قلت: الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ[٣]، ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك: ولا تقتحمهم عيناك مجاوَزين إلى غيرهم. ونحوه قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ ②﴾ [النساء] أي: ولا تضمّوها إليها آكلين لها انتهى.

وما ذكره من التضمين لا ينقاس عند البصريين، وإنما يُذهب إليه عند الضرورة، أمّا إذا أمكن إجراء اللفظ على مدلوله الوضعي، فإنه يكون أولى.

وقال الزمخشري[٤]: «تريد زينة الحياة الدنيا» في موضع الحال.انتهى.

وصاحب الحال إن قُدّر «عيناك» فكان يكون التركيب: تريدان[٥]. وإن قُدّر الكاف فمجيء الحال من المجرور بالإضافة مثل هذا فيه إشكال،

(١) انظر تفسير الآية ٥٢ من الأنعام.
(٢) الكشاف ٢: ٤٨١.
(٣) ق: فذاً. والفذّ: الفرد.
(٤) الكشاف ٢: ٤٨٢.
(٥) ق: يريدان.

لاختلاف العامل في الحال وذي الحال، وقد أجاز ذلك بعضهم إذا كان المضاف جزءاً أو كالجزء. وحسّن ذلك هنا أن المقصود نهيه هو عليه السلام عن الإعراض عنهم والميل إلى غيرهم. [وإنما جيء بقوله «عيناك» والمقصود هو، لأنهما بهما يكون المراعاة للشخص والتلفّت إليه. والمعنى: ولا تَعْدُ أنت عنهم النظر إلى غيرهم].

والظاهر أن المراد بـ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا﴾ كفار قريش. ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في طلب الشهوات. ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ أي: ضائعاً.

و﴿ٱلْحَقُّ﴾ يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو[1]. ويجوز أن يكون «الحق» مبتدأ و﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الخبر. والظاهر أن الفاعل «بشاء» عائد على «مَن».

وقال ابن عطية: الضمير في «شاء» عائد على الله تعالى، وكأنه لمّا كان الإيمان والكفر تابعين لمشيئة الله تعالى، جاء بصيغة الأمر حتى كأنه تحتّم وقوعه مأمور به مطلوب منه. ولما تقدّم الإيمان والكفر أعقب بما أعدّ لهما، فذكر ما أعدّ للكافرين تِلْوَ[2] قوله ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ [٣٤٤/أ] وأتى بعد ذلك بما أعدّ للمؤمنين. والسّرادق: حائط من نار محيط.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟﴾ يطلبوا الغوث ممّا حلّ بهم من النار وشدة إحراقها واشتداد عطشها.

﴿يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ﴾ هذا على سبيل المقابلة، وإلا فليست إغاثة.

---

(١) في البحر ٦: ١٢٠: هذا الحق.

(٢) ق: يلي.

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ قال ابن عباس: ماء غليظ مثل دُرْدِيّ الزيت[١].

و﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ في موضع الصفة «لماء» أو في موضع الحال منه، لأنه قد وصف، فحسن مجيء الحال [منه] وإنما اختصّ الوجوه لكونها عند شربهم يقرب حرّها من وجوههم. وقيل: عبّر بالوجوه عن جميع أبدانهم، والمعنى أنه ينضج به جميع جلودهم.

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ المخصوص بالذّم محذوف تقديره: بئس الشراب هو، أي: الماء [الذي يغاثون به. والضمير في «ساءت» عائد على النار. والمرتَفَق: قال ابن عباس]: المَنْزِل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية، خبر «إنّ» قوله «أولئك». والجملة من قوله «إنا لا نضيع» [اعتراض. ويحتمل أن يكون الخبر قوله «إنّا لا نضيع»] ويكون العائد محذوفاً[٢] تقديره: من أحسن عملاً منهم.

ويجوز أن يكون «أولئك» مبتدأ خبره ما بعده، ويكون توضيحاً لقوله «إنا لا نضيع أجر». ولما ذكر مكان أهل الكفر وهو النار، ذكر مكان أهل الإيمان وهي جنّات عدن. ولما ذكر هناك ما يغاثون[٣] به وهو [ماء] كالمهل، ذكر هنا ما خصّ به أهل الجنة من كون الأنهار تجري من تحتهم [ثمّ] ذكر ما أنعم به عليهم من التّحلية واللباس اللذين هما زينة ظاهرة، وبدأ بالتحلية، لأنها أفخر من اللباس. و«مِن» الأولى يجوز أن تكون للابتداء والثانية لتّبيين. وقرأ أبان عن عاصم: أَسْوِرَة، جمع سوار. وقرأ الجمهور:

---

(١) دُرْديّ الزيت وغيره: ما يبقى في أسفله.

(٢) ق: محذوف.

(٣) ق: يغاثوا.

أساور، جمع أسْوِرَة، وهي جمع الجمع.

قال الزمخشري[1]: وجمع بين السندس وهو ما رقّ من الديباج، وبين الإستبرق وهو الغليظ منه جمعاً بين النوعين. [انتهى].

وبناء التّحلية للمفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله إشعار[2] بأنهم يكرَمُون بذلك، ولا يتعاطون ذلك بأنفسهم. قال الشاعر[3]: [من الطويل]

غـرائـر فـي كـنٍّ وصـونٍ ونعمـةٍ يُحَلَّيـن يـاقـوتـاً وشَـذْراً مفقّـرا[4]

وأسند الفعل[5] إليهم، لأن الإنسان يتعاطى ذلك بنفسه خصوصاً لو كان بادي العورة. ووصف الثياب بالخضرة، لأنها أحسن الألوان، والنفس تنبسط لها أكثر من غيرها، وقد روي في ذلك أثر أنها تزيد في ضوء البصر.

وخصّ الاتّكاء لأنها هيئة المُنْعَمين والملوك على أسرّتهم. و«الأرائك» جمع أريكة وهي السرير. والمخصوص بالمدح محذوف أي: نعم الثواب ما وُعدوا به. والضمير في «وحسنات» عائد على الجنات. و«مرتفقا» تمييز، وهو محوّل من الفاعل.

﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾

(١) الكشاف ٢: ٤٨٣.
(٢) ق: إشعاراً.
(٣) البيت في اللسان (فقر) غير منسوب.
(٤) فقّر الخرز: ثقبه للنظم.
(٥) أي فعل اللباس.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ
ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ
وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ
ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا
بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ
وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن
تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ ۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ الآية، قيل: نزلت في أخوين من بني مخزوم[١]: الأسود بن عبد الأسود بن عبد يا ليل، وكان كافراً، وأبي سلمة عبدالله بن الأسود، وكان مؤمناً. وقيل غير ذلك. والضمير في «لهم» عائد على المتجبرين الطالبين من رسول الله ﷺ طرد ضعفاء المؤمنين، فالرجل الكافر بإزاء المتجبّرين، والمؤمن بإزاء ضعفاء المؤمنين. وظهر بضرب المثل الربط بين هذه الآية والذي قبلها؛ إذ كان من أشرك إنما افتخر بماله وأنصاره، وهذا يزول، فيصير الغني فقيراً، وإنما المفاخرة بطاعة الله تعالى. «واضرب لهم» قصة رجلين. و«جعلنا» تفسير للمثل فلا موضع له من الإعراب. وأبهم في قوله «جعلنا لأحدهما» وتبيّن أنه[٢] الكافر الشاكّ في البعث. وأبهم تعالى

(١) اختُلف في اسميهما؛ فهما في القرطبي ١٠: ٣٩٩ أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد.. زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ، والأسود بن عبد الأسد، وكان الأول مؤمناً والآخر كافراً.

(٢) ق: أنّ.

مكان الجنّتين إذ لا يتعلق [٣٤٤/ب] بتعيينه كبير فائدة. وذكر إبراهيم ابن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلدان أن بحيرة تنّيس[١] كانت هاتين الجنّتين، وكانتا لأخوين، فباع أحدهما نصيبه من الآخر، وأنفقه في طاعة الله تعالى حتّى عيّره الآخر، وجرت بينهما هذه المحاورة. قال: فغرّقهما الله تعالى في ليلة، وإياهما عنى بهذه الآية.

قال ابن عطية: وتأمّل هذه الهيئة التي ذكرها الله تعالى، فإن المرء لا يكاد يتخيّل أجلّ منها في مكاسب الناس: جنّتا عنب أحاط بهما نخل، وبينهما فسحة هي مزدرع لجميع الحبوب، والماء المَعِين يسقي جميع ذلك من النّهر.

﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا﴾ حفّه: طاف به من جوانبه. قال[٢]: [من البسيط]

يَحُفُّــه جــانبــا نِيْــقٍ ويُتْبِعُــه مِثْلَ الزّجاجة لم تُكْحَلْ من الرَّمدِ[٣]

وحففته به: جعلته مطيفاً به.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ أي: كل واحدة منهما ولذلك أفرد في قوله ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾. وقد راعى معنى التثنية في قوله ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا﴾ فثنّى الضمير وهو ضمير الجنّتين. وقال الشاعر[٤]: [من البسيط]

كلاهما حين جدّ الجري بينهما قــد أقلعــا وكــلا أنفيهمــا رابــي

فثنّى في أقلعا وأفرد في رابي.

(١) تنّيس: من مدن مصر، انظر الروض المعطار ص١٣٧.
(٢) البيت للنابغة في ديوانه ص١٥.
(٣) النّيق: الجبل. ويتبعه مثل الزجاجة: يريد عيناً صافية.
(٤) البيت للفرزدق في ديوانه ص٣٣ (ط الصاوي).

﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي: لم تنقص منه شيئاً.

وقرىء: ثَمَر وثُمُر. ويظهر من قوله «فقال لصاحبه» أنه ليس أخاه. «وهو يحاوره» جملة حالية. والظاهر أن ذا الحال هو القائل، أي: يفتخر عليه بكثرة ماله وعزّة نفسه. و«مالاً» و«نفراً» تمييزان بعد أفعل التفضيل.

وقال الزمخشري[1]: فإن قلت: لِمَ أفرد الجنّة بعد التّثنية؟ قلت: معناه: ودخل ما هو جنّته ماله جنّةٌ غيرها، يعني أنه لا نصيب له من الجنّة التي وُعد المتّقون، فما مَلَكَه في الدنيا جنّته لا غير، ولم يقصد الجنّتين ولا واحدة منهما انتهى.

ولا يُتصور ما قاله، لأنّ قوله «ودخل جنته» إخبار من الله تعالى بدخول ذلك الكافر جنّته، فلا بدّ أن يكون قصد في الإخبار أنه دخل إحدى جنّتيه إذ لا يمكن أن يدخلهما معاً في وقت واحد. والمعنى: ودخل جنته يُري صاحبه ما هي عليه من البهجة والنضارة والحسن.

﴿وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ جملة حالية أي: وهو كافر بنعمة ربّه، مغترّ بما ملكه، شاكٌّ في نفاد[2] ما خوّله، وفي البعث الذي حاوره فيه صاحبه. والظاهر أن الإشارة بقوله «هذه» إلى الجنة التي دخلها. وعنى بالأبد أبد حياته، وذلك لطول أمله وتمادي غفلته، ولحسن قيامه عليها بما أوتي من المال والخدم، فهي باقية مدّة حياته على حالها من الحسن والنضارة. والحسّ يقضي بأن أحوال الدنيا بأسرها غير باقية.

﴿أَن تَبِيدَ﴾ أن تهلك. «هذه» إشارة إلى الجنة التي دخلها.

---

(١) الكشاف ٢: ٤٨٤.

(٢) ق: نفاذ.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ هذا شكّ في قيام السّاعة، وهو كفر. ثم أقسم على أنّه إن رُدَّ إلى ربه، على سبيل قياس الأخرى على الدنيا، كما يزعم صاحبه، ليجدنّ في الآخرة خيراً من جنّته تطمّعاً وتمنّياً على الله تعالى، وادّعاء لكرامته عليه ومكانته عنده، وأنه ما أولاه الجنّتين في الدنيا إلاّ لاستحقاقه، وأنّ معه هذا الاستحقاق أين توجّه، كقوله ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۝٥٠﴾ [فصلت].

ومعنى «منقلباً» [٣٤٥/أ] مرجعاً وعاقبة، أي: منقلب الآخرة لبقائها، خير من منقلب الدنيا لزوالها. وانتصب «منقلباً» على التمييز.

﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ الآية، «وهو يحاوره» حال من الفاعل وهو «صاحبه».

﴿أَكَفَرْتَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ حيث أشرك مع الله تعالى غيره. ثم نبّه على أصل نشأته وإيجاده بعد العدم، وأن ذلك دليل على جواز البعث من القبور، ثمّ تحتّم[١] ذلك بإخبار الصادقين وهم الرسل عليهم السلام.

وقوله: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ إما أن يراد: خلق أصلك من تراب، وهو آدم عليه السلام، وخَلْقُ أصله سببٌ في خلقه، فكان خَلْقه خَلْقاً له. أو أريد[٢] أنّ ماء الرجل يتولّد من أغذية راجعة إلى التراب، فنبّه أوّلاً على ما تولّد منه ماء أبيه، ثم ثانيه على النّطفة التي هي ماء أبيه.

وانتصب «رجلاً» على الحال والعامل فيه «سواك». ولمّا لم يكن الاستفهام استفهام إعلام وإنما هو استفهام إنكار وتوبيخ، فهو في الحقيقة

(١) ق: نختم.
(٢) ق: وأريد.

تقرير على كفره وإخبار عنه، لأن معناه: قد كفرت بالذي خلقك.

استدرك هو مخبراً عن حال نفسه فقال ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ إقراراً بتوحيد الله تعالى، وأنه لا يشرك به. وقرىء: لكنّ، بتشديد النون بغير ألف في الوصل وبألف في الوقف. وأصله: لكن أنا، ونقل حركة الهمزة إلى نون لكنْ، وحذف الهمزة، فالتقى مثلان، فأدغم أحدهما في الآخر. وأما في الوقف، فإنه[1] أثبت ألف أنا، وهو المشهور في الوقف على أنا. ومثال إثباتها في الوصل قوله[2]: [من الوافر]

أنا سيف العشيرة فاعرفوني حُميداً قد تذرّيتُ السّناما[3]

كان الأصل: لكن أنا وحصل الإدغام.

وقال الزمخشري[4]: ونحوه - يعني: ونحو إدغام نون لكن في نون أنا بعد حذف الهمزة - قول القائل[5]: [من الطويل]

وترمينني بالطَّرْفِ أي أنت مذنبٌ وتَقْلينني لكنَّ إياكِ لا أَقْلي

أي: لكن أنا لا أقليك.انتهى.

لا يتعيّن ما قاله في البيت لجواز أن يكون التقدير: لكنّني، فحذف اسم لكنّ. وذكروا أن حذفه فصيح، إذا دلّ عليه الكلام، وأنشدوا على ذلك قول

---

(١) ق: وأنه.

(٢) البيت لحميد بن ثور في ديوانه ص١٣٣.

(٣) ق: تدربت السنانا.

(٤) الكشاف ٢: ٤٨٤.

(٥) البيت غير منسوب وهو في المفصل ص٣١٣ ومعاني القرآن ٢: ١٤٤.

الشاعر[١]: [من الطويل]

فلو كنت ضبّيًّا عرفت قرابتي ولكنّ زنجيٌّ عظيم المشافر

في رواية من روى زنجيٌّ بالرفع، أي: ولكنّك زنجي. «فأنا» مبتدأ، و﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن مبتدأ ثانٍ، و﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ ثالث، و﴿رَبِّى﴾ خبره. والثالث وخبره خبر عن الثاني، والثاني وخبره خبر عن «أنا». والعائد عليه هو الياء[٢] في «ربي»، وصار التركيب نظير: هند هو زيد ضاربها[٣].

وفي قوله ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ تعريض بإشراك صاحبه وأنه مخالفه في ذلك. وقد صرّح بذلك صاحبه في قوله ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴿٤٢﴾﴾ [الكهف].

﴿وَلَوْلَآ﴾ تحضيضيّة بمعنى هلاّ، ففصل بينها وبين فعل التّحضيض «بإذ» وهو ظرف لما مضى، والعامل فيه «قلت». و«ما» في ﴿مَا شَآءَ﴾ شرطية منصوبة بـ«شاء» والجواب محذوف تقديره: أيّ شيء شاء الله كان[٤]. ويجوز أن تكون «ما» موصولة مبتدأ والخبر محذوف تقديره: الذي شاء الله كائن. ويجوز أن يكون خبر [٣٤٥/ب] مبتدأ محذوف تقديره: الأمر الذي شاء الله. ثم نصحه بالتبرُّؤ من القوة فيما يحاوله ويعانيه، وأن يجعل القوة لله. ثم أردف تلك النّصيحة بترجّيه[٥] من الله تعالى وتوقّعه أن يقلب ما به وما بصاحبه من الفقر والغنى فقال ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ أي: أني

(١) البيت من شواهد الكتاب ٢: ١٣٦ ومنسوب فيه إلى الفرزدق، ولم أجده في ديوانه.
(٢) ق: الباء.
(٣) ق: ضربها.
(٤) ق: الذي شاءه كان.
(٥) في المطبوع: بترجية.

أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يمنحني جنّةً خيراً من جنّتك لإيماني به، ويزيل عنك نعمتك لكفرك به ويخرب بستانك.

وقرىء: أقلَّ، بالنصب مفعولاً ثانياً «لتَرَني» وهي عِلْميّة لا بَصَريّة، لوقوع «أنا» فصلاً. ويجوز أن يكون توكيداً للضمير المنصوب في «تَرَني». [ويجوز أن تكون بصريّة و«أنا» توكيد للضمير المنصوب في «تَرَني»] فيكون «أقلَّ» حالاً.

وقرىء: أقلُّ، بالرفع على أن يكون «أنا» مبتدأ و«أقلُّ» خبره، والجملة في موضع مفعول «ترني» الثاني إن كانت عِلْميّة، وفي موضع الحال إن كانت بَصَريّة.

ويدلّ قوله[1] ﴿وَوَلَدًا﴾ على أنّ قول صاحبه ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤﴾ [الكهف] عنى به الأولاد، إذ قابل كثرة المال بالقلّة، وعزّة النّفر بقلّة الأولاد.

والحسبان: قال ابن عطية: العذاب، وقيل غير ذلك. وهذا التّرجّي إن كان ذلك أن يؤتيه[2] في الدنيا فهو أنكى للكافر وآلم، إذ يرى حاله من الغنى قد انتقلت إلى صاحبه. وإن كان ذلك أن يؤتيه في الآخرة، فهو أشرف وأذهب مع الخير والصّلاح.

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا﴾ أي: أرضاً بيضاء، لا نبات فيها لا من كرم ولا نخل ولا زرع، قد اصطلم[3] جميع ذلك، فبقيت يباباً قفراً، يزلق عليها لإملاسها. والزَّلَق: الذي لا تثبت عليه قدم، ذهبت غراسه ونباته، وسلب المنافع حتى منفعة المشي، فهو وحل لا ينبت، ولا تثبت فيه قدم. وتَرَجَّى المؤمن لجنّة

---

(١) ق: ويدل عليه وولدا.

(٢) ق: يأتيه.

(٣) الاصطلام: الاستئصال.

هذ الكافر آفة[١] علويّة من السماء أو آفة سفلية من الأرض، وهو غور مائها، فيتلف كل ما فيها من الشجر والزرع.

و«غورا» مصدر، خبر عن اسم أصبح، على سبيل المبالغة «أو يصبح» معطوف على قوله «ويرسل». والضمير في «له» عائد على الماء، أي: لن تقدر على طلبه لكونه ليس مقدوراً على ردّ ما[٢] غوّره الله تعالى.

وبلّغ الله المؤمن ما ترجّاه من هلاك ما بيد[٣] صاحبه وإبادته، على خلاف ما ظنّ في قوله ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥﴾ [الكهف]، فأخبر تعالى أنه أحيط بثمره، وهو عبارة عن الإهلاك، وأصله الإحاطة.

و«يقلب كفيه» ظاهره أنه يقلّب كفّيه ظهراً لبطن ندماً، ولمّا كان هذا الفعل كناية عن النّدم، عدّاه تعدية فعل النّدم، فقال «على ما أنفق فيها»، كأنه قال: فأصبح نادماً على ذهاب ما أنفق في عمارة تلك الجنّة.

﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ تقدم الكلام عليه في أواخر البقرة[٤]. وتمنّيه انتفاء الشرك: الظاهر أنه صدر منه ذلك في حالة الدنيا على جهة التوبة بعد حلول المصيبة. وفي قوله «بربي»[٥] دليل على إيمانه.

ولمّا افتخر بكثرة ماله وعزّة نفره، أخبر تعالى أنه لم يكن له فئة، أي: جماعة تنصره، ولا كان منتصراً بنفسه. وجمع الضمير في «ينصرونه» على

(١) ق: بجنّة هذا الكافر بآفة.
(٢) وفي: على ردّ ماءٍ غوّره الله، وجه.
(٣) ق: يبيد.
(٤) انظر تفسير الآية ٢٥٩ من البقرة.
(٥) ق: ترني.

المعنى، كما أفرده على اللفظ في قوله ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

والحقيقة في ﴿هُنَالِكَ﴾ أن تكون ظرف مكان للبعد. وتقدّم في الكلام ما يدلّ على الدّار الآخرة، فالظاهر أنه أشير به لدار الآخرة، أي: في [٣٤٦/أ] تلك الدار الولاية لله، كقوله تعالى ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]. «فالولاية» مبتدأ و«هنالك» الخبر.

وقرىء: الوِلاية، بكسر الواو وفتحها. وقرىء: الحقِّ، بكسر القاف صفة «لله» تعالى. وقرىء: الحقُّ، بالرفع صفة للولاية.

«هو خير» مبتدأ وخبر. «ثواباً» تمييز. ولما كان «هنالك» إشارة إلى الدار الآخرة، ناسب ذِكْرُ الخيريّةِ الثوابَ فيها. و«عقباً» بمعنى العاقبة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية، لمّا بيّن تعالى في المثل الأول حال

الكافر والمؤمن، وما آل إليه ما[1] افتخر به الكافر من الهلاك، بيّن في هذا المثل حال الحياة الدنيا واضمحلالها ومصير ما فيها من النعيم والترفّه.

و﴿ كَمَآءٍ ﴾ تقدّم الكلام على تفسير نظير هذه الجملة في يونس[2]. والهشيم: اليابس، قاله الفرّاء، واحده هشيمة. وقال الشاعر[3]: [من الوافر]

ولكـن البـلاد إذا اقشعـرّت   وصـوّح نبتهـا رُعـي الهشيـم

ذَرى وأذرى لغتان: فرّق، قاله أبو عبيدة.

﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ قال الجمهور: هي الكلمات المأثور[4] فضلها وهي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ أي: رجاءً.

ولمّا ذكر تعالى ما يؤول إليه حال الدنيا من النّفاد، أعقب ذلك بأوائل أحوال يوم القيامة فقال ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ والمعنى أنه ينفكّ نظام هذا العالم الدنياوي، ويؤتى بالعالم الأخروي. وانتصب «يوم» على إضمار: واذكر يوم. وقرىء: تُسَيَّر، مبنيًّا للمفعول. ونسيّر، بنون العظمة مبنياً للفاعل.

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ ﴾ وقرىء: وتُرى، مبنيًّا للمفعول.

(١) ق: وما.
(٢) انظر تفسير الآية ٢٤ من يونس.
(٣) البيت في اللسان «صوح» منسوب لأبي علي البصير.
(٤) ق: المأثورة.

﴿بَارِزَةً﴾ حال، أي: منكشفة ظاهرة لذهاب الجبال والظِّراب[١] والشجر والعمارة، أو على حذف مضاف تقديره: وترى أهل الأرض بارزين من بطنها.

و﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أي: أقمناهم من قبورهم، وجمعناهم لعرصة القيامة.

وقال الزمخشري[٢]: فإن قلت: لِمَ جيء «بحشرناهم» ماضياً بعد «نسيّر» و«ترى» قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز، ليعاينوا[٣] تلك الأهوال العظائم[٤]، وكأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك انتهى.

والأولى أن تكون الواو واو الحال لا واو العطف، والمعنى: وقد حشرناهم، أي: يُوقَع التسيير في حال حشرهم.

وقيل: «وحشرناهم» «وعرضوا» «ووضع الكتاب» ممّا وُضع فيه الماضي موضع المستقبل لتحقُّقِ وقوعه. و«فلم نغادر» أي: لم نترك.

وانتصب «صفاً» على الحال، وهو مفرد تنزّل منزلة الجمع أي: صفوفاً. وفي الحديث الصحيح[٥]: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يسمعهم الداعي وينفذهم[٦] البصر» الحديث الصحيح بطوله.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ معمول لقولٍ محذوف تقديره: وقلنا.

---

(١) واحدها الظَّرِب، وهي الروابي الصغار.
(٢) الكشاف ٢ : ٤٨٧.
(٣) ق: لعاينوا.
(٤) ق: والعظائم.
(٥) انظر صحيح مسلم ١ : ١٨٠، وصحيح الجامع الصغير ٦ : ٣١٩ وما بعدها.
(٦) ق: وينفد.

و﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ نعت لمصدر محذوف، أي: مجيئاً مثل مجيء خلقكم، أي: حفاةً عراةً غرلاً، كما جاء في الحديث[1]، وخالين من المال والولد. و«أنْ» هنا مخففة من الثقيلة وفصل بينهما وبين الفعل بحرف النفي وهو «لن»[2] كما فصل في قوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ [القيامة]. و«بل» للإضراب بمعنى الانتقال من خبر إلى خبر، ليس بمعنى الإبطال، والمعنى: أن لن نجعل لإعادتكم وحشركم موعداً، أي: مكان وعدٍ أو زمان وعد لإنجاز ما وُعدتم [٣٤٦/ب] على ألسنة الأنبياء عليهم السلام من البعث والنشور.

والخطاب في[3] «لقد جئتمونا» للكفّار المنكرين البعث على سبيل تقريعهم وتوبيخهم.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ «الكتاب» اسم جنس أي: كتب أعمال الخلق. وإشفاقهم: خوفهم من كشف أعمالهم السّيئة وفضيحتهم وما يترتب على ذلك من العذاب السّرمدي.

﴿ يَٰوَيْلَتَنَا ﴾ نادوا هلكتهم التي هلكوا خاصة من بين الهلكات فقالوا «يا ويلتنا» والمراد مَن بحضرتهم كأنهم قالوا: يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا، وكذا ما جاء من نداء ما لا يعقل.

«ما» استفهامية مبتدأ، و«لهذا» في موضع الخبر تقديره: أي شيء لهذا الكتاب. و«لا يغادر» جملة حالية. «صغيرة» أي: مثل القُبلة. «ولا كبيرة»

(١) انظر ما أخرجه مسلم في صحيحه ٤: ٢١٩٤ من حديث عائشة وابن عباس. وغُرلاً: غير مختونين، جمع أغرل.
(٢) ق: أن.
(٣) ق: من.

مثل الزّنى. وقُدّمت الصغيرة اهتماماً بها، وإذا أُحصيت الصغيرة فالكبيرة أحرى.

﴿إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ ضبطها وحفظها.

﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ في الصحف عتيداً.

﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ فيكتب عليه ما لم يعمل أو يزيد في عقابه.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ
أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ
بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ
ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ
يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا
وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ
ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ
وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا
نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ
بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ
عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ
وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ
يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ
مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم
مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ الآية، ارتباطها بالتي قبلها هو أنه لمّا ذكر يوم القيامة والحشر، وذكر خوف المجرمين ممّا سُطّر في ذلك الكتاب –

وكان إبليس هو الذي حمل المجرمين على معاصيهم واتّخاذ شركاء مع الله تعالى - ناسب ذكر إبليس والنّهي عن اتّخاذ ذرّيته أولياء من دون الله تعالى، تبعيداً عن المعاصي وعن امتثال ما يوسوس به. وتقدّم الكلام في استثناء إبليس أهو استثناء متّصل أم منقطع، وهل هو من الملائكة أم ليس منهم في أوائل البقرة[1]. فأغنى عن إعادته.

والظاهر أنّ معنى ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ فخرج عمّا أمره به ربّه من السجود. والهمزة في: أتتّخذونه، للتوبيخ والإنكار والتّعجب أي: أبعد ما ظهر منه الفسق والعصيان، تتّخذونه وذرّيته أولياء من دوني مع ثبوت عداوته لكم تتخذونه وليّاً؟. ﴿وَهُمۡ[2] لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾ جملة حالية. و«عدو» مفرد أريد به الجمع المقابل به الجمع وهو «أولياء». والمخصوص بالذّم محذوف، أي: بئس للظالمين بدلاً من الله تعالى إبليس وذرّيته. وقال «للظالمين» لأنهم اعتاضوا من الحقّ بالباطل وجعلوا مكان ولايتهم الله تعالى ولايتهم إبليس وذرّيته. وهذا نفس الظلم، لأنه وضع الشيء في غير موضعه.

﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ الذي يظهر أن المعنى إخبار من الله تعالى عن نبيّه عليه السلام، وخطاب منه تعالى له في انتفاء كينونته متّخذ عضدٍ من المضلّين، بل هو مذ كان ووجد عليه السلام في غاية التبرّؤ منهم والبعد عنهم، ليُعلم أمته أنه لم يزل محفوظاً من أول نشأته، لم يعتضد بمضلّ، ولا مال إليه عليه السلام. وقرأ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: متّخذاً المضلّين، أعمل اسم الفاعل.

﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ﴾ ليس المعنى أنه تعالى أخبر أنهم شركاؤه،

---

(١) انظر تفسير الآية ٣٤ من البقرة.

(٢) ق: وهو.

ولكنّ ذلك على زعمكم، والإضافة تكون بأدنى ملابسة. ومفعولا «زعمتم» محذوفان لدلالة المعنى عليهما، إذ التقدير: زعمتموهم شركائي. والنّداء بمعنى الاستغاثة، أي: استغيثوا بشركائكم، والمراد: نادوهم لدفع العذاب عنكم، أو للشفاعة لكم.

والظاهر أن الضمير في «بينهم» عائد على الداعين والمدعوّين وهم المشركون والشركاء.

﴿مَّوْبِقًا﴾ الموبق: المهلك[(١)]، يقال: [٣٤٧/أ] وَبِقَ يَوْبَقُ وَبَقاً، ووَبَقَ يَبِقُ وُبوقاً إذا هلك، فهو وابق. وأوبَقَتْه ذنوبه: أهلكَتْه.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ هي رؤية عين أي: عاينوها. والظّن[(٢)] هنا قيل: على موضوعه من كونه ترجيح أحد الجائزَيْن، وكونهم لم يجزموا بدخولها رجاءً وطمعاً في رحمة الله تعالى.

ومعنى ﴿مَصْرِفًا﴾ أي: معدلاً ومراغاً.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ الآية، تقدّم تفسير نظير صدر هذه الآية[(٣)]. وهنا «شيء» مفرد معناه الجمع، أي: أكثر الأشياء التي يتأتّى فيها الجدال إن فصّلتها[(٤)] واحداً واحداً.

﴿جَدَلًا﴾ خصومة ومماراة. يعني أن جدال الإنسان أكثر من جدل كل

---

(١) ق: الملك.

(٢) ق: في الظن.

(٣) انظر تفسير الآية ٤١ من الإسراء.

(٤) ق: وصلتها.

شيء. ونحوه ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾ [النحل]. وانتصب «جدلاً» على التمييز. قيل: والإنسان هنا النضر بن الحارث، وقيل ابن الزبعرى، وقيل أمية بن خلف. وكان جداله في البعث حتّى أتى بعظم فَذَرَّهُ فقال: أيقدر الله على إعادة هذا؟. وكثيراً ما يذكر الإنسان في معرض الذّم. وقد تلا رسول الله[(١)] ﷺ قوله تعالى ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ حين عاتب عليًا كرّم الله وجهه على النوم عن صلاة الليل، فقال له عليّ: إنما نفسي بيد الله تعالى[(٢)]. فاستعمل الإنسان على العموم.

وفي قوله ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ الآية، تأسُّفٌ عليهم وتنبيه على فساد حالهم، لأن هذا المنع لم يكن منهم بقصد أن يمتنعوا، ليجيئهم[(٣)] العذاب، وإنما امتنعوا هم مع اعتقاد أنهم مصيبون، لكن الأمر في نفسه يسوقهم إلى هذا، فكان حالهم تقتضي التأسف عليهم. و«الناس» يراد به كفّار عصر الرسول عليه السلام، الذين[(٤)] تولّوا دفع الشريعة وتكذيبها. «وما منع الناس أن يؤمنوا» إلا ما سبق في علمنا وقضائنا أن تجري عليهم سنّة الأولين من عذاب الاستئصال من المسخ والصيحة والخسف والغرق وعذاب الظّلة ونحو ذلك.

وأراد «بالأوّلين» من أهلك من الأمم السّالفة. و«أن يؤمنوا» في موضع نصب على إسقاط حرف الجر، أي: من الإيمان. وفاعل «منع» قوله «أن يأتيهم» وهو حذف مضاف تقديره: إلاّ انتظارُ أن يأتيهم.

وقرىء: قُبُلاً، بضمّ القاف والباء، فاحتمل أن يكون بمعنى: قِبَلاً، بكسر

---

(١) انظر البخاري ١ : ٣٧٩.

(٢) انظر البخاري ١ : ٣٧٩.

(٣) ق: ليجهم.

(٤) ق: الذي.

القاف وفتح الباء، وقد قرىء به، وحكاها أبو عبيدة أنهما بمعنى واحد في المقابلة. وأن يكون جمع قبيل، أي: يجيئهم[1] العذاب أنواعاً.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ أي: بالنعيم المقيم لمن آمن.

﴿وَمُنذِرِينَ﴾ أي: بالعذاب الأليم لمن كفر.

﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾ ليزيلوا. ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى﴾ يجمع آيات القرآن وعلامات الرسول قولاً وفعلاً.

﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾ من عذاب الآخرة. واحتملت «ما» أن تكون بمعنى الذي والعائد محذوف تقديره: وما أُنذروه، وأن تكون مصدريّة أي وإنذارهم، فلا يحتاج إلى عائد.

﴿هُزُوًا﴾ أي: سخرية واستخفافاً كقولهم ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٥﴾ [الأنعام]، ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۝٣١﴾ [الأنفال][2].

وتقدّم تفسير نظير قوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[3] الآية.

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء لا يهتدون أبداً. وهذا من العام والمراد به الخصوص وهو من طبع الله على قلبه، وقضى عليه بالموافاة على الكفر، إذ قد اهتدى كثير من الكفّار وآمنوا. وحمل أولاً على لفظ «مَن» في قوله ﴿ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فأفرد، ثم على المعنى في قوله «إنا جعلنا على

---

(١) ق: يجمعهم.
(٢) ق: لو شئنا.
(٣) انظر تفسير الآية ٢٥ من الأنعام.

قلوبهم» فجمع. وفي [٣٤٧/ب] «وإن [تدعهم]» وتقييده[١] بالأبدية مبالغة في انتفاء هدايتهم.

و«الغفور» صفة مبالغة. و«ذو الرحمة» أي: الموصوف بالرحمة. ثم ذكر دليل رحمته وهو كونه تعالى لا يؤاخذهم عاجلاً بل يمهلهم مع إفراطهم في الكفر وعداوة الرسول ﷺ. والموعد: أجل الموت.

وأشار تعالى بقوله ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [إلى القرى] المجاورة أهل مكّة كقرى ثمود وقوم لوط وغيرهم، ليعتبروا بما جرى عليهم، وليحذروا ما يحلّ[٢] بهم كما حلّ بتلك القرى. و«تلك» مبتدأ. و«القرى» صفة أو عطف بيان، والخبر «أهلكناهم». ويجوز أن يكون «القرى» الخبر، و«أهلكناهم» جملة حاليّة كقوله تعالى ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ ۝٥٢﴾ [النمل]. ويجوز أن يكون «تلك» منصوباً بإضمار فعل يفسّره ما بعده أي: وأهلكنا تلك القرى أهلكناهم. و«تلك القرى» على إضمار مضاف أي: وأصحاب تلك القرى، ولذلك عاد الضمير على ذلك المضمر في قوله «أهلكناهم».

وقوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ إشعارٌ بعلّة الإهلاك وهي الظلم، وبهذا استدلّ الأستاذ أبو الحسن بن عصفور على حرفية «لمّا» وأنها ليست بمعنى حين، لأن الظرف لا دلالة فيه على العلّة. وفي قوله «لمّا ظلموا» تحذير من الظّلم إذ نتيجته[٣] الإهلاك. وضربنا لإهلاكهم[٤] وقتاً معلوماً وهو الموعد. واحتمل الموعد أن يكون مصدراً أو زماناً.

---

(١) ق: تقبيده.

(٢) ق: حلّ.

(٣) ق: نتيجة.

(٤) ق: هلاكهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ
حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا
جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ
أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ
سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾
فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ
مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ
صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا
وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ
ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ الآية، في الحديث الثابت الصحيح[1] وفي التواريخ أنّه[2] موسى بن عمران موسى بني إسرائيل والمرسل هو وأخوه هارون إلى فرعون، وفتاه يوشع بن نون بن أفرائيم[3] بن يوسف بن يعقوب. والفتى: الشّاب. وسبب هذه القصة[4] أن موسى عليه السّلام جلس يوماً في مجلس لبني إسرائيل وخطب فأبلغ. فقيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا. فأوحى الله تعالى إليه أن يسير بطول سِيْف البحر[5] حتى يبلغ البحرين. وعتب الله عليه حين لم يردّ [العلم] إلى الله تعالى. فأوحى إليه: بل

(١) انظر ما أخرجه البخاري ٤: ١٧٥٢ من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٢) ق: أنّ.

(٣) ق: أفرائيل، والتصحيح من الرازي ٢١: ١٤٤.

(٤) راجع القصة في مظنّتها من صحيح البخاري المذكور فوق.

(٥) ق: بسيف طول البحر. وسيف البحر: ساحله.

أعلم منك عبدٌ لي عند مجمع البحرين، وهو الخضر في أيام فريدون قبل موسى. وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر، وبقي إلى أيام موسى عليه السلام.

ومعنى ﴿لَآ أَبۡرَحُ﴾ لا أزال وهي من أخوات كان، تحتاج إلى اسم وخبر، واسمها الضمير المستكنّ في «أبرح» العائد على موسى، والخبر محذوف لفهم المعنى، يدل عليه التّغيية بحتى، التقدير: لا أبرح سائراً حتى أبلغ. ونصّ أصحابنا على أن خبر كان وأخواتها لا يجوز حذفه وإن دلّ الدليل على حذفه إلا ما جاء في الشعر من قوله[1]: [من الكامل]

لهفي عليك للهفة من خائفٍ   يبغي جوارك حين ليس مجير

أي: حين ليس في الدنيا مجير. والذي أراه أنه يجوز حذفه إذا دلّ الدليل على حذفه كهذا الموضع.

قال الزمخشري[2]: فإن قلت: «لا أبرح» إن كان بمعنى لا أزول، مِن: برح بالمكان، فقد دلّ على الإقامة لا على السفر. وإن كان بمعنى لا أزال، فلا بدّ من الخبر. قلت: هو بمعنى لا أزال، وقد حذف الخبر، لأن الحال والكلام معاً يدلّان عليه. أما الحال فلأنها كانت حال سفر، وأما الكلام فلأنّ قوله «حتى أبلغ مجمع البحرين» غاية مضروبة تستدعي ما هي غاية له، فلا بدّ أن يكون المعنى: لا يبرح مسيري حتى أبلغ، على أن: حتى أبلغ هو الخبر، [٣٤٨/أ] فلما حُذف المضاف، أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير المتكلم فانقلب الفعل عن الضمير الغائب إلى ضمير المتكلم. وهو وجه

---

(١) البيت من شواهد المغني ٢: ٦٣١، وهو في الهمع ٢: ٨٤ غير منسوب فيهما وانظر شرح أبيات مغني اللبيب ٧: ٣١٦ وما بعدها.

(٢) الكشاف ٢: ٤٩٠.

لطيف.انتهى.

هما وجهان خلطهما الزمخشري؛ أما الأول فجعل الفعل مسنداً إلى المتكلم لفظاً، وجعل الخبر محذوفاً كما قدّرة ابن عطيه، و«حتى أبلغ» فضلة متعلّقة بالخبر المحذوف وغاية له. والوجه الثاني جعل «لا أبرح» مسنداً من حيث اللفظ إلى المتكلّم، ومن حيث المعنى إلى ذلك المقدّر المحذوف، وجعل خبر «لا أبرح» هو «حتى أبلغ» فهو عمدة، إذ أصله خبر المبتدأ لأنه خبر[1] أبرح.

قال الزمخشري[2]: ويجوز أن يكون المعنى: لا أبرح، ما أنا عليه، بمعنى: ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ، كما تقول: لا أبرح المكان انتهى.

و«مجمع البحرين» قال مجاهد وقتادة: هو مجتمع بحر فارس وبحر الروم.

قال ابن عطية: هو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان. فالركن الذي لاجتماع[3] البحرين ممّا يلي برّ الشّام هو مجتمع البحرين على هذا القول.

وقالت فرقة منهم محمد بن كعب القرظي: هو عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط والبحر الخارج منه من دَبور إلى صَبا[4]. والقرية التي أبت أن تضيّفهما هي الجزيرة الخضراء.

---

(١) ق: حين.
(٢) الكشاف ٢: ٤٩٠.
(٣) ق: لا اجتماع.
(٤) الصَّبا: الريح التي تهب من جهة المشرق، والدَّبور: الريح التي تقابلها.

وقال ابن عباس: الحُقُب: الدهر، وقيل ثمانون سنة وقيل سبعون وقيل سنة بلغة قريش.

والظاهر أن قوله ﴿أَوْ أَمْضِيَ﴾ معطوف على «أبلغ» فغيّا[1] بأحد الأمرين: إما ببلوغه المجمع وإمّا بمضيّه حقباً. وقيل: هي تغيية لقوله «لا أبرح» كقولك: لا أفارقك أو تقضيني حقّي. فالمعنى: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين إلى أن أمضي زماناً أتيقّن معه فوات مجمع البحرين.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ [ثَمَّ جملة محذوفة والتقدير: فسارا فلما بلغا - أي موسى وفتاه - مجمع بينهما] - أي: بين البحرين - نسيا حوتهما. وكان من أمر الحوت وقصّته أن موسى عليه السلام حين أوحى الله تعالى إليه أنّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا ربّ فكيف لي به؟ فقال: تأخذ معك حوتاً، فتجعله في مِكْتَل[2]، فحيثما فقدتَ[3] الحوت، فهو ثَمَّ. فأخذ حوتاً فجعله في مكتله، ثم انطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة، وضعا رؤوسهما فناما. واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه، وسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله تعالى عن الحوت جِرْيَةَ الماء فصار عليه مثل الطّاق[4]. والسَّرَب: المسلك في جوف الأرض.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أي: مجمع البحرين وهو الموعد. قيل: سارا بعد مجاوزة الصخرةِ الليلة والغد إلى الظّهر. وأُلقي على موسى النَّصَب والجوع حين

---

(١) من الغاية، وهي مدى الشيء.

(٢) المكتل: شبه الزَّنبيل.

(٣) ق: قعدت.

(٤) الطاق: عقد البناء.

جاوز الموعد، ولم يَنْصَبْ ولا جاع قبل ذلك، فتذكّر الحوت وطلبه. والنَّصَب: التعب.

وقوله ﴿مِن سَفَرِنَا هَٰذَا﴾ إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة.

وقال الزمخشري[1]: «أرأيت» بمعنى أخبِرْني. فإن قلت: ما وجه التئام هذا الكلام؟ فإن كل واحد من «أرأيت» و«إذ أوينا» و«فإني نسيت الحوت» لا متعلق له؟. قلت: لمّا طلب موسى الحوت ذكر يوشع ما[2] رأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية، فدهش فطفق يسأل موسى عن سبب ذلك كأنه قال: أرأيت ما دهاني إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت فحذف ذلك انتهى.

وكون «أرأيت» بمعنى أخبِرْني ذكره سيبويه [٣٤٨/ب] وقد أمعنّا الكلام في ذلك في سورة الأنعام[3]. ويجوز أن يكون «أرأيت» هنا بمعنى أَعَلِمْتَ، أي: أعلمت ما جرى، فلا يكون[4] بمعنى أخبِرْني. و«إذ» معمول «لأرأيت» هذه. وفي نسبة النسيان إلى نفسه دليل على حسن أدبه وتلطّفه في فقد الحوت.

و﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ يتقدّر بالمصدر تقديره: ذكري إياه، وهو بدل اشتمال من ضمير الغيبة في «أنسانيه»، وفصل بين المبدل منه والبدل بقوله ﴿إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وهو فاعل «أنسانيه».

والظاهر أن الضمير في ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ عائد على الحوت كما عاد في قوله ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ [الكهف] وهو من كلام يوشع.

---

(١) الكشاف ٢: ٤٩١.

(٢) ق: وما.

(٣) انظر تفسير الآية ٤٠ من الأنعام.

(٤) ق: يكونى.

وإنما كان عجباً لخروجه من المكتل وحياته بعد كونه مشويًّا أو مأكولاً بعضٌ منه، وإمساك جرية الماء عليه.

والإشارة بقوله «ذلك» أي: أمر الحوت وفقده واتخاذه سبيلاً في البحر لأنه أمارة الظفر بالطِّلبَةِ من لقاء ذلك العبد الصالح. و«ذلك» مبتدأ. و«ما» موصولة خبر عن المبتدأ. و«نبغ» صلة «ما» والعائد عليها محذوف تقديره: نبغيه.

﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي: رجعا على أدراجهما من حيث جاءا.

﴿قَصَصًا﴾ أي: يقصّان الأثر قصصاً، فانتصب على المصدرية بإضمار: يقصّان. أو يكون في موضع الحال أي: مقتصّين، فينتصب بقوله «فارتدّا».

﴿فَوَجَدَا﴾ أي: موسى والفتى.

﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ هذه إضافة تشريف واختصاص. وجداه عند الصخرة التي فقدا[1] الحوت عندها، وهو مسجّى[2] في ثوب، مستلقياً على الأرض. فقال: السلام عليك. فرفع رأسه وقال: أنّى بأرضك السّلام[3]، ثم قال له: من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال له: ألم يكن لك في بني إسرائيل ما يشغلك عن السفر إلى هنا؟ قال: بلى ولكن أحببت لقاءك، وأن أتعلم منك. قال له: إني على علم من علم الله تعالى عَلَّمَنيه لا تَعْلَمه أنت، وأنت على علم من علم الله تعالى علّمك الله تعالى لا أعلمه أنا. قيل: واسم الخضر بليا بن ملكان[4].

---

(١) ق: فقد.

(٢) ق: مشجى.

(٣) عبارة الطبري: ١٥ : ١٨٢ وأنى يكون هذا السلام بهذه الأرض؟.

(٤) ق: مليا بن ملولان. والتصحيح من البحر ٦ : ١٤٧.

وفي قول الخضر لموسى عليه السلام من أنت، وقد أعلمه الله تعالى بواطن الأشياء ومآلها، دليل على كذب هؤلاء المنتمين إلى التّصوف[١] المدّعين علم الغيب والكشف عن أحوال الناس، أعاذنا الله من ذلك. ولدن: تقدّم الكلام عليها في أوائل آل عمران[٢].

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فلمّا التقيا وتراجعا الكلام، وهو الذي ورد في الحديث الصحيح[٣]، قال له موسى هل أتّبعك، وفي هذا دليل على التواضع للعالم. وفي هذه القصة دليل على الحثّ على الرحلة في طلب العلم، وعلى حسن التلطّف والاستنزال والأدب في طلب العلم بقوله «هل أتبعك». وفيه المسافرة مع العالم لاقتباس فوائده، والمعنى: هل يخفّ عليك ويتّفق لك. وانتصب «رشداً» على أنه مفعول ثانٍ لقوله «تعلمن» أو على أنه مصدر في موضع الحال، وذو الحال الضمير في «أتّبعك». وقرىء: رُشْداً ورَشَداً.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ نفى الخضر استطاعته الصبر معه على سبيل التأكيد كأنها ممّا[٤] لا يصح ولا يستقيم.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ أي: أن صبرك على ما لا خبرة لك به مستبعَد. وفيه إبداء عذرٍ له حيث لا يمكنه الصبر [٣٤٩/أ] لما يرى من منافاة ما هو عليه. وانتصب «خبراً» على التمييز أي: بما لم يُحِطْ به خُبْرك، فهو منقول من الفاعل. أو أنه على مصدر على غير المصدر لأن المعنى ﴿عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ

---

(١) ق: الصوف.

(٢) انظر تفسير الآية ٣٨ من آل عمران.

(٣) انظر البخاري ٤ : ١٧٥٢.

(٤) ق: ما.

خُبْرًا﴾: أي: على ما لم تُخْبَرْه.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ وعده بوجدانه صابراً وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، علماً منه بشدة الأمر وصعوبته إذ لا يصبر على[1] ما ينافي ما هو عليه إذا رآه.

﴿وَلَآ أَعْصِى﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على «صابراً» أي: صابراً وغيرَ عاصٍ، فيكون في موضع نصب عطفاً على الاسم، إذ كان في معناه كقوله تعالى ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴿١٩﴾﴾ [الملك] أي: وقابضاتٍ. ويجوز أن يكون معطوفاً على «ستجدني» فلا محلّ له من الإعراب، ولا يكون مقيّداً بالمشيئة لفظاً.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ
شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ
نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى
عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا
فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا
فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ
لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ
غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾
فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ

(١) ق: إلاّ على.

يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ الآية، «فانطلقا» أي موسى والخضر، وكان[1] معهما يوشع، ولم يُضمَّ له لأنه في حكم التّبع، وقيل: كان موسى قد صرفه، وردّه إلى بني إسرائيل. والألف واللام في «السفينة» لتعريف الجنس، إذ لم يتقدم عهد في السفينة مخصوصة. وقد روي في كيفية ركوبهما السفينة وخرقها وسدّها أقوال، والمعتمد ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما قالا[2]: فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوه بغير نولٍ. فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدّوم. فقال له موسى عليه السلام: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها، لتغرق أهلها إلى قوله «عسرا». قال: وقال رسول الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نسياناً». قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

واللام في ﴿ لِتُغْرِقَ[3] أَهْلَهَا ﴾ قيل: لام العاقبة وقيل لام العلّة. [وقرىء]: ليَغْرَقَ، بفتح الياء والراء وسكون الغين، أهلُها: بالرفع. وقرىء بتاء الخطاب.

---

(١) ق: وثانٍ.

(٢) أخرجه البخاري ٤ : ١٧٥٧ من حديث أبي بن كعب، ومسلم ٤ : ١٨٤٧ من حديثه.

(٣) ق: ليُغرق.

ثم ذكّره الخضر بما سبق له من نفي استطاعته الصبر لما يرى فقال «لا تؤاخذني بما نسيت». والظاهر حمل النسيان على وضعه، وقد قال عليه السلام[١] «كانت الأولى من موسى نسياناً» والمعنى أنه نسي العهد الذي كان بينهما من عدم سؤاله، حتى يكون هو المخبر له أولاً.

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أي: شنيعاً من الأمور كالداهية والإدّ[٢] ونحوه.

﴿ فَٱنطَلَقَا﴾ في الكلام حذف، تقديره: فخرجا من السفينة، ولم يقع غرق بأهلها، فانطلقا. فبينما هما يمشيان على ساحل البحر، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الصبيان. وفي بعض الروايات: فمرّا بغلمان يلعبون، فعمد الخضر إلى غلام حسن الهيئة وضيء الوجه، فاقتلع رأسه. وقيل غير ذلك من كيفيات القتل.

وحكى القرطبي[٣] عن صاحب العرس والعرائس أن موسى عليه السلام لما قال للخضر: أقتلت نفساً زاكية، غضب الخضر، واقتلع كتف الصبي الأيسر، وبشر اللحم[٤] عنه، وإذا في عظم كتفه مكتوب: كافر لا يؤمن بالله أبداً.

ومعنى: زاكية، طاهرة من الذّنوب. ووصفها بهذا الوصف لأنه لم يرها أذنبت.

[٣٤٩/ب] ومعنى «نكراً» أنكر من الأول لأن الخرق يمكن سدّه، والقتل لا سبيل إلى تدارك الحياة معه.

---

(١) انظر حديثي الشيخين السابقين.

(٢) الإدّ: الداهية والأمر الفظيع.

(٣) تفسيره ١١: ٢١.

(٤) بشرتُ الأديم: إذا أخذت بشرته.

وفي قوله «لك» زجر وإغلاظ ليس في الأول، لأن مواقعة التساؤل ثابتة بعد التقدم إلى ترك السؤال. واستعذار موسى عليه السلام بالنسيان أفظع وأقطع[١] في المخالفة لِمَا كان أخذ على نفسه من الصبر وانتفاء العصيان.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه القصّة أو بعد هذه المسألة.

﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي: فأَوْقِعِ الفراق بيني وبينك.

ومعنى ﴿قَدْ بَلَغْتَ﴾ أي: أعذرتَ إليّ، وبلغتَ إليّ العذر. وفي البخاري[٢] قال: يرحم الله موسى لَوَدِدْنا أنه صبر حتى يقصّ علينا من أمرهما.

والقرية التي أتيا أهلها قيل: الجزيرة الخضراء وقيل غير ذلك. وفي الحديث[٣] انهما كانا يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم. وهذه عبرة مصرّحة بهوان الدنيا[٤] على الله تعالى. وتكرر لفظ أهل على سبيل التوكيد، وقد يظهر له فائدة غير التوكيد، وهو أنهما حين أتيا أهل القرية، لم يأتيا جميع أهل القرية، إنما أتيا بعضهم، فلما قال «استطعما» احتمل أنّهما لم يستطعما إلا ذلك البعض الذي أتياه، فجيء بلفظ «أهلها» ليغمّ جميعهم وأنهم تتبّعوهم[٥] واحداً واحداً بالاستطعام. ولو كان التركيب: استطعماهم، لكان عائداً على البعض المأتيّ. وإسناد الإرادة إلى الجدار من المجاز البليغ والاستعارة [البارعة]. وكثيراً ما يوجد في كلام العرب إسناد أشياء، تكون

(١) ق: أقطع وأقطع.
(٢) ٤: ١٧٥٤، ١٧٥٨، وهو بعض حديث أبيّ بن كعب السابق ذكره.
(٣) انظر صحيح مسلم ٤: ١٨٥٢.
(٤) الدنيا: مكررة في ق.
(٥) ق: وأيهم يتبعونهم.

من أفعال العقلاء، إلى ما لا يعقل من الحيوان[١] وإلى الجماد. والمعنى: لو كان الجماد أو الحيوان الذي لا يعقل مكان العاقل، لكان صادراً منه ذلك الفعل.

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ قال ابن عباس: دفعه بيده فاستقام. وهذا أليق بحال الأنبياء عليهم السلام.

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ﴾ ظاهره أنه اعتراض إذ كان في غاية الاحتياج إلى الطعام، فناسب اتّخاذ الأجر على ما فعله من إقامة الجدار، ولذلك قال ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ إذ قد تقدّم قوله ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾. وقوله «لو شئت» يتضمن معنى السؤال. وقرىء: لاتّخذتَ، وَلَتَخِذْتَ، والماضي تَخِذَ يَتْخَذُ كتبع يتبع والتاء أصلية.

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي: سأخبرك بتأويل ما رأيت بما آل إليه الأمر فيما كان ظاهره أن لا يكون.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ واللام في «لمساكين» ظاهره أنها[٢] للاختصاص، وأنهم كانوا مالكين لها.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فيه إسناد إرادة العيب إليه. وراء: من الأضداد بمعنى خلف وبمعنى أمام، وفسّر ها هنا «وراءهم» بمعنى أمامهم. «ملك» ذكر أنّ[٣] اسمه هدد بن بدد وكان كافراً. وقرأ أبيّ وعبد الله: كل سفينة صالحة، ويحمل ذلك على التفسير، لا على أنه قرآن. وانتصب «غصباً» على أنه مفعول من أجله. ولمّا ظهر له أن السفينة قد عيبت بإخراج بعض ألواحها

(١) ق: من أفعال الحيوان.
(٢) ق: أنه.
(٣) ق: وذلك أنّ.

وخوف أهلها من[1] الغرق، لم يتعرّض هذا الملك إلى أخذها.

وأمّا ﴿ٱلْغُلَـٰمُ﴾ فالألف واللام فيه للعهد، إذ قد تقدّم مجيئه نكرةً لقوله ﴿لَقِيَا غُلَـٰمًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف] فهو نظير ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴿١٦﴾﴾ [المزمل].

﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ يراد بأبويه أبوه وأمّه ثُنّي تغليباً من باب القمرين في القمر والشمس، وهي تثنية لا تنقاس.

﴿فَخَشِينَآ﴾ أي: خفنا أن يغشى الوالدين المؤمنَيْن طغياناً عليهما وكفراً لنعمتهما، بعقوقه وسوء صنيعه. وإنما خشي الخضر منه ذلك لأنّ الله عزّ وجلّ أعلمه بحاله، وأَطْلعه على سرّ أَمْره، وأَمَره بقتله، [٣٥٠/أ] كاخترامه لمفسدةٍ عرفها في حياته.

والزّكاة هنا الطهارة والنّقاء من الذنوب وما ينطوي عليه من شرف الخُلُق والسكينة والرُّحْم والرّحمة: العطف[2]، مصدران كالكثُرْ والكثرة. وأفعل هنا ليس للتفضيل، لأن ذلك الغلام[3] الكافر لا زكاة فيه ولا رحمة. والظاهر أن قوله «وأقرب رحماً» [أي]: رحمة والديه[4]. وقال ابن جريج: يرحمانه. وقال رؤبة بن العجاج[5]: [من الرجز]

يا منزل الرُّحْم على إدريسا ومنزل اللعن على إبليسا

(١) ق: على.

(٢) ق: والعطف.

(٣) ق: الكلام.

(٤) ق: يرحم والديه.

(٥) في ديوانه ص١٧٥ البيت الأول من هذا الرجز بقافية مكسورة.

وقيل: الرُّحْم من الرحمة والقرابة.

ووَصْف الغلامين باليُتْم يدلّ على أنهما كانا صغيرين. وفي الحديث[١] «لا يُتْمَ بعد البلوغ». واسمهما أصرم وصريم واسم أبيهما كاشح واسم أمّهما دهنا. والظاهر أنّ أباهما هو الأقرب إليهما الذي ولدهما دِنْيَةً[٢]. وفي الحديث[٣] «إن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في ذرّيته». وانتصب «رحماً» على المفعول له.

والظاهر في الكنز أنه مال مدفون جسيم ذهب وفضة. وفي قوله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ إسناد الإرادة إلى الله تعالى لما تضمّنت من إرادة الخير، بخلاف ما تقدم من قوله ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ۝٧٩﴾ [الكهف] ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ الضمير في «فعلته» عائد على ما تقدم من خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار.

﴿عَنْ أَمْرِي﴾ يدلّ على أن ذلك كان بأمر الله تعالى. وقد استُدلّ بهذا على أن الخضر عليه السلام كان نبيًّا.

وتَسْطِعْ مضارع اسطاع[٤] بهمزة الوصل. وقال ابن السكّيت: يقال: ما أستطيع وما أسطيع وما أستتيع وما أستيع أربع لغات. والمحذوف[٥] في

---

(١) أخرجه أبو داود ٣: ١١٥ من حديث علي بألفاظ أخر، وانظر صحيح الجامع الصغير ٦: ٢١٣.

(٢) ق: دينه. ويقال: هو ابن عمّي دِنْيَةً: أي ابن عمّي القريب. وبعده في المطبوع: وقيل السابع وقيل العاشر.

(٣) أورده القرطبي ١١: ٣٩ بلفظ: وقد روي. وانظر الدرّ المنثور ٤: ٢٣٥.

(٤) ق: وتسطيع مضارع استطاع.

(٥) اضطربت عبارة ق فجاءت بما هذا صورته: والمحذوف في تستيطع تاء الافتعال إذ الأصل هي الطاء فاء الكلمة، والألف المنقلبة عن الواو وهي عين الكلمة آخر =

تسطيع تاء الافتعال؛ إذ الطّاء هي أصل[١]، وهي فاء الكلمة، والألف المنقلبة عن الواو هي عين الكلمة، والعين لام الكلمة. والأصل الطّوع.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ ﴾ الآية، الضمير في «ويسألونك» عائد على قريش

= لام الكلمة.

(١) يراد بذلك أنه لا حاجة تدعو إلى أن المحذوف هي الطاء التي هي فاء الفعل ثم أبدلوا من تاء الافتعال طاءً. انظر البحر ٦ : ١٥٦.

حين دسّتها اليهود على سؤاله عن الروح، والرجل الطّواف، وفتية ذهبوا في الدهر، ليقع امتحانه بذلك[١]. وذو القرنين هو الإسكندر اليوناني ذكره ابن إسحاق. وعن علي رضي الله عنه: كان عبداً صالحاً ليس بملك ولا نبي ضرب على قرنه[٢] الأيمن في طاعة الله فمات فبعثه الله تعالى، فضرب على قرنه الأيسر فمات، فبعثه الله تعالى فسمّي ذا[٣] القرنين. وورد في الحديث[٤] أن الذين ملكوا الأرض أربعة: مؤمنان[٥] سليمان وذو القرنين، وكافران نمرود وبختنصّر، وكان بعد نمرود.

وقوله «ذكرا» يحتمل أن يريد به قرآناً وأن يريد به حديثاً وخبراً.

والتمكين الذي له في الأرض كونه ملك الدنيا ودانت له الملوك كلها.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الوصول إلى أغراضه.

﴿سَبَبًا﴾ أي: طريقاً موصلاً إليه، والسّبب: ما يُتوصّل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة، فأراد بلوغ المغرب، ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ يوصله إليه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ﴾ وكذلك أراد المشرق، فأتبع سبباً، وأراد بلوغ السّدين، فأتبع سبباً. وأصل السبب الحبل، ثم تُوسّع فيه حتى صار يطلق على ما يُتوصّل به إلى الغرض.

وقرىء: حامية، يعني حارّة وحمئة، يعني فيها ماء وطين. وفي حديث

(١) انظر الطبري ١٦: ٧.

(٢) قرن الرأس: جانبه.

(٣) ق: ذو.

(٤) لم أجده، ونسبه في زاد المسير ٥: ١٨٥ إلى مجاهد وأوله: ملك الأرض أربعة.

(٥) ق: مؤمنان وكافران.

أبي ذرّ[١] «أنّ رسول الله ﷺ نظر إلى الشمس عند غروبها فقال: أتدري أين تغرب يا أبا ذرّ؟ فقلت: لا. فقال: إنها تغرب في عين حامية». وهذا الحديث وظاهر النصّ دليل على أن قوله «في عين» متعلق «بتغرب».

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أي: [٣٥٠/ب] عند تلك العين. قال وهب: انطلق يؤمّ المغرب إلى أن انتهى إلى باسك[٢]، فوجد جمعاً لا يحصيهم إلا الله تعالى، فضرب حولهم ثلاثة عساكر حتى جمعهم في مكان واحد، ثم دخل عليهم في النّور[٣]، ودعاهم[٤] إلى عبادة الله تعالى، فمنهم من آمن ومنهم من صدّ عنه.

﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل على الكفر.

﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي: بالحمل على الهدى والإيمان.

ولمّا خيّره تعالى بين تعذيبهم ودعائهم إلى الإسلام، اختار[٥] الدعوة والاجتهاد في استمالتهم فقال: أمّا من دعوته فأبى إلا البقاء على الظلم وهو الكفر هنا بلا خلاف، فذلك هو المعذَّب في الدارين.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ وعمل[٦] ما يقتضيه الإيمان، فله جزاءً الحسنى. وأتى بحرف التنفيس في «فسوف نعذّبه» لما يتخلل بين إظهاره كفره وبين تعذيبه

(١) أخرجه مسلم ١ : ١٣٨ بألفاظ أخر.
(٢) في القرطبي ١١ : ٥١ : ناسك. ولم أجده في معاجم البلدان.
(٣) إذ سُخّر له النور والظلمة يكونان جنداً من جنوده، انظر القرطبي ١١ : ٥٠.
(٤) ق: ودعا.
(٥) ق: اختاروا.
(٦) ق: همل.

من دعائه إلى الإيمان وتأبّيه [عنه]. فهو لا يعاجلهم بالقتل على ظلمهم، بل يدعوهم ويذكرهم، فإن رجعوا، وإلاّ فالقتل.

وقوله ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أي: يوم القيامة. وأتى بنون العظمة في «نعذّبه» على عادة الملوك في قولهم: نحن فعلنا. وقوله «إلى ربّه» فيه إشعار بأنّ التخيير لذي القرنين ليس من الله تعالى، إذ لو كان كذلك [لكان التركيب]: ثم يردّ إليك فتعذّبه.

ولا يبعد أن يكون التخيير من الله تعالى ويكون قد أعلم ذو القرنين بذلك أتباعه، ثم فصّل مخاطباً لأتباعه لا لربّه تعالى. وما أحسن مجيء هذه الجمل! لمّا ذكر ما يستحقّه من ظلم بدأ بما هو أقرب لهم ومحسوس عندهم وهو قوله «فسوف نعذّبه» ثم أخبر بما يلحقه آخراً يوم القيامة، وهو تعذيب الله تعالى إياه العذاب النكر، ولأنّ الترتيب الواقع هو كذا.

ولمّا ذكر ما يستحقّه من آمن وعمل صالحاً ذكر جزاء الله تعالى في الآخرة وهو «الحسنى» أي: الجنّة، لأن طمع المؤمن في الآخرة ورجاءه هو الذي حمله على أن آمن لأجل جزائه في الآخرة، وهو عظيم بالنسبة إلى الإحسان في الدنيا، ثم أتبع ذلك بإحسانه له في الدنيا بقوله «وسنقول له من أمرنا يسرا» أي: لا نقول له ما يتكلّفه مما هو شاقّ عليه، أي: قولاً ذا يسرٍ وسهولة كما قال ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء]. ولمّا ذكر ما أعدّ الله له من الحسنى جزاءً، لم يناسب أن يذكر جزاءه بالفعل بل اقتصر على القول أدباً مع الله تعالى، وإن كان يعلم أنه يحسن إليه قولاً وفعلاً.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ أي: طريقاً إلى مقصده الذي يُسّر له.

والقوم هنا الزّنج. والسّتر هنا: البنيان، وقيل غير ذلك. والمعنى أنهم لا

شيء لهم يسترهم من حرّ الشمس. وقال مجاهد: السّودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض. وقال بعض الرُّجّاز[١]:

بالزّنج حرٌّ غيّر الأجسادا[٢] حتى كسا جلودها السّوادا

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّىٰٓ [إِذَا] بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ الآية، قال وهب: السّدّان: جبلان منيفان في السّماء ورائهما وأمامهما البلدان وهما بمنقطع أرض بلاد التّرك ممّا يلي بلاد أرمينيا وأذربيجان، وهما ليّنان أملسان يلزق عليهما كل شيء. وسمّي الجبلان سدّين لأنّ كل واحد منهما قد سدّ فجاج الأرض وكانت بينهما فجوة يدخل منها يأجوج ومأجوج[٣].

والضمير في «قالوا» عائد على هؤلاء القوم، شَكَوا ما يَلْقَوْن من يأجوج ومأجوج، إذ رَجَوْا عنده ما ينفعهم، لكونه بتلك [٣٥١/أ] الأرض، ودوّخ الملوك، وبلغ إليهم وهم لم يبلغ أرضهم ملك قبله.

و«يأجوج ومأجوج» قبيلتان من بني آدم، وقيل هما من ولد يافث بن نوح، وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج من الجبل والديلم. وقال السّدي والضحّاك: التّرك شرذمة منهم، خرجت تُغير، فجاء ذو القرنين، فضرب السدّ عليهم، فبقيت في هذا الجانب. وقال قتادة والسدّي: بُني السدّ على إحدى وعشرين قبيلة وبقيت منهم قبيلة واحدة دون السدّ، فهم التّرك. وقد اختُلف في عددهم وصفاتهم ولم يصحّ في ذلك شيء من هذا.

وهما ممنوعان من الصرف، فمن زعم أنهما أعجميان فللعلميّة والعجمة،

---

(١) لم أجده.

(٢) ق: السّوادا.

(٣) ق: وما جوع.

ومن زعم أنهما عربيّان، فللتّأنيث والعلمية، لأنهما اسما قبيلة. وقرىء: يأجوج ومأجوج بهمزة وبغير همزة.

﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لم يعيّن جهة الفساد وفيها أقوال ذكرت في البحر[١].

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [هذا] استدعاء منهم قبول ما يبذلونه مما يعينه على ما طلبوا، على جهة حسن الأدب [إذ] سألوه ذلك، كقول موسى عليه السلام للخضر ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف].

وقرىء: خراجاً وخرجاً. والخراج والخرج بمعنى واحد كالنوال والنّول[٢]، والمعنى: جُعْلاً نخرجه من أموالنا. وكلّ ما يُستخرج من ضريبة وجزية وغلّة فهو خراج وخَرْج.

وقرىء بفتح السين في «السدين» و«سدا» وبضمّها[٣].

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: ما بسط الله لي من القدرة والملك خير من خَرْجكم.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ بما أتقوّى به من فعله، وصنّاع يحسنون العمل والبناء، وبالآلات. وقرىء: مكّنّي ومكّنني، بالإدغام وبإظهار النونين. و«ما» مبتدأ موصول بمعنى الذي وما بعده صلته، والعائد الضمير الذي في «فيه»، و«خير» خبر. و﴿رَدْمًا﴾ حاجزاً حصيناً مُوْثَقاً.

(١) انظر ٦: ١٦٤.
(٢) ق: كالمنوال والنّوال.
(٣) ق: وبضمّهما.

وقرىء: ائتوني[١] وآتوني، من أتى وآتى والمعنى: أحضروا زبر الحديد. وثَمَّ محذوف تقديره: فأتوه بما طلب.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ قرىء بضم الصاد والدّال وبفتحهما، وبضمّ الصاد وإسكان الدّال. والصّدفان: جانبا الجبل إذا تحاذيا لتصادفهما: لتلاقيهما. وحُكي في الكيفية أن ذا القرنين قاس ما بين الصّدفين وحفر الأساس حتى بلغ[٢] الماء ثم جعل حشوه[٣] الصخر وطينه النحاس يذاب ثم يُصبّ عليه. والبنيان من زبر الحديد بينهما الحطب والفحم حتى سدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافخ[٤] حتى إذا صار كالنّار صبّ النّحاس المذاب على الحديد المحمّى، فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلاً صلداً. وقيل: طول ما بين السدّين مئة فرسخ وعرضه خمسون فرسخاً. وفي الحديث[٥] «أن رجلاً أخبر رسول الله ﷺ أنه رأى السدّ، فقال: كيف رأيته؟ قال: كالبُرْد المحبّر طريقة سوداء وطريقة حمراء. قال: قد رأيته».

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ في الكلام حذفٌ تقديره: فنفخوا حتى جعلوه ناراً. والفاعل «بجعل» هو الضمير المفهوم من قوله: «انفخوا» التقدير: هو، أي: النفخ ناراً.

﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ﴾ فيه القراءتان اللتان في «آتوني» المتقدمة، أي: جيئوني.

(١) ق: قال ائتوني.
(٢) ق: إذا بلغ.
(٣) ق: حسره.
(٤) ق: المنافع.
(٥) رواه ابن جرير ١٦ : ٢٠ من حديث قتادة. وقال ابن كثير ٤ : ٤٢٥ : هذا حديث مرسل.

﴿قِطۡرٗا﴾ منصوب «بأفرغ» على إعمال الثاني، إذ ينازعه «آتوني» و«أُفْرِغ». وحذف الضمير من الأول ولو كان أعمل الأول لكان التركيب: آتوني أفرغه عليه قطراً، فكنت تضمر في الثاني على الفصيح. والقطْر: النّحاس.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ تحذف التاء تخفيفاً لقربها [٣٥١/ب] من الطاء. وقرأ حمزة وطلحة بإدغامها في الطاء، وهو إدغام على غير حدّه، إذ لا يصحّ الإدغام إلا أن يكون قبل الإدغام متحرك أو حرف مدٍّ ولين.

﴿أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ أن يعلوا[1] عليه. وفي الكلام حذف تقديره: فلمّا. أكمل بناء السدّ، واستوى، واستحكم، قال: هذا رحمة من ربي.

ودكًّا: منونةً مصدر دكَكْتُه. والظاهر أن «جعله» بمعنى صيّره، فدكًّا: مفعول ثان.

قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون بمعنى خلق، وينصب دكًّا على الحال انتهى.

وهذا بعيد جدًّا، لأن السدّ إذ ذاك موجود مخلوق، ولا يخلق المخلوق، لكنه ينتقل من بعض هيئته إلى هيئة أخرى.

﴿۞وَتَرَكۡنَا﴾ هذا الضمير لله تعالى. والأظهر أن الضمير في «بعضهم» يعود على الخلق. [«يومئذ»]: أي يوم إذ[2] وعد الله وهو يوم القيامة، ويقويه قوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، ويظهر أن ذلك هو يوم القيامة، وكذلك[3] ما جاء

(١) ق: يعلق.

(٢) ق: إذا.

(٣) ق: ولذلك. أي: ويقوّيه كذلك.

بعده من الجمع وعرض جهنم. وتقدم الكلام على النّفخ في الصّور في سورة الأنعام[١]. و«جمعاً» مصدر مؤكد.

﴿وَعَرَضْنَا﴾ أي: أبرزنا جهنم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ[٢].

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ﴾ صفة ذمّ، استعار الغطاء لأعينهم، والمراد أنهم لا يبصرون آياتي التي يُنظر إليها فيُعتبر بها.

﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ مبالغة في انتفاء السّمع إذا نُفيت الاستطاعة وهم وإن كانوا يسمعون، جُعلوا كمن نُفيت قدرته على السمع لمّا لم ينتفعوا بسمعهم.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ الآية، هم مَن عَبَدَ[٣] الملائكة وعزيراً وعيسى، واتخذوهم أولياء من دون الله تعالى، وهم بعض العرب واليهود والنصارى. وهو استفهام فيه معنى الإنكار والتوبيخ. والمعنى أنهم ليس لهم من ولاية هؤلاء الذين تولَّوهم شيء، ولا يجدون عندهم منتفعاً. وحسب يتعدى لمفعولين سدّت[٤] أنْ مع معمولها مسدّهما.

وقرأ علي بن أبي طالب كرّم الله وجههُ وجماعة: أفحسْبُ، بإسكان السين وضمّ الباء مضافاً إلى «الذين» أي أَفَكَا فيهم[٥] ومحسبهم ومنتهى غرضهم، والمعنى أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله تعالى، فارتفع «حسبُ» على الابتداء والخبر «أن يتخذوا».

---

(١) لم يأت على شرحها في آية الأنعام ٧٣.

(٢) ق: إذا.

(٣) ق: من الملائكة وعزير.

(٤) ق: سدّ.

(٥) ق: أفأكا فيهم.

وقال الزمخشري[١]: أو على الفعل والفاعل، لأن اسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل في العمل كقولك: أقائم الزّيدان، وهي قراءة محكمة جيدة انتهى.

والذي يظهر أن هذا الإعراب لا يجوز، لأن حَسْباً ليس باسم فاعل فيعمل. ولا يلزم من تفسير شيء بشيء أن يجري عليه جميع أحكامه.

وقد ذكر سيبويه[٢] أشياء من الصفات التي تجري مجرى الأسماء، وأن الوجه فيها الرّفع، ثم قال: وذلك: مررت برجلٍ خيرٌ منه أبوه، ومررتُ برجلٍ سواءٌ عليه الخيرُ والشرُّ، ومررتُ برجلٍ أبٌ[٣] لك صاحبُه، ومررتُ برجلٍ حَسْبُك من رجلٍ هو، ومررت برجلٍ أيُّما رجلٍ هو انتهى.

ولا يبعد أن يرفع به الظاهر؛ فقد أجازوا في: مررت برجلٍ أبي عشرة أبوه، ارتفاع أبوه بأبي عشرة، لأنه في المعنى: والد عشرة.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ أي: أعددنا ويسّرنا. والنُّزُل: موضع النزول، والنّزل أيضاً: ما يقدّم للضيف ويُهيّأ له وللقادم من الطعام. والنّزل هنا يحتمل التفسيرين.

﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ
أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا
نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي
هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ

(١) الكشاف ٢: ٥٠٠.
(٢) الكتاب ٢: ٢٦.
(٣) أبله، محرّفة عن: أب له.

كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾.

﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ أي: قل يا محمد للكافرين «هل ننبئكم» الآية، فإذا طلبوا ذلك فقل لهم ﴿[أُوْلَٰٓئِكَ] ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف]. و«الأخسرين أعمالاً» كلّ من دان بدين غير دين الإسلام أو راءى بعمله أو أقام على بدعة. والأخسر: من أتعب نفسه، فأدى تعبه به إلى النار. وانتصب «أعمالاً» على التمييز [٣٥٢/أ] وجُمع لأنّ أعمالهم في الضّلال مختلفة، وليسوا مشتركين في عمل واحد.

و«الذين» يصحّ رفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هم الذين، وكأنه جواب عن سؤال، ويجوز نصبه على الذّم[(١)] وجرّه على الوصف أو على البدل.

﴿ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ أي: هلك وبطل وذهب.

و﴿يَحۡسَبُونَ﴾ و﴿يُحۡسِنُونَ﴾ من تجنيس التصحيف، وهو أن يكوّن النقط [والشكل] فرقاً بين الكلمتين، ومنه قول أبي عبادة البحتري[(٢)]: [من الطويل]

ولم يكن المغترُّ بالله إذ[(٣)] سرى ... ليُعجِزَ والمعتزُّ بالله طالبُهْ

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ﴾ مبتدأ وخبر. و﴿جَهَنَّمُ﴾ بدل. و«ذلك» إشارة إلى ترك إقامة الوزن.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى ما أعدّ للكافرين، ذكر

---

(١) ق: الزم.

(٢) ق: أبي حبارة. ديوان البحتري ١: ٢١٥.

(٣) ق: إن.

ما أعدّ للمؤمنين. وفي الصحيح[١] «جنّات الفردوس أربع: ثنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما، وثنتان من فضّة حليتهما وآنيتهما وما فيهما». وفي حديث عبادة[٢] «الفردوس أعلاها» يعني أعلى الجنّة. ويقال: كَرْم مفردس أي: معرّش، ولذلك سميت الروضة. التي دون اليمامة فردوساً لاجتماع نخلها وتعريشها على أرضها.

و﴿نُزُلًا﴾ يحتمل من التأويل ما يحتمل قوله ﴿نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الكهف] المتقدم.

ومعنى ﴿حِوَلًا﴾ تحوّلاً إلى غيرها. قال ابن عيسى: هو مصدر كالعِوَج والصِّغَر.

﴿قُل لَّوْ كَانَ[ٱلْبَحْرُ] مِدَادًا﴾ أي: ماء البحر مداداً، وهو ما يمدّ به الدّواة من الحبر، وما يمدّ به السّراج من السليط[٣]. ويقال: السماء مداد الأرض.

﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ أي: مُمدًّا لكتب كلمات ربي، وهو علمه وحكمته، وكتب بذلك المداد.

﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ أي: فني ماؤه الذي هو المداد قبل أن تنفد الكلمات، لأنّ كلماته تعالى لا يمكن نفادها لأنها لا تتناهى، والبحر ينفد لأنه متناهٍ[٤] ضرورة. وجواب «لو» الأولى «لنفد»، وجواب الثانية محذوف تقديره: لم تنفد الكلمات.

(١) أخرجه مسلم ١: ١٦٣ من حديث أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه.
(٢) انظر التاج ٥: ٤٠٤.
(٣) السليط: الزيت عند عامة العرب، وعند أهل اليمن دهن السّمسم.
(٤) ق: منتهاه.

وفي قوله ﴿وَلَوْ جِئْنَا﴾ التفات من ضمير الغائب إلى[1] ضمير المتكلّم. والضمير في ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ [عائد] على «البحر». و﴿مَدَدًا﴾ تمييز لجواز دخول مِن عليه، كما قال الشاعر[2]: [من الطويل]

[فإن خفت يوماً أن يلجّ بك الهوى] فـإن الهـوى يكفيكـه مثلُـه صبـرا

والمدد هو الممدود به، فَعَل بمعنى مفعول كالقَنَص بمعنى المقنوص.

وفي قوله ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إعلام بالبشرية والمماثلة في ذلك، لا أدّعي أني مَلَك.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: علمي إنما هو مستند إلى وحي ربي.

ونبّه على الوحدانيّة لأنهم كانوا كفّاراً بعبادة الأصنام، ثم حضّ على ما فيه النجاة.

و﴿يَرْجُواْ﴾ بمعنى يطمع. و﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ على تقدير محذوف أي: حُسْن لقاء ربّه. ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ نهى عن الإشراك بعبادة الله تعالى.

وقال ابن جبير: لا يرائي في عمله، فلا يبتغي إلا وجه ربّه خالصاً لا يخلط به غيره. قيل: نزلت[3] في جندب بن زهير، قال لرسول الله ﷺ: «إني أعمل العمل لله تعالى فإذا اطّلع عليه سرّني. فقال: إنّ الله لا يقبل ما شورك فيه».

وقرىء: يشرك بالياء والتاء خطاباً للسامع والتفاتاً من ضمير الغائب إلى

(١) ق: من.
(٢) أنشده ابن الأعرابي في اللسان «ظنب».
(٣) انظر أسباب النزول ص٢٠٢.

ضمير المخاطَب، وهو المأمور بالعمل الصالح. ثم عاد إلى الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله «ربّه» ولم يأت التركيب: بربّك، إيذاناً بأن الضميرين لمدلول واحد، وهو من قوله ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾.

فهرس المجلد الثالث